

البيان
في تفسير القرآن

تأليف
شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن
الطوسي

المجلد ٩

دار الكتب والوثائق
بمطبعة - طهران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التبيان في تفسير القرآن

كاتب:

محمد بن حسن طوسي

نشرت في الطباعة:

مؤسسة النشر الاسلامي

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٦	التبيان فى تفسير القرآن المجلد ٩
١٦	اشارة
١٧	المجلد التاسع
١٧	٣٩-سورة الزمر..... ص: ٣
١٧	اشارة
١٧	[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٣
١٨	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦ الى ٧]..... ص: ٦
٢٠	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٨ الى ١٠]..... ص: ١٠
٢٢	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ١١ الى ١٦]..... ص: ١٤
٢٢	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ١٧ الى ٢٠]..... ص: ١٦
٢٣	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ١٨
٢٥	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢٦ الى ٣١]..... ص: ٢٢
٢٧	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٢ الى ٣٥]..... ص: ٢٥
٢٨	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٦ الى ٤٠]..... ص: ٢٧
٢٩	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٤١ الى ٤٥]..... ص: ٣٠
٣٠	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٤٦ الى ٥٠]..... ص: ٣٤
٣١	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٥١ الى ٥٥]..... ص: ٣٦
٣٢	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٥٦ الى ٦٠]..... ص: ٣٨
٣٤	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦١ الى ٦٦]..... ص: ٤١
٣٥	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦٧ الى ٧٠]..... ص: ٤٤
٣٧	قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٧١ الى ٧٥]..... ص: ٤٧
٣٩	٤٠-سورة المؤمن..... ص: ٥٢

- ٣٩ اشارة
- ٣٩ [سورة غافر (٤٠): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٥٢
- ٤١ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٥٥
- ٤٢ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ١١ الى ١٧]..... ص: ٥٩
- ٤٥ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ١٨ الى ٢٠]..... ص: ٦٤
- ٤٦ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٦٦
- ٤٧ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٦٩
- ٤٩ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ٧٣
- ٥١ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٣٦ الى ٤٠]..... ص: ٧٧
- ٥٢ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٤١ الى ٤٦]..... ص: ٨٠
- ٥٤ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٤٧ الى ٥٠]..... ص: ٨٣
- ٥٤ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٥١ الى ٥٥]..... ص: ٨٥
- ٥٥ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٥٦ الى ٦٠]..... ص: ٨٧
- ٥٧ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٦١ الى ٦٥]..... ص: ٩٠
- ٥٧ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٦٦ الى ٧٠]..... ص: ٩٢
- ٥٨ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٧١ الى ٧٥]..... ص: ٩٤
- ٥٩ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٧٦ الى ٨٠]..... ص: ٩٦
- ٦١ قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٨١ الى ٨٥]..... ص: ٩٩
- ٦٢ ٤١-سورة فصلت..... ص: ١٠٣
- ٦٢ اشارة
- ٦٢ [سورة فصلت (٤١): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ١٠٣
- ٦٣ قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ١٠٦
- ٦٥ قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ١٠٩
- ٦٧ قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ١١٤

- قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ١١٧ ٦٩
- قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ١٢١ ٧١
- قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ١٢٤ ٧٢
- قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٣٦ الى ٤٠]..... ص: ١٢٦ ٧٣
- قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٤١ الى ٤٥]..... ص: ١٢٩ ٧٥
- قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٤٦ الى ٥٠]..... ص: ١٣٤ ٧٧
- قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٥١ الى ٥٤]..... ص: ١٣٧ ٧٨
- ٤٢-سورة الشورى..... ص: ١٤٠ ٧٩
- اشارة ٧٩
- [سورة الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ١٤٠ ٧٩
- قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ١٤٤ ٨١
- قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ١٤٧ ٨٢
- قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ١٥٣ ٨٥
- قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ١٥٦ ٨٦
- قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ١٦٠ ٨٨
- قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ١٦٤ ٩٠
- قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٣٦ الى ٤٠]..... ص: ١٦٧ ٩١
- قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٤١ الى ٤٥]..... ص: ١٧٠ ٩٣
- قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٤٦ الى ٥٠]..... ص: ١٧٢ ٩٤
- قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٥١ الى ٥٣]..... ص: ١٧٤ ٩٤
- ٤٣-سورة الزخرف..... ص: ١٧٩ ٩٦
- اشارة ٩٦
- [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ١٧٩ ٩٦
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ١٨٢ ٩٨

- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ١٨٤ ٩٩
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ١٨٧ ١٠٠
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ١٩٠ ١٠٢
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ١٩٢ ١٠٣
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ١٩٤ ١٠٣
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠]..... ص: ١٩٧ ١٠٥
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٤١ الى ٤٥]..... ص: ٢٠١ ١٠٧
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٥٠]..... ص: ٢٠٣ ١٠٨
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥١ الى ٥٠]..... ص: ٢٠٥ ١٠٩
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥١ الى ٥٥]..... ص: ٢١١ ١١٢
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥٦ الى ٧٠]..... ص: ٢١٣ ١١٣
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٧١ الى ٧٥]..... ص: ٢١٥ ١١٣
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٧٦ الى ٨٠]..... ص: ٢١٧ ١١٤
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٨١ الى ٨٥]..... ص: ٢١٨ ١١٥
- قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٨٦ الى ٨٩]..... ص: ٢٢١ ١١٦
- ٤٤-سورة الدخان..... ص: ٢٢٣ ١١٧
- اشارة..... ١١٧
- [سورة الدخان (٤٤): الآيات ١ الى ٦]..... ص: ٢٢٣ ١١٧
- قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٧ الى ١١]..... ص: ٢٢٥ ١١٨
- قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ١٢ الى ١٦]..... ص: ٢٢٧ ١١٩
- قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ١٧ الى ٢١]..... ص: ٢٢٨ ١٢٠
- قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٢٢ الى ٢٩]..... ص: ٢٣٠ ١٢٠
- قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٣٠ الى ٣٦]..... ص: ٢٣٣ ١٢٢
- قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٣٧ الى ٤٠]..... ص: ٢٣٦ ١٢٣

- قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٤١ الى ٥٠]..... ص: ٢٣٧ ١٢٤
- قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٥١ الى ٥٩]..... ص: ٢٤١ ١٢٦
- ٤٥-سورة الجاثية..... ص: ٢٤٤ ١٢٧
- اشارة ١٢٧
- [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٢٤٤ ١٢٧
- قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٢٤٨ ١٢٩
- قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٢٥١ ١٣٠
- قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٢٥٣ ١٣١
- قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٢٥٦ ١٣٣
- قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٢٦٠ ١٣٥
- قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٣١ الى ٣٧]..... ص: ٢٦٢ ١٣٥
- ٤٦-سورة الأحقاف..... ص: ٢٦٦ ١٣٧
- اشارة ١٣٧
- [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٢٦٦ ١٣٧
- قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٢٦٨ ١٣٨
- قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٢٧٢ ١٤٠
- قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٢٧٥ ١٤١
- قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٢٧٩ ١٤٣
- قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٢٨٢ ١٤٤
- قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ٢٨٤ ١٤٥
- ٤٧-سورة محمد صلى الله عليه و آله..... ص: ٢٨٨ ١٤٧
- اشارة ١٤٧
- [سورة محمد (٤٧): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٢٨٨ ١٤٧
- قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٢٩٢ ١٤٩

- قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٢٩٤ ١٥٠
- قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٢٩٧ ١٥١
- قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٣٠١ ١٥٣
- قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٣٠٤ ١٥٤
- قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ٣٠٦ ١٥٥
- قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ٣٦ الى ٣٨]..... ص: ٣٠٩ ١٥٦
- ٤٨-سورة الفتح..... ص: ٣١٢ ١٥٧
- اشارة ١٥٨
- [سورة الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٣١٢ ١٥٨
- قوله تعالى: [سورة الفتح (٤٨): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٣١٦ ١٦٠
- قوله تعالى: [سورة الفتح (٤٨): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٣١٩ ١٦١
- قوله تعالى: [سورة الفتح (٤٨): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٣٢٣ ١٦٣
- قوله تعالى: [سورة الفتح (٤٨): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٣٣٠ ١٦٦
- قوله تعالى: [سورة الفتح (٤٨): الآيات ٢٦ الى ٢٩]..... ص: ٣٣٢ ١٦٧
- ٤٩-سورة الحجرات..... ص: ٣٣٩ ١٧٠
- اشارة ١٧٠
- [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٣٣٩ ١٧٠
- قوله تعالى: [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٣٤٢ ١٧٢
- قوله تعالى: [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٣٤٧ ١٧٣
- قوله تعالى: [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١٦ الى ١٨]..... ص: ٣٥٤ ١٧٧
- ٥٠-سورة ق..... ص: ٣٥٦ ١٧٨
- اشارة ١٧٨
- [سورة ق (٥٠): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٣٥٦ ١٧٨
- قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٦ الى ١١]..... ص: ٣٥٨ ١٧٩

- قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ١٢ الى ١٥]..... ص: ٣٦١ ١٨١
- قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٣٦٢ ١٨١
- قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٣٦٥ ١٨٣
- قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٣٦٧ ١٨٤
- قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ٣٧٠ ١٨٥
- قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٣٦ الى ٤٠]..... ص: ٣٧٢ ١٨٦
- قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٤١ الى ٤٥]..... ص: ٣٧٥ ١٨٨
- ٥١-سورة الذاريات..... ص: ٣٧٨ ١٨٩
- اشارة ١٨٩
- [سورة الذاريات (٥١): الآيات ١ الى ١٤]..... ص: ٣٧٨ ١٨٩
- قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ١٥ الى ٢٣]..... ص: ٣٨٢ ١٩١
- قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٢٤ الى ٣٠]..... ص: ٣٨٦ ١٩٣
- قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٣١ الى ٣٧]..... ص: ٣٨٩ ١٩٤
- قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٣٨ الى ٤٥]..... ص: ٣٩١ ١٩٥
- قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٤٦ الى ٥٥]..... ص: ٣٩٣ ١٩٦
- قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٥٦ الى ٦٠]..... ص: ٣٩٧ ١٩٨
- ٥٢-سورة الطور..... ص: ٤٠١ ٢٠٠
- اشارة ٢٠٠
- [سورة الطور (٥٢): الآيات ١ الى ٨]..... ص: ٤٠١ ٢٠٠
- قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ٩ الى ١٦]..... ص: ٤٠٣ ٢٠١
- قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ١٧ الى ٢٠]..... ص: ٤٠٥ ٢٠٢
- قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٤٠٦ ٢٠٣
- قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٤١٠ ٢٠٤
- قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ٣١ الى ٤٠]..... ص: ٤١٢ ٢٠٥

- ٢٠٨ قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ٤١ الى ٤٩]..... ص: ٤١٦
- ٢٠٩ ٥٣-سورة النجم..... ص: ٤٢٠
- ٢٠٩ اشارة
- ٢٠٩ [سورة النجم (٥٣): الآيات ١ الى ١٠]..... ص: ٤٢٠
- ٢١٢ قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ١١ الى ٢٠]..... ص: ٤٢٤
- ٢١٣ قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٤٢٧
- ٢١٤ قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٤٢٩
- ٢١٥ قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ٤٣١
- ٢١٧ قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٣٦ الى ٤٦]..... ص: ٤٣٤
- ٢١٨ قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٤٧ الى ٥٥]..... ص: ٤٣٧
- ٢١٩ قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٥٦ الى ٦٢]..... ص: ٤٤٠
- ٢٢٠ ٥٤-سورة القمر..... ص: ٤٤٢
- ٢٢١ اشارة
- ٢٢١ [سورة القمر (٥٤): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٤٤٢
- ٢٢٢ قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٤٤٤
- ٢٢٣ قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ١١ الى ١٦]..... ص: ٤٤٧
- ٢٢٤ قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ١٧ الى ٢١]..... ص: ٤٤٩
- ٢٢٥ قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ٢٢ الى ٣٠]..... ص: ٤٥١
- ٢٢٦ قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ٣١ الى ٤٠]..... ص: ٤٥٤
- ٢٢٨ قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ٤١ الى ٤٦]..... ص: ٤٥٨
- ٢٢٩ قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ٤٧ الى ٥٥]..... ص: ٤٥٩
- ٢٣٠ ٥٥-سورة الرحمن..... ص: ٤٦٢
- ٢٣٠ اشارة
- ٢٣٠ [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ١ الى ١٣]..... ص: ٤٦٢

- قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ١٤ الى ٢١]..... ص: ٤٦٧ ٢٣٣
- قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٢٢ الى ٣٠]..... ص: ٤٧٠ ٢٣٤
- قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٣١ الى ٣٦]..... ص: ٤٧٢ ٢٣٥
- قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٣٧ الى ٤٥]..... ص: ٤٧٥ ٢٣٦
- قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٤٦ الى ٥٥]..... ص: ٤٧٨ ٢٣٨
- قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٥٦ الى ٦٥]..... ص: ٤٨٠ ٢٣٩
- قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٦٦ الى ٧٨]..... ص: ٤٨٣ ٢٤٠
- ٥٦-سورة الواقعة..... ص: ٤٨٧ ٢٤٢
- إشارة ٢٤٢
- [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١ الى ١٦]..... ص: ٤٨٧ ٢٤٢
- قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١٧ الى ٢٦]..... ص: ٤٩١ ٢٤٤
- قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٢٧ الى ٤٠]..... ص: ٤٩٤ ٢٤٦
- قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٤١ الى ٥٠]..... ص: ٤٩٨ ٢٤٨
- قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٥١ الى ٦١]..... ص: ٥٠١ ٢٤٩
- قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٦٢ الى ٧٠]..... ص: ٥٠٤ ٢٥١
- قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٧١ الى ٨٠]..... ص: ٥٠٦ ٢٥٢
- قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٨١ الى ٩١]..... ص: ٥١٠ ٢٥٤
- قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٩٢ الى ٩٦]..... ص: ٥١٥ ٢٥٦
- ٥٧-سورة الحديد..... ص: ٥١٧ ٢٥٧
- إشارة ٢٥٧
- [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٥١٧ ٢٥٧
- قوله تعالى: [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٥٢٠ ٢٥٩
- قوله تعالى: [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٥٢٣ ٢٦٠
- قوله تعالى: [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٥٢٧ ٢٦٢

- ٢٦٤ قوله تعالى: [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٥٣١
- ٢٦٥ قوله تعالى: [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٢٦ الى ٢٩]..... ص: ٥٣٥
- ٢٦٧ ٥٨-سورة المجادلة..... ص: ٥٣٩
- ٢٦٧ اشارة
- ٢٦٧ [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٥٣٩
- ٢٧٠ قوله تعالى: [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٥٤٥
- ٢٧٢ قوله تعالى: [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٥٥٠
- ٢٧٤ قوله تعالى: [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٥٥٣
- ٢٧٥ قوله تعالى: [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٢١ الى ٢٢]..... ص: ٥٥٥
- ٢٧٦ ٥٩-سورة الحشر..... ص: ٥٥٨
- ٢٧٦ اشارة
- ٢٧٦ [سورة الحشر (٥٩): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٥٥٨
- ٢٧٧ قوله تعالى: [سورة الحشر (٥٩): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٥٦١
- ٢٨٠ قوله تعالى: [سورة الحشر (٥٩): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٥٦٧
- ٢٨١ قوله تعالى: [سورة الحشر (٥٩): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٥٦٩
- ٢٨٢ قوله تعالى: [سورة الحشر (٥٩): الآيات ٢١ الى ٢٤]..... ص: ٥٧٢
- ٢٨٣ ٦٠-سورة الممتحنة..... ص: ٥٧٥
- ٢٨٣ اشارة
- ٢٨٣ [سورة الممتحنة (٦٠): آية ١]..... ص: ٥٧٥
- ٢٨٤ قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٢ الى ٣]..... ص: ٥٧٧
- ٢٨٥ قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٤ الى ٥]..... ص: ٥٧٨
- ٢٨٦ قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٦ الى ٧]..... ص: ٥٨١
- ٢٨٦ قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٨ الى ٩]..... ص: ٥٨٢
- ٢٨٧ قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): آية ١٠]..... ص: ٥٨٣

- ٢٨٨ قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ١١ الى ١٣]..... ص: ٥٨٦
- ٢٩٠ ٥٩٠- سورة الصف..... ص: ٥٩٠
- ٢٩٠ اشارة.....
- ٢٩٠ [سورة الصف (٦١): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٥٩٠
- ٢٩١ قوله تعالى: [سورة الصف (٦١): الآيات ٦ الى ٩]..... ص: ٥٩٢
- ٢٩٢ قوله تعالى: [سورة الصف (٦١): الآيات ١٠ الى ١٤]..... ص: ٥٩٥
- ٢٩٤ تعريف مركز القائمية باصفهان للتمريبات الكمبيوترية.....

التبيان في تفسير القرآن المجلد ٩

اشاره

شماره بازیابی: ۵-۷-۱۴۶-۱

سرشناسه: طوسی محمد بن حسن ۳۸۵-۴۶۰ق

عنوان و نام پدیدآور: التبيان في تفسير القرآن [نسخه خطی]/محمد بن الحسن الطوسي
وضعیت استنساخ:، صفر ۵۹۵ق.

آغاز، انجام، انجامه: آغاز: بسملة. الحمد لله الواحد...سوره و الصفات. مکيه في قول قتاده و مجاهد و... ليس فيها ناسخ و لا منسوخ...
انجام:.... و لو كان مأمورا...دون التلاوه لما وجب ان ياتي بلفظه قل في هذه المواضع كلها. تم الكتاب و الحمد لله رب العالمين.
انجامه: فرغ الحسين بن محمد بن عبد القاهر بن محمد بن عبدالله بن يحيى بن الوكيل المعروف بابن الطو...من كتابه هذا الجزء
الخامس لنفسه...عشر صفر من سنة خمس و تسعين و خمس مائه و صلى الله على سيدنا محمد النبي و اهل بيته الطاهرين و سلم
تسلما كثيرا. بلغ المقابله جهد الطاقه اتانا جعفر و ابى يزيد و ان محمد و على سعيد.

مشخصات ظاهري: گ ۴۰۰ - ۷۳۱، ۲۷ سطری

یادداشت مشخصات ظاهري: نوع و درجه خط: نسخ

نوع کاغذ: نخودی رنگ، آهار مهر

تزئینات متن: بعضی عناوین و علائم: قرمز

خصوصیات نسخه موجود: امتیاز: ابتدای کتابت این نسخه ربیع الآخر ۵۹۴ ق. و خاتمه ی کتابت صفر ۵۹۵ ق. است.

حواشی اوراق: اندکی تصحیح با نشان "صح" دارد.

یادداشت های مربوط به نسخه: یادداشت هایی درباره تعداد اوراق و برگ های کتابت شده نسخه در برگ نخست است. هم چنین
تذکری مبنی بر این که مذهب نویسنده معتزلی است: "فافهم ان هذا الكتاب مصنفه معتزلی فاحذر من توجيهه لمذهبه" در برگ
۴۰۰ دارد.

معرفی نسخه: اولین تفسیر مفصل شیعی است که متضمن علوم قرآن است و از قرائت، اعراب، اسباب نزول، معانی مختلفه، اعتقادات
دینی، وجوه ادبی و نقل روایات از ائمه طاهرين و بقیه مفسران شیعه و سنی بحث می کند، در آغاز مقدمه مفصلی دارد در اهمیت
قرآن و رد تحریف و تفسیر به رای، چگونگی نزول قرآن و نامهای قرآن، عدد کلمات و حروف و نقطه ها و جز آن. این نسخه جلد
۵ تفسیر از سوره صافات تا آخر قرآن است. این نسخه در لوح فشرده ای به شماره ۱۴۶، از نسخه های اهدایی "دایره المعارف
بزرگ اسلامی" است که از "کتابخانه های یمن" تهیه شده است.

یادداشت تملک و سجع مهر: شکل و سجع مهر: مهر بیضی و مهر به شکل چشم با سجع ناخوانا در برگ ۴۰۴ دارد. مهر بیضی دیگری
با سجع "جمال الدین الحسينی" (؟) در برگ ۴۰۰ دارد.

توضیحات نسخه: نسخه بررسی شده. اسکن از روی نسخه اصلی است. آثار جداشدگی اوراق از شیرازه، مرمت صحافی، لکه،
رطوبت، شکنندگی لبه ها، پارگی در اوراق مشهود است. شماره گذاری دستی ۱-۳۲۸ دارد.

یادداشت کلی: زبان: عربی

عنوانهای دیگر: تفسیر تبیان

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۵ق.

شناسه افزوده:حسين بن محمد، قرن ٦ق. كاتب

المجلد التاسع

٣٩-سورة الزمر..... ص: ٣

إشارة

و تسمى أيضاً (سورة الغرف) و هي مكية- في قول مجاهد و قتادة و الحسن- ليس فيها ناسخ و لا منسوخ عدد آياتها خمس و سبعون آية- في الكوفي- و ثلاث و سبعون- شامي- و سبعون حجازي و بصرى.

[سورة الزمر (٣٩):آيات ١ الى ٥]..... ص: ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤

خمس آيات كوفي و ست في ما عداها، عد الكوفي (يختلفون) رأس آية، و لم يعده الباقون.
قوله (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ) رفع بالابتداء، و خبره (من الله). و يجوز ان يكون رفعاً على انه خبر الابتداء. و الابتداء محذوف، و تقديره: هذا تنزيل، و المراد بالكتاب القرآن- في قول قتادة- و سمي كتاباً لأنه مما يكتب.

و (العزیز) هو القادر الذي لا- يقهر و لا- يمنع، و (الحكيم) هو العليم بما تدعو اليه الحكمة و ما تصرف عنه. و على هذا يكون من صفات ذاته تعالى. و قد يكون بمعنى أن أفعاله كلها حكمة ليس فيها وجه من وجوه القبيح. فيكون من صفات الأفعال، و على الأول يكون تعالى موصوفاً في ما لم يزل بأنه حكيم، و على الثاني لا يوصف إلا بعد الفعل. و قيل (العزیز) في انتقامه من أعدائه (الحكيم) في ما يفعله بهم من انواع العقاب. و الذي اقتضى ذكر (العزیز الحكيم) في إنزال الكتاب انه تعالى يحفظ هذا الكتاب حتى يصل اليك على وجهه من غير تغيير و لا تبديل لموضع جهته و لا لشيء منه، و في قوله (العزیز الحكيم) تحذير عن مخالفته.

ثم اخبر تعالى عن نفسه انه أنزل الكتاب الذي هو القرآن (اليك) يا محمد (بالحق) أى بالدين الصحيح.
ثم أمره فقال (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) و معناه توجه عبادتك اليه تعالى وحده مخلصاً من شرك الأوثان و الأصنام. و قوله (مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) نصب التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥

(مخلصاً) على الحال. و نصب (الدين) بأنه مفعول ل (مخلصاً). و قال الفراء:

يجوز أن يرفع (الدين)، و لم يجزه الزجاج، قال: لأنه يصير ما بعده تكريراً.

ثم قال تعالى (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) و الإخلاص لله أن يقصد العبد بطاعته و عمله وجه الله، لا يقصد الرياء و السمعة، و لا وجهاً من وجوه الدنيا، و الخالص- في اللغة- ما لا يشوبه شيء غيره، و منه خلاصة السمن لأنه تخلصه.

و قال الحسن: معناه الإسلام. و قال غيره: معناه ان له التوحيد في طاعة العباد التي يستحق بها الجزاء، فهذا لله وحده لا يجوز أن يكون

لغيره، لاستحالة أن يملك هذا الأمر سواه.

وقوله (وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ) معناه الحكاية عما يقول الكافرون الذين يعبدون الأصنام فإنهم يقولون:

ليس نعبد هذه الأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى أى قربي - فى قول ابن زيد- وقال السدى: الزلفى المنزلة. و (الأولياء) جمع ولى، و هو من يقوم بأمر غيره فى نصرته، و حذف (يقولون) لدلالة الكلام عليه، و هو أفصح، و أوجز.

ثم اخبر تعالى فقال (إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) من إخلاص العبادة لله و الاشرار به، ثم قال (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) معناه إن الله تعالى لا يهديه إلى طريق الجنة أو لا يحكم بهدايته إلى الحق، (من هو كاذب) على الله فى أنه أمره باتخاذ الأصنام، كافر بما أنعم الله عليه، جاحد لإخلاص العبادة، و لم يرد الهداية إلى الايمان، لأنه قال (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) «١».

ثم قال تعالى (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) على ما يقول هؤلاء: من أن

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٦

الملائكة بنات الله، أو على ما يقوله النصارى: من ان عيسى ابن الله، أو ما يقوله اليهود: من أن عزيزاً ابن الله، (لاصطفى) أى لاختر مما يخلق ما يشاء. ثم نزه نفسه عن ذلك فقال (سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) الذى لا نظير له، القهار لجميع خلقه. و من هذه صفته كيف يجوز أن يتخذ الأولاد؟؟.

ثم بين عن قدرته فقال (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) أى لغرض حكمى دون العبث و ما لا فائدة فيه. (يَكُونُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) أى يدخل كل واحد منهما على صاحبه، و منه كور العمامة. و قال قتادة: معناه يغشى. (وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ) بأن أجراهما على وتيرة واحدة و تقدير واحد، و كل ذلك يجرى (لأجل مسمى) يعنى إلى مدة قدرها الله لهما ان يجريا اليها. و قيل: إلى قيام الساعة.

ثم قال (أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) يعنى الله الذى لا يقهر و لا يغالب، الغفار لمعاصى عباده إذا تابوا و اقلعوا عن ذنوبهم. و فائدة الآية أن من قدر على خلق السموات و الأرض و تسخير الشمس و القمر، و إدخال الليل فى النهار ينبغى ان ينزه عن اتخاذ الولد، و اضافة شريك اليه لأن جميع ذلك لا يليق به، لأنه من صفات المحتاجين.

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦ الى ٧] ص: ٦

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تَصْدِرُفُونَ (٦) إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَ إِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧

آيتان بلا خلاف.

قرأ السوسى، و ابن فرج، و هبة عن الأخفش و الترمذى إلا ابن فرج، و مدين من طريق عبد الله بن سلام، و البرجمى و خلف - بضم الهاء و وصلها بواو فى اللفظ. الباقون - بضم الهاء من غير إشباع - و هذا خطاب من الله تعالى لجميع خلقه من البشر، يقول لهم على وجه تعداد نعمه عليهم و امتنانه لديهم (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) يعنى آدم لأن جميع البشر من نسل آدم.

و قوله (ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) قيل: أنه خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم. و قال قوم: خلقها من فضل طينته. و فى قوله (ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) و (ثُمَّ) تقتضى التراخى و المهملة، و خلق الوالدين قبل الولد، و ذلك يقتضى أن الله تعالى خلق الخلق من آدم ثم بعد ذلك خلق حواء، و ذلك بخلاف المعلوم، لأن خلق حواء كان قبل خلق ولد آدم، فيه ثلاثة اقوال: أحدها-

ان الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر. ثم خلق بعد ذلك حواء من ضلع من أضلاع آدم- على ما روى فى الاخبار - و هذا ضعيف لما بيناه فى غير موضع «١» فى ما مضى.
و الثانى- ان ذلك و إن كان مؤخراً فى اللفظ فهو مقدم فى المعنى، و يجرى

(١) انظر المجلد الخامس ص ٣٤-٣٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨

مجرى قول القائل: قد رأيت ما كان منك اليوم ثم ما كان منك أمس، و إن كان ما كان أمس قبل ما يكون اليوم.
و الثالث- انه معطوف على معنى واحدة كأنه قال من نفس واحدة بمعنى أوجدها.

و قيل: إنه لا- يمتنع أن يكون المراد بقوله (زوجها) غير حواء، بل يريد المزدوج من نسل آدم من الذكور و الإناث، فكأنه قال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) و هى آدم عليه السلام ثم جعل المزدوج من نسل هذه النفس، و هذا لا محالة متأخر عن خلق النفس الواحدة التى هى آدم. و قيل أيضاً: إن سبب دخول (ثم) أن الاعتداد بهذه النعمة، و الذكر لها على الامتنان، انما كان بعد ذكر خلقنا من نفس واحدة، فكأنه قال: هو الذى ذكر لكم و اعتد عليكم بأنه خلقكم من نفس واحدة، ثم عطف على هذا الاعتداد و الامتنان ذكر نعمة اخرى، و هى ان زوج هذه النفس المخلوقة مخلوقة منها، فزمان الخلق للزوج و إن كان متقدماً، فزمان ذكره و الاعتداد به متزوج، و زمان الذكر للنعم و الاعتداد بها غير الترتيب فى زمان الإيجاد و التكوين، كما يقول أحدنا لغيره: لى عليك من النعم كذا اليوم، ثم كذا أمس، و إن كان المعطوف متقدماً على المعطوف عليه إذا كان زمان الامتنان بذلك على خلاف ترتيب زمان إيصال النعم. و قيل:

إن المراد ب (ثم) الواو، فانه قد يستعمل الواو بمعنى (ثم) و (ثم) بمعنى الواو، لأن معنى الجمع الانضمام و إن أراد بعضه على بعض. قال الله تعالى (فَالْتَمِمْ مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ) «١» و معناه و الله شهيد.
و قوله (وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) قال الحسن: معناه و جعل لكم منها. و قال: أنزلها بعد ان خلقها فى الجنة و يعنى بها: الإبل، و البقر،

(١) سورة ١٠ يونس آية ٤٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٩

و الضان، و المعز من كل صنف اثنين. و هما زوجان. و هو قول قتادة و مجاهد و الضحاك.
و قوله (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ) قال قتادة و مجاهد و الضحاك و السدى: معناه نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظاماً ثم يكسى العظام لحماً ثم ينشئ خلقاً آخر. و قال ابن زيد: معناه الخلق فى بطون الأمهات بعد الخلق فى ظهر آدم.
و قوله (فى ظلمات ثلاث) قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاك و السدى و ابن زيد: يعنى ظلمة البطن، و ظلمة الرحم، و ظلمة المشيمة. و قيل: صلب الرجل و ظلمة الرحم.
ثم خاطب خلقه فقال (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ) يعنى الذى خلق ما ذكره هو الذى أنشاكم و هداكم و يملك التصرف فيكم (له الملك) على

جميع المخلوقات (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) مستحق للعبادة (فأني تصرفون) المعنى تؤفكون أى كيف تنقلبون عن ذلك إلى اتخاذ الآلهة سواه. ثم قال تعالى مخاطباً لهم (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ) ومعناه إن تجحدوا نعم الله فلا تشكروه، فإن الله غنى عن شكركم (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) وفى ذلك دلالة على ان الكفر ليس من فعل الله، ولا بإرادته، لأنه لو كان مريداً له لكان راضياً به، لأن الرضا هو الإرادة إذا وقعت على وجهه. ثم قال (وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) أى ان تشكروا نعمه و تعترفوا بها يرضه لكم و يريده منكم و يشيكم عليه. و إشباع الهاء أجود، لان الهاء أولها متحرك مثل التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠

(شَرًّا يَرَهُ... خَيْرًا يَرَهُ) «١»، و الهاء إذا انفتح ما قبلها فى نحو الفعل لم يجز الا الاشباع كقولهم كهلهو و الهاء (فى يرضه) كناية عن المصدر الذى دل عليه (و ان تشكروا) كقولهم: من كذب كان شراً له أى كان الكذب شراً له. و شكر الله لعبده هو اثابته على الشكر و الطاعات، و الشكر من العبد الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم. و من أسكن الهاء قال ابو الحسن: هى لغة كقول الشاعر:

و نضوى مشتاقان له أرقان

فعلى هذه اللغة يحمل دون أن يجرى الوصل مجرى الوقف.

و قوله (وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) معنى لا يؤاخذ بالذنب الا من يفعله و يرتكبه، و لا يؤاخذ به غيره، و ذلك نهاية العدل. و فى ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة فى ان الله تعالى يعذب أطفال الكفار بكفر آبائهم.

و قوله (ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ) و معناه إن مصيركم يوم القيامة إلى حيث لا- يملك الامر و النهى سواه (فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى يخبركم بما عملتموه و يوافقكم عليه و يجازيكم بحسب ذلك، انه عليم بذات الصدور لا يخفى عليه شىء لا سر و لا علانية.

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٨ الى ١٠]..... ص: ١٠

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)

(١) سورة ٩٩ الزلزال آية ٧-٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١

ثلاث آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و نافع و حمزة (أمن هو قانت) بتخفيف الميم. الباقون بتشديدها، من خفف أراد النداء و تقديره يا من هو قانت. قال ابن خالويه:

سمعت ابن الأنبارى يقول: ينادى العرب بسبعة ألفاظ: زيد اقبل، و أزيد اقبل و يا زيد اقبل، و ها زيد اقبل، و أيا زيد اقبل، و أى زيد اقبل، و هيا زيد اقبل. و انشد:

هيا ظبية الوعشاء بين جلايد و بين النقاء أنت أم أم سالم

و يجرى ذلك مجرى قول القائل: فلان لا يصوم و لا يصلى، فيا من يصوم و يصلى ابشر. و قال ابو على: النداء -هنا- لا وجه له. و المعنى أمن هو قانت كمن هو بخلاف ذلك؟! لأنه موضع معادله، و إنما يقع فى مثل هذا الموضع الجمل التى تكون اخبار و ليس كذلك النداء. و يدل على الحذف قوله (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) لان التسوية لا تكون إلا بين شيئين و فى جملتين من الخبر. و المعنى أمن هو قانت كمن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله، و قال ابو الحسن: القراءة بالتخفيف ضعيفة، لأن

الاستفهام إنما يبنى على ما بعده، ولا التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢

يحمل على ما قبله، وهذا الكلام ليس قبله ما يبنى عليه إلا في المعنى و من شدد احتمال أمرين: أحدهما-ان يريد أ هذا خير أم من هو قانت.

و الثاني-ان يكون جعل (أم) بمنزلة (بل) و الف الاستفهام، و على هذا يكون الخبر محذوفاً لدلالة الكلام عليه، كما قال الشاعر: فأقسم لو شيء أأتانا رسوله سواك و لكن لم نجد لك مدفعاً «١»

و المعنى لو أأتانا غيرك ما صدقناه، و لا اهتدينا فحذف. و قال تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) و «أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ» كل ذلك محذوف الجواب. و القانت الداعي، و القانت الساكت، و القانت المصلي قائماً و انشد:

قانتاً لله يتلو كتبه و على عمد من الناس اعتزل

و قيل القانت الدائم على الطاعة لله- في قول ابن عباس و السدى-.

يقول الله عز و جل مخبراً عن حال الإنسان و ضعف يقينه و شدة تحوله من حال إلى حال إنه إذا مسه ضر من شدة فقر و مرض و قحط (دعا) عند ذلك (رَبُّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ) أى راجعاً اليه راجعاً فيه (ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ) فانه إذا أعطاه نعمه عظيمه، فالتحويل العطيء العظيمة على جهه الهبة، و هى المنحه قال ابو النجم:

اعطى فلم ينجل و لم يبخل كوم الذرى من خول المخول «٢»

(نَسِيَتْ مَا كَانَ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ) يعنى ترك دعاء الله، كما كان يدعو فى حال ضره، قال الفراء: و يجوز أن تكون (ما) بمعنى (من) كما قال (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) «٣».

(١) مر تخريجه فى ٥/ ٥٢٩ و ٦/ ٢٥٣ و ٧/ ٣٤١

(٢) مر فى ٤/ ١٢٤

(٣) سورة ٤ النساء آية ٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣

«وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً» أى و سمي له تعالى أمثالا فى توجيه عبادته اليها من الأصنام و الأوثان «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ» فمن ضم الياء أراد ليضل بذلك غيره عن سبيل الحق. و من فتح الياء أراد ليضل هو عن ذلك، و اللام لام العاقبة، لأنهم لم يفعلوا ما فعلوه و غرضهم أن يضلوا عن سبيل الله، لكن عاقبتهم كان اليه.

فقال الله تعالى لنيه (قل) له يا محمد على سبيل التهديد (تَمَنَّعَ يَكْفُرُكَ قَلِيلًا) يعنى مدء حياتك (إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) فى العاقبة، و هم الذين يلزمون عذاب جهنم. ثم قال (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً) فأناء الليل ساعات الليل واحداً آن، و إني بالياء (سَاجِداً وَقَائِماً) أى فى هاتين الحالتين (يَخِذِرُ الْآخِرَةَ) أى يخاف عذاب الآخرة (وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ) كمن خالف ذلك، فإنهما لا يتساويان ابداً، ثم قال (قل) لهم على وجه الإنكار عليهم (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ) الحق و يعملون به (وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) و لا يعملون به، فإنهما لا يتساويان أبداً (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ) فى ذلك (أُولُوا الْأَلْبَابِ) أى ذوو العقول و

روى جابر عن أبى جعفر عليه السلام فى تفسير هذه الآية انه قال: نحن الذين يعلمون وعدونا الذين لا يعلمون.

ثم قال لنيه صلى الله عليه و آله (قل) لهم يا محمد (يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا) بالله و صدقوا بوحدانيته و أقروا برسله (اتَّقُوا رَبَّكُمْ) أى عقاب ربكم باجتناوب معاصيه. ثم قال (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا) يعنى فعلوا الأفعال الحسنه و أحسنوا إلى غيرهم جزاء لهم على ذلك (فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) يعنى ثناء حسن و ذكر جميل و مدح و شكر، و قيل: صحه و سلامه و عافيه، ذكره السدى (وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ) فتهاجروا فيها عن دار الشرك- فى قول مجاهد- و قيل: أرض الله يعنى أرض الجنة واسعه (إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ) و ثوابهم على طاعتهم

و صبرهم على شدائد الدنيا التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٤

(بَغْيَرِ حِسَابٍ) أى لكثرة لا- يمكن عده و حسابه. و قيل: إن معناه إنهم يعطون من المنافع زيادة على ما يستحقونه على وجه التفضل، فكان ذلك بغير حساب أى بغير مجازاة بل تفضل من الله تعالى.

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ١١ الى ١٦]..... ص: ١٤

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥)

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)

ست آيات بلا خلاف.

ست آيات فى الكوفى و خمس بصرى و اربع فى ما عداه عد الكوفيون و البصريون (له الدين) و عد الكوفيون (له دينى) و لم يعد الباقون شيئاً من ذلك.

هذا امر من الله تعالى لنبىه صلى الله عليه و آله أن يقول لهؤلاء الكفار الذين تقدم ذكرهم (إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) أى أخلص طاعته له و أوجه عبادتي نحوه، دون الأصنام و الأوثان. و الآية و إن توجهت إلى النبى صلى الله عليه و آله فالمراد بها جميع المكلفين (و أمرت) أيضاً (لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) أى المستسلمين التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥

لما أمر الله به و نهى عنه، و إنما أمر بأن يكون أول المسلمين و إن كان قبله مسلمون كثيرون لأن المراد به أول المسلمين من هذه الأمة، ففى ذلك أنه دعاهم إلى ما رضىه الله له و رضىه لنفسه. و أن يقول لهم أيضاً (إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) يعنى عذاب يوم القيامة. ثم قال (قل) لهم (اللَّهُ أَعْبُدْهُ) أى اعبد الله (مخلصاً) بعبادتي (له) تعالى (دينى) و طاعته (فاعبدوا) أنتم معاشر الكفار (ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ) من الأصنام و الأوثان على وجه التهديد بذلك ثم قال (قل) لهم (إن الخاسرين) فى الحقيقة هم «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» بأن فعلوا المعاصى، فخسروا بذلك أهاليهم الذين كانوا معدين لهم من الحور العين لو أطاعوه- فى قول الحسن - و خسروا أنفسهم أى أهلكوها بالعذاب المهيّن الظاهر، لمن أدركه، و لا يخفى على احد الحال فيه.

ثم قال تعالى «أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ» يعنى الظاهر الذى لا يخفى، ثم بين ذلك الخسران بأن قال «لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ» فالظلة السترة القائمة، و جمعها ظلل، و لذلك قيل من فوقهم ظلل و من تحتهم ظلل إذ النار أدراك فهم بين أطباقها- نعوذ بالله منها- فما هو تحت هؤلاء ظلل لمن دونهم و يجوز أن يكون المراد من تحتهم مثل تلك الظلل لأن الظلة لا تسمى كذلك إلا- إذا كانت عالية فوق من هى ظلة له ثم قال «ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ» أى ما أخبركم به من الوعيد و ما أعدده للكفار يحذر الله به عباده من ارتكاب معاصيه، ثم ناداهم فقال «يا عباد فاتقون» أى اتقوا معاصى و افعلا طاعاتى و التخويف الاعلام بموضع المخافة لتتقى و مثله التحذير و التهيب.

و قرأ رويس «يا عبادى» بإثبات الياء- فى الحالين - الباقون بحذفها، لان الكسرة تدل على الياء.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ١٧ الى ٢٠]..... ص: ١٦

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ

عُرِفَ مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)

اربع آيات بلا خلاف، في جملتها، وقد اختلفوا في تفصيلها فعد العراقيون و الشامى و إسماعيل «فبشر عبادى» و لم يعدها المكى، و لا المدنى الأول، و عد المكى و المدنى الأول «من تحتها الأنهار».

لما اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار و ما أعدده لهم من انواع العقاب، اخبر- هاهنا- عن حال المؤمنين و ما أعدده لهم من الثواب فقال «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا» يعنى الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت و التقرب اليها بأنواع القرب. و الطاغوت جماعة الشياطين فى قول مجاهد و السدى و ابن زيد. و إنما أنث تأنيث الجماعة، و لفظه لفظ المذكر. و قيل إن كل ما عبد من دون الله، فهو طاغوت «وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ» أى تابوا اليه، و اقلعوا عما كانوا عليه «لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ» جزاء على ذلك و البشرى و البشارة واحد و هو الاعلام بما يظهر السرور به فى بشره الوجه، و ضده السوءى و هو الاعلام بما يظهر الغم به فى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧

الوجه بما يسوء صاحبه.

ثم امر نبيه صلى الله عليه و آله فقال «فبشر عبادى» فمن اثبت الياء و فتحها، فلأنه الأصل و من حذف الياء اجتزأ بالكسرة الدالة عليها، ثم وصف عباده الذين أضافهم إلى نفسه على وجه الاختصاص فقال «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ» يعنى يصغون إلى تلاوة القرآن و الأقوال الدالة على توحيده «فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» إنما قال «أحسنه» و لم يقل حسنه لأنه أراد ما يستحق به المدح و الثواب، و ليس كل حسن يستحق به ذلك، لان المباح حسن و لا يستحق به مدح و لا ثواب. و الأحسن الأولى بالفعل فى العقل و الشرع.

ثم اخبر تعالى فقال «أُولَئِكَ» يعنى هؤلاء الذين وصفهم من المؤمنين هم «الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ» يعنى الى الجنة و ثوابها، و حكم بأنهم مهتدون إلى الحق «وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ» يعنى أولوا العقول على الحقيقة، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم من حيث اتبعوا ما يجب اتباعه، و الكفار و إن كان لهم عقول فكأنهم لا عقول لهم من حيث أنهم لم ينتفعوا بما دعوا اليه.

ثم قال تعالى على وجه التنبيه «أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ» أى وجب عليه الوعيد بالعقاب جزاء على كفره كمن وجب له الوعد بالثواب جزاء على إيمانه و حذف لدلالة الكلام عليه تنبيهاً على أنهما لا يستويان.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه و آله «أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ» و تقديره أفأنت تنقذه، لا يمكنك ذلك، لان العقاب وجب له بكفره. و اخبر تعالى انه لا- يغفر له و إنما اتى بالاستفهام مرتين تأكيداً، للتنبيه على المعنى، قال الزجاج: معناه معنى الشرط و الجزاء، و الف الاستفهام- هاهنا- معناها التوقيف، و الثانية فى قوله «أَفَأَنْتَ التَّيْبَانِ» فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨

تُنْقِذُ

جاءت مؤكدة لما طال الكلام، لأنه لا يصلح أن يأتى بالف الاستفهام تارة فى الاسم و الأخرى فى الخبر، و المعنى أفمن حق عليه كلمة العذاب أنت تنقذه او فى سياق الكلام حذف. و فيه دليل على المحذوف. و المعنى أفمن حق عليه كلمة العذاب، فيتخلص منه او ينجو منه أفأنت تنقذه أى لا- تقدر عليه ان تنقذه، و قال الفراء: هما استفهام واحد و تقديره: أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب من النار. و مثله «أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ..... أَنْتُمْ مُحْرَجُونَ» (١) و تقديره أيعدكم إنكم تخرجون إذا متم. ثم فسر و بين ما أعدده المؤمن كما فسر ما أعدده للكافرين فقال «لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ» يعنى اتقوا معاصيه «لَهُمْ عُرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ» فى مقابلة ما قال للكافرين لهم من فوقهم ظلل من النار، و من تحتهم ظلل لأنها تنقلب عليهم. و قيل: المعنى لهم منازل رفيعة فى الجنة و فوقها منازل ارفع منها، فللمؤمنين الغرف «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» و تقديره تجرى من تحت أشجارها الأنهار، ثم بين تعالى أن الذى ذكره من ثواب المؤمن «وعد» من «الله» وعد به المؤمن «لا- يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ» أى لا- يخلف الله وعده و لا- يكون بخلاف ما اخبر به، و نصب «وعد الله» على المصدر.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَنَرَاهُ مُضِيغاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥)

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٣٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٩

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين على وجه التنبيه لهم على الأدلة الدالة على توحيده و اختصاصه بصفات لا يشركه فيها غيره «أَلَمْ تَرَ» يا محمد ومعناه أ لم تعلم «أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» يعنى مطراً «فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ» يعنى أدخله فى عيون الأرض و منابعها. وقيل: السلوك دخول فى الشيء، ولهذا حسن فى صفة الماء الجارى، فليل فسلكه ينابيع فى الأرض، ويقولون: دخل فى الإسلام، ولا يقال سلك فى الإسلام، والينابيع جمع ينبوع، وهو خروج الماء من العيون. وقيل: ينبوع المكان الذى ينبع منه الماء تقول: نبع الماء من موضع كذا إذا فار منه، و عيون الماء مستودع الماء، و نبع الماء إذا انفجرت به العيون.

وقوله «ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ» يعنى بذلك الماء «زرعاً» وهو كل ما ثبت على التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠ غير ساق، و الشجر ما له ساق و أغصان. و النبات يعم الجميع، يقال: تنبت النخلة و الشجرة و الحبة تنبت نباتاً. وقوله «مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ» يعنى صنفه وقيل:

مختلف الألوان من اخضر و اصفر و احمر و أبيض من البر و الشعير و السمسم و الارز و الذرة و الدخن و غير ذلك.

وقوله «ثُمَّ يَهِيَجُ فَنَرَاهُ مُضِيغاً» معناه يجف و يضطرب، فالهيج شدة الاضطراب بالانقلاب عن حال الاستقامة و الصلاح، هاج يهيج هيجاً و هياجاً و هاج البعير هيجاً، وقيل: معنى «يهيج» أى يحمى و يجف، فكأنه عما يلحق الجميع يخرج إلى تلك الحال فيتغير عن لون الخضرة إلى لون الصفرة. وقوله «ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً» فالحطام فئات البن و الحشيش. ثم قال «إِنَّ فِي ذَلِكَ» يعنى فى ما ذكره من انزال الماء من السماء و إنبات الزرع به و نقله من حال إلى حال «لذكري» أى ما يتذكر به و يفكر فيه لاولى الألباب يعنى ذوى العقول السليمة.

ثم قال تعالى على وجه التنبيه للحق «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» أى من لطف الله له حتى آمن و عرف الله و وحده و صدق نبيه «فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» يعنى فهو على هداية من الله و دين صحيح، كمن كان بخلاف ذلك، و حذف لدلالة الكلام عليه. ثم قال «فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» يعنى الويل و العقاب للذين قست قلوبهم (مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ) حتى لم يعرفوه و لا- وحدوه يقال قسى الشيء إذا صلب، كما قال «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» «١» و يقال: غسا و عشا و قسا بمعنى واحد، و يقال ما أقسى قلبه إذا كان لا يلين لشيء. و المعنى كلما تلى عليه ذكر الله قسى قلبه. وقوله «مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ» معناه غلظ قلبه عن ذكر الله.

و القاسية قلوبهم هم الذين الفوا الكفر و تعصبوا له فلذلك قست قلوبهم. ثم قال

(١) سورة ٢ البقرة آية ٧٤ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢١

تعالى «أُولَئِكَ» يعنى القاسية قلوبهم عن ذكر الله «فِي ضَلَالٍ» أى عدول عن الحق «مُبِينٍ» أى واضح ظاهر.

ثم قال «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ» يعنى القرآن «كِتَابًا مُتَشَابِهًا» نصب (كتاباً) على البدل من قوله (احسن) و معناه «متشابهاً» فى الحكم التى فيه من الحجج و المواعظ و الأحكام التى يعمل عليها فى الدين و صلاح التدبير يشبه بعضه بعضاً لا تناقض فيه «مثنى» أى يثنى فيه الحكم و الوعد و الوعيد بتصريفها فى ضروب البيان، و يثنى أيضاً فى التلاوة فلا يمل لحسن مسموعه فى القرآن «تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» أى تقشعر جلود المؤمنين الذين يخافون عذاب الله لما يسمعون فيه من الوعيد «ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» و ما ضمنه الله على ذلك من الثواب. ثم قال «ذَلِكَ» يعنى ما وصف به المؤمن من اقشعرار قلوب المؤمنين تارة و لينها أخرى «هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ» أى لطف الله الذى يلطف به لمن يشاء من عباده الذين يعلم انه لطف لهم. و قال الجبائى: انه خص به أمة محمد صلى الله عليه و آله. ثم قال «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» و معناه من أضله الله عن طريق الجنة لا يقدر احد على هدايته اليها. و يحتمل ان يكون المراد من حكم الله بأنه ضال لا يقدر احد ان يحكم بأنه هاد. ثم قال منبهاً لخلقه «أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» و تقديره كمن يدخل الجنة؟! و جاء فى التفسير أن الكافر يلقى فى النار مغلولاً، لا يمكنه ان يتقى النار إلا بوجهه.

و معنى يتقى يتوفاها كما قال الشاعر:

إذ يتقون بى الأسنة لم اخم عنها و لكنى تضايق مقدمى

أى يقدموننى الى القتال فيتقون بى حرها. و حذف كمن كان بخلاف ذلك لدلالة الكلام عليه، فان هذا لا يكون ابداً. ثم حكى الله

تعالى ما يقال التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢

للكافرين الظالمين نفوسهم بالكفر بالله يوم القيامة إذا دخلوا النار (ذُوقُوا مَا كُنتُمْ) أى جزاء ما كنتم (تَكْسِبُونَ) من المعاصى. ثم اخبر تعالى عن الأمم الماضية من أمثالهم من الكفار بأن قال (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) بآيات الله و جحدوا توحيده و كذبوا رسله (فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ) جزاء لهم على فعلهم و عقوبة عاجلة (مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) أى حيث لا يعلمون به و لا يحتسبون.

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢٦ الى ٣١]..... ص: ٢٢

فَإِذَا قُضِيَ لِلَّهِ الْأَمْرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَْعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)

ست آيات بلا خلاف.

قال المبرد العرب تقول لكل شىء يصل اليك بجارحه من الجوارح: ذق أى يصل معرفته اليك، كما يصل اليك معرفة ما تذوقه بلسانك من حلو و مرّ و منه قوله (فَلَذِقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ) «١» و قوله (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) «٢» و الخزى هو المكروه و الهوان، و خزى فلان إذا وقع فى المكروه، فالخزى افراط

(١) سورة ٦٤ التغابن آية ٥

(٢) سورة ٤٤ الدخان ٤٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣

الاستحياء، يقال ما استحيا و ما تخزى، و رأيت خزيان نادماً، قال الشاعر:

ولا أنت ديانى فتخزونى

قرأ ابن كثير، و ابو عمرو، و يعقوب (و رجلا- سالماً) على وزن (فاعل) معناه خالصاً لا- يشركه فيه غيره لان الله تعالى ضرب مثلاً للمؤمن و الكافر، فشبه الكافر بشركاء متنازعين مختلفين، و المؤمن من عبد إلهاً واحداً. الباقون «سَلَمًا لِرَجُلٍ» على المصدر من قولهم: سلم فلان لله سَلَمًا بمعنى خلص له خلوصاً، كما يقولون:

ربح الرجل فى تجارته ربحاً و ربحاً: و سلم سَلَمًا و سَلَمًا و سلامه، و تقديره ذا سلم، فمعنى «فَأَذَاهُمُ اللَّهُ» أى جعلهم يدركون الألم، كما يدرك الذائق الطعام، و الخزى الذل الذى يستحيا من مثله بما فيه من الفضيحة، و خزيهم فى الحياة الدنيا هو ما فعله بهم من العذاب العاجل من إهلا-كهم و استئصالهم الذى يبقى ذكره على الأبد. ثم قال تعالى «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ» مما فعل بهم فى دار الدنيا «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» صدق ما أخبرنا به.

ثم اقسم تعالى بأن قال «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» فالتذكر طلب الذكر بالفكر، و هذا حث على طلب الذكر المؤدى إلى العلم، و المعنى لكى يتذكروا، و يتعظوا فيجتنبوا ما فعل من تقدم من الكفر و المعاصى، لئلا يحل بهم كما حل بأولئك. و قوله «فَرَأَيْنَا عَرِيًّا» أى أنزلناه قرآناً عربياً غير ذى عوج أى غير ذى ميل عن الحق بل هو مستقيم موصل إلى الحق، و يقال فى الكلام عوج- بكسر العين- إذا عدل به عن جهة الصواب.

و المثل علم شبه به حال الثانى بالأول. و المثل مقياس يحتذى عليه، و إنما قال:

ضربنا مثلاً واحداً، و لم يقل مثلين، لأنهما جميعاً ضربا مثلاً واحداً، و مثله قوله التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤
تعالى «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً» (١) و لو ثنى لكان حسناً- فى قول الفراء- و قوله «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» معناه لكى يتقوا معاصى الله خوفاً من عقابه.

ثم قال تعالى «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ» فالتشاكس التمانع و التنازع، تشاكسوا فى الأمر تشاكساً، و فى الشركاء تشاكس فى البيع، و تدبير المملوك و نحو ذلك «وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ» فضرب المثل للموحد بعبادته الله تعالى وحده- عز و جل- و المشرك بعبادته غير الله- فى قول ابن عباس و مجاهد و قتادة و ابن زيد- (هَيْلٌ يَسْتَتَوِيَانِ مَثَلًا) فى حسن الحال، لا يستويان لان الخالص لمالك واحد يستحق من معونته و حياطته ما لا يستحقه صاحب الشركاء المختلفين فى أمره.

ثم قال (الحمد لله) يعنى المستحق للشكر و الثناء على الحقيقة هو الله تعالى (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) حقيقة، لجهلهم بالله و مواضع نعمه. ثم قال لنبىه (إنك) يا محمد (ميت) أى عاقبتك الموت، و كذلك هؤلاء لأن (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) (٢) (ثم إنكم) يبعثكم الله (يوم القيامة) و يحشركم يوم القيامة فتختصمون عند الله. و معناه كل طائفة منكم ترد على صاحبها يوم القيامة و تخصمها، فالاختصاص رد كل واحد من الاثنين ما اتى به الآخر على وجه الإنكار عليه. و قد يكون أحدهما- محققاً و الآخر مبطلا كالموحد و الملحد. و قد يكونان جميعاً مبطلين كاختصاص اليهودى و النصرانى، و قد يكونان جميعاً محقين إذا قطع كل واحد منهما على صواب اعتقاده دون غيره، و يكون اختصاصهم فى الآخرة بدم رؤساء الضلالة فى ما دعوهم اليه و دفع أولئك عن أنفسهم، فيقول الأولون: لولا أنتم لكننا مؤمنين

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٥١

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٨٥ و سورة ٢١ الأنبياء آية ٣٥ و سورة ٢٩ العنكبوت آية ٥٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥

و يقول الرؤساء ما كان لنا عليكم من سلطان إلا- أن دعوناكم فاستجبتم لنا. و اقبل بعضهم على بعض يتلاومون. و قال ابن زيد: الاختصاص يكون بين المؤمنين و الكافرين. و قال ابن عباس: يكون بين المهتدين و الضالين، و الصادقين و الكاذبين و قال ابو العالیه:

يكون بين أهل القبلة. و رجل مشكس إذا كان شىء الخلق. و قال السدى: هذا مثل ضربه الله لأوثانهم. و قال قتادة: هذا للمشرك تنازعه الشياطين مغريين بعضهم ببعض (و رجلاً سالماً) و هو المؤمن أخلص الدعوة لله و العبادة، و قال ابو عبيدة: متشاكسون الرجل الشكس و رجلاً سالماً الرجل الصالح. و قال ابو عمرو: معناه خالصاً لله. و قال ابو على: رجلاً فيه شركاء يعنى فى إتباعه أو فى شيعته.

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٢ الى ٣٥]..... ص: ٢٥

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَ الَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أربع آيات بلا خلاف.

قوله (فمن أظلم) صورته صورة الاستفهام و المراد به التقرير و التوبيخ، و المعنى فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً فادعى أن له ولداً و صاحبة، أو أنه حرم ما لم يحرمه، أو أحل ما لم يحله، و إنما كان من كذب على الله و كذب بالحق أظلم الخلق، لأنه ظلم نفسه بأفحش الظلم من جهه كفره بربه و جحوده لحق نعمه حين أشرك به التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦ تعالى من لا نعمة له يستحق بها عبادته. و قال قتادة: (وَكَذَّبَ بِالصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ) يعنى بالقرآن. ثم قال تعالى مهدداً لمن هذه صفته (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) و المثنوى المقام يقال أثوى يثنوى اثواء و ثوى يثنوى ثواء قال الشاعر:

طال الثواء على ربع بيسؤدى أردى و كل جديد مرت مود

و قوله (وَ الَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَ صَدَّقَ بِهِ) قال قتادة و ابن زيد: المؤمنون جاءوا بالصدق الذى هو القرآن و صدقوا به، و هو حجتهم فى الدنيا و الآخرة.

و قيل الذى جاء بالصدق جبرائيل و صدق به محمد صلى الله عليه و آله. و فى قراءة ابن مسعود (و الذى جاءوا بالصدق) قال الزجاج: الذى- هاهنا- و الذى بمعنى واحد يراد به الجمع. و قال: لأنه غير موقت. و قيل: الذى جاء بالصدق النبى صلى الله عليه و آله من قول لا إله إلا الله، و صدق به أيضاً هو صلى الله عليه و آله و الصحيح أن قوله (و صدق به) من صفة الذين جاءوا بالصدق، لأنه لو كان غيرهم لقال و الذى جاء بالصدق و الذى صدق به.

و قوله (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) يعنى من جاء بالصدق و صدق به هم المتقون معاصى الله خوف عقابه، و إنما جاء بلفظ الجمع (هم المتقون) مع أن لفظ (الذى) واحد، لأنه أراد به الجنس. و معناه الجمع كقوله (وَ الْعَصِيرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسِيرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) «١» و قال الأشهب بن ربيعة:

إن الذى حلت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

ثم بين ما أعد لهم من النعيم فقال (لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) جزاء على تقواهم، و بين أن لهم (ذلك) و انه (جزاء الْمُحْسِنِينَ) الذين يفعلون الطاعات.

(١) سورة ١٠٣ العصر آية ١-٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧

و قوله (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا) أى يسقط عنهم عقاب الشرك و المعاصى التى فعلوها قبل ذلك بتوبتهم و رجوعهم إلى الله (وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) يعنى يشيهم على طاعاتهم من الفرض و النفل، و هى أحسن أفعالهم لان المباح و

إن كان حسناً لا يستحق به ثواب ولا مدح لأن الثواب والمدح إنما يستحق على الطاعات.

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٦ الى ٤٠]..... ص: ٢٧

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠)

خمس آيات كوفى و ثلاث فى ما عداه عد الكوفيون (من هاد) و عدوا (فسوف تعلمون) و لم يعده الباقون. قرأ حمزة و الكسائى و خلف (بكاف عباده) على الجمع. الباقون بكاف عبده على التوحيد. من قرأ على التوحيد أراد النبى صلى الله عليه و آله لقوله (و يخوفونك) و من جمع أراد النبى و سائر الأنبياء، لأن أمة التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٨ كل نبى خاطبوا بينهم بمثل ذلك، كما قال تعالى مخبراً عن قوم هود (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) (١) و قرأ ابو عمرو و الكسائى عن أبى بكر (كاشفات ضره... ممسكات رحمته) منون فيهما. الباقون بالاضافة. فمن أضاف فللتخفيف.

و من نون، فأنه غير واقع، و اسم الفاعل إنما يعمل إذا كان لما يستقبل قوله (و كَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) «٢» على الحكاية. و قوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) لفظه لفظ الاستفهام و المراد به التقرير يقرر عباده، فيقول: ليس الله الذى يكفى عبده كيد أعدائه و يصرف عنه شرهم، فمن وحد- أراد محمد صلى الله عليه و آله و هو قول السدى و ابن زيد. و من جمع- أراد أنبيائه ك (إبراهيم و لوط و شعيب)، و قوله (و يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) خطاب للنبي صلى الله عليه و آله بأن الكفار يخوفونه بالأوثان التى كانوا يعبدونها- فى قول قتادة و السدى و ابن زيد- لأنهم قالوا له: أما تخاف ان تهلكك آلتهنا. و قيل: إنه لما قصد خالد لكسر العزى بأمر النبى صلى الله عليه و آله قالوا له ساداتها: إياك يا خالد إن بأسها شديد.

ثم قال (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) يحتمل معناه شيئين: أحدهما- من أضله عن طريق الجنة بكفره و معاصيه فليس له هاد يهديه اليها. و الثانى- ان من حكم الله بضلالته و سماه ضالا إذا ضل هو عن الحق فليس له من يحكم بهدايته و تسميته هادياً. ثم عكس ذلك فقال (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ) و هو يحتمل أمرين: أحدهما- من يهديه الله إلى طريق الجنة فلا احد يضله عنها.

(١) سورة ١١ هود آية ٥٤

(٢) سورة ١٨ الكهف آية ١٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٩

و الثانى- من يحكم بهدايته و يسميه هادياً فلا احد يمكنه ان يحكم بضلالته على الحقيقة.

ثم قرر خلقه فقال (أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ) أى قادر قاهر لا يقدر أحد على مغالته (ذى انتقام) من أعدائه و الجاحدين لنعمته. ثم قال لنبيه صلى الله عليه و آله (و لئن سألتهم) يا محمد يعنى هؤلاء الكفار (مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) و انشأها و اخترعها و أوجدها بعد أن كانت معدومة (ليقولنَّ الله) الفاعل لذلك، لأنهم لو أحالوا على غيره لبان كذبهم و افتراءهم، لأنه لا يقدر على ذلك إلا القادر لنفسه الذى لا يعجزه شىء ثم قال (قل) لهم (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ) فمن أضاف لم يعمل اسم الفاعل. و من نون أعمله، و هما جميعاً جيدان. و المعنى إن من

يعجز عن النفع و الضر و كشف الكرب عمن يتقرب اليه و لا- يتأتى منه ذلك كيف يحسن عبادته؟! وإنما تحسن العبادة لمن يقدر على جميع ذلك و لا يلحقه عجز و لا منع، و هو الله تعالى.

و الوجه فى الزام من خلق السموات و الأرض إخلاص العبادة له أن من خلق السموات و الأرض هو القادر على النفع و الضر بما لا يمكن أحد منعه و يمكنه منع كل أحد من خير او شر، و العبادة أعلى منزلة الشكر، لأجل النعم التى لا يقدر عليها غير الله، فمن أقر بخلق السموات و الأرض لزمه إخلاص العبادة لمن خلقهما و من لم يقر دل عليه بما يلزمه الإقرار به.

ثم قال (قل) لهم يا محمد (حسبى الله) أى يكفينى الله (عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) فالتوكل رد التدبير إلى من يقدر على الإحسان فيه، فلما كان لا يقدر على الإحسان فى جميع التدبير الذى يصلح الإنسان إلا الله تعالى وجب على التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٠ كل عاقل التوكل عليه بما هو حسبه منه.

ثم قال (قل) لهم يا محمد (يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) قال مجاهد:

على ناحيتكم. و قيل على مكانكم من العمل. و قيل: على مكانتكم أى ديانتكم على وجه التهديد لهم. و قيل: على مكانتكم أى جهتكم التى اخترتموها و تمكنتكم فى العمل بها.

ثم قال (إنى عامل) بما أدعوكم اليه (فسوف تعلمون) عاقبه أعمالكم و آخر كفركم و تعرفون (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) فى الدنيا و يهينه فى الآخرة (و يحل عليه) أى ينزل عليه (عَذَابٌ مُّقِيمٌ) أى دائم لا يزول، و ذلك غاية الوعيد و التهديد.

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٤١ الى ٤٥]..... ص: ٣٠

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنِ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا- يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا- يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة و الكسائى إلا قتيبة و خلف (فيمسك التى قضى عليها) على ما لم يسم فاعله. الباقون (قضى) بفتح القاف، و هو الأجود لان اسم الله تعالى قد تقدم فى قوله (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) و قيل: إن الموت- هاهنا- المراد به النوم. و التوفى- هاهنا- توفى النفس لا الروح، لأن ابن عباس قال فى ابن آدم نفس و روح، فإذا نام قبضت نفسه و بقيت روحه. و الروح هو الذى يكون بها الغطيط. و النفس هى التى يكون بها التميز، فإذا مات قبضت نفسه و روحه.

فان قيل: كيف قال هاهنا (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ) و قال فى موضع آخر (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) «١» (و قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ) «٢».

قيل: ان الذى يتولى قبض الأرواح ملك الموت بأمر الله، و معه رسل و أعوان، فلذلك قال (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا).

و حجة من بنى الفعل للفاعل قوله (و يُرْسِلُ الْأُخْرَى) و من بنى للمفعول به، فلا-ن المعنى يؤل اليه. و قال الفراء تقديره الله يتوفى الأنفس حين موتها و يتوفى التى لم تمت فى منامها عند انقضاء أجلها. و قيل: توفاهما نومها لقوله (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ) «٣».

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ) يا محمد (الكتاب) يعنى القرآن (لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ). و معناه أنزلناه على انه حق، فهذه فائدة الباء. و فى ذلك حجة على

(١) سورة ٦ الانعام آية ٦١

(٢) سورة ٣٢ الم السجدة آية ١١

(٣) سورة ٦ الانعام آية ٦٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢

من زعم ان الله سبحانه يريد بانزاله إضلال الكافرين عن الايمان، لأنه لو كان كذلك لم يكن منزلاً على انه حق وجب النظر في موجهه ومقتضاه، فما رغب فيه وجب العمل به وما حذر منه وجب اجتنابه، وما صححه وجب تصحيحه وما أفسده وجب إفساده، وما دعا اليه فهو الرشده، وما صرف عنه فهو الضلال.

ثم قال (فمن اهتدى) يعنى بما فيه من الأدلة (فلنفسه) لان منفعة عاقبته من الثواب تعود عليه (و من ضل) عنه و حاد (فإنما يضلّ عليهما) يعنى على نفسه، لان وخيم عاقبته من العقاب تعود عليه. ثم قال (و ما أنت) يا محمد (عليهم بوكيل) أى بحفيظ ولا رقيب وإنما عليك البلاغ والوكيل القائم بالتدبير. وقيل (ما أنت عليهم بوكيل) معناه و ما انت عليهم برقيب فى إيصال الحق إلى قلوبهم و حفظه عليهم حتى لا يتركوه و لا ينصرفوا عنه، و لا تقدر على إكراههم على الإسلام، و إنما الله تعالى القادر عليه.

قوله (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) معناه انه يقبضها اليه إذا أراد إماتها بأن يقبض روحها بأن يفعل فيها الموت «وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ» فلا يردّها اليه «وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ ..» التى يريد ابقائها إلى أن تستوفى أجلها الذى قدره لها. و قد ذكرنا ما روى عن ابن عباس من أن قبض الروح يكون منه ميتاً. و قبض النفس يكون به فاقداً للتمييز والعقل، و إن لم يفقد حياته.

و الفرق بين قبض النوم و الموت ان قبض النوم يضاد اليقظة، و قبض الموت يضاد الحياة و قبض النوم تكون الروح معه فى البدن، و قبض الموت يخرج الروح منه عن البدن، و قال سعيد بن جبير و السدى: ان أرواح الأحياء إذا ناموا تجتمع مع أرواح الأموات، فإذا أرادت الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٣

الأموات و أرسل أرواح الأحياء.

ثم قال (إن فى ذلك) يعنى فى قبض الأرواح تارة بالموت، و قبض الأنفس بالنوم أخرى (لآيات) أى دلالات واضحات على توحيد الله، فانه لا يقدر عليه سواه (لقوم يتفكرون) أى يستعملون عقولهم بالفكر فى ذلك فيعرفون الله تعالى بذلك.

ثم اخبر عن هؤلاء الكفار فقال (أَمْ اتَّخَذُوا) معناه بل اتخذ هؤلاء الكفار (مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ) بزعمهم، من الأصنام و الأوثان فقال (قل) لهم يا محمد (أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ) تنبيها لهم على انهم يتخذونهم شفعا و إن كانوا لا يقدرّون على شىء من الشفاعة و لا غيرها و لا يعقلون شيئا. و الالف فى (أو لو) الف الاستفهام يراد به التنبيه. ثم قال (قل) لهم يا محمد (لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) أى الشفاعة لمن له التدبير و التصرف فى السموات و الأرض ليس لاحد الاعتراض عليه فى ذلك (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) معاشر الخلق أى إلى حيث لا يملك احد التصرف و الامر و النهى سواه، و هو يوم القيامة فيجازى كل إنسان على عمله على الطاعات بالثواب و على المعاصى بالعقاب.

ثم اخبر عن حالهم و شدة عنادهم، فقال (وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) يعنى نفرت نفوسهم عن التوحيد و انقبضت عنه يقال: فلان مشمئز عن كذا إذا انقبض عنه. و فى قوله: اشمازت قلوبهم دليل على فساد قول من يقول المعارف ضرورة (وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مَتَّيْ دُونِهِ) قال السدى: يعنى أوثانهم (إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) أى يفرحون و يسرون حتى يظهر السرور فى وجوههم.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) خمس آيات.

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين ان يدعوه بهذا الدعاء فيقولوا (اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى خالقهما ومنشئهما ومبتدئهما (عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) أى عالم ما غاب علمه عن جميع الخلائق وعالم ما شهدوه و عملوه، لا يخفى عليك شىء من الأشياء (أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ) يوم القيامة (فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) فى دار الدنيا من أمر دينهم و دنياهم و تفصل بينهم بالحق. و (فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ) عند سيوييه لا يجوز أن يكون صفه (اللَّهُمَّ) قال لأنه غير الاسم فى النداء، ولأنه لا يذكر بهذا الذكر إلا بعد ما عرف التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥

كما لا يضمّر الاسم إلا بعد ما عرف، فكما لا توصف المضمرات، فكذلك هذا الاسم، و ليس يجب مثل ذلك فى قولنا: (اللَّهُ) لأنه قد يذكره العارف لمن لا يعرفه فيعرفه إياه بصفته، فيقول: اللَّهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ خَالِقُ الْخَلْقِ وَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَ مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ. و قال ابو العباس: يجوز أن يكون صفه (اللَّهُمَّ) حملا له على (يا اللَّهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

ثم اخبر تعالى على وجه المبالغة فى وقوع عقاب الكفار و عظمه بأنه لو كان لهم ملك جميع ما فى الأرض، و مثله معه، زيادةً عليه و أراد الظالم لنفسه بارتكاب المعاصى أن يفتدى نفسه من شدة ذلك العذاب يوم القيامة لما قبل منه، و لما فودى به، و حذف الجواب لدلالة الكلام عليه.

ثم قال (وَبَدَا لَهُمْ) يعنى الكفار ما لم يكونوا يحتسبونه و لا يظنونوه واصلا اليهم، و الاحتساب الاعتداد بالشىء من جهة دخوله فى ما يحسبه، فلما كان أهل النار لم يكونوا يدرون ما ينزل بهم من العذاب صح ان يقال (بَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) و لا قدرُوا أنهم يصيرون اليه.

ثم قال (وَبَدَا لَهُمْ) أى ظهر لهم ايضاً (سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) أى جزاء سيئات ما كسبوا من أعمالهم (وَحَاقَ بِهِمْ) أى نزل بهم «ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ» فى الدنيا من قول الله و وعده و وعيده.

ثم اخبر تعالى عن شدة قلب الإنسان و تحوله من حال إلى حال بأنه إذا مسه ضر من مرض و مصيبة و بلاء «دعانا» و فزع إلينا «ثم» بعد ذلك «إذا خولنا» أى أعطينا «نعمة منا» و التحويل العطاء بلا مكافات و لا مجازات بل تفضلا محضاً «قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ» قال الحسن معناه أنى أوتيته بحيلتى و عملى و قال غيره: معناه على علم برضاه عنى فلذلك اعطانى ما أولانى من النعمة. و قال التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦

آخرون: معناه على علم بأن تسببت به للعافية و كشف البلية و انه لم ينلها من قبل ربه. ثم قال ليس الامر على ما يقوله «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ» أى بلية و اختبار يبتليه الله به فيظهر كيف شكره فى مقابلتها، فيجازيه بحسبها، لأنه و إن كان عالماً بحاله لم يجز ان يجازيه على علمه، و إنما يجازيه على فعله «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» صحه ما قلناه من ان ذلك محنة و اختبار لقله معرفتهم بالله و بصفاته. ثم قال «قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يعنى قد قال كلمة مثل ما قال هؤلاء «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» من الأموال و يجمعونه بل صارت و بالاً عليهم.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيِّئَةٌ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفار في الآخرة و ما يصيرون اليه التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧

فقال «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا» قيل في معناه قولان:

أحدهما- فأصابهم عقاب سيئات ما كسبوا و حذف المضاف و اقام المضاف اليه مقامه لدلالة الكلام عليه.

الثاني- انه أراد فأصابهم عقاب ما كسبوا من المعاصي و سماه سيئات لادراج الكلام، كما قال «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» (١).

ثم قال «وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ» يعنى من كفار قوم النبي صلى الله عليه وآله «سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ» أى ليس يفوتون الله، ثم قال على وجه التنبيه لهم على معرفته «أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ» أى يوسعه على من يشاء من عباده بحسب ما يعلم من مصلحته «وَيَقْدِرُ» أى و يضيق على من يشاء منهم بمثل ذلك «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ» أى دلالات واضحة «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى يصدقون بتوحيد الله و يقرون بأنبيائه. و أضاف الآيات إلى المؤمنين لأنهم الذين انتفعوا بها، ثم قال «قُلْ» لهم يا محمد «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» بارتكاب المعاصي «لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» أى لا تيأسوا من رحمة الله يقال: قنط يقنط قنوطاً إذا يئس «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» و فى ذلك دلالة واضحة على انه يجوز ان يغفر الله بلا توبة تفضلاً منه و بشفاعته النبي صلى الله عليه وآله و آله لأنه لم يشرط التوبة بل أطلقها. و روى عن فاطمة عليها السلام أنها قالت: إن الله يغفر الذنوب جميعاً و لا يبالى.

و

روى عن على عليه السلام و ابن عباس: أنهما قالوا: إن لأرجى آية فى كتاب الله قوله «وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَرْجِعُونَ» (٢) فقال عبد الله بن عمرو بن العاص بل أرجى آية فى كتاب الله قوله «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» و هو المروى عن على أيضاً.

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠

(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨

وقوله «وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ» امر مستأنف من الله لخلقهم بالرجوع إلى الله و التوبة من معاصيهم. و الانابة هى الرجوع «وَأَسْلِمُوا لَهُ» معناه آمنوا به و سلموا لأوامره «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ» عند نزول العذاب بكم «وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» إنما قال «أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ» لأنه أراد بذلك الواجبات و النفل التى هى الطاعات دون المباحات و المقبحات التى لا يأمر بها. و قال السدى (أحسن) أى ما أمر الله تعالى به فى الكتاب، و قال قوم (أحسن ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) يريد به الناسخ دون المنسوخ، و هذا خطأ، لان المنسوخ لا يجوز العمل به بعد النسخ و هو قبيح، و لا يكون الحسن أحسن من قبيح، و قال الحسن أحسنه ان يأخذوا بما أمرهم الله به و أن ينتهوا عما نهاهم عنه «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً» أى فجأة فى وقت لا تتوقعونه «وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» أى لا تعرفون وقت نزوله بكم.

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّاحِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)

خمس آيات. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٩

قرأ أبو جعفر من طريق ابن العلاف «يا حسرتاي» بياء ساكنة بعد الألف.

وفتح الباء النهرواني عن أبي جعفر. الباقون بلا بياء.

لما أمر الله تعالى باتباع طاعاته والانتها عن معاصيه تحذيراً من نزول العذاب بهم بغته وهم لا يعلمون، بين الغرض بذلك وهو لئلا تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله، وحذف (لا) كما حذف من قوله (يُيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا) «١» وقال الزجاج: معناه كراهية أن تقول نفس، ومثله قوله (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) «٢» في قول الفراء. وعلى قول الزجاج: كراهية أن تميد بكم، والنفس نفس الإنسان. والفرق بين النفس والروح أن النفس من النفاسة، والروح من الريح. وأنفس ما في الحيوان نفسه، وهي جسم رقيق روحاني من الريح، ونفس الشيء هو الشيء بعينه. والتفريط إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتى يفوت وقته، ومثله التقصير، وضده الأخذ بالحزم، يقال:

فلان حازم و فلان مفرط.

وقوله (فِي جَنْبِ اللَّهِ) معناه فرطت في طاعة الله أو في أمر الله إلا- أنه ذكر الجنب كما يقال: هذا صغير في جنب ذلك الماضي في أمره، وفي جهته، فإذا ذكر هذا دل على الاختصاص به من وجه قريب من معنى جنبه. وقال مجاهد والسدي: معنى (فِي جَنْبِ اللَّهِ) أى في أمر الله. والألف في قوله (يا حسرتي) منقلبة عن (ياء) الاضافة. و يفعل ذلك في الاستفهام والاستغاثة بمد الصوت. والتحسر الاعتماد على ما فات وقته لانحساره عنه بما لا يمكنه استدراكه، ومثله التأسف.

(١) سورة ٤ النساء آية ١٧٥

(٢) سورة ١٦ النحل آية ١٥ و سورة ٣١ لقمان آية ١٠ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠

وقوله (وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّاحِرِينَ) قال قتادة والسدي: معناه المستهزئين بالنبي والكتاب الذي معه. وقيل: معناه كنت ممن يسخر بمن يدعونى إلى الايمان، ومعناه وما كنت إلا من جملة الساخرين اعترافاً منهم على نفوسهم.

وقوله تعالى (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) معناه فعلنا ذلك لئلا يقول: لو أراد الله هدايتي لكنت من المتقين لمعاصيه خوفاً من عقابه (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) ومعناه إنا فعلنا ذلك لئلا يتمنوا إذا نزل بهم البلاء والعذاب يوم القيامة لو أن لي رجعة إلى دار الدنيا لكنت ممن يفعل الطاعات.

ونصب (فأكون) على انه جواب (لو) ويجوز أن يكون نصباً بإضمار (ان) بمعنى لو أن لي كرة فان أكون.

وفي ذلك دليل على بطلان مذهب المجبرة في أن الكافر لا يقدر على الايمان لأنه لو كان إذا رد لا يقدر إلا على الكفر لم يكن لتمنيه معنى.

ثم قال تعالى منكرأ عليهم «بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي» أى حججى ودلالاتى «فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» الجاحدين لنعمى عليك. وإنما خاطب بالتذكير والنفس مؤنثة لأنه أراد يا إنسان.

ثم أخبر تعالى عن حال الكفار في الآخرة، فقال «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ» جزاء على كفرهم. ثم قال

«أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى» أى موضع إقامة «لِلْمُتَكَبِّرِينَ» الذين تكبروا عن طاعة الله و عصوا أوامره.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤١

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦١ الى ٦٦]..... ص: ٤١

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَعَيِّرُ اللَّهَ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)

ست آيات بلا خلاف.

قرأ روح «و ينجي الله» بالتخفيف. الباقون بالتشديد. وقرأ ابن كثير «تأمروني اعبد» مشددة النون مفتوح الياء. وقرأ نافع و ابن عامر فى رواية الداجوني خفيفة النون. وفتح الياء نافع، و لم يفتحها ابن عامر. وقرأ ابن عامر فى غير رواية الداجوني «تأمروننى» بنونين. الباقون مشددة النون ساكنة الياء.

وقرأ اهل الكوفة إلا حفصاً «بمفازاتهم» جماعة. الباقون «بمفازتهم» على واحدة. فمن وحده قال: هو بمنزلة السعادة و النجاة، كما قال الله تعالى «بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ» (١) و قال قوم المفازة الصحراء، فهى مهلكة و تسمى مفازة تفاؤلاً، كما قالوا- لمعوج الرجلين - أحنف، و للحبشى ابو البيضاء. و قال ابن الاعرابى:

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٨٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٢

ليست مقلوبة بل المفازة المهلكة، يقولون: فوز الرجل إذا هلك و مات. و من قرأ «تأمروننى» فلانه الأصل. و من شدد أدغم احدى النونين فى الأخرى. و من خفف حذف احدى النونين، كما قال الشاعر:

تراه كالثغام يعل مسكا بسوء الغاليات إذا قلبنى (١)

أراد قلبنى فحذف. لما اخبر الله تعالى عن حال الكفار و أن الله يحشرهم يوم القيامة مسودة و جوههم، و أن مقامهم فى جهنم، اخبر انه ينجي الذين اتقوا معاصى الله خوفاً من عقابه، و يخلصهم. و قوله «بِمَفَازَتِهِمْ» بمنجاتهم من النار بطاعتهم التى أطاعوا الله بها. و اصل المفازة المنجاة، و به سميت الفلاة مفازة على وجه التفاؤل بالنجاة منها، كما سماها اللديغ سليماً. و من وحد فلأنه اسم جنس او مصدر يقع على القليل و الكثير. و من جمع أراد تخلصهم من مواضع كثيرة فيها هلاك الكفار و انواع عذابهم.

و قوله «لَا- يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» معناه إن هؤلاء المؤمنين الذين يخلصهم الله من عقاب الآخرة و أهوالها لا يمسه عذاب أصلاً، و لا هم يغمون على وجهه. و قوله «لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ» معناه نفيًا عاماً لسائر انواع العذاب، و العموم فى قوله «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» فيه تأكيد له، و قيل: لثلاثين ظان انه لما لم يمسه العذاب جاز أن يمسه بعض الغم، ففى ذلك تفصيل واضح يزيل الشبهة.

ثم اخبر تعالى انه خلق كل شىء، و معناه انه يقدر على كل شىء «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» أى له التصرف فى ما يريد حافظ له، و إن حملنا معنى الخلق على الأحداث، فالمراد به «خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» من مقدوراته من الأجسام و الاعراض. و قوله «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» و المقاليد المفاتيح واحده

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٣

(مقلید) كقولك: منديل و مناديل، و يقال فى واحده ايضاً (إقليد) و جمعه (أقاليد) و هو من التقليد، و المعنى له مفاتيح خزائن السموات و الأرض يفتح الرزق على من يشاء و يغلقه عمن يشاء. و قوله «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» يعنى كفروا بآياته من مقاليد السموات و الأرض و غيرها و قوله «أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» يعنى هؤلاء الذين كفروا بأدلة الله و حججه «هُمُ الْخَاسِرُونَ»، لأنهم يخسرون الجنة و نعيمها و يحصلون فى النار و سعيها.

و قوله «قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» أمر للنبي صلى الله عليه و آله ان يقول لهؤلاء الكفار تأمرونى أيها الكفار ان اعبد الأصنام من دون الله ايها الجاهلون بالله و بآياته؟! و العامل فى قوله «أفغير» على احد وجهين: أحدهما- ان يكون «تأمرونى» اعتراضاً، فيكون التقدير: أغير الله اعبد ايها الجاهلون فى ما تأمرونى.

الثانى- ان لا يكون اعتراضاً و يكون تقديره: أ تأمرونى اعبد غير الله ايها الجاهلون فى ما تأمرونى فإذا جعلت «تأمرونى» اعتراضاً، فلا موضع لقوله «اعبد» من الاعراب، لأنه على تقدير اعبد ايها الجاهلون، و إذا لم تجعله اعتراضاً يكون موضعه نصباً على الحال، و تقديره أ تأمرونى عابداً غير الله، فمخرجه مخرج الحال و معناه ان اعبد، كما قال طرفة:

ألا ايهذا الزاجرى احضر الوغا و أن اشهد اللذات هل انت مخلد «١»

أى الزاجر أن احضر، و حذف (أن) ثم جعل الفعل على طريقة الحال.

ثم قال لنبىه صلى الله عليه و آله «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ» يا محمد «وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» من الأنبياء و الرسل «لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَجْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ»

(١) مر فى ١/ ٣٢٧ و ٨/ ٢٤٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٤

لثواب الله. و قال قوم: فيه تقديم و تأخير و تقديره: و لقد أوحى اليك لئن أشركت ليحبطن عملك، و إلى الذين من قبلك مثل ذلك. و قال آخرون: هذا مما اجتزى، بأحد الخبرين عن الآخر، كما يقول القائل: لقد قيل لزيد و عمرو ليذهبن، و معناه لقد قيل لزيد: ليذهبن و عمرو ليذهبن فاستغنى بقوله و عمرو عن ان يقال ليذهبن بما صار لزيد.

و ليس فى ذلك ما يدل على صحة الإحباط على ما يقوله اصحاب الوعيد، لان المعنى فى ذلك لئن أشركت بعبادة الله غيره من الأصنام لوقعت عبادتك على وجه لا يستحق عليها الثواب، و لو كانت العبادة خالصة لوجهه لاستحق عليها الثواب، فلذلك وصفها بأنها محبطة، و بين ذلك بقوله «بَلِ اللَّهِ فَاعِذْ» أى وجه عبادتك اليه تعالى وحده دون الأصنام و دون كل وثن «تكن من الشاكرين» الذين يشكرون الله على نعمه و يخلصون العبادة له. و نصب قوله «بل الله» بفعل فسر قوله «فاعبد» و تقديره اعبد الله فاعبد و قال الزجاج: هو نصب بقوله (فاعبد) و تقديره قد بلغت فاعبد الله و قال المبرد: و معنى (ليحبطن) ليفسدن يقولون: حبط بطنه إذا فسد من داء معروف.

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦٧ الى ٧٠]..... ص: ٤٤

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥

أربع آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن حال الكفار أنهم ما عظموه حق عظمتهم إذ دعوك إلى عبادة غيره. وقال الحسن: معناه إذ عبدوا الأوثان من دونه.

و الأول أقوى - وهو قول السدي - قال محمد بن كعب القرطبي «ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» معناه ما علموا كيف حق الله. قال المبرد اشتقاقه من قولك: فلان عظيم القدر يريد بذلك جلالته. و القدر اختصاص الشيء بعظم حجم أو صغر أو مساواة.

وقوله «وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ» قال الفراء: كان يجوز في (قبضته) النصب. وقال الزجاج لا يجوز ان يقال: زيد دارك أى فى دارك على حذف (فى) كقولهم شهر رمضان انسلاخ شعبان أى فى انسلاخه. قال المبرد: الناصب ل (جميعاً) محذوفه تقديره و الأرض إذا كانت جميعاً قبضته، و خبر الابتداء (قبضته) كأنه قال: و الأرض قبضته إذا كانت جميعاً. و مثله: هذا بسر الطيب منه تمرأى إذا كان. و مذهب سيبويه أى ثبتت جميعاً فى قبضته كقولك هنئاً مريئاً أى ثبت ذلك، لأنه دعاء فى موضع المصدر، كما قلت سقياً و مثل الآية قول الشاعر:

إذا المرؤ أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلا عليه شديد

أى إذا كان كهلا - و قال الزجاج: هو نصب على الحال. و المعنى «وَالْأَرْضُ» فى حال اجتماعها (قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) على الابتداء و الخبر. و معنى الآية أن الأرض بأجمعها فى مقدوره كما يقبض عليه التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦

القابض، فيكون فى قبضته و كذلك قوله (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) معناه أى فى مقدوره طيها، و ذكرت اليمين مبالغه فى الاقتدار و التحقيق للملك. و قيل اليمين القوة قال الشاعر:

إذا ما رايته رفعت لمجد تلقاها عرابه باليمين (١)

ثم نزه نفسه تعالى عن أن يكون له شريك فى العبادة أو معين فى خلق شىء من الأشياء. و قال سبحانه و تعالى عما يشركون يعنى ما يضيفه اليه الكفار من الأصنام و الأوثان.

و قوله (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) قال قتادة هو جمع صورة، فكأنه ينفخ فى صور الخلق و

روى فى الخبر ان الصور قرن ينفخ فيه الصور.

و وجه الحكمة فى ذلك انه علامة جعلها الله تعالى ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم فى دار التكليف. ثم تجديد الخلق، فشبّه بما يتعارفونه من بوق الرحيل و النزول، و لا يتصور ذلك للنفس بأحسن من هذه الطريقة.

و قوله (فَصَبَّحَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) قيل: معناه يموت من شدة تلك الصيحة التى تخرج من الصور جميع من فى السموات و الأرض، و منه الصواعق التى تأتى عند شدة الرعد، و صعق فلان إذا مات بحال هائلة شبيهة بالصيحة الشديدة. و قوله (إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) استثنى من جملة الذين يهلكون قوماً من الملائكة، لأن الملك الذى ينفخ فيه يبقى بعده، و يجوز ان يبقى غيره من الملائكة. و قال السدي: المستثنى جبرائيل و ميكائيل و إسرافيل و ملك الموت - و هو المروى نفى حديث مرفوع - و قال سعيد بن جبیر: هم الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله. و قوله (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) فهذه النفخة

(١) مر تخريجه فى ٨/ ٥١٢ و هو فى تفسير الشوكانى ٤/ ٤٦٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧

الثانية للحشر. و قال قتادة: و

روى أيضاً أن صاحب الصور إسرائيل عليه السلام

وقيل:

يُفْنِي اللَّهُ تَعَالَى بعد الصعق و موت الخلق الأجسام كلها ثم يعيدها و معنى فإذا هم قيام ينظرون إخبار عن سرعته إيجادهم، لأنه إذا نفخ النفخة الثانية أعادهم عقيب ذلك فيقومون من قبورهم احياء ينظرون ما يراد و يفعل بهم.

و قوله (وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) قيل: معناه أضاءت بعدل ربها و الحكم بالحق فيها و قال الحسن: معناه بعدل ربها (وَ وَضِعَ الْكِتَابَ) يعنى الكتب التى أعمالهم فيها مكتوبة (وَ جِئَ النَّبِيُّنَ وَ الشُّهَدَاءَ) لأنهم يؤتى بهم. و الشهداء هم الذين يشهدون على الأمم للأنبياء بأنهم قد بلغوا، و انهم كذبتهم أممهم، و هو قول ابن عباس و سعيد بن جبیر (وَ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) أى يفصل بينهم بالحق و لا ينقص احد منهم شيئاً مما يستحقه من الثواب و لا يفعل به ما لا يستحقه من العقاب. و قوله (وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) معناه انه يعطى كل نفس عامله بالطاعات جزاء ما عملته على الكمال دون النقصان و الله تعالى أعلم من كل احد بما يفعلون من طاعة او معصية لا يخفى عليه شىء منها.

قوله تعالى: [سورة الزمر (٣٩): الآيات ٧١ الى ٧٥]..... ص: ٤٧

وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَ لَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقْنَا وَ عَدَّهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٨

خمس آيات بلا- خلاف قرأ اهل الكوفة إلا الكسائي عن أبى بكر (فتحت... و فتحت) بالتخفيف فيهما. الباقون بالتشديد. من خفف قال: لأنها تفتح دفعه واحدة، و من شدد قال:

لأنها تفتح مرة بعد اخرى، و لقوله (مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ) «١».

لما اخبر الله تعالى عن حال الكافرين و المؤمنين و انه يحشر الخلق فى ارض الموقف، و انه يعاقب كل احد على قدر استحقاقه، اخبر- هاهنا- عن قسمة أحوالهم فقال (وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا) فالسوق الحث على السير يقال:

ساقه يسوقه سوقاً، فهو سائق و ذاك مسوق، و منه قولهم: الكلام يجرى على سياقه واحدة، و منه السوق لأن المعاملة فيها تساق بالبيع و الشراء، و منه الساق لأنه ينساق به البدن، و (الزمر) جمع زمره و هى الجماعة لها صوت المزمار، و منه مزامير داود عليه السلام يعنى أصوات له كانت مستحسنه، و قال الشاعر:

لـه زجـل كـأنه صـوت حـداد إذا طـلـب الوسـيـقة أو زمير «٢»

(١) سورة ٣٨ (ص) آية ٥٠

(٢) قائله الشماخ اللسان (زجل) و سيويه ١١ / ١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩

قال ابو عبيدة: معناه جماعات فى تفرقة بعضهم فى أثر بعض (حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا) يعنى جاءوا جهنم (فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) أى أبواب جهنم (وَ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) الموكلون بها على وجه الإنكار عليهم و التهجين لفعلهم (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) يعنى من أمثالكم من البشر (يتلون)

أى يقرؤن (عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ) أى حجج ربكم، و ما يدلکم على معرفته و وجوب عبادته (وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) أى و يخوفونكم من مشاهدۀ هذا اليوم و عذابه، فيقول الكفار لهم (بلى) قد جاءتنا رسل ربنا، و خوفونا لأنه لا يمكنهم جحد ذلك لحصول معارفهم الضرورية (وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) و معناه أنه وجب العقاب على من كفر بالله، لأنه تعالى اخبر بذلك و علم من يكفر و يوافى بكفره، فقطع على عقابه، فلم يكن يقع خلاف ما علمه و اخبر به، فصار كوننا فى جهنم موافقاً لما أخبر به تعالى و علمه، فيقول لهم عند ذلك الملائكة الموكلون بجهنم (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) أى مؤبدين لا آخر لعقابكم ثم قال تعالى (فَبُئْسَ مَثْوًى) أى بئس مقام (المتكبرين) جهنم. ثم اخبر تعالى عن حال أهل الجنة بعد حال أهل جهنم فقال «وَسَيَقِ الْذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ» باجتناوب معاصيه و فعل طاعاته «إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» و إنما جاء فى الجنة، و فتحت أبوابها بالواو، و فى النار فتحت بغير واو، لأنه قيل: أبواب النار سبعة، و أبواب الجنة ثمانية، ففرق بينهما للإيدان بهذا المعنى، قالوا: لان العرب تعد من واحد إلى سبعة و تسميه عشراً و يزيدون واواً تسمى واو العشر، كقوله «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ» ثم قال (وَالنَّاهُونَ عَنِ النَّبِيَانِ) فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠

الْمُنْكَرِ)

«١» فاتى بالواو بعد السبعة، و قال (مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ تَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا) «٢» فاتى بالواو فى الثامنة. و قيل: ان المعنى واحد، و إنما حذفت تارة و جىء بها اخرى تصرفاً فى الكلام. قال الفراء:

الواو لا تقحم إلا مع (لما) و (حتى) و (إذا) و انشد.

فلما أجزنا ساحة الحى و انتحى «٣»

أراد انتحى و قيل: دخلت الواو لبيان أنها كانت مفتحة قبل مجيئهم و إذا كان بغير واو أفاد انها فتحت فى ذلك الوقت و جواب (حتى إذا) فى صفۀ أهل الجنة محذوف و تقديره حتى إذا جاؤها قالوا المنى أو دخلوها او تمت سعادتهم او ما أشبه ذلك و حذف الجواب ابلغ لاحتماله جميع ذلك و مثله قول عبد مناف بن ربيع.

حتى إذا سلكوهم فى قنائه شلا كما تطرد الجمالة الشرذا «٤»

و هو آخر القصيدة، فحذف الجواب. و قوله (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ) أى طابت أفعالكم من الطاعات و زكت (فادخلوها) أى الجنة جزاء على ذلك (خالدين) مؤبدين لا غاية له و لا انقطاع، و قيل: معناه طابت أنفسكم بدخول الجنة. ثم حكى تعالى ما يقول أهل الجنة إذا دخلوها، فإنهم يقولون اعترافاً بنعم الله عليهم (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْثَقَا الْأَرْضَ) يعنون ارض الجنة.

و قيل: ورثوها عن أهل النار، و قيل: لما صارت الجنة عاقبة أمرهم كما يصير الميراث، عبر عن ذلك بأنه أورثهم و قوله (تَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ) معناه

(١) سورة ٩ التوبة آية ١١٣

(٢) سورة ٦٦ التحريم آية ٥

(٣) مر تخريجه فى ١٠٩ / ٦

(٤) مر فى ١ / ١٢٨، ١٤٩ و ٦ / ٣٢٢، ٤٥٩ و ٧ / ٣٦٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥١

نتخذ متبوعاً أى مأوى حيث نشاء، و أصله الرجوع من قولهم: باء بكذا أى رجع به. ثم قال (فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) يعنى المقام فى الجنة و التمتع فيها.

ثم قال تعالى (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ) أى محدقين به- فى قول قتادة و السدى- (يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) أى ينزهون الله تعالى عما لا يليق به و يذكرونه بصفاته التى هو عليها. و قيل: تسبيحهم ذلك الوقت على سبيل التمتع و التلذذ ثواباً على أعمالهم لا على وجه التعبد، لأنه ليس هناك دار تكليف. و قيل: الوجه فى ذلك تشبيه حال الآخرة بحال الدنيا، فان السلطان الأعظم إذا أراد الجلوس للمظالم و القضاء بين الخلق قعد على سريره و اقام حشمه و جنده قدامه و حوله تعظيماً لأمره فلذلك عظم الله أمر القضاء فى الآخرة بنصب العرش و قيام الملائكة حوله معظمين له تعالى مسبحين و إن لم يكن تعالى على العرش لأن ذلك يستحيل عليه لكونه غير جسم، و الجلوس على العرش من صفات الأجسام.

ثم قال تعالى (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ) أى فصل بين الخلائق بالحق لا ظلم فيه على أحد، و قيل (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) اخبار منه تعالى أن جميع المؤمنين يقولون عند ذلك معترفين بأن المستحق للحمد و الشكر الذى لا يساويه حمد و لا شكر (الله) الذى خلق العالمين و دبرها. و قيل: لأن الله خلق الأشياء الحمد لله الذى خلق السموات و الأرض، فلما أفنى الخلق ثم بعثهم و استقر اهل الجنة فى الجنة ختم بقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٢

٤٠- سورة المؤمن..... ص: ٥٢

إشارة

مكية- فى قول مجاهد و قتادة- ليس فيها ناسخ و لا منسوخ. و قال الحسن هى مكية إلا آية واحدة و هى قوله (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) يعنى بذلك صلاة الفجر و المغرب و قد ثبت أن فرض الصلاة كان بالمدينة. و هى خمس و ثمانون آية فى الكوفى و أربع فى المدنيين و اثنتان فى البصرى.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤)
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)

خمس آيات فى الكوفى و أربع فى ما عداه عد الكوفيون (حم) آية و لم يعدها الباقون. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣
قرأ اهل الكوفة إلا- حفصاً و ابن ذكوان (حاميم) بامالة الألف. الباقون بالفتح من غير امالة و هما لغتان فصيحتان. و قال قوم (حم) موضعه نصب، و تقديره اتل (حم) اقرأ (حم) و قال آخرون: موضعه جر بالقسم. و من جزم قال: لأنها حروف التهجى و هى لا يدخلها الاعراب، و قد فتح الميم عيسى ابن عمر، و جعله اسم السورة، فنصبه و لم ينون، لأنه على وزن (هايل) و يجوز ان يكون فتح لالتقاء الساكنين. و القراء على تسكين الميم و هو الأجود لما بيناه.

و قد بينا اختلاف المفسرين و اهل العربية فى مبادئ السور بحروف التهجى و معناها، و أن أقوى ما قيل فى ذلك انها اسماء للسور، و ذكرناها فى الأقوال، فلا نطول باعادته.

و قال قتادة و الحسن: (حم) اسم السورة. و قال شريح بن أوفى العبسى:

يذكرني (حم) و الرمح شاهر فهلا تلا (حم) قبل التقدم

وقال الكميت:

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقى و معرب

وقوله (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ) أى هو تنزيل (مِنَ اللَّهِ) أنزله على نبيه (العزیز) معناه القادر الذى لا يغالب و لا يقهر المنيع بقدرته على غيره و لا يقدر عليه غيره. و هذه الصفة لا تصح إلا لله تعالى و اصل الصفة المنع من قولهم: عزّ كذا و كذا أى امتنع، و فلان عزيز أى منيع بسلطانه او عشيرته او قومه «و العليم» الكثير العلوم و العالم الذى له معلوم.

وقوله (غَافِرِ الذَّنْبِ) جرّ بأنه صفة بعد صفة، و معناه من شأنه غفران الذنب فى ما مضى و فى ما يستقبل، فلذلك كان من صفة المعرفة (وَ قَابِلِ التَّوْبِ) التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٤

قال الفراء: إنما جعلها نعتاً للمعرفة و هى نكرة، لأن المعنى ذى الغفران، و ذى قبول التوبة كقوله «ذى الطول» و هو معرفة و إن جعلته بدلاً كانت النكرة و المعرفة سواء، و معنى «قَابِلِ التَّوْبِ» إنه يقبل توبة من تاب اليه من المعاصى بأن يثيب عليها و يسقط عقاب معاصى ما تقدمها تفضلاً منه، و لذلك كان صفة مدح، و لو كان سقوط العقاب عندها واجباً لما كان فيه مدح و (التوب) يحتمل وجهين:

أحدهما- ان يكون جمع توبة كدوم و دومة و عوم و عومة.

و الثانى- ان يكون مصدر (تاب يتوب توباً).

وقوله «شَدِيدِ الْعِقَابِ» معناه شديد عقابه و ذكر ذلك عقيب قوله «غَافِرِ الذَّنْبِ» لأنه أراد لثلاً يعول المكلف على العفو بل يخاف عقابه أيضاً لأنه كما انه يغفر لكونه غافراً فقد يعاقب لكونه شديد العقاب. و فرق بين شدة العقاب و تضاعف الآلام بان الخصلة الواحدة من الألم يكون أعظم من خصال كثيرة من ألم آخر كالالم فى أجزاء كثيرة من قرض برغوث.

وقوله «ذِى الطُّولِ» قال ابن عباس و قتادة: معناه ذى النعم. و قال ابن زيد: معناه ذى القدرة. و قال الحسن: ذى التفضل على المؤمنين. و قيل (الطول) الانعام الذى تطول مدته على صاحبه كما أن التفضل النفع الذى فيه إفضال على صاحبه. و لو وقع النفع على خلاف هذا الوجه لم يكن تفضلاً. و يقال:

لفلان على فلان طول أى فضل.

وقوله «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» نفى منه تعالى أن يكون معبود على الحقيقة يستحق العبادة غيره تعالى. ثم قال «إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» و معناه تؤول الأمور إلى حيث لا يملك أحد الامر و النهى و الضر و النفع غيره تعالى، و هو يوم القيامة، لأن دار الدنيا التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٥

قد ملك الله كثيراً من خلقه الأمر و النهى و الضر و النفع. ثم قال «مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» معناه لا يخاصم فى دفع حجج الله و إنكارها و جحدها إلا الذين يجحدون نعم الله و يكفرون بآياته و أدلته. ثم قال لنبيه «فَلَا يَغْرُرْكَ» يا محمد «تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ» أى تصرفهم لقولهم: لفلان مال يتقلب فيه أى يتصرف فيه. و المعنى لا يغررك سلامتهم و إمهالهم، فان عاقبتهم تصير إلى و لا يفوتوننى.

و فى ذلك غاية التهديد.

ثم بين ذلك بأن قال «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ» أى قبل هؤلاء الكفار «قَوْمُ نُوحٍ» بان جحدوا نبوته «وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ» أيضاً كذبوا رسلهم «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ» و إنما قال برسولهم لأنه أراد الرجال. و فى قراءة عبد الله «برسولها ليأخذوه» قال قتادة هموا به ليقتلوه «وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ» أى و خاصموا فى دفع الحق بباطل من القول. و فى ذلك دليل على ان الجدل إذا كان بحق كان جائزاً «لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» أى ليبطلوا الحق الذى بينه الله و أظهره و يزيلوه، يقال: أدهض الله حجته. و قال تعالى «حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» «١» أى

زائلة. ثم قال «فَأَخَذَتْهُمُ» أى فأهلكتهم و دمرت عليهم «فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» فما الذى يؤمن هؤلاء من مثل ذلك؟!

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٥٥

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠)

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٦

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ نافع و ابن عامر «حقت كلمات» على الجمع. الباقون على التوحيد.

من وجد فلائذ الكلمة تقع على القليل و الكثير مفردة. و من جمع فلائذ ذلك قد يجمع إذا اختلف أجناسها، كما قال «وَصَدَقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّي» (١) يعنى شرائعه لأن كتبه قد ذكرت. و المعنى و حقت كلمات ربك، كقولهم: الحق لازم. و وجه التشبيه فى قوله «وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» أن الكفار يعاقبون فى الآخرة بالنار، كما عوقبوا فى الدنيا بعذاب الاستئصال إلا انهم فى الآخرة على ملازمة النار و الحصول فيها، و قد حقت الكلمة عليهم فى الأمرين جميعاً، فحقت الكلمة على هؤلاء كما حقت الكلمة على أولئك، و موضع «أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ» يحتمل أن يكون نصباً على تقدير بأنهم أو لأنهم. و يحتمل أن يكون رفعاً على البدل من (كلمة). و قال الحسن: حقت كلمة ربك على مشركى

(١) سورة ٦٦ التحريم آية ١٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٧

العرب كما حقت على من قبلهم.

ثم اخبر تعالى عن حال الملائكة و عظم منزلتهم بخلاف ما عليه الكفار من البشر، فقال «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ» عبادة لله تعالى و امثالاً لأمره «وَمَنْ حَوْلَهُ» يعنى الملائكة الذين حول العرش يطوفون به و يلجئون اليه «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» أى ينزهونه عما لا يليق به و يحمدهونه على نعمه «وَيُؤْمِنُونَ بِهِ» أى و يصدقون به و يعترفون بوحدانيتها «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» أى يسألون الله المغفرة للذين آمنوا- من البشر- أى صدقوا بوحدانيتها و اعترفوا بالالهية.

و يقولون: ايضاً مع ذلك «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا» و نصبهما على التميز و معناه وسعت رحمتك أى نعمتك و معلومك كل شىء، فنقل الفعل إلى الموصوف على وجه المبالغة، كما قالوا: طببت به نفساً، و جعل العلم فى موضع المعلوم، كما قال «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ» (١) أى بشىء من معلومه على التفصيل، و تقديره:

وسعت رحمتك و علمك كل شىء، و يقولون أيضاً ربنا «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا» من معاصيك و رجعوا إلى طاعتك «وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ» الذى دعوت خلقك اليه من التوحيد و إخلاص العبادة «وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» أمنع منهم عذاب جهنم لا يصل اليهم، و حذف يقولون قبل قوله «ربنا» لأنه مفهوم من الكلام.

و استغفارهم للذين تابوا يدل على ان إسقاط العقاب غير واجب لأنه لو كان واجباً لما كان يحتاج إلى مسألتهم بل الله تعالى كان يفعلها لا محالة.

ثم حكى تمام ما يدعوا به حملة العرش و الملائكة للمؤمنين، فإنهم يقولون ايضاً «رَبَّنَا وَ أَذْخِلْهُمْ» مع قبول توبتك منهم و وقاية النار

(١) سورة ٢ البقرة آية ٥٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٨

(جَنَّاتٍ عَرْضُهَا النَّبِيُّ وَعَرْضُهَا النَّبِيُّ) أى الجنة التى وعدت المؤمنين بها و هى جنه عدن أى إقامة و خلود و دوام (وَمَنْ صِلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) كل ذلك فى موضع نصب. و يحتمل أن يكون عطفاً على الهاء و الميم فى (و أدخلهم) و تقديره و ادخل من صلح من آبائهم و أزواجهم و ذرياتهم الجنة ايضاً. و يحتمل ان يكون عطفاً على الهاء و الميم فى (وعدتهم) و تقديره أدخلهم جنات عدن التى وعدت المؤمنين و وعدت من صلح من آبائهم (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ) فى انتقامك من أعدائك (الحكيم) فى ما تفعل بهم و بأولئك، و فى جميع أفعالك. و قولهم (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ) معناه و قهم عذاب السيئات و يجوز أن يكون العذاب هو السيئات و سماه سيئات، كما قال (وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ) «١» للتساع و قوله (وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ) أى تصرف عنه شر عاقبه سيئاته من صغير اقترفه او كبير تاب منه فتفضلت عليه (يومئذ) يعنى يوم القيامة (فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أى صرف العذاب عنهم هو الفلاح العظيم، و الفوز الظاهر.

ثم اخبر تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ) قال مجاهد و قتاده و السدى و ابن زيد:

مقتوا أنفسهم حين عاينوا العقاب، فقليل لهم: مقت الله إياكم اكبر من ذلك.

و قال الحسن: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله اكبر من مقتكم أنفسكم. و قال البلخي: لما تركوا الايمان و صاروا إلى الكفر فقد مقتوا أنفسهم أعظم المقت، كما يقول أحدنا لصاحبه: إذا كنت لا تبالى بنفسك فلما أبالى بك؟! و ليس يريد انه لا يبالى بنفسه لكنه يفعل فعل من هو كذلك. و قال قوم: لمقت الله اكبر من مقت بعضكم لبعض. و المقت أشد العداوة و البغض

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٩

ثم بين أن مقت الله إياهم حين دعاهم إلى الأيمان على لسان رسله فكفروا به و برسلهم فمقتهم الله عند ذلك، و تقدير (يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ) ينادون إن مقت الله إياكم، و نابت اللام مناب (إن) كما تقولون ناديت إن زيدا لقائم و ناديت لزيد قائم. و قال البصريون هذه لام الابتداء، كما يقول القائل: لزيد أفضل من عمرو أى يقال لهم و النداء قول.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ١١ الى ١٧]..... ص: ٥٩

قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا إِئْتِنِیْ وَ أَحْیِیْنَا اِئْتِنِیْ فَاَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِیْ يُرِیْكُمْ آيَاتِهِ وَ يُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَ مَا تَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِیْبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّینَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِیْعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ یَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ یَوْمَ التَّلَاقِ (١٥)

یَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا یَخْفِیْ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَیْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْیَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْیَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْیَوْمَ

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)

سبع آيات عند الكل إلا ان الشامي قد خالفهم في التفصيل، و هي عندهم سبع عدوا (يوم التلاق) و لم يعده الشامي، و عد الشامي (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ) و لم التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٦٠ يعده الباقون.

حكى الله تعالى عن الكفار الذين تقدم وصفهم انهم يقولون بعد حصولهم في النار و العذاب يا (رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ) قال السدي الاماتة الأولى في الدنيا و الثانية في البرزخ إذا أحيى للمسألة قبل البعث يوم القيامة، و هو اختيار الجبائي و البلخي. و قال قتادة: الاماتة الأولى حال كونهم نطفاً فأحياهم الله، ثم يميتهم، ثم يحييهم يوم القيامة. و في الناس من استدلل بهذه الآية على صحة الرجعة، بأن قال: الاماتة الأولى في دار الدنيا و الأحياء الأول حين إحيائهم للرجعة، و الاماتة الثانية بعدها. و الأحياء الثاني يوم القيامة، فكأنهم اعتمدوا قول السدي، ان حال كونهم نطفاً لا يقال له إماتة، لان هذا القول يفيد اماتة عن حياة و الأحياء يفيد عن إماتة منافية للحياة و إن سموا في حال كونهم نطفاً مواتا. و هذا ليس بقوى لأنه لو سلم ذلك لكان لا بد من أربع إحياءات و ثلاث إماتات أول إحياء حين أحياهم بعد كونهم نطفاً، لان ذلك يسمى احياء بلا شك. ثم اماتة بعد ذلك في حال الدنيا. ثم أحياء في القبر ثم إماتة بعده ثم إحياء في الرجعة ثم إماتة بعدها. ثم إحياء يوم القيامة لكن يمكن أن يقال: إن إخبار الله عن الأحياء مرتين و الاماتة مرتين لا يمنع من احياء آخر و إماتة أخرى. و ليس في الآية انه أحياهم مرتين و أماتهم مرتين بلا زيادة، فالآية محتملة لما قالوه و محتملة لما قاله السدي، و ليس للقطع على أحدهما سبيل. قال ابن عباس و عبد الله و الضحاك: هو كقوله (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (١). و قوله (فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا) إخبار منه تعالى أن الكفار يعترفون بذنوبهم

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٦١

التي اقترفوها في الدنيا لا يمكنهم جحدها، و إنما تمنوا الخروج مما هم فيه من العذاب، فقالوا (فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) و المعنى فهل إلى خروج لنا من سبيل فنسلكه في طاعتك و إتباع مرضاتك. و لو علم الله تعالى انهم يفلحون لردهم إلى حال التكليف، لأنه لا يمنع احساناً بفعل ما ليس بإحسان، و لا يؤتى احد من عقابه إلا من قبل نفسه، و كذلك قال في موضع آخر (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (١) تنبيهاً أنهم لو صدقوا في ذلك لأجابهم إلى ما تمنوه، و إنما يقولون هذا القول على سبيل التمني بكل ما يجدون اليه سيلاً في التلطف للخروج عن تلك الحال، و إنه لا يمكن احداً أن يتجلد على عذاب الله، كما يمكن ان يتجلد على عذاب الدنيا. و وجه اتصال قوله (فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا) بما قبله هو الإقرار بالذنب بعد الإقرار بصفة الرب، كأنه قيل: فاعترفنا بأنك ربنا الذي أمتنا و أحييتنا و طال إمهالك لنا فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج لنا من سبيل فنسلكه في طاعتك و إتباع مرضاتك. و في الكلام حذف و تقديره: فأجيبوا ليس من سبيل لكم إلى الخروج (ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ) أي إذا دعى الله وحده دون آلهتكم جحدم ذلك (وَ إِنِ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا) أي إن يشرك به معبوداً آخر من الأصنام و الأوثان تصدقوا. ثم قال (فالحكم لله) في ذلك و الفاصل بين الحق و الباطل (العلی الكبير) فالعلی القادر على كل شيء يجب ان يكون قادراً عليه، و يصح ذلك منه و صفة القادرين تفاضل، فالعلی القادر الذي ليس فوقه من هو أقدر منه و لا من هو مساو له في مقدوره، و جاز وصفه تعالى بالعلی، لان الصفة بذلك قد تقلب من علو المكان الى علو الشأن يقال: استعلى عليه بالقوة، و استعلى عليه بالحجة و ليس كذلك الرفعة فلذلك لا يسمى بأنه رفيع، و الكبير العظيم في صفاته

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٦٢

التي لا- يشاركه فيها غيره. وقال الجبائي: معناه السيد الجليل. ثم قال تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ) يعنى حججه و دلائله (وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا) من الغيث و المطر الذى ينبت ما هو رزق الخلق (وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ) أى ليس يتفكر فى حقيقة ذلك إلا من يرجع اليه. و قال السدى: معناه إلا من يقبل إلى طاعة الله.

ثم امر الله تعالى المكلفين، فقال (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) أى وجهوا عبادتكم اليه تعالى وحده (و لو كرهه) ذلك (الكافرون) فلا تبالوا بهم.

ثم رجع إلى وصف نفسه فقال (رفيع الدرجات) و قيل معناه رفيع طبقات الثواب التى يعطيها الأنبياء و المؤمنين فى الجنة (و رفيع) نكرة أجراها على الاستئناف أو على تفسير المسألة الأولى، و تقديره: و هو رفيع (ذو العرش) بانه مالكة و خالقه و معناه عظيم الثواب لهم و المجازاة على طاعتهم (يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) قيل: الروح القرآن و كل كتاب أنزله الله على نبي من أنبيائه و قيل: معنى الروح- هاهنا- الوحي، لأنه يحيا به القلب بالخروج من الجهالة إلى المعرفة و منه قوله (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) «١» ذكره قتادة و الضحاك و ابن زيد. و قيل: الروح- هاهنا- النبوة، و تقديره لينذر من يلقي عليه الروح يوم التلاق: من يختاره لنبوته و يصطفيه لرسالته. و قوله (لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) أى ليخوف يوم يلتقى فيه اهل السماء و اهل الأرض- فى قول قتادة و السدى و ابن زيد- و قيل يوم يلقي فيه المرؤ عمله، و هو يوم القيامة حذر منه. و قيل يوم يلتقى فيه الأولون و الآخرون. و الضمير فى قوله (لينذر) كناية عن النبي صلى الله عليه و آله. و يحتمل ان يكون فيه ضمير الله، و الأول أجود، لأنه قد قرئ

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٥٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٦٣

بالتاء، و هو حسن. و من أثبت الياء فلأنها الأصل، و من حذف اجتزأ بالكسرة الدالة عليها.

و قوله (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ) أى يظهرون من قبورهم و يهرعون إلى ارض المحشر و هو يوم التلاق و يوم الجمع و يوم الحشر. و نصب (يوم) على الظرف. و قوله (لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ) إنما خصهم بأنه لا يخفى عليه منهم شىء و إن كان لا يخفى عليه لا منهم و لا (من) غيرهم شىء لاحد أمرين:

أحدهما- أن تكون (من) لتبيين الصفة لا للتخصيص و التبعض.

و الآخر- ان يكون بمعنى يجازيهم من لا يخفى عليه شىء منهم، فذكر بالتخصيص لتخصيص الجزاء بمن يستحقه دون ما لا يستحقه و لا يصح له من المعلوم.

و قيل: لا يخفى على الله منهم شىء فلذلك صح أنه أنذرهم جميعاً.

و قوله (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) قيل فى معناه قولان:

أحدهما- انه تعالى يقرر عباده، فيقول لمن الملك؟ فيقر المؤمنين و الكافرون بأنه لله الواحد القهار.

و الثانى- انه القائل لذلك و هو المجيب لنفسه، و يكون فى الاخبار بذلك مصلحة للعباد فى دار التكليف. و الاول أقوى لأنه عقيب قوله (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ) و إنما قال (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) مع أنه يملك الأنبياء و المؤمنين فى الآخرة الملك العظيم لاحد وجهين:

أحدهما- لأنه على تخصيص يوم القيامة قبل تمليك اهل الجنة ما يملكهم.

و الثانى- لا يستحق إطلاق الصفة بالملك إلا الله تعالى، لأنه يملك جميع الأمور من غير تمليك مملك، فهو أحق بإطلاق الصفة. و قوله (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ) اخبار منه تعالى أن يوم القيامة تجزى كل نفس على قدر التبيان فى تفسير

القرآن، ج ٩، ص: ٦٤

عملها لا يؤاخذ أحد بجرم غيره، لا يظلم ذلك اليوم أحد ولا يبخس حقه (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) لا يشغله محاسبه واحد عن محاسبه غيره، فحساب جميعهم على حد واحد.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ١٨ الى ٢٠]..... ص: ٦٤

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَلْذَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)

ثلاث آيات في الكوفي وأربع في ما سواه عدوا (كاظمين) رأس آية ولم يعده الكوفيون.

قرأ نافع و هشام عن ابن عامر (و الذين تدعون) بالتاء. الباقون بالياء.

من قرأ بالتاء فعلى الخطاب، و تقديره: قل لهم يا محمد. و من قرأ بالياء جعل الاخبار عن الغائب.

امر الله تعالى نبيه محمداً أن يخوف المكلفين عقاب يوم الآزفة، و يخبرهم بما فيه من الثواب و العقاب. و الازفة الدانية من قولهم: أزف الامر إذا دنا، و أزف الوقت إذا دنا يأزف أزفاً، و منه (ازفة الآزفة) «١» أى دنت القيامة. و المعنى دنوا للمجازاة، و هو يوم القيامة. و قوله (إِذِ الْقُلُوبُ لَلْذَى الْحَنَاجِرِ) أى فى الوقت الذى تنتزع فيه القلوب من أمكنتها، و هى الصدور، فكظمت به الحناجر، فلم تستطيع ان تلفظها

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٥٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٦٥

و لم تعد الى أماكنها و قيل: الكاظم الساكت على امتلائه غيظاً او غماً. و نصب (كاظمين) على الحال- فى قول الزجاج- و تقديره قلوب الظالمين لدى الحناجر (كاظمين) أى فى حال كظمهم، و الحناجر جمع حنجرة و هى الحلقوم. و قيل:

انما خصت الحناجر بذلك لان الفزع ينتفخ منه سحره أى رثته فيرتفع القلب من مكانه لشدة انتفاخه حتى يبلغ الحنجرة. و الكاظم للشئ الممسك على ما فيه، و منه قوله (وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ) «١» و منه قولهم: كظم قربه إذا شد رأسها، لأن ذلك الشد يمسكها على ما فيها، فهؤلاء قد اطبقوا أفواههم على ما فى قلوبهم لشدة الخوف.

و قوله (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ) نفى من الله أن يكون للظالمين شفيع يطاع، و يحتمل ان يكون المراد بالظالمين الكفار، فهؤلاء لا يلحقهم شفاعه شافع أصلاً. و ان حملنا على عموم كل ظالم من كافر و غيره جاز أن يكون انما أراد نفى شفيع يطاع، و ليس فى ذلك نفى شفيع يجاب، و يكون المعنى ان الذين يشفعون يوم القيامة من الأنبياء و الملائكة و المؤمنين إنما يشفعون على وجه المسألة اليه و الاستكانة اليه لا أنه يجب على الله ان يطيعهم فيه. و قد يطاع الشافع بأن يكون الشافع فوق المشفوع اليه. و لذلك قال النبى صلى الله عليه و آله لبريرة (انما أنا شافع)

لكونه فوقها فى الرتبة و لم يمنع من إطلاق اسم الشفاعه على سؤاله، و ليس لأحد أن يقول الكلام تام عند قوله (و لا شفيع) و يكون قوله (يطاع) ابتداء بكلام آخر لان هذا خلاف لجميع القراء لأنهم لا يختلفون ان الوقف عند قوله (يطاع) و هو رأس آية و هو يسقط السؤال و أيضاً فلو وقفت عند قوله (و لا شفيع) لما كان لقوله «يطاع»

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٣٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٦٦

تعلق به ولا معنى، لأن الفعل لا يلي فعلاً، فان قدر يطاع الذى يعلم كان ذلك شرطاً ليس هو فى الظاهر، فحمل الآية على ما لا يحتاج إلى زيادة أولى.

وقوله تعالى (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ) أى يعلم ما تختار به الأعين من النظر إلى غير ما يجوز النظر إليه على وجه السرقة «وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» أى تضمه لا يخفى عليه شيء من جميعه. وقيل: النظرة الأولى مباحة والثانية محرمة.

ف قوله «خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ» فى النظرة الثانية «وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» فى النظرة الأولى فان كانت الأولى تعمداً كان فيها الإثم ايضاً، وإن لم تكن تعمداً، فهي مغفورة ثم قال «وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ» أى يفصل بين الخلائق بمر الحق فيوصل كل واحد إلى حقه «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» من الأصنام لا يقضون بشيء من الحق. ومن قرأ بالياء فعلى الاخبار عنهم. ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب للكفار.

ثم اخبر تعالى «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ» أى من يجب ان يسمع المسموعات إذا وجدت المسموعات «البصير» أى يجب ان يبصر المبصرات إذا وجدت المبصرات، و حقيقتهما يرجع الى كونه حياً لا آفة به. وقال قوم: معناه العالم بالمسموعات العالم بالمبصرات.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٦٦

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٦٧

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عباس «أشد منكم» بالكاف. الباقون بالهاء. قال ابو على: من قرأ بالهاء فلأن ما قبله «أَوَلَمْ يَسِيرُوا» على ان لفظه لفظ الغيبة، فحملة على ذلك فقرأ «أَشَدَّ مِنْهُمْ» ومن قرأ بالكاف انصرف من الغيبة الى الخطاب، كقوله «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» بعد قوله «الْحَمْدُ لِلَّهِ» و حسن - هنا - لأنه خطاب لأهل مكة.

يقول الله تعالى منبهاً لهؤلاء الكفار على النظر فى ما نزل بالماضين جزاء على كفرهم فتنعظوا بذلك و ينتهوا عن مثل حالهم، فقال «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» والسير والمسير واحد، وهو الجواز فى المواضع، يقال: سار يسير سيراً وسأيره مسأيره وسيره تسيراً، ومنه قوله «السَّيَّارَةُ» «١» والثياب المسيرة: التى فيها خطوط وقوله «فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» أى يتفكروا فى عواقب الكفار من قوم عاد وقوم لوط، فيرون بلادهم هالكة وآثارهم دارسةً و منازلهم خالية بما حل بهم من عذاب الله و نكاله جزاء على جحودهم نعم الله و اتخاذهم معه إلهاً غيره، و كان الأمم الماضية أشد قوة من هؤلاء. والقوة هى القدرة، ومنه قوله «الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» «٢» وقد يعبر بالقوة عن الصلابه، فيقال:

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠

(٢) سورة ١١ هود آية ٦٦ و سورة ٤٢ الشورى آية ١٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٦٨

خشبة قوية و جبل قوى أى صلب، و أصله من قوى الجبل، و هو شدة القتل ثم نقل إلى معنى القدرة، كما نقل (كبر) عن كبر الجثة إلى كبر الشأن، و الأثر حدث يظهر به أمر، و منه الآثار التى هى الأحاديث عمن تقدم بما تقدم بها من أحوالهم و طرائقهم فى أمر الدنيا و الدين. وقوله «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» و معناه فأهلكهم الله جزاء على معاصيهم «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» فى دفع العذاب

عنهم و منعهم من نزوله بهم - و هو قول قتادة -.

ثم بين تعالى انه إنما فعل بهم ذلك لأنهم «تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» يعنى بالمعجزات الظاهرات و الدلالات الواضحات فكذبوهم و جحدوا رسالتهم فاستحقوا العذاب «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» أى اهلكهم الله جزاء على معاصيهم «إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ» أى قادر شديد عقابه.

ثم ذكر قصة موسى عليه السلام فقال «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا» أى بعثناه بحججنا و أدلتنا «وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ» أى حجة ظاهرة نحو قلب العصى حية و فلق البحر و غير ذلك «إِلَى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ» يعنى موسى. ثم قال تعالى «فَلَمَّا جَاءَهُمْ» يعنى موسى عليه السلام «بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا» يعنى فرعون و هامان و قارون «اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا» بموسى و من معه «وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ» أى استبقوهم، قال قتادة: كان هذا الامر بقتل الأبناء و الاستحياء للنساء امراً من فرعون بعد الامر الاول. و قيل استحياء نساءهم للمهنة. و قيل:

معناه استحيوا نساءهم و قتلوا الأبناء ليصدهم بذلك عن اتباعه و يقطعوا عنه من يعاونه، و إنما ذكر قصة موسى ليصبر محمد صلى الله عليه و آله على قومه كما صبر موسى قبله.

ثم اخبر تعالى ان ما فعله من قتل الرجال و استحياء النساء لم ينفعه و ان كيده، و كيد الكافرين لا يكون الا فى ضلال عن الحق و اسم (كان) الاولى قوله التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٦٩

«عاقبة» و خبرها (كيف) و انما قدم لان الاستفهام له صدر الكلام، و اسم (كان) الثانية الضمير الذى دل عليه الواو، و خبره (من قبلهم)، و اسم (كان) الثالثة الضمير، و (هم) فصل عند البصريين، و عماد عند الكوفيين «و أشد» خبر (كان) الثالثة. فان قيل: الفصل لا يكون الا بين معرفتين (و أشد) نكرة كيف صار (هم) فصلاً؟ قيل: ان (افعل) الذى معه (من) بمنزلة المضاف الى المعرفة. قال الله تعالى «وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ» كان خيراً خيراً فى الأصل فحذفت الهمزة تخفيفاً.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠] ص: ٦٩

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ الْآخْرَابِ (٣٠)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧٠

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ عاصم و حمزة و الكسائي و يعقوب «او ان» بالف قبل الواو. الباقون «و أن» بغير الف. و قرأ نافع و يعقوب و ابو جعفر و ابو عمرو و حفص عن عاصم «يظهر» بضم الياء «الفساد» نصباً. الباقون «يظهر» بفتح الياء «الفساد» رفعاً. من نصب (الفساد) أشركه مع التبديل، و تقديره إنى أخاف ان يبدل دينكم و أخاف ان يظهر الفساد، و من رفع لم يشركه، و قال تقديره إنى أخاف ان يبدل دينكم، فإذا بدل ظهر فى الأرض الفساد. و كلتا القراءتين حسنة فأما (او) فقد تستعمل بمعنى الواو، كما قلناه فى «وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» «١» أى و يزيدون أو بل يزيدون. و لا تكون الواو بمعنى (او) فى قول أبى عبيدة.

و قال ابن خالويه إذا كانت (او) اباحة كانت الواو بمعناها، لأن قولك: جالس الحسن او ابن سيرين بمنزلة الاباحة، و كذلك قوله «وَلَا تُطِيعُ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا» «٢» لان معناه و لا كفوراً. و قال ابو على: من قرأ (و أن) فالمعنى إنى أخاف هذا الضرب منه كما تقول

كل خبزاً أو تمرّاً أى هذا الضرب. و من قرأ (و أن) المعنى إني أخاف هذين الأمرين و على الاول يجوز ان يكون الأمر ان يخافا، و يجوز أن يكون أحدهما، و على الثانى هما معاً يخافان، و من ضم الياء فى قوله «و يظهر» فلائنه أشبه بما قبله، لان قبله يبدل فأسند الفعل إلى موسى و هم كانوا فى ذكره، و من فتح الياء أراد انه إذا بدل الدين ظهر الفساد بالتبديل او أراد يظهر الفساد بمكانه، و قال قوم: أراد ب (او) الشك لان فرعون قال إني

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٤٧

(٢) سورة ٧٦ الدهر (الإنسان) آية ٢٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧١

أخاف ان يبدل موسى عليكم دينكم، فان لم يفعله فيوقع الفساد بينكم، و لم يكن قاطعاً على أحدهما به. و روى رواية شاذة عن أبى عمرو: انه قرأ «و قال رجل» بإسكان الجيم. الباقون بضمها و ذلك لغه قال الشاعر:

رجلان من ضبة اخبرانا إنا رأينا رجلا عريانا
أراد رجلين فأسكن و هو مثل قولهم: كرم فلان بمعنى كرم.

حكى الله تعالى عن فرعون انه قال لقومه «ذروني» و معناه اتركوني اقتل موسى، و ذلك يدل على أن فى خاصة فرعون كان قوم يمنعونه من قتل موسى، و من معه و يخوفونه ان يدعوا ربه فيهلك، فلذلك قال ذروني اقتله و ليدع ربه، كما تقولون. و قال قوم: ذلك حين قالوا له هو ساحر فان قتلته قويت الشبهة بمكانه بل «أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمِدَائِنِ حَاشِرِينَ» (١) «وَلْيَدْعُ رَبَّهُ» فى دفع القتل عنه، فانه لا يخشى من دعائه شىء، و هذا عنف من فرعون و تمرد و جرأة على الله و إيهام لقومه بأن ما يدعوا به موسى لا حقيقة له. ثم قال فرعون «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ» يعنى موسى «دِينَكُمْ» و هو ما تعتقدونه من إلهيتي «أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ» بأن يتبعه قوم نحتاج ان نقاتله فيخرب فى ما بين ذلك البلاد، و يظهر الفساد. و قال قتادة: الفساد عند فرعون ان يعمل بطاعة الله. فمن قرأ «او ان» فانه جعل المخوف احد الامرين و إن جعل (او) بمعنى الواو جعل الأمرين مخوفين معاً، و من قرأ بالواو جعل المخوف الأمرين معاً: تبديل الدين و ظهور الفساد. و التبديل رفع الشىء إلى غيره فى ما يقع موقعه إلا انه بالعرف لا يستعمل إلا فى رفع الجيد بالردى، و الفساد انتقاض الأمر بما ينافى العقل او الشرع او الطبع، و نقيضه الصلاح. و الاظهار

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٣٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧٢

جعل الشىء بحيث يقع عليه الإدراك.

ثم حكى تعالى ما قال موسى عند ذلك فانه قال «إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ» و العياذ هو الاعتصام بالشىء من عارض الشر، عذت بالله من شر الشيطان و اعتصمت منه بمعنى واحد. و من أظهر و لم يدغم، قال: لان مخرج الذال غير مخرج التاء. و من ادغم فلقرب مخرجهما، و المعنى انى اعتصمت بربى و ربكم الذى خلقنى و خلقكم من كل متكبر على الله متجبر عن الانقياد له لا يصدق بالثواب و العقاب فلا يخاف.

و قوله «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» يعنى الحجج الواضحة «من ربكم» قال السدى كان القائل ابن عم فرعون، فعلى هذا يكون قوله «أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» (١) مخصصاً، و قال غيره كان المؤمن إسرائيلياً يكتُم إيمانه عن آل فرعون، فعلى هذا يكون الوقف عند قوله (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ) و يكون قوله (مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) متعلقاً بقوله (يَكْتُمُ) أى يكتُم إيمانه من آل فرعون.

و الأول اظهر في اقوال المفسرين. و قال الحسن: كان المؤمن قبطياً. و قوله (وَإِنْ يَكْ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) معناه إن المؤمن قال لفرعون إن يك موسى كاذباً في ما يدعوكم اليه فوبال ذلك عليه و ان يك صادقاً في ما يدعيه يصيبكم بعض الذي يعدكم، قيل: انه كان يتوعدهم بأمور مختلفة، قال ذلك مظهرة في الحجاج و المعنى انه يلقي بعضه. و المراد يصيبكم بعضه في الدنيا. و قيل: هو من لطيف الكلام، كما قال الشاعر:

قَد يَدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَ قَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلِيلُ «٢»

(١) آية ٤٦ من هذه السورة

(٢) قائله عمر القطامي تفسير القرطبي ٣٠٧ / ١٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧٣

ثم قال (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) أى لا يحكم بهدايه من كان مسرفاً على نفسه و متجاوز الحد في معصية الله كذاباً على الله. و يحتمل ان يكون المراد ان الله لا يهدى الى طريق الثواب و الجنة من هو مسرف كذاب و يجوز ان يكون ذلك حكاية عما قال المؤمن من آل فرعون. و يجوز ان يكون ذلك ابتداء خبر من الله تعالى بذلك، ثم قال يعنى مؤمن آل فرعون (يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا) أى لكم الملك و السلطان على اهل الأرض و ذلك لا يمنع من بأس الله (قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) فى ما أدعوكم من الهيى و تكذيب موسى. ثم حكى ما قال المؤمن فقال (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا) (مثل) عذاب «يوم الأحزاب» قال قوم: القائل لذلك موسى نفسه، لان مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه، و هذا ضعيف لأن قوله هذا كقوله (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) «١» و كما اظهر هذا جاز ان يظهر ذلك.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ٧٣

مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَمِمَّا يُبْدُونَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَلِيَّاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)

(١) آية ٢٨ من هذه السورة

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧٤

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو، و الأَخفش و الداجوني عن هشام و قتيبة (على كل قلب متكبر) منون. الباقون على الاضافة. من نون جعله نعتاً للقلب، لان القلب إذا تكبر تكبر صاحبه، كما قال (فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) «١» لان الاعناق إذا خضعت خضع أربابها، و تكبر القلب قسوته و إذا قسا القلب كان معه ترك الطاعة. و من أضاف قال: لان فى قراءة ابن مسعود على (قلب كل متكبر جبار) قال الفراء: و سمعت أحدهم يقول: إن فلاناً مرّجلاً شعره يوم كل جمعة يقوم. و الجبار: هو الذى يقتل على الغضب، و يقال: أجبره فهو جبار مثل أدرك فهو دراك. قال الفراء: و لا ثالث لهما، قال ابن خالويه: وجدت لهما ثالثاً أسأر فهو سّار.

لما حكى الله تعالى عن مؤمن آل فرعون انه حذر قومه بالعذاب مثل عذاب يوم الأحزاب، فسر ذلك فقال (مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ) يعنى

كعاداته مع قوم نوح.

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٤ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧٥

و الدأب العادة يقال: دأب يدأب دأباً فهو دأب في عمله إذا استمر فيه. و العادة تكرر الشيء مرة بعد مرة. و انما فعل بهم ذلك حين كفروا به، فأغرقهم الله و كقوم هود و هم عاد. و كقوم صالح: و هم ثمود و الذين من بعدهم من الأنبياء و أممهم الذين كذبوهم، فأهلكهم الله بأن استأصلهم جزاء على كفرهم.

ثم اخبر انه تعالى لا يريد ظلماً للعباد، و لا يؤثره لهم. و ذلك دال على فساد قول المجبرة الذين يقولون إن كل ظلم في العالم بارادة الله.

ثم حكى ايضاً ما قال لهم المؤمن المقدم ذكره، فانه قال «يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ» عقاب «يَوْمَ التَّنَادِ» و قيل: هو اليوم الذي ينادى بعض الظالمين بعضاً بالويل و الثبور، لما يرى من سوء عقاب الكفر و المعصية. و قيل: انه اليوم الذي ينادى أصحاب الجنة أصحاب النار «أَنْ قَدْ وَحَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا» (١) و ينادى أصحاب النار أصحاب الجنة «أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» (٢) في قول الحسن و قتادة و ابن زيد، و قيل: «يَوْمَ التَّنَادِ» هو اليوم الذي يدعى فيه «كُلُّ أَنْاسٍ بِأَمَامِهِمْ» (٣) و من أثبت الياء في (التنادي) فلأنها الأصل، و من حذفها فلاجترائه بالكسرة الدالة عليها، و لأنها آخر الآية، فهي فصل شبهت بالقوافي. و قرئ «يوم التناد» بالتشديد من قولهم ند البعير إذا هرب - روى ذلك عن ابن عباس -.

و قوله «يَوْمَ تُولَّوْنَ مُدْبِرِينَ» قال الحسن و قتادة: معناه منصرفين إلى النار و قال مجاهد: مارين غير معوجين و لا معجزين. و قيل: يولون مدبرين و المقامع تردهم إلى ما يكرهونه من العقاب.

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ٤٩

(٣) سورة ١٧ الإسراء آية ٧١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧٦

و قوله «مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ» أى مانع من عذاب ينزل بكم، و أصله المنع، و شبه بذلك من فعل به ذلك اللطف الذى يتمتع عنده، يقال عصمه فهو عاصم و ذاك معصوم إذا فعل به ذلك اللطف. و منه قوله (لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) (١) أى لا مانع. ثم قال (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) أى من يحكم الله بضلاله فليس له من يحكم بهديته على الحقيقة. و يحتمل ان يكون المراد و من يضلله الله عن طريق الجنة فما له من يهديه اليها.

ثم قال تعالى حاكياً ما قال لهم موسى فانه قال لهم: (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ) قيل: هو يوسف ابن يعقوب كان قبل موسى جاءهم (بالبينات) يعنى الحجج الواضحات (فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ) من موته حتى إذا هلك و مات (قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) آخر. ثم قال (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ) أى مثل ما حكم الله بضلال أولئك يحكم بضلال (كل مسرف) على نفسه بارتكاب معاصيه (مرتاب) أى شاك فى أدله الله، ثم بينهم فقال (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ) أى يسعون بغير سلطان أى بغير حجة آتاهم الله، و موضع الذين نصب لأنه بدل من (من) و يجوز ان يكون رفعاً بتقدير (هم) ثم قال (كَبُرَ مَقْتًا) أى كبر ذلك الجدل منهم مقتاً (عند الله) أى عداوة من الله. و نصبه على التمييز (وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا) بالله مثل ذلك. ثم قال (كذلك) أى مثل ما طبع على قلوب أولئك بان ختم عليها علامة لكفرهم يفعل مثله (و يطبع على كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) من نون (قلب) جعل (متكبر جبار) من صفة

القلب و من اضافه جعل (القلب) للمتكبر الجبار. قال ابو علي: من أضاف لا يخلو ان يترك الكلام على ظاهره او يقدر فيه حذفاً، فان تركه على ظاهره كان تقديره:

(١) سورة ١١ هود آية ٤٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧٧

يطبع الله على كل قلب متكبر أى على جملة القلب من المتكبر، و ليس ذلك المراد و إنما المراد يطبع على قلب كل متكبر، و المعنى انه يطبع على القلوب إذا كانت قلباً قلباً من كل متكبر بمعنى انه يختم عليها.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٣٦ الى ٤٠]..... ص: ٧٧

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُلْبِغَ الْأَشْيَابَ (٣٦) أَشْيَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حفص و عاصم (فاطلع) نصباً على جواب (لعلّي) الباقون رفعاً عطفاً على قوله تعالى (لَعَلِّي أُلْبِغَ الْأَشْيَابَ..... فَأَطَّلِعَ) وقيل: إن هامان أول من طبخ الآجر لبناء الصرح، وقرأ أهل الكوفة (و صدّ) بضم الصاد على ما لم يسم فاعله. الباقون بفتحها. فمن ضم أراد صده الشيطان عن سبيل الحق و طابق قوله تعالى (زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ) و من فتح الصاد أراد به صدّ غيره التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧٨

عن سبيل الحق. وقرأ ابن كثير و ابو عمرو و ابو بكر عن عاصم (يدخلون) بالضم كقوله (يرزقون). الباقون بفتح الياء، لأنهم إذا ادخلوا، فقد دخلوا، حكى الله تعالى ان فرعون قال لهامان (يا هامان) وقيل: إنه كان وزيره (ابن لى صِرْحًا) أى بناء ظاهراً عالياً لا يخفى على الناظر و ان بعد، و هو من التصريح بالأمر، و هو إظهاره بأتم الاظهار (لَعَلِّي أُلْبِغَ الْأَشْيَابَ) ثم فسر تلك الأسباب فقال (اسباب السموات) و قال ابن عامر أراد به منزل السماء.

و قال قتادة: معناه أبواب طرق السموات. و قال السدى طرق السموات وقيل:

هى الأمور التى يستمسك بها. فهى أسباب لكونها على ما هى به و لا تضطرب و لا تسقط إلى الأرض بثقلها، و لا تزول إلى خلاف جهتها، و قوله «فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى» معناه فأشرف عليه لا- راه. وقيل: إن فرعون كان مشبهاً فطلب رؤية الاله فى السماء كما ترى الاشخاص إذا أشرف عليها. وقيل: يجوز ان يكون أراد، فاطلع إلى بعض الآيات التى يدعيها موسى الدالة على إله موسى، لأنه كان يعلم أن الصرح لا- يبلغ السماء، فكيف يرى من الصرح ما هو فى السماء، و لو كان فيها على قول المجسمة، و يجوز ان يكون قال ذاك تمويهاً لما علم من جهل قومه.

و قوله «وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا» حكاية ما قال فرعون و إنه يظن أن ما يقوله موسى أن له إله خلق السماء و الأرض كاذب فى قوله. و قال الحسن: إنما قال فرعون هذا على التمويه و تعمد الكذب، و هو يعلم ان له إلهاً. و قوله «وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ» أى مثل ما زين لهؤلاء الكفار أعمالهم كذلك زين لفرعون سوء عمله، و قال المزين له سوء عمله جهله بالله تعالى و الشيطان الذى أغواه و دعاه اليه لأن الجهل بالقبح فى العمل يدعو إلى انه حسن و صواب، فلما جهل فرعون ان له إلهاً يجب عليه عبادته و توهم كذب ما دعاه

اليه نبيه موسى، التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٧٩

سولت له نفسه ذلك من أمره. وقد بين الله تعالى ذلك في موضع آخر فقال «زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ» (١).

وقوله «وَصِيدَ عَنِ السَّبِيلِ» من ضم أراد انه صده غيره. و من فتح أراد انه صد نفسه و غيره. ثم قال تعالى «وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ» يعنى فى هلاك. و التباب الهلاك بالانقطاع، و منه قوله «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» (٢) أى خسرت بانقطاع الرجاء، و منه تبأ له. و قال ابن عباس و مجاهد و قتادة: معنى «تباب» خسران.

ثم حكى تعالى ما قال مؤمن آل فرعون فى قوله «وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ» و هو الايمان بالله و توحيده و إخلاص العبادة له و الإقرار بموسى عليه السلام و قال لهم أيضاً على وجه الوعظ لهم و الزجر عن المعاصى «يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ» يعنى انتفاع قليل، ثم يزول بأجمعه و يبقى وزره و آثامه «وَأِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ» أى دار مقام، و سميت دار قرار لاستقرار الجنة بأهلها و استقرار النار بأهلها. و القرار المكان الذى يستقر فيه.

ثم قال (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا) و معناه أى من عمل معصية فليس يجازى إلا مقدار ما يستحقه عليها من العقاب لا اكثر من ذلك (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) جزاء على إيمانهم (يُزَوِّجُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) أى زيادة على ما يستحقونه تفضلاً منه تعالى، و لو كان على مقدار العمل فقط لكان بحسابه. قال الحسن: هذا كلام مؤمن آل فرعون. و يحتمل أن يكون ذلك اخباراً منه تعالى عن نفسه.

(١) سورة الانفال آية ٤٩

(٢) سورة ١١١ اللهب آية ١

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨٠

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٢١ الى ٤٦]..... ص: ٨٠

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَيَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاةُ اللَّهِ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِالْفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥)

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)

ست آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر (أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ) بقطع الهمزة على انه يؤمر الملائكة بإدخالهم النار. الباقر بوصلها بمعنى انهم يؤمرون بدخولها، و على الأول يكون (آل فرعون) نصباً على انه مفعول به (و أشد) المفعول الثانى. و على الثانى يكون نصباً على النداء.

حكى الله تعالى ان مؤمن آل فرعون قال لهم (ما لى أدعوكم إلى النجاة) يعنى إلى ما فيه خلاصكم: من توحيد الله و إخلاص العبادة له و الإقرار بموسى عليه السلام- و هو قول الحسن و ابن زيد- و (تدعوننى) أنتم (إلى النار) لأنهم إذا دعوا إلى عبادة غير الله التى يستحق بها النار، فكأنهم دعوا إلى النار، لأن من التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨١

دعا الى سبب الشىء فقد دعا اليه، و من صرف عن سبب الشىء فقد صرف عنه، فمن صرف عن معصية الله فقد صرف عن النار، و من دعا اليها فقد دعا إلى النار. و الدعاء طلب الطالب الفعل من غيره، فالمحق يدعو إلى عبادة الله و طاعته و كل ما أمر لله به او نهى عنه و المبطل يدعو إلى الشر و العصيان، فمنهم من يدرى انه عصيان و منهم من لا يدرى ثم بين ذلك فقال (تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ) و اجدد نعمه (و أشرك به) فى العبادة (ما لى به عِلْمٌ) مع حصول العلم ببطلانه، لأنه لا يصح ان يعلم شريك له و ما لا يصح أن

يعلم باطل، فدل على فساد اعتقادهم للشرك من هذه الجهة ثم قال (وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ) معاشر الكفار (إلى) عبادة (العزیز) یعنی القادر الذي لا يقهر، ولا يمنع لاستحالة ذلك عليه (الغفار) لمن عصاه إذا تاب إليه تفضلاً منه على خلقه. وقوله (لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) قال الزجاج: هو رد الكلام كأنه قال لا- محالة إن لهم النار. وقال الخليل: لا جرم لا يكون إلا جواباً تقول: فعل فلان كذا فيقول المجيب: لا جرم إنه عوين والفعل منه جرم يجرم.

وقال المبرد معناه حق واستحق (لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ) والمعنى ليس له دعوة ينتفع بها في أمر الدنيا ولا في الآخرة فأطلق ليس له دعوة، لأنه ابلغ وإن توهم جاهل أن له دعوة ينتفع بها، فانه لا يعتد بذلك لفساده و تناقضه.

وقال السدي و قتادة و الضحاک: معناه ليس لهذه الأصنام استجابة دعاء احد في الدنيا ولا في الآخرة. وقيل: معناه ليس لها دعوة تجاب بالآلهية في الدنيا، ولا في الآخرة (وَ أَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ) أى وجب ان مردنا إلى الله، و وجب (أن المسرفين) بارتكاب المعاصي. وقال مجاهد: یعنی بقتل النفس من غير حلها.

وقال قتادة بالاشراك بالله (هُم أَصْحَابُ النَّارِ) یعنی الملازمون لها. قال الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨٢ هذا كله من قول مؤمن آل فرعون.

ثم قال لهم على وجه التخويف و الوعظ (فستذكرون) صحه (مَا أَقُولُ لَكُمْ) إذا حصلتم في العقاب يوم القيامة. تم اخبر عن نفسه فقال (وَ أَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ) أى أسلمه إليه (إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) أى عالم بأحوالهم، و ما يفعلونه من طاعة و معصية. وقال السدي: معنى أفوض اسلم إليه. ثم اخبر تعالى فقال (فَوَقَاَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا) و قال قتادة: صرف الله عنه سوء مكرهم، و كان قبطياً من قوم فرعون فنجى مع موسى. وقوله (وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ) أى حل بهم و وقع بهم (سوء العذاب) لان الله تعالى غرقهم مع فرعون، و بين انهم مع ذلك في (النَّارِ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا) یعنی صباحاً و مساءً، و رفع النار بدلاً من قوله (سوء العذاب) (وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) یعنی إذا كان يوم القيامة يقال للملائكة (أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) فيمن قطع الهمزة.

و من وصلها أراد ان الله يأمرهم بذلك. و العرض إظهار الشيء ليراه الذى يظهر له. و منه قوله عُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ

«أى أظهروا (صفاً) كما يظهرون المرائى لهم. و منه قولهم: عرضت الكتاب على الأمير، فهو لاء يعرضون على النار لينالهم من ألمها و الغم بالمصير إليها. و الغدو المصير إلى الشيء بالغداة غدا يغدو غدواً. و قولهم: تغدى أى أكل بالغداة، و غدا أى سابق إلى الأمر بالغداة.

و (قيام الساعة) و جودها، و دخولها على استقامتها بما يقوم من صفتها، و قامت السوق إذا حضر أهلها على ما جرت به العادة و (أشد العذاب) اغلظه.

و في الآية دلالة على صحه عذاب القبر لأنه تعالى اخبر انهم يعرضون على النار غدواً و عشياً. و قال الحسن: آل فرعون أراد به من كان على دينه.

(١) سورة ١٨ الكهف ٤٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨٣

و كان السدي يقول: أرواحهم في أجواف طير سود يعرضون على النار غدواً و عشياً، و يجوز ان يحييهم الله بالغداة و العشى و يعرضهم على النار، و وجه الاحتجاج على رؤساء الضلال بالاتباع انهم كانوا يدعونهم إلى اتباعهم بما يدعون من صواب مذاهبهم. و هذا يلزمهم الرفع بها عنهم و أن يسعوا في تخفيف عذابهم، فإذا هي سبب عذابهم. و قال الفراء، و قوم من المفسرين - ذكره البلخي - في الكلام تقديماً و تأخيراً، و تقديره و حاق بآل فرعون سوء العذاب، و يوم تقوم الساعة يقال: لهم ادخلوا آل فرعون أشد العذاب النار يعرضون عليها غدواً و عشياً، و يكون معنى غدواً و عشياً مع انهم فيها أبداً أنه تتجدد جلودهم بعد الاحتراق غدواً و عشياً. و قال

قوم: يجوز ان يكون المراد انهم بعرضها، كما يقال: فلان يعرضه شر شديد أى يقرب من ذلك. وقال قوم: يجوز ان يكون المراد ان أعمالهم اعمال من يستحق النار، فكأنهم يغدون و يروحون اليها بأعمالهم. وقال قوم: المعنى يعرضون عليها و هم أحياء بالزجر و التحذير و الوعد و الوعيد، فإذا كان يوم القيامة- و ماتوا على كفرهم- ادخلوا أشد العذاب.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٤٧ الى ٥٠].... ص: ٨٣

وَ إِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتُونَ عَنَّا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨٤

أربع آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه و اذكر يا محمد (إذ) أى الوقت الذى (يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ) و يخاصم بعضهم بعضاً يعنى الرؤساء و الاتباع (فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ) و هم الاتباع (لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) و هم الرؤساء (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ) معاشر الرؤساء (تبعاً) و يحتمل ان يكون ذلك جمع تابع كغائب و غيب و حایل و حول، و يجوز أن يكون مصدراً أى تبعناكم تبعاً (فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتُونَ عَنَّا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ) لأنه يلزم الرئيس الدفع عن اتباعه و المنقادين لأمره، فيسألونهم هؤلاء أن يغنوا عنهم قسطاً من النار أى طائفة منها، فيقول الرؤساء الذين استكبروا (إِنَّا كُلٌّ فِيهَا) أى نحن و أنتم فى النار، فكيف ندفع عنكم. و رفع «كل فيها» على انه خبر (إنا) كقوله (إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) «١» و يجوز أن يكون رفعاً بالابتداء، و خبره (فيها) (إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ) بذلك (بين العباد) و انه يعاقب من أشرك به و عبد معه غيره ثم حكى ما يقوله (الذين) حصلوا (فى النار) من الاتباع و المتبوعين (لخزنته جهنم) و هم الذين يتلون عذاب اهل النار (ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ) و يقولون ذلك، لأنه لا صبر لهم على شدة العذاب لا انهم يطمعون فى التخفيف، لان معارفهم ضرورية يعلمون ان عقابهم لا ينقطع و لا يخفف عنهم.

ثم حكى ما يجب به الخزنة لهم فإنهم يقولون لهم «أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» يعنى بالحجج و الدلالات على صحة توحيده و وجوب إخلاص العبادة له؟ فيقولون فى جوابهم «بلى» قد جاءتنا الرسل بالبينات فكذبناهم و جحدنا نبوتهم و أنكرنا

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٥٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨٥

بيناتهم فيقول لهم الخزنة اذاً «فادعوا» بما لا ينفعكم و يقولون ايضاً «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» لأنه فى وقت لا ينفع.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٥١ الى ٥٥].... ص: ٨٥

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَ ذِكْرًى لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (٥٥)

اربع آيات فى الشامى و فى عدد إسماعيل و خمس فى ما عداهما عدوا «بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ» و لم يعده الأولان.

قرأ نافع و اهل الكوفة (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ) بالياء، لأن المعذرة ليس تأنيثها حقيقياً و لأنهم أرادوا عذرهم. الباقون بالتاء لتأنيث

المعذرة.

اخبار الله تعالى عن نفسه بأنه ينصر رسله الذين بعثهم بالحق إلى خلقه و ينصر الذين آمنوا به و صدقوا رسله في دار الدنيا، و ينصرهم ايضاً يوم يقوم الاشهاد. و النصر المعونة على العدو، و هو على ضربين: نصر بالحجة و نصر بالغلبة في المحاربة بحسب ما يعلم الله تعالى من المصلحة و تقتضيه الحكمة، هذا إذا كان في دار التكليف. فأما نصره إياهم يوم القيامة فهو إعلاء كلمتهم و ظهور حقهم و علو منزلتهم و إعزازهم بجزيل الثواب و إذلال عدوهم بعظيم العقاب. و الاشهاد جمع شاهد مثل صاحب و اصحاب التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨٦

و هم الذين يشهدون بالحق للمؤمنين و أهل الحق و على المبطلين و الكافرين بما قامت به الحجة يوم القيامة و في ذلك سرور المحق و فضيحة المبطل في ذلك المجمع العظيم و المحفل الكبير. و قال قتادة الأشهاد الملائكة و الأنبياء و المؤمنون و قال مجاهد: هم الملائكة. ثم بين سبحانه و تعالى اليوم الذي يقوم فيه الاشهاد، فقال «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ» فالمعذرة و الاعتذار واحد. و إنما نفى ان تنفعهم المعذرة في الآخرة مع كونها نافعة في دار التكليف لأن الآخرة دار الإلجاء إلى العمل، و الملجأ غير محمود على العمل الذي ألجئ إليه، لأنه لا- يعمل له لداعي الحكمة إلى ما يمكنه أن يعمل و لا- يعمل فيضمن الحمد على فعله. و قيل: إنما لم يقبل معذرتهم، لأنهم يعتذرون بالباطل- في قولهم و الله ربنا ما كنا مشركين.

ثم بين تعالى إن لهم مع بطلان معذرتهم اللعنة، و هي الابعاد من رحمة الله و الحكم عليهم بدوام العقاب و لهم سوء الدار و هو عذاب النار نعوذ بالله منها. و الظالمين الذين لا تنفعهم المعذرة هم الذين ظلموا أنفسهم او غيرهم بارتكاب المعاصي التي يستحق بها دوام العقاب.

ثم اخبّر تعالى على وجه القسم فقال «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى أَىْ أَعْطَيْنَاهُ التَّوْرَةَ فِيهَا أَدْلَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَ تَوْحِيدِهِ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَ أَوْثَنَاهُ بِنِي إِسْرَائِيلَ يَعْنِي التَّوْرَةَ، وَ هَدَىْ يَعْنِي أَدْلَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَ تَوْحِيدِهِ وَ «ذَكَرَى» أَىْ مَا يَتَذَكَّرُ بِهِ أَوَّلُو الْأَلْبَابِ، وَ إِنَّمَا خَصَّ الْعُقَلَاءَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ الَّذِينَ يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ دُونَ مَنْ لَا يَعْقِلُ.

ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه و آله فقال «فاصبر» يا محمد على أذى قومك و تحمل المشقة في تكذيبهم إياك «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» الذي وعدك به من الثواب و الجنة لمن أطاعك و النار و العقاب لمن عصاك حق لا خلف له. و اطلب ايضاً المغفرة لذنبك. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨٧

و يجوز ان يكون الخطاب له و المراد به أمته «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» أَىْ نزه الله تعالى و اعترف بشكره بما أنعم الله عليك (بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ) أَىْ صباحاً و مساءً.

و قيل (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) معناه صل بحمد ربك و (بِالْعَشِيِّ) معناه من زوال الشمس إلى الليل. و (الْإِبْكَارِ) من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الْآيَات ٥٦ إلى ٦٠]..... ص: ٨٧

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ مَا يَشْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ لَا الْمُسْتَى قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعِيَةَ لَأَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَ قَالَ رَبُّكُمْ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) خمس آيات. و ست في المدني الأخير.

قرأ أهل الكوفة «تذكرون» بالتاء على الخطاب. الباقيون بالياء على الاخبار عنهم. و قرأ ابو جعفر و ابن كثير و رويس و يحيى و

البرجمي و ابن غالب «سيدخلون» بضم الياء. على ما لم يسم فاعله. الباقون بفتح الياء على اسناد الفعل اليهم. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨٨

يقول الله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ» أى يخاصمون «فى» رفع «آياتِ اللَّهِ» و ابطالها «بِغَيْرِ سُلْطَانٍ» أى بغير حجة «أتاهم» أعطاهم الله إياها يتسلط بها على إنكار مذهب يخالف مذهبهم «إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ» أى ليس فى صدورهم إلا كبر. قال مجاهد: معناه الاعظمه و جريئه ما هم ببالغى تلك العظمه، لأن الله تعالى مذلهم. و قيل: معناه إلا كبر بحسدك على النبوه التى أكرمك الله بها (ما هُمْ بِبَالِغِيهِ) لأن الله يرفع بها من يشاء. و قيل: معنا إلا كبر ما هم ببالغى مقتضاه و لا نالوه لان الكبر إنما يعملها صاحبه لمقتضى ان يعظم حاله، و هؤلاء يصير حالهم الى الاذلال و التحقير بكفرهم فلا يبلغون ما فى صدورهم من مقتضى كبرهم. و قيل:

الآيه نزلت فى اليهود و ان الكبر الذى ليس هم ببالغيه توقعهم امر الدجال، فاعلم الله تعالى ان هذه الفرقة التى تجادل ألا تبلغ خروج الدجال، فلذلك قال تعالى «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» ثم امر نبيه بأن يستعيز بالله من شر هؤلاء المخاصمين «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» و معناه انه يسمع ما يقول هؤلاء الذين يخاصمون فى دفع آيات الله بصير بما يضمرونه و فى ذلك تهديد لهم فى ما يقدمون عليه. و قيل: فيه و عدله بكفايه شرهم.

ثم قال تعالى «لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ» معناه إن خلق السموات و الأرض على ما هما عليه من العظم و الثقل مع وقوفهما من غير عمد و جريان الفلك و الكواكب من غير سبب أعظم فى النفس و أهول فى الصدر من خلق الناس، و إن كان عظيماً لما فيه من الحياه و الحواس المهيئه لانواع مختلفه من الإدراكات إلا ان امر السموات و الأرض خارج عن مقتضى الطبيعه، او ان يكون فاعلهما و خالقهما يجرى مجرى العباد فى الجسميه، فهو اكبر شأنًا من هذه الجهه «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» لعدو لهم عن الفكر فيه و الاستدلال على التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٨٩

صحته و إدخال الشبهه على نفوسهم فيه، و ذكر كبر خلق السموات و الأرض و ما هو خارج عن الطبيعه حجه على المشركين فى انكار النشأه الثانيه بما هو خارج عن عادته الولاده.

ثم قال «وَمَا يَشْتَرُونَ الْأَعْمَىٰ وَبَصِيرَتُهُ» أى لا يتساوى من عمى عن طريق الرشد و الصواب فلم يهتد اليها، و البصير الذى أبصرها و اهتدى اليها «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. وَلَٰكُمُ الْمُسْتَىٰ» أى و لا- يتساوى ايضاً الذين آمنوا بالله تعالى و عملوا الصالحات من الأعمال و الذين أساءوا و ظلموا نفوسهم بارتكاب المعاصى.

ثم قال «قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ» أى ما أقل ما تتفكرون فى ذلك. و الوقف على قوله «قليلًا».

و قوله «مَّا تَتَذَكَّرُونَ» يجوز أن تكون (ما) صله و يجوز أن تكون بمعنى المصدر و تقديره قليلا ما تذكركم. و من قرأ بالتاء أراد قل لهم و خاطبهم به.

و من قرأ بالياء فعلى وجه الاخبار عنهم بذلك.

ثم اخبر «إِنَّ السَّاعِيَةَ» يعنى القيامة (لَآيَتِيَّهٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا) أى جائئه واقعه لا- شك فى مجيئها (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا- يُؤْمِنُونَ) أى لا يصدقون بذلك لجهلهم بالله و شكهم فى اخباره.

ثم قال «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» يعنى استجب لكم إذا اقتضت المصلحه اجابتكم. و من يدعو الله و يسأله فلا بد أن يشترط المصلحه إما لفظاً او اضماراً، و إلا كان قبيحاً، لأنه إذا دعا بما يكون فيه مفسده و لا يشترط انتفاؤها التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩،

ص: ٩٠

كان قبيحاً.

ثم قال تعالى مخبراً (إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) أى من يتكبر، و يتعظم عن إخلاص العبادۃ لله تعالى (سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) من ضم الياء ذهب الى انهم تدخلهم الملائكة كرهاً و من فتح الياء قال: لأنهم إذا دخلوا فقد دخلوا، فأضاف الفعل اليهم. و معنى (يَشْكُرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) أى عن دعائى بالخضوع لى. و قال السدى (داخرين) معناه صاغرین.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٦١ الى ٦٥]..... ص: ٩٠

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه بأنه «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُم» معاشر الخلق (الليل) و هو ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثانى (لتسكنوا فيه) أى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٩١

و غرضه منه سكونكم و استراحتكم فيه من كد النهار و تعب (و جعل لكم النهار) أيضاً و هو ما بين طلوع الفجر الثانى إلى غروب الشمس (مبصراً) تبصرون فيه مواضع حاجاتكم فجعله (مبصراً) لما كان يبصرون فيه المبصرون. ثم اخبر تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ) أى لذو زيادة كثيرة من نعمه (عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) نعمه أى لا يعترفون بها بل يجحدونها و يكفرون بها. ثم قال مخاطباً لخلقه (ذلکم الله) يعنى الذى قدم وصفه لكم هو الذى خلقكم (رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) من مقدوراته من السموات و الأرض و ما بينهما مما لا يقدر عليه سواه (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أى لا يستحق العبادۃ سواه تعالى (فَأَنى تُؤْفَكُونَ) أى فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع وضوح الدلالة على توحيدہ، ثم قال مثل ما انقلب و انصرف هؤلاء (كذلك يؤفك) أى يصرف (الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) و معناه كما خدع هؤلاء بما كذب لهم كذب من كان قبلهم من الكفار (الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) أى بدلالات الله و بيناته، و لا يفكرون فيها.

ثم عاد إلى ذكر صفاته تعالى فقال (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا) أى هيأها لكم بحيث تستقرون عليها (وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) أى و جعل السماء بناء مرتفعاً فوقنا و لو جعلهما رتقاً لما أمكن الخلق الانتفاع فى ما بينهما. ثم قال (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ) لان صور ابن آدم أحسن من صور الحيوان. و الصور جمع صورة مثل سورة و سور (وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) لأنه ليس لشيء من الحيوان من الطيبات المأكلة و المشارب مثل ما خلق الله لابن آدم، فان انواع الطيبات و اللذات التى خلقها الله لهم لا تحصى لكثرتها من الثمار و فنون النبات و اللحوم و غير ذلك. ثم قال (ذلکم) يعنى الذى تقدم وصفه هو الذى يحق له العبادۃ على الحقيقة و هو (اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) أى جل بأنه الثابت التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٩٢

الدائم الذى لم يزل و لا يزال.

ثم قال (هو الحى) و معناه الحى على الإطلاق هو الذى يستحق الوصف بأنه حى لا إلى اجل (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) قال ابن عباس و سعيد بن جبیر: إذا قال أحدكم (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده) فليقل فى آخرها (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٦٦ الى ٧٠]..... ص: ٩٢

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنى الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ

مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَکُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرِفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠)

خمس آيات بلا خلاف.

هذا امر من الله تعالى لنبیه محمد صلى الله عليه وآله ان يقول لكفار قومه (إني نهيت) أى نهانى الله (ان اعبد) أى أوجه العبادة إلى (الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) التى تجعلونها آلهة (لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي) أى حين أتانى الحجج والبراهين بيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٩٣

من جهة الله دلتنى على ذلك (و أمرت) مع ذلك (أَنْ أَشِيلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أى استسلم لأمر رب العالمين الذى خلقكم و أوجدكم و يملك تدبير الخلائق أجمعين.

ثم وصفه فقال (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ) معاشر البشر (من تراب) و معناه خلق أبابكم آدم من تراب و أنتم نسله و اليه ترجعون و اليه تتتمون (ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ...)

أى ثم انشأ من ذلك الأصل الذى خلقه من تراب النطفة ثم قلبها الى علقه و هى القطعة من الدم لأنها تعلق بما يمر به لظهور أثرها فيه و خلقكم منها (ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) أى أطفالا واحداً واحداً، فلهذا ذكره بالتوحيد، كما قال «بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا» «١» لان لكل واحد منهم أعمالا قد خسر بها (ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ) و هو حال استكمال القوة و هو جمع شدة و أشد كنعمه و أنعم. و اصل الشدة اللف الذى يصعب منه الانحلال، ثم «لِيَكُونُوا شُيُوخًا» بعد ذلك «وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ» ان يصير شيخاً و من قبل ان يبلغ أشده «وَلِيَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى» أى يبلغ كل واحد منكم ما سمي له من الأجل. و قال الحسن: هو النسل الذى يقوم عليه القيامة و الأجل المسمى القيامة (و لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أى خلقكم لهذه الأغراض التى ذكرها و لكى تفكروا فى ذلك فتعقلوا ما أنعم الله عليكم من انواع النعم و اراده منكم من اخلاص العبادة. ثم قال (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) يعنى من خلقكم على هذه الأوصاف التى ذكرها هو الذى يحييكم و هو الذى يميتكم فأولكم من تراب و آخركم إلى تراب تعودون (فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا) أى أراد أمراً من الأمور (فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) و معناه انه يفعل ذلك من غير ان يتعذر عليه و لا يمتنع منه فهو بمنزلة ما يقال له كن فيكون، لا انه خاطب المعدوم بالتكوين، لأن ذلك محال.

(١) سورة ١٨ الكهف ١٠٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٩٤

و الله لا يأمر بالمحال.

ثم قال (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ) يعنى المشركين الذين يخاصمون فى دفع آيات الله و ابطالها (أنى يصرفون) أى كيف و من أين ينقلبون عن الطريق المستقيم إلى الضلال و لو كانوا يخاصمون فى آيات الله بالنظر فى صحتها و الفكر فيها لما ذمهم الله. قال ابن زيد أراد بذلك المشركين. ثم وصفهم فقال (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ) يعنى بالقرآن جحدوه و كذبوا بما أرسلنا به من الكتب فى الشرائع رسلنا قبلك (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) عاقبه أمرهم إذا حل بهم و بال ما جحدوه و نزل بهم عقاب ما ارتكبوه و يعرفون ان ما دعوتهم اليه حق و ما ارتكبوه ضلال و فساد.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٧١ الى ٧٥]..... ص: ٩٤

إِذِ الْاَغْلَالُ فِي أَغْنَانِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ يُسَبِّحُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرُحُونَ (٧٥)

خمس آيات كوفى و شامى و أربع فى ما عدهما سوى البصرى عد إسماعيل و الكوفى و الشامى «يسبحون» و عد المدنى الاول و المكى «فى الحميم» و عد الكوفى و الشامى «تشركون» و هى ثلاث آيات بصرى لأنه عندهم آخر الاولى «يسبحون» و الثانية «الكافرون» و الثالثة «تمرحون». التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٩٥

قوله «إذ الاغلال» متعلق بقوله «فَسَوْفَ يَغْلَمُونَ... إِذِ الْاَغْلَالُ» أى يعلمون فى حال ما تجعل الاغلال و هى جمع غل، و هو طوق يدخل فى العنق للألم و الذل. و أصله الدخول من قولهم: انغل فى الشيء إذا دخل فيه. و الغلول الخيانة التى تصير كالغل فى عنق صاحبها، و الاعناق جمع عنق و هو مركب الرأس بين البدن و بينه، و قوله «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ» (١) أى اصل الرأس و ما والاه، و قوله «و السلاسل» أى و تجعل السلاسل أيضاً فى أعناقهم. و قرأ ابن عباس «و السلاسل» بالنصب «يسحبون» بفتح الياء بمعنى يسحبون السلاسل.

و حكى عنه الجر أيضاً بتقدير، و هم فى السلاسل يسحبون. و الجر ضعيف عند النحويين، لان حرف الجر لا يجوز إضماره و أجاز بعضهم ذلك على ضعفه بأن يتوهم أن التقدير إذ الاغلال فى الاعناق. و السلاسل جمع سلسلة و هى حلق منتظمة فى جهة الطول مستمرة. و يقال: تسلسلت المعانى إذا استمرت شيئاً قبل شيء كالسلسلة الممدودة، و قوله «يُسْحَبُونَ» أى يجرون على الأرض. و موضع «يسحبون» النصب على الحال، و تقديره إذ الاغلال و السلاسل فى أعناقهم مسحوبين على النار و السحب جر الشيء على الأرض، هذا أصله يقال: سحب عليه ما يلزمه من الأصل الفاسد، و يسحب الكافر على وجهه فى النار سحباً «فى الحميم» و هو الماء الذى يبلغ الغاية فى الحرارة «ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» فالسجر إلقاء الحطب فى معظم النار كالتنور الذى يسجر بالوقود، فهؤلاء الكفار لجهنم كالسجار للتنور «ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ» على وجه التوبيخ لا يلام قلوبهم كإلام أبدانهم بالتعذيب «أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» فتوجهون العبادة اليه من الأصنام و الأوثان فيخلصوكم و ينصروكم من عذاب الله «قَالُوا» فى الجواب «ضَلُّوا عَنَّا» ثم يستدركون

(١) سورة ٨ الانفال آية ١٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٩٦

فيقولون «بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا» و معناه لم نكن ندعو من قبل شيئاً يستحق العبادة و ما ينتفع بعبادته، فلذلك أطلق القول فقال الله تعالى «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ» قال الحسن: معناه كذلك يضل أعمالهم بأن يبطلها. و قيل:

معناه كذلك يضل الله الكافرين عن نيل الثواب. و قيل: كذلك يضل الله الكافرين عما اتخذوه إلهاً بأن يصرفهم عن الطمع فى نيل منفعة من جهةها. ثم يقول موبخاً لهم «ذَلِكُمْ» أى ما فعل بكم جزاء «بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ» و الفرح و المرح و البطر و الأشر نظائر «بِغَيْرِ الْحَقِّ» أى كنتم تفرحون بالباطل و الفرح بالحق لا يوبخ عليه «وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرُحُونَ» أى و جزاء بما كنتم تبطلون فى معاصى الله. و المرح الاختيال فى السرور و الشاط قال الشاعر:

و لا ينسنى الحدثان عرضى و لا ارحى من الفرح الازارا (١)

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٧٦ الى ٨٠]..... ص: ٩٦

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا يُزْجِعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ لَتُبْلَغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفَلَكَ تُحْمَلُونَ (٨٠)

(١) مر في ٨ / ١٠٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٩٧

خمس آيات بلا خلاف.

لما حكى الله تعالى ما يقال للكفار من قوله «ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ» حكى أيضاً انه يقال لهم «ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا» أى مؤبدين فيها لا انقطاع لكونكم فيها ولا نهاية لعقابكم.

وقيل: إنما جعل لجهم أبواب كما جعل فيها الإدراك تشبيهاً بما يتصور الإنسان فى الدنيا من المطابق والسجون والمطامير، فان ذلك أهول وأعظم فى الزجر.

وقيل: لجهم أبواب، كما قال تعالى «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ» (١) وقوله «فَبُئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ» أى بئس مقام الذين تكبروا عن عبادة الله و تجبروا عن الانقياد له، وإنما اطلق عليه اسم بئس مع كونه حسناً لان الطبع ينفر عنه كما ينفر العقل عن القبيح بالذم عليه، فحسن لهذه العلة اطلاق اسم بئس عليه، و وصف الواحد منا بانه متكبر اسم ذم، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله «فَاصْبِرْ» يا محمد على أذى قومك و تكذيبهم إياك و معناه اثبت على الحق، فسماه صبراً للمشقة التى تلحق فيه كما تلحق بتجرع المر، و لذلك لا يوصف اهل الجنة بالصبر. و إن وصفوا بالثبات على الحق. و كان فى الوصف به فى الدنيا فضل، و لكن يوصفون بالحلم، لأنه مدح ليس فيه صفة نقص. و قوله (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) معناه إن ما وعد الله به المؤمنين على الصبر من الثواب فى

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٤٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٩٨

الجنة و توعدهم الكفار من العقاب (حق) لا شك فيه بل هو كائن لا محالة ثم قال (فَإِذَا نُزِيتُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعَدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ) معناه إنا إن أريناك يا محمد بعض ما نعدهم من العقاب عاجلاً- و إهلاكهم فى دار الدنيا، و إن لم نفعل ذلك بهم و قبضناك إلينا، فالينا يرجعون يوم القيامة، فنفعل بهم ما وعدناهم من العقاب و أليم العذاب. و قال الحسن: تقديره إما نرينك بعض الذى نعدهم فنرينك ذلك فى حياتك او نتوفيك، فيكون ذلك بعد موتك فأى ذلك كان (فَالِئِنَّا يَرْجِعُونَ).

ثم قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا) يا محمد (رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ) أى من جملتهم (مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ) قصتهم (وَمِنْهُمْ مَنْ لَّمْ نَقْصِصْ عَلَيْكَ) و

روى عن على عليه السلام انه قال (من بعث الله نبياً اسود لم يذكره الله)

وقيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي اربعة آلاف من بنى إسرائيل و أربعة آلاف من غيرهم. و لم يذكر إلا نفراً يسيراً. ثم قال (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ) أى بمعجزة و لا- دلالة (إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) و أمره (فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ) يعنى قيام الساعة (فُضِيَ بِالْحَقِّ) أى فصل بين الخلائق (وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ) لأنهم يخسرون الجنة و يحصلون فى النار بدلاً منها (ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) ثم قال تعالى على وجه تعداد نعمه على الخلق (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ) من الإبل و البقر و الغنم (لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ) أى خلقها لتنتفعوا بركوبها و تأكلوا منها، فانه جعلها للأمرين. و قال قوم: المراد بالانعام- هاهنا- الإبل خاصة، لأنها التى تركب و يحمل عليها فى اكثر العادات. و اللام فى قوله (لتركبوا) لام الغرض، فإذا كان الله تعالى خلق هذه الانعام و أراد ان ينتفع خلقه بها، و كان تعالى لا يريد

القبيح و لا المباح، فلا بد ان يكون أراد انتفاعهم بها على وجه الطاعة و القرية اليه التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٩٩

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) أخرى من ألبانها و أصوافها و أشعارها (وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ) ان تركبوها و تبلغوا المواضع التى تقصدونها لحوائجكم (و عليها) يعنى على الانعام (و على الفلك) و هى السفن (تحملون) ايضاً لأنه تعالى هو الذى يسيرها فى البحر

بالريح إلى حيث تقصدون و تبلغون أغراضكم منها. و قال ابو عبيدة معنى (و على الفلك) فى الفلك كما قال (وَأَصْلَبْنَكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ) «١» و أراد عليها، فحروف الجر يقوم بعضها مقام بعض.

قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠): الآيات ٨١ الى ٨٥].... ص: ٩٩

و يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ أَثَارًا فِى الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخاطباً للكفار الذين جحدوا آياته و أنكروا أدلته الدالة على

(١) سورة ٢٠ طه آية ٧١

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠٠

توحيده و إخلاص العبادة له يُرِيكُمْ آيَاتِهِ

أى يعلمكم حججه و يعرفكم إياها، منها إهلاك الأمم الماضية على ما اخبر عنهم و وجه الآية فيه انهم بعد النعمة العظيمة صاروا إلى النقم لأنهم عصوا فاقتضى ذلك العصيان أولا النقمان ثانياً. و كان فيه أوضح الدليل على تثبيت القديم تعالى الذى لولاه لم يصح فعل و لا تدبير. و منها الآية فى خلق الانعام التى قدم ذكرها، و وجه الآية فيه تسخيرها لمنافع العباد بالتصرف فى الوجوه التى قد جعل كل شىء منها لما يصلح له و ذلك يقتضى ان الجاعل لذلك قادر على تصريفه عالم بتدبيره، و انما يرى الآيات بالبيان الذى يحضر للناس معناها و يخطر بها عليهم، و ينبه عليها، فانه يحتاج أولاً فى الآية إحضارها للنفس ثم الاستدلال عليها و التمييز بين الحق و الباطل منها، فأول الفائدة إخطارها بالبال و التنبيه عليها و الثانى الاستدلال عليها إلى الحق.

ثم قال أَيْ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ

توبيخاً لهم على جحدها، و قد يكون الإنكار للآية تارة بجحدها أصلاً. و قد يكون تارة بجحد كونها دالة على صحة ما هى دالة عليه، و الخلاف فى الدلالة يكون من ثلاثة أوجه: اما فى صحتها فى نفسها، او فى كونها دلالة، او فيهما. و إنما يجوز من الجهال دفع الآية بالشبهة مع قوة الآية و ضعف الشبهة لأمر:

منها اتباع الهوى و دخول الشبهة التى تغطى الحجة حتى لا يكون لها فى النفس منزلة.

و منها التقليد لمن ترك النظر فى الأمور.

و منها السبق إلى اعتقاد فاسد لشبهة فيمتنع ذلك من توليد النظر للعلم.

ثم نبههم فقال (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ) بأن يَمروا فى جناتها (فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ) عدداً (و أشد قوة) أى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠١

و أعظم آثاراً فى الأرض بالأبنية العظيمة التى بنوها و القصور المشيدة التى شيدوها.

و قال مجاهد: بمشيهم على أرجلهم على عظم خلقهم، فلما عصوا و كفروا بالله اهلكهم الله و استأصلهم «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» معناه لم يغن عنهم ما كسبوه من الأموال و البنيان. و قيل ان (ما) بمعنى أى، و تقديره فأى شىء اغنى عنهم كسبهم؟! على وجه التهجين لفعلهم و التفرع لهم، فتكون (ما) الأولى نصباً و موضع الثانية رفعاً.

ثم قال تعالى «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» يعنى لما أتى هؤلاء الكفار رسلهم الذين دعوهم إلى توحيدهم وإخلاص العبادة له «فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» وفى الكلام حذف، وتقديره لما جاءتهم رسلهم بالبينات فجحدوها وأنكروا دلالتها وعد الله تعالى الرسل باهلا-ك أممهم ونجاء الرسل فرح الرسل بما عندهم من العلم بذلك. وقيل: إن المعنى فرحوا بما عندهم من العلم يعنى الكفار بما اعتقدوا انه علم إذ قالوا: نحن اعلم منهم لن نعذب ولن نبعث، فكان ذلك جهلا- واعتقدوا انه علم، فأطلق الاسم عليه بالعلم على اعتقادهم، كما قال «حُجِّتُهُمْ دَاخِضَةً» (١) وقال «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ» (٢) يعنى عند نفسك وعند قومك، فالأول قال به الجبائى، والثانى قول الحسن ومجاهد. وقيل: المعنى إن الكفار فرحوا بما عند الرسل فرح استهزاء وسخرية لا فرح سرور وغبطة وقوله «وَحَاقَ بِهِمْ» أى حل بهم «ما كانوا به يَسْتَهْزِؤْنَ» أى جزاء ما كانوا به يسخرون برسولهم من الهلاك والعذاب. ثم اخبر تعالى عنهم انهم «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا» بأس الله ونزول عذابه

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦ [.....]

(٢) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠٢

«قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّه» و خلعنا الأنداد من دونه «وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ» فى عبادة الله من الأصنام والأوثان فقال الله سبحانه «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ» عند رؤيتهم بأس الله وعذابه، لأنهم يصيرون عند ذلك ملجئين وفعل الملجأ لا يستحق به الثواب. ثم قال «سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ» نصب «سُنَّتَ اللَّهُ» على المصدر، والمعنى طريقة الله المستمرة من فعله بأعدائه والجاحدين لنعمه واتخاذ الولايج من دونه فى ما مضى مع عباده الذين كفروا به «وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» لنعمه لفوتهم الثواب والجنة واستحقاقهم العذاب الكون فى النار.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠٣

٤١-سورة فصلت..... ص: ١٠٣

إشارة

هى مكية فى قول قتادة ومجاهد ليس فيها ناسخ ولا منسوخ وهى اربع وخمسون آية كوفى وثلاث فى المدنيين واثنان وخمسون فى البصرى والشامى.

[سورة فصلت (٤١):آيات ١ الى ٥]..... ص: ١٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّنَا غَامِلُونَ (٥)

خمس آيات فى الكوفى وأربع فى الباقي عد الكوفيون «حم» ولم يعدده الباقون قرأ بعض الكوفيين (حم) رفع ب (تنزيل) و (تنزيل) رفع ب (حم) وقال الفراء: ارتفع (تنزيل) بإضمار (ذلك) او هذا تنزيل. وقال البصريون (تنزيل) رفع بالابتداء، وخبره «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» و «قرآنًا» نصب على المصدر أو التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠٤

الحال ذهب اليه قوم.

قد بينا اختلاف المفسرين في معنى قوله (حم) فلا وجه لإعادته. وقيل:

في وجه الاشتراك في أسماء هذه السور السبع ب (حم) انه للمشاكل التي بينها بما يختص به بما ليس لغيرها، لأنه اسم علم أجرى على الصفة الغالبة بما يصح فيه الاشتراك، والتشاكل الذي اختصت به هو ان كل واحدة منها استفتحت بصفة الكتاب مع تقاربها في الطول والقصر ومع شدة تشاكل الكلام في النظام، وحكم الكتاب البيان عن طريق النجاة الذي يصغر كل شيء في جنب الفائدة به من طريق الهلاك الذي لا صبر للنفس عليه، وهو على وجوه: منها تبين الواجب مما ليس بواجب، وتبين الأولى في الحكمه مما ليس بأولى، وتبين الجائز مما ليس بجائز، وتبين الحق في الدين من الباطل، وتبين الدليل على الحق مما ليس بدليل، وتبين ما يرغب فيه مما لا يرغب فيه، وما يحذر منه مما لا يحذر مثله. وغير ذلك من وجوه أحكامه وهي أكثر من ان تحصى.

وقوله «تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وصف الكتاب بأنه تنزيل لأن جبرائيل عليه السلام نزل به على محمد صلى الله عليه وآله وفي ذلك دلالة على حدوثه، لأن التنزيل لا يكون إلا محدثاً.

وقوله «كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ» أي هذا كتاب، وإنما وصف القرآن بأنه كتاب وإن كان المرجع فيه إلى كلام مسموع، لأنه مما ينبغي أن يكتب ويدون لأن الحافظ ربما نسيه أو نسي بعضه، فيتذكر، وغير الحافظ فيتعلم منه. وقوله «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» معناه ميزت دلائله. وإنما وصفه بالتفصيل دون الإجمال، لأن التفصيل يأتي على وجوه البيان، لأنه تفصيل جملة عن جملة أو مفرد عن مفرد، ومدار أمر البيان على التفصيل والتمييز في ما يحتاج اليه من أمور الدين إذ العلم التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠٥

علمان: علم دين وعلم دنيا وعلم الدين أجلهما وأشرفهما لشرف النفع به. وقيل:

«فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» بالأمر والنهي والوعد والوعيد والترغيب والترهيب.

ونصب قوله «قرآناً عربياً» على الحال- في قول الزجاج- وتقديره فصلت آياته في حال جمعه. و وصف بأنه قرآن، لأنه جمع بعضه إلى بعض، وبأنه عربي لأنه يخالف جميع اللغات التي هي ليست عربيته «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» أي لمن يعلم العربيته.

وقوله «بشيراً» أي مبشراً بالجنة و ثوابها «و نذيراً» أي مخوفاً من النار وعقابها.

وقوله «فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ» اخبار منه تعالى عن الكفار أن أكثرهم يعدل عن التفكير فيه وعن سماعه «فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» لعدولهم عنه. ويجوز أن يكون مع كونهم سامعين إذا لم يفكروا فيه ولم يقبلوه فكأنهم لم يسمعه. وقال البلخي:

معناه إنهم يفعلون فعل من لا يسمعه، لأنهم مع سماعه يستثقلونه ويعرضون عن الفكر فيه.

ثم حكى ما قاله الكفار من قولهم «قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِهِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ» قال مجاهد والسدي: معناه في أعظيئه وإنما قالوا ذلك ليؤيسوا النبي صلى الله عليه وآله من قبولهم دينه، فهو على التمثيل، فكأنهم شبهوا قلوبهم بما يكون في غطاء فلا يصل اليه شيء مما وراءه، وفيه تحذير من مثل حالهم في كل من دعى إلى امر أن لا يمتنع أن يكون هو الحق، فلا يجوز أن يدفعه بمثل ذلك الدفع «وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ» أي ثقل عن استماع هذا القرآن «وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ» قيل الحجاب الخلاف الذي يقتضى أن يكون بمعزل عنك، قال الزجاج: معناه حاجز في النحلة والدين أي لا نوافقك في مذهب «فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ» معناه فاعمل بما يقتضيه دينك، فانا عاملون بما يقتضيه ديننا، وقال الفراء: معناه فاعمل في هلاكنا، فانا عاملون التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠٦

في هلاكك، تهديداً منهم.

قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٦ إلى ١٠]..... ص: ١٠٦

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَيْنَا الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ

وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ (١٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابو جعفر «سواء» رفعاً. وقرأه يعقوب خفضاً. وقرأه الباقون نصباً.

فمن رفعه فعل الاستئناف. و من خفضه جعله نعتاً للأيام. و من نصبه فعلى المصدر.

امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله أن يقول لهؤلاء الكفار «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» لحم و دم، و من ولد آدم، و إنما خصنى الله بنبوته و أمرنى برسالته و ميزنى منكم بأنى «يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ» الذى يستحق العبادة «إِلَهُ وَاحِدٌ» لا شريك له فى العبادة (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ) أى استمروا على وجه واحد فى الطاعة له و إخلاص العبادة له على ما تقتضيه الحكمة «وَأَسْتَغْفِرُوهُ» أى و اطلبوا المغفرة من جهته لذنوبكم.

ثم اخبر فقال «وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ» الذين أشركوا بعبادة الله غيره من التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠٧

الأصنام و الأوثان و وصفهم بأنهم «الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» و قال الحسن: معناه لا يؤتون ما يكونون به أركياء أتقياء من الدخول فى دين الله. و قال الفراء: الزكاة فى هذا الموضع ان قريشاً كانت تطعم الحاج و تسقيهم فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله. و قال قوم: إنما توعدهم على ترك الزكاة الواجبة عليهم لأنهم متعبدون بجميع العبادات و يعاقبون على تركها و هو الظاهر. و قال الزجاج: معناه و ويل للمشركين الذين لا يؤمنون بأن الزكاة واجبة. و إنما خص الزكاة بالذكر تقريراً لهم على شحهم الذى يأنف منه أهل الفضل و يتركون ما يقتضى انهم ان يعملوه عملوه لأجله. و فى ذلك دعاء لهم إلى الايمان و صرف لهم عن الشرك. و كان يقال: الزكاة قطرة الايمان فمن عبرها نجا. و قال الطبرى: معناه الذين لا يعطون الله الطاعة التى يطهرهم بها و يزكى أبدانهم، و لا يوحّدونه. و قال عكرمة: هم الذين لا يقولون: لا إله إلا الله. و قد بينا أن الأقوى قول من قال إن الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، لان هذا هو حقيقته هذه اللفظة «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» معناه و هم مع ذلك يجحدون ما أخبر الله به من الثواب و العقاب فى الآخرة.

ثم اخبر الله تعالى عن المؤمنين فقال «ان الذين يؤمنون بالآخرة» أى يصدقون بأمر الآخرة من الثواب و العقاب «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى الطاعات «لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» أى لهم جزاء على ذلك غير مقطوع، بل هو متصل دائم، و يجوز ان يكون معناه انه لا أذى فيه من المن الذى يكدر الصنيعة.

ثم امر النبى صلى الله عليه وآله أن يقول لهم على وجه الإنكار عليهم بلفظ الاستفهام «أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» أى تعجدون نعمته من خلق الأرض فى يومين «وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا» أى تجعلون له أشباها و أمثالا- فى استحقاق العبادة. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠٨

ثم قال الذى يستحق العبادة «ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ» الذى خلق الخلائق و ملك التصرف فيهم.

وقوله «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا» أى و خلق فى الأرض جبالا راسيات ثابتات فوق الأرض «وَبَارَكَ فِيهَا» بما خلق فيها من المنافع «وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ»

روى عن النبى صلى الله عليه وآله انه قال (إن الله خلق الأرض يوم الأحد و الاثنين و خلق الجبال يوم الثلاثاء و خلق الشجر و الماء و العمران و الخراب يوم الأربعاء فلكل اربعة ايام و خلق يوم الخميس السماء و خلق يوم الجمعة الشمس و القمر و النجوم و الملائكة و آدم).

و قال الحسن و السدى: و ابن زيد «قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا» أى أرزاقها. و قال قتادة: معناه قدر فيها ما فيه صلاحها. قال ابو عبيدة: الأقوات جمع قوت و هى أرزاق الخلق و ما يحتاجون اليه. و قيل: إنما خلق ذلك شيئاً بعد شىء فى هذه الأربعة ايام لتعتبر به الملائكة و قيل:

لاعتبار العباد في الاخبار عن ذلك إذا تصوره على تلك الحال. و قال الزجاج: الوجه فيه تعليم الخلق التأنى في الأمور و ألا يستعجلوا فيها بأن الله تعالى كان قادراً على ان يخلق ذلك في لحظة، لكن خلقها في هذه المدة لما قلنا. و قال قوم إنما خلق ذلك في هذه المدة ليعتبروا بذلك على انها صادرة من قادر مختار عالم بالمصالح و بوجوه الأحكام إذ لو كان صادراً عن مطبوع او موجب لحصلت في حالة واحدة. و قال الزجاج:

«فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» معناه في تنمة أربعة أيام.

و قوله «سَوَاءٌ لِلَّسَّائِلِينَ» قال قتادة و السدى: معناه سواء للسائلين عن ذلك لأن كلا يطلب القوت و يسأله. و في قراءة عبد الله «و قسم فيها أقواتها» و معناه خلق في هذه البلدة ما ليس في هذه ليتعاشوا و يتجروا. و من نصب (سواء) فعلى تقدير استوت سواء و استواء لمن سأل في كم خلقت السموات التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٠٩

و الأرض؟ فليل في أربعة أيام سواء لا زيادة و لا نقصان.

قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ١٠٩

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥)

اربع آيات في البصري و الشامي و خمس في ما عداه. اختلفوا في قوله «و ثمود» فلم يعدها البصريون و الشاميون و عدها الباقون. أخبر الله تعالى انه بعد خلق الأرض و الجبال و تقدير الأقوات فيها «اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ» قال الحسن: معناه استوى أمره و لطفه إلى السماء.

و قال غيره: معنى الاستواء إلى السماء العمود و القصد إليها، كأنه قال: ثم قصد إليها. و اصل الاستواء الاستقامة و القصد للتدبير المستقيم تسوية له. و قوله التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١٠

«ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» (١) معناه ثم استوى تدبيره بتقدير القادر عليه. و قيل إن الاستواء بمعنى الاستيلاء، كما قال الشاعر:

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهوراق (٢)

فاما الاستواء عن اعوجاج فمن صفات الأجسام لا يجوز ذلك على الله تعالى. و قوله «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» يفيد انه خلق السماء بعد خلق الأرض و خلق الأقوات فيها، و لا ينافي ذلك قوله «أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا» إلى قوله (وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) (٣) لان ذلك يفيد أن الأرض كانت مخلوقة غير مدحوة، فلما خلق الله السماء دحا بعد ذلك الأرض فبسطها، و إنما جعل الله السموات أولاً دخاناً ثم سبع سموات طباقاً ثم زينها بالمصابيح، لما في ذلك من الدلالة على أن صانعها و خالقها و مدبرها ليس كمثلها شيء من الموجودات غنى عن كل شيء سواء، و إن كل ما سواه يحتاج اليه من حيث انه قادر لنفسه لا يعجزه شيء، عالم لنفسه لا يخفى عليه شيء. و (الدخان) جسم لطيف مظلم، فالله تعالى خلق السموات أولاً دخاناً ثم نقلها إلى حال السماء من الكثافة و الالتئام لما في ذلك من الاعتبار و اللطف لخلقه.

و قوله (فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) قال ابن عباس أتت السماء بما فيها من الشمس و القمر و النجوم و أتت الأرض بما فيها من الأنهار و الأشجار و الثمار، و ليس هناك أمر بالقول على الحقيقة و لا إطاعة، و لا

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ و سورة ١٠ يونس آية ٣ و سورة ١٣ الرعد آية ٢ و سورة ٢٥ الفرقان آية ٥٩ و سورة ٣٢ الم السجدة آية ٤ و سورة ٥٧ الحديد آية ٤

(٢) مر في ١/ ١٢٥ و ٢/ ٣٩٦ و ٤/ ٤٥٢ و ٥/ ٣٨٦

(٣) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١١

جواب لذلك القول بل أخبر تعالى عن اختراعه السموات والأرض وإنشائه لهما من غير تعذر ولا مشقة ولا كلفة ومن غير ملابسة ولا معاناة بمنزلة ما قيل:

للمأمور افعل ففعل من غير تلبث ولا توقف، فعبّر عن ذلك بالأمر والطاعة وهو كقوله (كُنْ فَيَكُونُ) «١» وقد بينا الوجه في ذلك و يكون التقدير كأنه قيل:

أتينا بمن فينا طائعين أى سبحانه فعل الطباع في ما أمر به وإنما قلنا ذلك لأنه تعالى لا يأمر المعدوم ولا الجماد، لان ذلك قبيح يتعالى الله عن ذلك ومثل ذلك قول الشاعر:

امتلاً الحوض وقال قطنى مهلاً رويداً قد ملأت بطنى «٢»

ونظائر ذلك كثيرة بينها في ما مضى وإنا قال (طائعين) ولم يقل طائعتين، لأنه لما أسند الفعل اليهما وهو ما لا يكون إلا من العقلاء اخبر عنهما بالياء والنون، وقال قطرب: لان المعنى أتينا بمن فينا من العقلاء فغلب حكم العقلاء. وقال الشاعر:

فاجهشت للتوباد حين رأيت و كبر للرحمن حين رآنى

فقلت له اين الذين عهدتهم بجنيبك فى حفص و طيب زمان

فقال مضوا و استودعوني بلادهم و من ذا الذى يبقى على الحدثان «٣»

وقوله (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) معناه جعلهن سبع سموات على إتمام خلقهن لأن القضاء جعل الشيء على إتمام وإحكام و لذلك قيل: انقضى أى قد تم ومضى، وقضى فلان إذا مات، لان عمره تم ومضى. وقيل:

إن السماء موج مكفوف، روى ذلك فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وآله.

وقال الحسن: هى سبع ارضين

(١) سورة ٣٦ يس آية ٨٢ وغيرها

(٢) مر في ١/ ٤٣١ و ٨/ ٨٥ و ٣٦٩

(٣) قد مر في ٨/ ٣٦٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١٢

بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام. وقوله (فى يومين) قال السدى: خلق الله السموات وسواها يوم الخميس والجمعة وسمى جمعه لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض، وإنما خلقها فى يومين نظير خلق الأرض فى يومين، فان قيل: قوله (خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) و خلق الجبال والأقوات فى اربعة أيام و خلق السموات فى يومين يكون ثمانية أيام، وذلك مناف لقوله (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) «١» قلنا: لا- تنافى بين ذلك، لأنه خلق السموات والأرض و خلق الجبال والأشجار والأقوات فى اربعة أيام منها اليومان المتقدمان، كما يقول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام ثم الى الكوفة فى خمسة عشر يوماً أى فى تمام هذه العدة، ويكون قوله (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) تمام ستة أيام. وهو الذى ذكره فى قوله فى ستة أيام. و زال

الاشكال.

وقوله (وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) قال السدى معناه جعل فيها ما اراده من ملك و غيره. و قيل معناه أوحى فى كل سماء بما يصلحها «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ»

روى ان الكواكب فى السماء الدنيا، و هى الأقرب إلى الأرض دون ما فوقها من السموات.

وقوله (و حفظاً) منصوب على المعنى و تقديره جعلناها زينة و حفظاً أى و جعلناها حفظاً من استراق الشياطين السمع بالكواكب التى جعلت فيها. و قيل:

حفظاً من ان تسقط على الأرض (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) يعنى القادر الذى لا يغالب العليم بجميع الأشياء لا يخفى عليه شىء منها. ثم قال لنبه صلى الله عليه و آله (فَإِنْ أَعْرَضُوا) يعنى ان عدل الكفار عن الفكر فى ما ذكرنا و التدبر لما بينا و أبوا إلا الشرك و الجحود (فقل) لهم مخوفا لهم

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ و سورة ١٠ يونس آية ٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١٣

(أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً) أى خوفتكم إياها ان ينزل بكم كما نزل بمن قبلكم و نصب (صاعقة) على انه مفعول ثان (مِثْلُ صَاعِقَةٍ عَادٍ وَ ثَمُودَ) التى أرسلها الله عليهم و املكهم بها، فقال السدى: الصاعقة أراد بها العذاب، و قال قتادة: معناه وقعة. و قيل:

إن عاداً أهلكت بالريح و الصاعقة جميعاً. و قوله (إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ) ف (إِذْ) متعلقة بقوله (صاعقة) أى نزلت بهم إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم و من خلفهم، منهم من تقدم زمانه و منهم من تأخر عنه، و قال الفراء:

أتت الرسل إياهم و من كان قبلهم و من خلفهم أى و جاءتهم أنفسهم رسل من بعد أولئك الرسل فيكون الهاء و الميم فى خلفهم للرسول، و يكون لهم بجعل ما خلفهم ما معهم. و قال قوم: معناه قبلهم و بعد أن بلغوا و تعبدوا بأمر الرسل الذين تقدموهم، قال البلخى: و يجوز أن يكون المراد أتتهم اخبار الرسل من هاهنا و هاهنا مع ما جاءهم منهم (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) أى أرسلناهم بأن لا يعبدوا إلا الله وحده لا- شريك له و ألا- يشركوا بعبادته غيره، فقال المشركون عند ذلك (لَوْ شَاءَ رَبُّنَا) أن نؤمن و نخلع الأنداد «لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً» يدعوننا إلى ذلك و لم يبعث بشراً مثلاً، فكأنهم انفوا من الانقياد لبشر مثلهم و جهلوا أن الله يبعث الأنبياء على ما يعلم من مصالح عباده و يعلم من يصلح للقيام بها و قالوا لهم ايضاً (إنا) معاصر قومنا (بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ) من إخلاص العبادة و التوحيد (كافرون) جاحدون، ثم فصل تعالى اخبارهم فقال (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) أى تجبروا و عتوا و تكبروا على الله بغير حق جعله الله لهم بل للكفر المحض و الظلم الصراح (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) لما كان الله تعالى أعطاهم من فضله قوة تقوا بها على اهل زمانهم، فقال الله تعالى (او لم يروا) التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١٤

و معناه او لم يعلموا (أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ) و اخترعهم و خلق فيهم هذه القوة (أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) و أعظم اقتداراً (و كانوا) مع ذلك (بآيات الله) و أدلته (يجحدون) أى ينكرونها، و لا يعترفون بها.

قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ١١٤

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَ هُمْ لَا يُنصِفُونَ (١٦) وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاؤَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و ابو عمرو و نافع (نحسات) ساكنة الحاء، الباقون بكسرهما، لان (نحسات) صفة، تقول العرب، يوم نحس مثل رجل هرم. وقيل:

هما لغتان، وقرأ نافع و يعقوب (و يوم نحشر) بالنون كقوله (وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) «١» و قوله (وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالنون. الباقون بضم الياء على ما لم يسم فاعله، لأنه عطف عليه. قوله (فهم يوزعون) فطابق بينهما. لما حكى الله عن عاد و ثمود انه أرسل اليهم رسلا و أمرهم بعبادة الله وحده

(١) سورة ٢٠ طه آية ١٢٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١٥

و أن لا يشركوا به شيئاً و انهم كفروا بذلك و جحدوه. و أخبر أنه أهلكهم بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً أى شديداً صوته و اشتقاقه من الصرير و لذلك ضوعف اللظ اشعاراً بمضاعفة المعنى، يقال صرصر صريراً، و صرصر يصرصر صرصرة و ريح صرصر شديد هبوبها. و قال قتادة: يعنى باردة و قال السدى: باردة ذات صوت. و قال مجاهد: شديدة السموم. و قيل: أصله صرر قلبت الراء صاداً، كما قيل: رده، و ردده، و نههه و نههه. و قال رؤبة:

فاليوم قد نههني تنهني و أول حلم ليس بالمسفة «١»

و كما قيل: كففه و كفكفه، قال النابغة:

أ كفكف عبرة غلبت عبراتي إذا نهنتها عادت ذباحا «٢»

و منه سمي نهر صرصر لصوت الماء الجارى فيه، و قوله (فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ) قال مجاهد و قتادة و السدى: يعنى مشومات، و النحس سبب الشر، و السعد سبب الخير، و بذلك سميت سعود الأيام و نحوسها و سعود النجوم و نحوستها، و من سكن الحاء خففه، و من جرها فعلى الأصل.

و قال ابو عبيدة: معناه ايام ذات نحوس أى مشائم العذاب.

و قوله (لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) إخبار منه تعالى انه انما يفعل بهم ذلك ليذيقهم حال الهوان فى الدنيا، و الخزى الهوان الذى يستحيا منه خوفاً من الفضيحة، يقال: خزى يخزى خزياً و أخزاه الله إخزاء فهو مخزى.

ثم بين تعالى ان عذاب الآخرة اخزى و افصح من ذلك فقال (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ) أى لا يدفع عنهم العذاب الذى ينزل بهم.

ثم قال تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) فالذى عليه القراء رفع الدال، وقرأ

(١، ٢) تفسير الطبرى ٢٤/ ٥٩، ٦٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١٦

الحسن بالنصب على تقدير هدينا ثمود هديناهم، و الرفع أجود، لأن (اما) لا يقع بعدها إلا الأسماء، فالنصب ضعيف. و المعنى و اما ثمود دللناهم على طريق الرشاد فعدلوا عنها إلى طريق الغى و الفساد، و الهدى يتصرف على وجوه بينها فى ما مضى. و قال ابن عباس و قتادة و السدى و ابن زيد: معناه بينا لهم، و إنما لم يصرف ثمود لأنه اسم القبيلة أو الأمة، و هو معرفة. و إنما رفع لأن (أما) رفع الاسم بعدها أولى.

و قوله (فَاسْتَجَبُوا أَعْمَى عَلَى الْهُدَى) معناه اختاروا العمى على طريق الحق و الاهتداء اليها و بنس الاختيار ذلك- و هو قول الحسن.

و في الآية دلالة على بطلان قول المجبرة في ان الله يضل الكفار عن الدين و لا يهديهم اليه لأنه صرح بأنه هدى ثمود إلى الدين و انهم اختاروا العمى على الهدى، و ذلك واضح لا اشكال فيه. و قوله (فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ) أى أرسل عليهم الصاعقة التى بعثها للعذاب دون غيره، و الهون و الهوان واحد- فى قول أبى عبيدة- و قال السدى: معناه الهوان (بما كانوا يَكْسِبُونَ) أى جزاء على ما كسبوه من الشرك و الكفر.

و قوله (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) اخبار من الله تعالى انه خلص من جملتهم من آمن بالله و اتقى معاصيه خوفاً من عقابه نجاهم الله من ذلك العذاب.

ثم قال تعالى (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ) يعيشون و هو يوم القيامة. فمن قرأ بالنون فعلى الاخبار من الله عن نفسه بذلك. و من قرأ بالباء المضمومة فعلى انهم يعيشون و يجمعون إلى النار (فهم يوزعون) أى يمنعون من التفرق و يحبسون و يكفون، يقال: وزعت الرجل إذا منعته، و منه قول الحسن لا بد للناس من وزعه و قوله (اوزعنى) أى الهمنى. و قول الشاعر: التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١٧

و إني بها بإذا المعارج موزع

و يروى موزع (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا) معناه حتى إذا أتى هؤلاء الكفار النار، و أراد الله إلقاءهم فيها (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) و قيل: فى شهادة هذه الجوارح قولان: أحدهما- انها تبنى بنية حى و تلجأ إلى الشهادة و الاعتراف بما فعله أصحابها. و الآخر- ان يفعل فيها الشهادة و يضاف اليها مجازاً.

و وجه ثالث- قال قوم: إنه يظهر فيها أمارات تدل على كون أصحابها مستحقين للنار، فسمى ذلك شهادة مجازاً، كما يقال: عيناك تشهد بسهرك أى فيها ما يدل على سهرك. و قيل: المراد بالجلود الفروج، على طريق الكناية. و قيل: لا: بل الجلود المعروفة و هو الظاهر.

قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ١١٧

وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْهُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَ ذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُغْتَنِينَ (٢٤) وَ قِضْنَا لَهُمْ قُرْءَانَهُمْ فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا يَشَاءُ أَعْدِيهِمْ وَ مَا خَلَفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١٨

خمس آيات بلا- خلاف هذا حكاية من الله عن الكفار فى الآخرة بعد ما شهدت عليهم أبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون من المعاصى فى دار الدنيا أنهم يقولون (لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْهُمْ عَلَيْنَا) منكرين عليهم إقامة تلك الشهادة. و قيل: اشتقاق الجلد من التقوية من قولهم: فلان يتجلد على كذا، و هو جلد أى قوى، فتقول جلودهم فى الجواب عن ذلك (أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) فالانطق جعل القادر على الكلام ينطق إما بالالقاء إلى النطق أو الدعاء اليه. فهؤلاء يلجئهم الله إلى ان ينطقوا بالشهادة. و النطق إدارة اللسان فى الفم بالكلام، و لذلك لا يوصف تعالى بأنه ناطق، و إن وصف بأنه متكلم. و معنى (أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) أى كل شىء لا يمتنع منه النطق كالاعراض و الموات، و الفائدة فى الاخبار عنهم بذلك التحذير من مثل حالهم فى ما ينزل بهم من الفضيحة بشهادة جوارحهم عليهم بما كانوا يعملون من الفواحش. فلم يكن عندهم فى ذلك اكثر من هذا القول الذى لا- ينفعهم و قال قوم: إن الجوارح تشهد عليهم حين يجحدون ما كان منهم.

و قوله (وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) اخبار منه تعالى و خطاب لخلقهم بأنه الذى خلقهم فى الابتداء (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فى الآخرة إلى حيث لا

يملك احد النهى و الامر سواه.

وقوله (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ) قال مجاهد (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ) أى تتقون. و قال السدى: معناه لم تكونوا فى دار الدنيا تستخفون عن معاصى الله بتركها و قيل: إن الآية نزلت فى ثلاثة التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١١٩

نفر تساروا، فقال بعضهم لبعض: أ ترى الله يسمع إسرارنا؟ و قال الفراء: معناه لم تكونوا تخافون ان تشهد عليكم جوارحكم فتستروا منها و لم تكونوا تقدرؤا على الاستتار منها، و يكون على وجه التعبير أى و لم تكونوا تستترون منها. و قوله (وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ) وصف لهؤلاء الكفار بأنهم ظنوا انه تعالى يخفى عليه أسرارهم و لا يعلمها، فبين الله بذلك جهلهم به تعالى، و انهم و إن علموه من جهة انه قادر غير عاجز و عالم بما فعلوا فإذا ظنوا انه يخفى عليه شىء منها فهو جاهل على الحقيقة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

و فى قراءة عبد الله (و لكن زعمتم) قال الفراء: الزعم و الظن يكونان بمعنى واحد و قد يختلفان. ثم حكى ما يخاطبهم به فانه يقال لهم (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ) معاصر الكفار (الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ) أى أهلككم يقال: ردى فلان يردى إذا هلك قال الأعشى:

أفى الطوف خفت على الردى و كم من رد أهله لم يرم «١»

وقوله (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) معناه فظلمتم من جملة من خسر فى تجارته لأنكم خسرتم الجنة و حصل لكم النار. ثم قال (فَإِنْ يَصْضِرُوا فَمَا لِلنَّارِ مَثْوًى لَّهُمْ) قال البلخى: معناه فان يتخيروا المعاصى فالنار مصير لهم، و قال قوم: معناه و إن يصبروا فى الدنيا على المعاصى فالنار مثواهم (و إن يستعتبوا) - بضم الياء - قرأ به عمرو و معناه إن طلب منهم العتبى لم يعتبوا أى لم يرجعوا و لم ينزعوا. و قال قوم: المعنى فان يصبروا أو يجزعوا فالنار مَثْوًى لهم، (و إن يستعتبوا) معناه فان يجزعوا فيستعتبوا (فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) لأنه ليس يستعتب إلا من قد جزع مما قد اصابه، فطلب العتبى حينئذ، كما قال

(١) ديوانه (دار بيروت) ٢٠٠ و قد مر فى ٨ / ٤٩٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢٠

(أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ) «١» و معنى الآية (فان يصبروا) على ما هم فيه فمقامهم فى النار (و إن يستعتبوا) أى و إن يطلبوا العتبى و هى الرضا (فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) أى ليس بمرضى عنهم، لأن السخط من الله تعالى بكفرهم قد لزمهم و زال التكليف عنهم، فليس لهم طريق إلى الاعتبار، و المعتبر الذى قبل عتابه و أوجب إلى ما سأل.

وقوله (وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ) قال الحسن:

معناه خلينا بينهم و بين الشياطين الذين أغووههم و دعوههم إلى ما استوجبوا العقاب به، و لم نمنعهم منهم، جزاء على ما استحقوه من الخذلان، فمعنى (قيضنا) خلينا و مكننا. قال الجبائى: (التقييض) إحواج بعض العباد إلى بعض كحاجة الرجل إلى المرأة، و المرأة إلى الرجل، و كحاجة الغنى إلى الفقير يستعمله و حاجة الفقير إلى ان يستعمله الغنى و غير ذلك من احواج بعضهم إلى بعض. و قال قوم: التقييض المماثلة، و المقايضة المقياسية، قال الشماخ:

تذكرت لما أثقل الدين كاهلى و غاب يزيد ما أردت تعذرا

رجالا مضوا عنى فلست مقايضاً بهم أبداً من سائر الناس معشرا

فالمعنى على هذا إنا نضم إلى كل كافر قريناً له من الجن مثله فى الكفر فى نار جهنم كما قال (وَمَنْ يَعْمَلْ كُفْرًا فَلَهُ شَرِيقٌ) «٢» و معنى (فزينوا لهم) يعنى فعل اهل الفساد الذين فى زمانهم، و فعل من كان قبلهم، و قيل (ما بين أيديهم) من

أمر الدنيا (و ما خلفهم) من أمر الآخرة- فى قول الحسن و السدى- و ذلك بدعائهم إلى انه لا بعث و لا جزاء. و قال الفراء (فَرَيْنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) من أمر الآخرة، فقالوا: لا جنّة و لا نار

(١) سورة ٥٢ الطور آية ١٦

(٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٣٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢١

و لا- بعث و لا- حساب (و ما خلفهم) من امر الدنيا فزينوا لهم اللذات و جمع الأموال و ترك إنفاقها فى سبيل الله. و قيل: زينوا لهم أعمالهم التى يعملونها، و هى (ما بين أيديهم) و زينوا لهم ما عزموا عليه أن يعملوه و هو (ما خَلْفُهُمْ).
و قوله (وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) يعنى و جب عليهم القول بتصييرهم إلى العذاب الذى كان اخبر انه يعذب به من عصاه (فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ) أى حق على هؤلاء الكفار و على امم من الجن و الانس انهم متى عصوا الله حق القول بأنهم يعاقبون. ثم قال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) خسروا الجنة و حصلت لهم النار.

قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ١٢١

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَ الْغُوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٢٦) فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّلْنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَنْبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)

خمس آيات بلا خلاف التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢٢

حكى الله تعالى عن الكفار انهم يقول بعضهم لبعض (لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ) الذى يقرؤه محمد صلى الله عليه و آله و لا تصغوا إليه (و الغوا فيه) لكى تغلبوه، و يجوز ان تغلبوه، فاللغو هو الكلام الذى لا معنى له يستفاد، و إلغاء الكلمة إسقاط عملها، و يقال: لغا يلغو لغواً، و لغاً، قال الراجز:

عن اللغا و رفث التكلم «١» و إذا كانت جملة الكلام لغواً لا فائدة فيه لم يحسن و إذا كان تأكيداً لمعنى تقدم- و إن لم يكن له معنى فى نفسه مفرد- حسن لأنه يجرى مجرى المتمم للكلمة التى تدل معها على المعنى، و إن لم يكن له معنى فى نفسه. و قال مجاهد: قالوا خلطوا عليهم القول بالمكاء و الصغير، و قال غيره: هو الضجيج و الصياح، و أقسم تعالى فقال (فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) بالله و جحدوا آياته (عَذَابًا شَدِيدًا وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) قيل: معناه أسوأ الذى كانوا يعملون من المعاصى من جملة ما كانوا يعملون دون غيرها مما لا يستحق به العقاب. و قال قوم: خص بذلك الكبائر- زجراً و تغليظاً- بعينها. و اقتصر فى الصغير على الجملة فى الوعيد. ثم قال (ذلك) يعنى ما تقدم الوعيد به (جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ) الذين عادوه بالعصيان و كفروا به، و عادوا أولياءه: من الأنبياء و المؤمنين و هى (النار) و الكون فيها. ف (النار) رفع بأنه بدل من قوله (ذلك) جزاؤهم و هو دخولهم فيها (لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ) أى منزل دوام و تأييد (جزاء) لهم و عقوبة على كفرهم به تعالى فى الدنيا و جحدهم لآياته. قال الفراء: هو كقولهم: لأهل الكوفة فيها دار صالحة، و الدار هى الكوفة، و حسن ذلك لما اختلف لفظاهما، فكذلك قوله (ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ) ثم قال (لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ) و هى النار بعينها.

(١) مر فى ٢/ ١٣٢، ١٦٤، ٢٣٠ و ٧/ ١٣٨ و ٨/ ١٦٣ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢٣

و في قراءة عبد الله (ذلك جزاء أعداء الله النار دار الخلد)، فهذا بين لا شىء فيه لأن الدار هي النار، فأعداء الله العصاة الذين يعاديهم الله - عز و جل - وليس هو من عداوة الإنسان لغيره إلا أن يراد به أنه يعمل عمل المعادى، كما قال (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا...) «١».

ثم حكى ما يقول الكفار ايضاً، فإنهم يقولون

(رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ) قيل: أراد به إبليس الأبالسة و هو رأس الشياطين، و ابن آدم الذى قتل أخاه، و هو قابيل. روى ذلك عن على عليه السلام

، لأن قابيل أسس الفساد فى ولد آدم. و قيل: هم الدعاة إلى الضلال من الجن و الانس.

و قوله (نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا) انهم لشدة عداوتهم و بغضهم لهم بما أضلوهم و أغوهم يتمنون ان يجعلوهما تحت أقدامهم و يطؤهم (لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ) و قيل: المعنى فيكونا فى الدرك الأسفل من النار.

و قوله (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) اخبار منه تعالى أن الذين يقرون بلسانهم بتوحيد الله و يصدقون أنبياءه و يعترفون بالله (يقولون ربنا الله ثم استقاموا) أى استمروا على ما توجه الربوبية. و قال الحسن و قتادة و ابن زيد: معناه ثم استقاموا على طاعة الله (تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ) قال مجاهد و السدى: يعنى عند الموت. و قال الحسن: تنزل عليهم الملائكة تستقبلهم إذا خرجوا من قبورهم فى الموقف بالبشارة. و يقولون لهم (لا تخافوا) عقاب الله «وَلَا تَخْزَنُوا» لفوات الثواب (وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) بها فى دار الدنيا جزاء على الطاعات. و موضع (أن لا تخافوا) النصب و تقديره تنزل عليهم و الملائكة بأن لا تخافوا، فلما حذف الباء نصب، و فى قراءة عبد الله (لا تخافوا) بلا (أن)

(١) سورة ٢ البقرة آية ٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢٤

قبلها، و تقديره يقولون لهم: لا تخافوا، و قال مجاهد: معنى لا تخافوا على ما تقدمون عليه من أمر الآخرة، و لا تحزنوا على ما تخلفونه فى دار الدنيا. و قيل البشرى فى ثلاثة مواضع: عند الموت، و فى القبر، و فى البعث.

قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ١٢٤

نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا - مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ قَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَ لَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)

خمس آيات بلا خلاف.

لما حكى الله تعالى أن الملائكة تنزل على المؤمنين المستقيمين على طاعة الله التاركين لمعصيته و تبشرهم بالجنة و تؤمنهم من عقاب الله. ذكر ايضاً انهم يقولون لهم مع ذلك (نحن أولياؤكم) و هو جمع ولى أى انصاركم و احباؤكم فى الحياة الدنيا و أولياؤكم ايضاً فى الآخرة، ففى ذلك البشارة للمؤمنين بمودة الملائكة لهم و فى الآية بشارة لهم بنيل مشتهاهم فى الجنة. و تفيد الآية وجوب اعتقاد تودد الملائكة إلى من كان مستقيماً على طاعاته. و فيها حجة على شرف الاستقامة بالطاعة على كل ما عداه من أعمال العباد يتولى الملائكة لصاحبه من اجله. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢٥

و قوله (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ)

يعنى ما تشتهونه و تتمنونه من المنافع و الملائد حاصله لكم (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ)

أى ما تستدعون. وقيل:

معناه ما تدعى انه لك فهو لك بحكم الله لك بذلك. وقوله (نُزْلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ) تقديره أنزلكم ربكم فى ما تشتهون من النعمة نزلا. فيكون نصبا على المصدر. و يجوز ان يكون نصبا على الحال، و تقديره: لكم فيها ما تشتهى أنفسكم منزلا كما تقول: جاء زيد مشيا تريد ماشيا. وقال الحسن (نُزْلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ) ليس منأ. وقيل: معناه إن هذا الموعود به مع جلالته فى نفسه له جلاله لمعطيه بعد ان غفر الذنب حتى صار بمنزله ما لم يكن رحمه منه لعباده فهو أهنا لك و أكمل للسور به.

وقوله «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَ عَمَلٍ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ» صورته صورة الاستفهام، و نصب «قولا» على التفسير، و معناه النفى و تقديره و ليس أحد أحسن قولا ممن دعا إلى طاعة الله و أضاف إلى ذلك أن يعمل الأعمال الصالحات، و يقول مع ذلك إننى من المسلمين الذين استسلموا لأمر الله و انقادوا إلى طاعته. وقيل: المعنى بالآية النبى صلى الله عليه و آله لأنه الداعى إلى الله.

و

روى أنها نزلت فى المؤمنين.

و فى الآية دلالة على من يقول: أنا مسلم إن شاء الله من أصحاب عبد الله بن مسعود، لأنه لا أحد احسن قولا منه، فيجب عليه أن يقول: إنى مسلم و يقطع فى الحكم إذا لم يكن فاسقا.

ثم قال «وَلَا تَشْتَرِى الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ» أى لا يتماثلان، و دخلت (لا) فى «وَلَا السَّيِّئَةَ» تأكيدا. وقيل: دخلت لتحقيق انه لا يساوى ذا ذاك، و لا ذاك ذا، فهو تباعد المساواة.

وقوله «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أمر للنبي صلى الله عليه و آله ان يدفع بالتي هى احسن التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢٦ وقيل: معنى الحسنه- هاهنا- المداراة. و السيئه المراد بها الغلظة. فأدب الله تعالى عباده بهذا الأدب. ثم قال «فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» معناه دار القوم و لا تغلظ عليهم حتى كأن عدوك الذى يعاديك فى الدين بصورة وليك من حسن عشرتك له و بشرتك له. و يدعو ذلك ايضا عدوك إلى أن يصير لك كالولى الحميم. وقيل: المراد ان من أساء اليك فأحسن اليه ليعود عدوك وليك. و كأنه حميمك. و الحميم القريب الذى يحم لغضب صاحبه.

وقوله «وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا» معناه ما يعطى هذه الخصلة فى رفع السيئه بالحسنه إلا ذو نصيب فى الخير عظيم. وقيل: معناه و ما يلقاها يعنى البشرى بالجنة و الامان من العذاب إلا الذين صبروا على طاعة الله و الجهاد فى دينه «وَمَا يُلْقَاهَا» ايضا «إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» من الثواب و الخير و قد لقي الله تعالى جميع الخلق مثل ما لقي من صبر، غير ان فيهم من لم يتلقه كما يتلقاه من صبروا و قبلوا ما أمرهم الله به.

قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٣٦ الى ٤٠]..... ص: ١٢٦

وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاشْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَلَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَمْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢٧

خمس آيات بلا خلاف.

قوله «وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ» أصله (إن) التي للشرط و زيد عليها (ما) تأكيداً فأشبه ذلك القسم، فلذلك دخلت نون التأكيد في قوله «ينزغنك» كما تقول:

و الله ليخرجن. و النزغ النخس بما يدعوا إلى الفساد و منه قوله «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي» (١) فنزغ الشيطان وسوسته و دعاؤه إلى معصية الله بإيقاع العداوة بين من يجب موالاته، يقال نزغ ينزغ نزغاً فهو نازغ بين رجلين.

و فلان ينزغ فلاناً كأنه ينخسه بما يدعوه إلى خلاف الصواب. و المعنى و إن ما يدعوك إلى المعاصي نزغ من الشيطان بالإغواء و الوسوسة «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» و معناه اطلب الاعتصام من شره من جهة الله و احذر منه و امتنع من جهته بقوة الله، فنحن نستعيد بالله من شر كل شيطان و شر كل ذي شر من انس و جان.

و قوله «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» يعنى انه سميع لأقوالكم من الاستعاذه و غيرها عليم بضمائرهم قادر على إجابة دعائكم و قوله «وَ مِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ» معناه و من أدلته و حججه الباهرة الدالة على توحيده و صفاته التي باين بها خلقه الليل بذهاب الشمس عن بسط الأرض و النهار بطلوها على وجهها بالمقادير التي أجريا عليه و رتبها فيه بما يقتضى تدبير عالم بهما قادر على تصرفهما،

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢٨

لأن ذلك لا يقدر عليه غير الله. و الشمس و القمر وجه الدلالة فيهما أن الأجرام الثقيلة لا تقف بغير عمد و لا تتصرف على غير قرار و لا- عماد إلا أن يصرفهما قادر ليس كالقادرين من الأجسام التي تحتاج في نقلها و تمسكها إلى غيرها، و كل جسم ثقل يصرف من غير عماد فمصرفه هو الله تعالى. و الأفعال الدالة على الله تعالى على وجهين:

أحدهما- ما لا يقدر عليه إلا هو كخلق الحياة و القدرة و الأجسام و غير ذلك و الآخر- أنه إذا وقع على وجه مخصوص لا يتأتى من القادر بقدرة و إن كان جنسه مقدوراً للعباد كتسكين الأرض من غير عمد و تصرف الشمس و القمر بكونها مرة صاعدة و مرة هابطة و مرة طالعة و مرة غاربة مع ثقل أجرامهما و بعدهما من عماد لها أعظم دلالة على ان لهما مصرفاً و مدبراً لا يشبههما و لا يشبهه شيء. قال تعالى «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ» كما يفعل قوم من المجوس بل «اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ» و انشاهن. و إنما قال «خلقهن» لأنه أجرى مجرى جمع التكسير، و لم يغلب المذكر على المؤنث، لأنه في ما لا يعقل. و قال الزجاج: تقديره الذي خلق هذه الآيات «إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» أى ان كنتم تقصدون بعبادتكم الله فوجهوا العبادة اليه دون الشمس و القمر. ثم قال «فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا» يعنى هؤلاء الكفار أى تكبروا عن توجيه العبادة إلى الله و أبوا إلا عبادة الأصنام «فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» يعنى من الملائكة «يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَسْأَمُونَ» أى لا يفترون من عبادته و لا يملونه. و السجود عند أصحابنا عند قوله «إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» و هو مذهب أبى عمرو بن العلاء. و عند الباقيين عند قوله «وَ هُمْ لَا يَسْأَمُونَ».

ثم قال تعالى «وَ مِنْ آيَاتِهِ» أى من أدلته الدالة على توحيده و إخلاص العبادة له «أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً» يعنى دارسه مهشمة- فى قول قتادة التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٢٩

و السدى- و الخاشع الخاضع فكان حالها حال الخاضع المتواضع «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ» أى تحركت بالنبات «و ربت» قال السدى: معناه انفتحت و ارتفعت قبل ان تنبت. و قرئ «ربأت» بمعنى عظمت، و معنى ربأت ارتفعت- ذكره الزجاج- ثم قال «إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا» يعنى من أحيا الأرض بما أنزله من الماء حتى تنبت «لَمْ يُحْيِ الْمَوْتَى مِثْلَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَمْوَاتًا وَ يَرَدُّ فِيهَا الْأَرْوَاحُ، لأنه قادر على ذلك. و من قدر على ذلك قدر على هذا، لأنه ليس أحدهما بأعجب من الآخر «إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» يصح أن يكون مقدوراً

له، و هو قادر لا تتناهى مقدوراته.

ثم قال «إِنَّ الَّذِينَ يَلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا» معناه الذين يميلون عن الحق في أدلتنا يقال: الحد يلحد إلحاداً. وقيل: لحد يلحد أيضاً. وقال مجاهد: معناه ما يفعلونه من المكاء و الصفير. وقال ابو روق: يعنى الذين يقعون فيه «لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا» بل نعلمهم على التفصيل، لا يخفى علينا شيء من أحوالهم.

ثم قال على وجه الإنكار عليهم و التهجين لفعلهم و التهديد لهم «أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ» جزاء على كفره و معاصيه «خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا» من عذاب الله جزاء على معرفته بالله و عمله بالطاعات. ثم قال «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» و معناه التهديد و إن كان بصورة الأمر، لأنه تعالى لم يخبرنا، و يحبينا أن نفعل ما شئنا، بل نهانا عن القبائح كلها. ثم قال «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أى عالم بأفعالكم لا يخفى عليه شيء منها فيجازيكم بحسبها.

قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٤١ الى ٤٥].... ص: ١٢٩

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣٠

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ «أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» على الخبر حفص و الحلواني عن هشام و ابن مجاهد عن قنبل في غير رواية ابن الحماسي عن بكار. الباقون بهمزتين. و خففهما اهل الكوفة إلا حفصاً و روح. و الباقون بتخفيف الأولى و تليين الثانية. و فصل بينهما بألف اهل المدينة إلا ورشاً و ابو عمر. و من قرأ بلفظ الاستفهام أراد الإنكار، فادخل حرف الاستفهام على الف «أعجمي» و هى الف قطع. و من حققها، فلائها الأصل. و من خففهما او فصل بينهما فلكرهه اجتماع الهمزتين. و من قرأ على الخبر، فالمعنى هلا كان النبي عربياً و القرآن اعجمياً. و النبي اعجمياً و القرآن عربياً، فكان يكون ابهر في باب الاعجاز.

يقول الله تعالى مخبراً «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ» الذى هو القرآن و جحدوه و سمي القرآن ذكراً، لأنه تذكر به وجوه الدلائل المؤدية إلى الحق، و المعانى التى التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣١

يعمل عليها فيه. و اصل الذكر ضد السهو و هو حضور المعنى للنفس «لَمَّا جَاءَهُمْ» أى حين جاءهم، و خبر (ان) محذوف، و تقديره: إن الذين كفروا بالذكر هلكوا به و شقوا به و نحوه. و قيل تقديره: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به، فحذف لدلالة الكلام عليه. و قيل خبره «أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» و قيل قوله «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ» فى موضع الخبر، و تقديره الكتاب الذى جاءهم عزيز، و قوله «وَإِنَّهُ» الهاء كناية عن القرآن، و المعنى و إن القرآن لكتاب عزيز بأنه لا يقدر احد من العباد على ان يأتى بمثله، و لا يقاومه فى حججه على كل مخالف فيه. و قيل: معناه إنه عزيز بإعزاز الله - عز و جل - إياه إذ حفظه من التغيير و التبديل. و قيل: هو عزيز حيث جعله على أتم صفة الأحكام. و قيل:

معناه انه منيع من الباطل بما فيه من حسن البيان و وضوح البرهان، و لأن أحكامه حق يقضى بصحتها العقل.

و قوله «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» قيل فى معناه اقوال خمسة:

أحدها- انه لا تعلق به الشبهة من طريق المشاكلة، و لا الحقيقة من جهة المناقضة و هو الحق المخلص و الذى لا يليق به الدنس.

و الثانى- قال قتادة و السدى: معناه لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقاً و لا يزيد فيه باطلا.

الثالث-ان معناه لا يأتي بشيء يوجب بطلانه مما وجد قبله ولا معه ولا مما يوجد بعده. وقال الضحاك: لا يأتيه كتاب من بين يديه يبطله ولا من خلفه أى ولا حديث من بعده يكذبه.

الرابع-قال ابن عباس: معناه لا يأتيه الباطل من أول تنزيله ولا من آخره.

والخامس-ان معناه لا يأتيه الباطل في اخباره عما تقدم ولا من خلفه التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣٢
ولا عما تأخر.

ثم وصف تعالى القرآن بأنه «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» فالحكيم هو الذى أفعاله كلها حكمه فيكون من صفات الفعل، و يكون بمعنى العالم بجميع الأشياء و أحكامها فيكون من صفات الذات. و (الحميد) هو المحمود الذى يستحق الحمد و الشكر على جميع أفعاله لان أفعاله كلها نعمة يجب بها الشكر.

وقوله «ما يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكَ» قيل فى معناه اقوال:

أحدها-من الدعاء الى الحق فى عبادة الله تعالى و لزوم طاعته.

والثانى-ما حكاه تعالى بعده من «إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ» فيكون على جهة الوعد و الوعيد.

والثالث-قال قتادة و السدى: هو تعزيه للنبي صلى الله عليه و آله بأن ما يقول لك المشركون مثل ما قال من قبلهم من الكفار لأنبيائهم من التكذيب و الجحد لنبوتهم.

وقوله «إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ» أى وقد يفعل العقاب بالعصاة من الكفار قطعاً و من الفساق على تجويز عقابهم، فلا ينبغي ان يغتروا و يجب عليهم أن يتحزروا بترك المعاصى و فعل الطاعات.

ثم قال تعالى «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ» يعنى الذكر الذى قدم ذكره «قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا» أى مجموعاً بلغه العجم، يقال: رجل أعجمى إذا كان لا يفصح و إن كان عربى النسب، و عجمى إذا كان من ولد العجم و إن كان فصيحاً بالعربية. قال ابو على:

يجوز ان يقال: رجل أعجمى يراد به أعجم بغير ياء كما يقال: أحمرى و احمر، و دوارى و دوار «لَقَالُوا لَوْ لَا فَصَّلْتَ آيَاتُهُ» و معناه هلا فصلت آياته و ميزت. و قالوا «أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ» أى، قالوا القرآن أعجمى و محمد عربى - ذكره سعيد بن جبير - و قال السدى: قالوا

اعجمى و قوم عرب. و من قرأ على الخبر حملة على أنهم يقولون ذلك التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣٣

مخبرين. و من قرأ على الاستفهام أراد انهم يقولون ذلك على وجه الإنكار، و إنما قبل الأعجمى فى الآية بالعربى، و خلاف العربى الأعجمى لان الأعجمى فى انه لا- يبين مثل العجمى عندهم من حيث اجتماعا فى انهما لا- يبينان، قبل به العربى فى قوله «أَعْجَمِيٌّ وَ

عَرَبِيٌّ» و حكى ان الحسن قرأ «اعجمى» بفتح العين قابل بينه و بين قوله «و عربى» فقال الله تعالى لنبى «قل» لهم يا محمد «هو» يعنى القرآن «لِلَّذِينَ آمَنُوا» بالله و صدقوا بتوحيده و أقروا بنبوة نبيه «هدى» يهتدون به «و شفاء» من سقم الجهل «وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» بالله و

لا يصدقون بتوحيده «فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ» يعنى ثقل إذ هم بمنزلة ذلك من حيث لم ينتفعوا بالقرآن فكأنهم صم او فى آذانهم ثقل «وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى» حيث ضلوا عنه و جاروا عن تدبيره فكأنه عمى لهم. و قوله «أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» على وجه المثل، فكأنهم

الذين ينادون من مكان بعيد و يسمعون الصوت و لا- يفهموا المعنى من حيث لم ينتفعوا به، و قال مجاهد: لبعده عن قلوبهم. و قال الضحاك: ينادون الرجل فى الآخرة كبأشنع أسمائه، و قيل: معناه أولئك لا يفهمون ذلك كما يقال لمن لا يفهم شيئاً:

كَبَأْنِكَ تَنَادَى مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

ثم اقسام تعالى بأنه آتى «مُوسَى الْكِتَابَ» يعنى التوراة «فَاخْتَلَفَ فِيهِ» لأنه آمن به قوم و جحدوه آخرون، تسلياً للنبي صلى الله عليه و آله عن جحد قومهم و إنكارهم نبوته. ثم قال «وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» فى انه لا يعاجلهم بالعقوبة و انه يؤخرهم إلى يوم القيامة «لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ» أى لفصل بينهم بما يجب من الحكم.

ثم اخبر عنهم فقال «وَأِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ» يعنى مما ذكرناه «مريب» يعنى أقبح الشك لأن الريب أفضع الشك، و فى ذلك دلالة على

جواز الخطأ على اصحاب المعارف لأنه تعالى بين انهم فى شك و انهم يؤخذون مع ذلك.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣٤

قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٤٦ الى ٥٠].... ص: ١٣٤

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِسْ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَكِنْ أَدْخَلْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ فَلَنَبْتَلَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل المدينة و ابن عامر و حفص «ثمرات» على الجمع. الباقون «ثمرة» على التوحيد من قرأ على الجمع فلاختلاف أجناس الثمار، و لأنه فى المصاحف مكتوباً بقاء ممدودة. و من وحده قال: الثمرة تفيد الجمع و التوحيد فلا يحتاج إلى الجمع، لأنه فى مصحف عبد الله مكتوب بالهاء، و «الأكمام» جمع (كم) فى قول الفراء، و (كمه) فى قول أبى عبيدة. و هى الكفرى، قال ابن خالويه: يجوز أن يكون (الأكمام) جمع (كم) و (كم) جمع كمه، فىكون جمع الجمع. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣٥

يقول الله تعالى «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا» أى فعل افعلأ هى طاعة «فَلِنَفْسِهِ» لأن ثوابه واصل اليه، و هو المنتفع به دون غيره «وَمَنْ أَسَاءَ» يعنى فعلا قبيحاً، من الاساءة إلى غيره او غيرها «فعليها» أى فعلى نفسه لأن و بال ذلك و عقابه يلحقه دون غيره.

ثم قال تعالى على وجه النفي عن نفسه ما لا يليق به من فعل القبيح و التمدح به «وَمَا رَبُّكَ» أى و ليس ربك «بظلام للعبيد» و إنما قال (بظلام) على وجه المبالغة فى نفي الظلم عن نفسه مع انه لا يفعل مثقال ذرة لأمرين:

أحدهما- انه لو فعل فاعل الظلم، و هو غير محتاج اليه مع علمه بقبحه و بأنه غنى لكان ظلاماً، و ما هو تعالى بهذه الصفة لأنه غنى عالم.

الثانى- إنه على طريق الجواب لمن زعم انه يفعل ظلم العباد. فقال: ما هو بهذه الصفة التى يتوهمها الجهال، فيأخذ احداً بذنب غيره، و الظلام هو الفاعل لما هو من افحش الظلم. و الظالم من فعل الظلم، و ظالم صفة ذم، و كذلك قولنا فاعل الظلم هما سواء، و كذلك آثم فاعل الإثم، و سىء فاعل الاساءة.

و قوله «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ» معناه اليه يرد علم الساعة التى يقع فيها الجزاء للمطيع و العاصى فاحذروها قبل ان تأتى، كما يرد اليه علم إخراج الثمار و ما يكون من الأولاد و النتائج، فذاك غائب عنكم و هذا مشاهد لكم، و قد دل عليه و لزم، و كل من سئل متى قيام الساعة؟ وجب أن يقول: الله تعالى العالم به حتى يكون قد رده إلى الله «وَمَا يَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ مِنْ أَكْمَامِهَا» معناه و عنده علم ذلك. و أكمام الثمرة وعاؤها الذى تكون فيه. و قيل: الأكمام جمع كمة، و هو الطرف المحيط بالشىء. و قال الحسن: الأكمام- هاهنا- ليف النخيل. و قيل: مِنْ أَكْمَامِهَا معناه خروج الطلع من قشره «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ» أى و عنده التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣٦

تعالى علم ما تحمله كل أنثى من حمل ذكراً كان او أنثى و لا تضع الأنثى إلا بعلمه أى إلا فى الوقت الذى علمه انه تضع فيه.

و قوله «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ» أى و يوم يناديهم مناد اين شركاء الله الذين كنتم تعبدونهم من دون الله (قَالُوا أَدْذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ) معناه إنهم يقولون أعلمناك ما منا من شهيد لمكانهم. ثم بين ذلك فقال (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ) قال السدى: معناه أيقنوا و قال ابن عباس أذناك معناه أعلمناك. و قيل المنادى هو الله تعالى، و قال السدى:

ما منا من شهيد ان لك شريكاً. وقيل: معناه أذناك أقررنا لك ما منا من شهيد بشريك له معك. وقيل قوله أذناك من قول المعبودين ما منا من شهيد لهم بما قالوا:

وقيل هذا: من قول العابدین ما منا من شهيد بأنهم آلهة. وقال آخرون: يجوز ان يكون العابدون و المعبودون يقولون ذلك. وقوله (وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ) أى أيقنوا ليس لهم من مخلص.

و دخل الظن على (ما) التى للنفى كما تدخل (علمته) على لام الابتداء، و كلاهما له صدر الكلام.

وقوله (لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ) أى لا يمل الإنسان من طلب المال و صحة الجسم - و هو قول ابن زيد - و قال بعضهم: معناه لا يمل الإنسان من الخير الذى يصيبه (و إن مسه الشر) أى إن ناله بذهاب مال او سقم فى جسمه (فيؤس قوط) أى يقنط من رحمة الله و يئأس من روحه، ففى ذلك إخبار عن سرعة تحول الإنسان و تنقله من حال الى حال. ثم قال تعالى (وَلَيْتُنَا أَذَقْنَا رَحْمَةً مِنْنا) يعنى لئن أذقنا الإنسان نعمة و أئلناه إياها (مِنْ بَعِيدٍ ضَرَاءَ مَسْتَه) أى من بعد شدة لحقته (لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى) قال مجاهد: يقول أنا حقيق بهذا الفعل (و ما التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣٧)

أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لى عِنْدَهُ لِلْحُسْنى

أى لو قامت لكان لى الحسنى يعنى الجنة. فقال الله تعالى على وجه التهديد لمن هذه صفته (فَلَنَنْبِتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ لَنَذِقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) أى فلنجزين الكفار بعد ان نعلمهم ما عملوه من كفرهم و معاصيهم ثم نجازيهم عليها بأن نذيقهم من عذاب غليظ قدر ما يستحقونه.

قوله تعالى: [سورة فصلت (٤١): الآيات ٥١ الى ٥٤]..... ص: ١٣٧

وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤)

أربع آيات بلا خلاف.

اخبار الله تعالى عن جهل الإنسان الذى تقدم وصفه بمواضع نعم الله و ما يجب عليه من الاعتراف بشكره، بتركه النظر المؤدى إلى معرفته، فقال (وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ) بنعمة من إعطاء مال او ولد أو صحة جسم (اعرض) عن القيام بشكر الله على ذلك حسب ما يلزمه (وَ نَأَى بِجَانِبِهِ) أى بعد بجانبه كبراً و تجبراً عن الاعتراف بنعم الله. وقيل: معناه و بعد عن الواجب (و إذا مسه الشر) يعنى إذا ناله مرض او مصيبة فى مال او نفس (فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) قال السدى يدعو التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣٨

الله كثيراً عند ذلك. و إنما قال (فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) و لم يقل: طويل، لأنه ابلغ، لان العرض يدل على الطول، و لا يدل الطول على العرض إذ قد يصح طويل و لا- عرض له. و لا- يصح عريض و لا- طول له، لان العرض الانبساط فى خلاف جهة الطول، و الطول الامتداد فى أى جهة كان.

و فى الآية دلالة على بطلان قول المجبرة: انه ليس لله على الكافر نعمة، لأنه اخبر تعالى بأنه ينعم عليه و انه يعرض عن موجبها من الشكر و فى دعائه عند الشدة حجة عليه، لأنه يجب من اجل قلة صبره على الشدة ان يشكر برفعها عنه إلى النعمة، فقال الله تعالى لهم على وجه الإنكار عليهم (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ) هذه النعمة (مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ) أى و جحدتموه (مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) أى فى مشاققه الله بخلافه له بعيد عن طاعته. و الشقاق الميل إلى شق العداوة لا لأجل الحق كأنه قال لا احد أضل ممن هو فى شقاق بكفره، و به يذم من كان عليه، كما

قال على عليه السلام (يا اهل العراق يا اهل الشقاق و النفاق و مساوئ الأخلاق)

وقيل: الشقاق فراق الحق إلى العداوة و أهله.

وقوله (سَيُنْزِلُهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ) معناه إن الدلائل في آفاق السماء بسير النجوم و جريان الشمس و القمر فيها بآتم التدبير، و في أنفسهم جعل كل شيء لما يصلح له من آلات الغذاء و مخارج الأنفاس، و مجارى الدم، و موضع العقل و الفكر، و سبب الافهام، و آلات الكلام. و قال السدى: آياتنا في الآفاق بصدق ما يخبر به النبي صلى الله عليه و آله من الحوادث عنها. و في ما يحدث من أنفسهم، و إذا رأوا ذلك تبينوا و علموا أن خبره حق، و انه من قبل الله تعالى.

وقوله (أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أى هو عالم لجميع ذلك و الباء زائدة، و التقدير او لم يكف ربك انه عالم بجميع الأشياء. و المعنى أ ليس فى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٣٩

الله كفاية فى معاقبه هؤلاء الكفار على كفرهم إذ كان عالماً بكل شيء مشاهداً لجميع ما يفعلونه قادراً على مجازاتهم عليه، و كما انه شهيد على ذلك هو شهيد على جميع الحوادث و مشاهد لجميعها و عالم بها لا يخفى عليه شيء من موضعها.

وقوله (إنه) يحتمل ان يكون موضعه رفعاً ب (يكف) و يحتمل ان يكون جراً بالباء. و تقديره بأنه على كل شيء شهيد.

ثم قال (أَلَا- إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ) أى هم فى شك من لقاء ثواب ربهم و عقابه، لأنهم فى شك من البعث و النشور (أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ) أى هو عالم بكل شيء قادر عليه.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٤٠

٤٢- سورة الشورى..... ص: ١٤٠

إشارة

مكية فى قول قتادة و مجاهد، و ليس فيها ناسخ و لا- منسوخ، و هى ثلاث و خمسون آية فى الكوفى، و خمسون فى البصرى و المدنيين.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ١٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤)

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥)

خمس آيات فى الكوفى و ثلاث فى ما عداه عد الكوفيون (حم) و عدوا (عسق) و لم يعده الباقون.

قال ابو عبد الله بن خالويه سألت ابن مجاهد، فقلت: إن القاف أبعد من الميم، فلم اظهر حمزة النون عند الميم فى (طسم) و لم يظهرها عند القاف فى (عسق) فقال و الله ما فكرت فى هذا قط، قال ابو عبد الله الحجة فى ذلك ان (طسم) أول سورة النمل ثم جاءت

سورتان فيهما الميم، فبين ليعلم ان الميم زائدة على هجاء التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٤١

السين و اتفق اهل الكوفة على ان لم يفرّدوا السين بين حرفين فى الكلام هذا على الأصل. و اما الحجة من جهة التخفى، فان النون تدغم فى الميم و تخفى عند القاف و المخفى بمنزلة المظهر، فلما كره التشديد فى (طسم) أظهروا لما كان المخفى بمنزلة الظاهر و لم يحتج إلى اظهار القاف، قال الفراء: ذكر عن ابن عباس انه قال (حمسق) بلا عين. و قال السين كل فرقة تكون. و القاف كل جماعة كانت، قال الفراء و كانت فى بعض مصاحف عبد الله مثل ذلك. و قرأ ابن كثير وحده (يوحى اليك) بفتح الحاء على ما لم يسم

فاعله، فعلى هذا يكون اسم الله مرتفعاً بمحذوف يدل عليه المذكور قال الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومة و مختبط مما تطيح الطوائح «١»

أى يبيكه ضارع، فيكون التقدير يوحى اليك يوحى الله. قال ابو على: ذكر أن مثل هذه السورة أوحى إلى من تقدم من الأنبياء، فعلى هذا يكون التقدير يوحى اليك هذه السورة كما أوحى إلى الذين، وقال الزجاج، و الفراء: يقال إن (حمسق) أو حيت إلى كل نبى كما أوحيت إلى محمد صلى الله عليه وآله قال ابن عباس: و بها كان على عليه السلام يعلم الفتن. و قرأ الباقر يوحى - بكسر الحاء - فيكون على هذا اسم الله مرتفعاً بأنه فاعل (يوحى) و قد قرئ شاذاً (نوحى) بالنون مع كسر الحاء فعلى هذا يحتمل رفع اسم الله لوجهين:

أحدهما - ان يكون رفعاً بالابتداء.

و الثانى - ان يكون مرتفعاً بفعل مقدر يدل عليه (يوحى) الأول، كما قلناه فى من فتح الحاء. و يجوز أن يكون بدلا من الضمير. و يجوز أن يجعل اسم الله خبر ابتداء محذوف، و تقديره هو الله العزيز الحكيم. و قرأ ابو عمرو و عاصم فى

(١) مر هذا البيت فى ٤/ ٣١٠ و ٦/ ٣٢٩ و ٧/ ٤٤٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٤٢

رواية أبى بكر (يكاد) بالياء (ينفطرن) بالياء و النون، لأن تأنيث السموات غير حقيقى، و قد تقدم الفعل و لذلك أتت (يتفطرن) لما تأخر الفعل عن السموات و قرأ ابن كثير و ابن عامر و حمزة فى رواية حفص (تكاد) بالتاء لتأنيث السموات (و ينفطرن) بالياء و النون لما قدمناه. و قرأ نافع و الكسائى (يكاد) بالياء لما قلناه من ان التأنيث غير حقيقى (يتفطرن) بياء، و تاء و (يتفطرن) فى معنى تنفطر و هو مضارع فطرته فتفطر و فطرته بالتخفيف فانفطر، و معنى يتفطرن يتشققن.

قليل إنما عدوا (حم) و (عسق) آية و لم يعد (طس) لأن (طس) لما انفرد عن نظيره من (طسم) فأشبهه الاسم حمل عليه، و لما لم ينفرد (حم) عن نظيره جرى عليه حكم الجملة التامة التى تعد آية من اجل انها آية. فلما اجتمع فى (طس) الانفراد عن النظر و أشبه (قابيل) و كل واحد من هذين الوجهين يقتضى مخالفة حكم (طسم) و جب الخلاف. و أما انفرد (حاميم) بالزنة فقط، لم يجب الخلاف كما و جب فى ما اجتمع فيه سببان. و فى (حم) من الفائدة تعظيم الله - عز و جل - السورة و تسميتها و تشريفها لها و تنويعاً باسمها و إجراؤها فى التفصيل مجرى ما يعقل فى فضله على ما لا يعقل من الأجسام و الاعراض. و قيل ان (حم عسق) انفردت بأن معانيها أوحيت إلى سائر الأنبياء، فلذلك خصت بهذه التسمية. و قيل إنما فصل (حم عسق) من سائر الحواميم ب (عسق) لان جميعها استفتح بذكر الكتاب على التصريح به إلا هذه السورة فانه دل عليه دلالة التضمنين بذكر الوحي الذى يرجع إلى الكتاب، و الوحي أعم من الكتاب فى معناه إلا انه دال فى هذا الموضع على الكتاب بهذه الصفة.

و قوله (كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ) قيل فى المشبه به فى قوله (كَذَلِكَ) وجهان: التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص:

١٤٣

أحدهما - كالوحي الذى تقدم يوحى اليك.

و الثانى - هذا الوحي الذى يأتى فى هذه السورة يوحى اليك، لان ما لم يكن حاضراً يراه صلح فيه (هذا) لقرب وقته و (ذلك) لبعده فى نفسه، و معنى التشبيه فى (كَذَلِكَ) أن بعضه كبعض فى انه حكمه و صواب بما تضمنه من الحجج و المواعظ و الفوائد التى يعمل عليها فى الدين (وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ) معناه مثل ذلك أوحى إلى الذين من قبلك من الأنبياء و تعبدهم بشريعة كما تعبدك بمثل ذلك.

و قوله (العزيز الحكيم) معناه القادر الذى لا يغالب الحكيم فى جميع أفعاله.

و من كان بهاتين الصفتين خلصت له الحكمة في كل ما يأتي به، لأنه العزيز الذي لا يغالب و الغنى الذي لا يحتاج إلى شيء، و لا يجوز أن يمنعه مانع مما يريد، و هو الحكيم العليم بالأمور لا يخفى عليه شيء منها لا يجوز أن يأتي إلا بالحكمة. فاما الحكيم غيره يحتاج فلا يوثق بكل ما يأتي به إلا أن يدل على ذلك الحكمة دليل.

قوله (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ) معناه أنه مالكهما و مدبرهما و له التصرف فيهما و لا احد له منعه من ذلك و يكون (العلی) مع ذلك بمعنى المستعلى على كل قادر العظيم في صفاته التي لا يشاركه فيها احد.

و قوله (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ) قيل في معناه قولان:

أحدهما- قال ابن عباس و قتادة و الضحاك: يتفطرن من فوقهن من عظمه الله و جلاله.

و الثاني- ان السموات تكاد تتفطرن من فوقهن استعظاماً للكفر بالله و العصيان له مع حقوقه الواجبة على خلقه، و ذلك على وجه التمثيل ليس لأن السموات تفعل شيئاً او تنكر شيئاً، و إنما المراد ان السموات لو انشقت لمعصيته استعظاماً لها أو لشيء من الأشياء لتفطرت استعظاماً لكفر من كفر بالله و عبد التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٤٤ معه غيره.

و قوله (الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) معناه ينزهونه عما لا يجوز عليه من صفات، و ما لا يليق به من أفعال (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) من المؤمنين. و في ذلك صرف الإهلاك لهم و لغيرهم من اهل الأرض يصرفه عنهم.

ثم قال (أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) لعباده عصيانهم تارة بالتوبة و تارة ابتداء منه كل ذلك تفضلاً منه و رأفة بهم و رحمة لهم.

قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ١٤٤

و الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِیْظٌ عَلَيْهِمْ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) خمس آيات بلا خلاف.

هذا اخبار من الله تعالى (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) يعنى الكفار الذين اتخذوا الأصنام آلهة و وجهوا عبادتهم اليها. و جعلوهم أولياء لهم و انصاراً للتبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٤٥

من دونه. و إنما قال (من دونه) لان من اتخذ ولياً بأمر الله لم يتخذ من دون الله.

و قوله (اللَّهُ حَفِیْظٌ عَلَيْهِمْ) أى حافظ عليهم أعمالهم و حفيظ عليها بأنه لا يعزب عنه شيء منها، و انه قد كتبها فى اللوح المحفوظ مظهرة فى الحجة عليهم و ما هو اقرب إلى افهامهم إذا تصوروا مكتوبة لهم و عليهم.

و قوله (وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) معناه إنك لم توكل بحفظ أعمالهم، فلا يظن ظان هذا، فانه ظن فاسد و إنما بعثك الله نذيراً لهم و داعياً إلى الحق و مبنياً لهم سبيل الرشاد. و قيل: معناه إنك لم توكل عليهم أى تمنعهم من الكفر بالله، لأنه قد يكفر من لا يتبها له منعه من كفره بقتله.

و قوله (وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) معناه مثل ما أوحينا إلى من تقدمك من الأنبياء بالكتب التي أنزلناها عليهم أوحينا اليك ايضاً قرآناً عربياً لتنذر أم القرى أى لتخوفهم بما فيه من الوعيد و تبشرهم بما فيه من الوعد. قال السدى: أم القرى مكة و التقدير لتنذر اهل أم القرى (وَمَنْ حَوْلَهَا) من سائر الناس. و سميت أم القرى، لأنه

روى أن الله تعالى دحا الأرض من تحت الكعبة

قال المبرد: كانت العرب تسمى مكة أم القرى (و من حولها) و من يطيف بها (و تُنْذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ) معناه و تخوفهم يوم الجمع أيضاً، و نصب (يوم) لأنه مفعول ثان و ليس بظرف، لأنه ليس ينذر في يوم الجمع، و إنما يخوفهم عذاب الله يوم الجمع. و قيل هو يوم القيامة (لا ريب فيه) أى لا شك فيه و فى كونه.

ثم قسم اهل يوم القيامة فقال (فريق) منهم (فى الجنة) بطاعتهم (و فريق) منهم (فى السعير) جزاء على معاصيهم. ثم قال (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) معناه الاخبار عن قدرته بأنه لو شاء ان يلجئهم إلى الايمان و دين الإسلام، لكان التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٤٦

قادراً على ذلك و فعله، لكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف و هو ان يفعلوا العبادة على وجه يستحقون بها الثواب، و مع الإلجاء لا يمكن ذلك، فلذلك لم يشأ ذلك.

فألاية تفيد قدرته على الإلجاء و تأتى ذلك. ثم قال (وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) أى يدخلهم فى الجنة و ثوابها من يشاء منهم إذا أطاعوا و اجتنبوا معاصيه و بين أن (الظالمون) نفوسهم بارتكاب معصية الله (مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ) يوالهم (و لا نصير) يمنعهم من عذاب الله إذا أراد فعله بهم جزاء على معاصيهم، ثم قال (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) معناه بل هؤلاء الكفار اتخذوا من دون الله أولياء من الأصنام و الأوثان يوالونهم و ينصرونهم. ثم قال (فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ) معناه المستحق فى الحقيقة للولاية و التقرب اليه هو الله تعالى دون غيره (وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) يصح ان يكون مقدوراً له قادر. و من كان بهذه الصفة فهو الذى يجب ان يتخذ ولياً.

و قوله (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) معناه ان الذى تختلفون فيه من أمر دينكم و دنياكم و تتنازعون فيه (فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) يعنى أنه الذى يفصل بين المحق فيه و بين المبطل، لأنه العالم بحقيقة ذلك، فيحكم على المحق باستحقاق الثواب و على المبطل باستحقاق العقاب.

و قيل: معناه فحكمه إلى الله، لأنه يجب ان يرجع إلى أمره فى الدنيا و فصل القضاء فى الآخرة. ثم قال لنبه قل لهم (ذلك) الذى وصفته من أنه يحيى الموتى و هو على كل شىء قدير (هو الله ربى) و مدبرى (عليه توكلت) بمعنى فوضت أمرى اليه و أسندت ظهرى اليه (و اليه أنيب) أى ارجع اليه فى جميع أمورى و احوالى.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٤٧

قوله تعالى: [سورة الشورى (٢٢): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ١٤٧

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِى أُوحِىْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لَا كَلِمَةُ سِبْقَتٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ (١٤) فَلِتَذِلَّكَ فَادَعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)

خمس آيات بلا خلاف.

لما قال الله تعالى لنبه صلى الله عليه و آله قل لهم الذى وصفته بأنه الذى يحيى و يميت التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٤٨
هو ربى و اليه ارجع فى أمورى كلها، زاد فى صفاته تعالى (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) أى هو فاطر السموات، و معنى فاطر خالق

السموات ابتداء. وحكى عن ابن عباس انه قال لم أكن أعرف معنى (فاطر) حتى تحاكم إلى أعرايان في بئر فقال أحدهما انا فطرته بمعنى أنا ابتدأته، والفطر ايضاً الشق. ومنه قوله تعالى (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ) وقوله (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) يعنى اشكالاً مع كل ذكر أنثى يسكن اليها و يألفها. ومن الأنعام أزواجاً من الضان اثنين و من المعز اثنين و من البقر اثنين و من الإبل اثنين، ذكوراً و إناثاً و وجه الاعتبار بجعل الأزواج ما فى ذلك من إنشاء الشئ حالاً بعد حال على وجه التصريف الذى يقتضى الاختيار، و جعل الخير له أسباب تطلب كما للشر أسباب تجتنب، فجعل لكل حيوان زوجاً من شكله على ما تقتضيه الحكمة فيه.

وقوله (يذرؤكم فيه) أى يخلقكم و يكثركم فيه يعنى فى التزويج و فى ما حكم فيه. و قال الزجاج و الفراء: معناه يذرؤكم به أى بما جعل لكم أزواجاً و انشد الازهرى قول الشاعر يصف امرأة:

و ارغب فيها عن لقيط و رهطه و لكننى عن سنبس لست ارغب «١»

أى ارغب بها عن لقيط. فالذرء إظهار الشئ بإيجاده يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً و أصله الظهور، و منه ملح ذرأنى لظهور بياضه. و الذرية لظهورها ممن هى منه. و قوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) قيل فى معناه ثلاثة اقوال: أحدها- إن الكاف زائدة و تقديره ليس مثل الله شئ من الموجودات و لا المعدومات كما قال أوس بن حجر:

(١) مر فى ٢٧٨ / ٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٤٩

و قتلى كمثل جذوع النخيل يغشاهم سيل منهمر «١»

و قال آخر:

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم ما كمثلهم فى الناس من احد «٢»

و قال الراجز:

و صاليات ككما توثقين «٣»

الثانى- قال الرماني: إنه بلغ فى نفى الشبيه إذا نفى مثله، لأنه يوجب نفى الشبهة على التحقيق و التقدير، و ذلك انه لو قدر له مثل لم يكن له مثل صفاته و لبطل ان يكون له مثل و لنفرده بتلك الصفات، و بطل ان يكون مثلاً له فيجب أن يكون من له مثل هذه الصفات على الحقيقة لا مثل له أصلاً إذ لو كان له مثل لم يكن هو بصفاته و كان ذلك الشئ الآخر هو الذى له تلك الصفات، لأنها لا تصح إلا لواحد فى الحقيقة و هذا لا يجوز أن يشبه بشبه حقيقة، و لا بلاغة فوجب التباعد من الشبه لبطلان شبه الحقيقة.

الثالث- وجه كان المرتضى على بن الحسين الموسوى (رحمة الله عليه) جارانا فيه فاتفق لى بالخاطر وجه قلته فاستحسنه و استجاده، و هو ان لا تكون الكاف زائدة و يكون المعنى انه نفى ان يكون لمثله مثل و إذا ثبت انه لا- مثل لمثله فلا مثل له ايضاً. لأنه لو كان له مثل لكان له أمثال، لأن الموجودات على ضربين:

أحدهما- لا- مثل له، كالقدرة فلا- أمثال لها ايضاً. و الثانى- له مثل كالسواد و البياض و اكثر الأجناس فله أمثال ايضاً و ليس فى الموجودات ماله مثل واحد فحسب، فعلم بذلك ان المراد انه لا مثل له أصلاً من حيث لا مثل لمثله.

و قوله (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) معناه انه على صفة يجب ان يسمع المسموعات

(١، ٢، ٣) تفسير الطبرى ٨ / ٢٥ و القرطبي ٨ / ١٦ و الشوكاني ٤ / ٥١٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥٠

إذا وجدت و يبصر المبصرات إذا وجدت و ذلك يرجع إلى كونه حياً لا آفة به، و فائدة ذكره- هاهنا- هو انه لما نفى ان يكون له

شبه على وجه الحقيقة والمجاز، وعلى وجه من الوجوه بين انه مع ذلك سميع بصير، لئلا يتوهم نفى هذه الصفة له على الحقيقة فقط، فانه لا مدحة في كونه مما لا مثل له على الانفراد، لان القدرة لا مثل لها، وإنما المدحة في انه لا مثل له مع كونه سميعاً بصيراً، وذلك يدل على التفرد الحقيقي.

وقوله (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) معناه له مفاتيح الرزق منها بانزال المطر من السماء واستقامة الهواء فيها و إنبات الثمار و الأقوات من الأرض. ثم قال (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ) أى يوسع له (و يقدر) أى يضيق لمن يشاء ذلك على ما يعلمه من مصالحهم (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) مما يصلحهم او يفسدهم.

ثم خاطب تعالى خلقه فقال (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا) معنى شرع بين و أظهر، و هو (الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) يا محمد صلى الله عليه وآله و هو (مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى) و سائر النبيين، و هو أنا أمرناهم بعبادة الله و الشكر له على نعمه و طاعته في كل واجب و ندب مع اجتناب كل قبيح، و فعل ما أمر به مما أدى إلى التمسك بهذه الأصول مما تختلف به شرائع الأنبياء. ثم بين ذلك فقال (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) و موضع (ان أقيموا) يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب: أحدها- ان يكون نصباً بدلاً من (ما) في (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا). الثاني- ان يكون جراً بدلاً من الهاء في (به). الثالث- ان يكون رفعاً على الاستئناف، و تقديره هو ان أقيموا الدين.

وقوله (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) معناه كبر عليهم و استعظموا كونك التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥١ داعياً إلى الله، و دعاؤك يا محمد و أنت مثلهم بشر و من قبيلتهم إنك نبى، و ليس لهم ذلك، لان الله يجتنب لرسالته من يشاء على حسب ما يعلم من قيامه بأعباء الرسالة و تحمله لها، فاجتنبك الله تعالى كما اجتنب موسى و من قبلك من الأنبياء، و معنى (يجتنب) يختار. و قوله (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) معناه و يهديه إلى طريق الثواب و يهدى المؤمنين الذين أنابوا اليه و أطاعوه. و قيل: يهديه إلى طريق الجنة و الصواب بأن يطف له فى ذلك إذا علم ان له لطفاً، ثم قال (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) و معناه إن هؤلاء الكفار لم يختلفوا عليك إلا بعد أن أتاهم طريق العلم بصحة نبوتك، فعدلوا عن النظر فيه بغياً بينهم للحسد و العداوة و الحرص على طلب الدنيا و إتباع الهوى. و قيل: إن هؤلاء لم يختلفوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة، لكن فعلوا ذلك للبغي.

ثم قال (وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) بأن اخبر بأنه يبعثهم (إلى أجل مسمى) ذكر انه يقيهم اليه لم يجز مخالفته، لأنه يصير كذباً (لقضى بينهم) أى لفصل بينهم الحكم و انزل عليهم ما يستحقونه من العذاب عاجلاً. ثم قال (وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ) قال السدى: يعنى اليهود و النصارى من بعد الذين أورثوا الكتاب الذى هو القرآن (لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ) أى من الدين، و قال غيره: الذين أورثوا الكتاب من بعد اليهود و النصارى فى شك من الدين مريب، و هم الذين كفروا بالقرآن و شكوا فى صحته و انه من عند الله من سائر الكفار و المنافقين.

وقوله (فَلَتَذِلَّكَ فَادُعُ) و اشْتَقِمُ معناه فالى ذلك فادع، كما قال (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) «١» أى اوحى اليها يقال دعوته لذا و بذا و إلى ذا. و قيل:

(١) سورة ٩٩ الزلزال آية ٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥٢

معناه فلذلك الدين فادع. و قيل: معناه فلذلك القرآن فادع. و الاول احسن و أوضح و قوله (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) نهى للنبي صلى الله عليه وآله عن إتباع ما هو به المشركون و المراد به أمته. و قيل: ثلاث من كن فيه نجا: العدل فى الرضا و الغضب، و القصد فى الغنى و الفقر، و الخشية فى السر و العلانية. و ثلاث من كن فيه هلك: شح مطاع، و هوى متبع، و عجب المرء بنفسه.

وقوله (وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ) أى قل لهم صدقت بما أنزل الله من القرآن و بكل كتاب أنزله الله على الأنبياء قبلى (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ). وقيل فى معناه قولان: أحدهما- أمرت بالعدل. والثانى- أمرت كى اعدل. و قل لهم أيضاً (اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ) أى مدبرنا و مدبركم و مصرفنا و مصرفكم (لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) و معناه أن جزاء أعمالنا لنا من ثواب او عقاب و جزاء أعمالكم لكم من ثواب او عقاب، لا يؤاخذ احد بذنب غيره، كما قال (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى «١») (لا- حُجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ) أى لا خصومة بيننا- فى قول مجاهد و ابن زيد- أى قد ظهر الحق فسقط الجدال و الخصومة. و قيل: معناه إن الحجة لنا عليكم لظهورها، و ليست بيننا بالاشتباه و الالتباس. و قيل: معناه لا حجة بيننا و بينكم لظهور أمركم فى البغى علينا و العداوة لنا و المعاندة، لا على طريق الشبهة، و ليس ذلك على جهة تحريم إقامة الحجة، لأنه لم يلزم قبول الدعوة إلا بالحجة التى يظهر بها الحق من الباطل فإذا صار الإنسان إلى البغى و العداوة سقط الحجاج بينه و بين اهل الحق. ثم قال (اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) أى المرجع حيث لا يملك احد الحكم فيه و لا الأمر و النهى غيره، فيحكم بيننا بالحق. و فى ذلك غاية التهديد. و قيل: إن

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ و سورة ١٧ الإسراء آية ١٥ و سورة ٣٥ آية فاطر آية ١٨ و سورة ٣٩ الزمر آية ٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥٣

ذلك كان قبل الأمر بالقتال و الجهاد.

قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ١٥٣

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أُنْزِلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزَانَ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى إن (الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ) أى يجادلون فى الله بنصرة مذهبهم (مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) و قيل فى معناه قولان: أحدهما- من بعد ما استجاب له الناس لظهور حجته بالمعجزات التى أقامها الله- عز و جل- و الآيات التى أظهرها الله فيه، لأنهم بعد هذه الحال فى حكم المعاندين بالبغى و الحسد. قال مجاهد: كانت محاجتهم بأن قالوا: كتابنا قبل كتابكم، و نبينا قبل نبيكم، و نحن أولى بالحق منكم، فلذلك قال الله تعالى «حُجَّتُهُمْ التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥٤ دَاحِضَةٌ»

لأن ما ذكروه لا يمنع من صحة نبوة نبينا بأن ينسخ الله كتابهم و ما شرعه النبى الذى كان قبله.

و الثانى- معناه من بعد ما استجيب للنبي دعاءه بالمعجزات التى أجاب الله تعالى دعاءه فى إقامتها له. قال الجبائى: أجاب الله تعالى دعاءه فى كفار بدر حتى قتلهم الله بأيدى المؤمنين، و أجاب دعاءه عليهم بمكة و على مضر من القحط و الشدائد التى نزلت بهم، و ما دعا به من إنجاء الله المستضعفين من أيدى قريش فأنجاهم الله و خلصهم من أيديهم و غير ذلك مما يكثر تعداده، فقال الله تعالى «حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» و هى شبهة، و إنما سماها حجة- على اعتقادهم- فلشبهها بالحجة أجرى عليها اسمها من غير اطلاق الصفة بها، و (داحضة) معناه باطلة «عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ» من الله أى لعن و استحقاق عقاب و الاخبار به عاجلا- «و لهم» مع ذلك «عذاب شديد» يوم القيامة.

وقوله تعالى «اللَّهُ الَّذِي أُنْزِلَ الْكِتَابَ» يعنى القرآن «بِالْحَقِّ وَ الْمِيزَانَ» فقلوه «بالحق» فيه دلالة على بطلان مذهب المجبرة: بأن الله أنزله

ليكفروا به و أراد منهم الضلال و العمل بالباطل. و انزل «الميزان» يعنى العدل، لان الميزان إظهار التسوية من خلافها فى ما للعباد اليه الحاجة فى المعاملة او التفاضل و مثل الموازنة المعارضة و المقابلة و المقايضة، فالقرآن إذا قوبل بينه و بين ما يدعونه، و قويس بينهما ظهرت فضيلته، و بانت حجته، و علمت دلالته، فلذلك وصفه بالميزان.

و قال مجاهد و قتادة: الميزان- هاهنا- العدل. و قال الجبائى: انزل الله عليهم الميزان من السماء و عرفهم كيف يعملون به بالحق و كيف يزنون به. و قيل: إن الحق الذى انزل به الكتاب وصفه على عقد معتقده على ما هو به من ثقة. و الحق قد يكون بمعنى حكم و معنى امر او نهى و معنى وعد او وعيد و معنى دليل. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥٥

و قوله «و ما يدريك» يا محمد و لا و لا غيرك «لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» إنما قال (قريب) مع تأنيث الساعة، لان تأنيثها ليس بحقيقى. و قيل: التقدير لعل مجيئها قريب. و إنما أخفى الله تعالى الساعة و وقت مجيئها عن العباد، ليكونوا على خوف و يبادروا بالتوبة، و لو عرفهم عنها لكانوا مغربين بالقبيح قبل ذلك تعويلا على التأني بالتوبة.

و قوله «يَسْتَعْجِلُ بِهَا» يعنى بالساعة «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا» أى لا يقرون بها و لا يصدقون لجهلهم بما عليهم فى مجيئها من استحقاق العقاب و ما للمؤمنين من الثواب. و قال «وَالَّذِينَ آمَنُوا» أى صدقوا بها «مُشْفِقُونَ مِنْهَا» أى خائفون من مجيئها لعلمهم بما فيها من استحقاق العقاب و الأحوال فيحذرونها «وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ» أى و يعلمون ان مجيئها الحق الذى لا خلاف فيه. ثم قال تعالى ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد أى يجادلون فى مجيئها على وجه الإنكار لها لفى ضلال عن الصواب و عدول عن الحق بعيد.

ثم قال تعالى «اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ» فلطفه بعباده إيصاله المنافع اليهم من وجه يدق على كل عاقل إدراكه، و ذلك فى الأرزاق التى قسمها الله لعباده و صرف الآفات عنهم، و إيصال السرور اليهم و الملاذ، و تمكينهم بالقدرة و الآلات إلى غير ذلك من ألطافه التى لا تدرك على حقيقتها و لا يوقف على كنهها لغموضها. ثم قال تعالى «يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ» يعنى القادر الذى لا يعجزه شىء «الْعَزِيزُ» الذى لا يغالب.

و قوله «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ» قيل: معناه إنا نعطيه بالحسنة عشرأ إلى ما شئنا من الزيادة «وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا» أى من عمل الدنيا «نُؤْتِهِ» أى نعطيه نصيبه «مِنْهَا» من الدنيا لا جميع ما يريده بل على التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥٦

ما تقتضيه الحكمة دون الآخرة، و شبه الطالب بعمله الآخرة بالزراع فى اطلب النفع لحرثه، و كذلك الطالب بعمله نفع الدنيا. ثم قال «وَمَا لَهُ» يعنى لمن يطلب الدنيا دون الآخرة «فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» من الثواب و النعيم فى الآخرة. و قيل:

إن الذى وعدهم الله به أن يؤتيهم من الدنيا إذا طلبوا حرث الدنيا هو ما جعل لهم من الغنيمة و النفع إذا قاتلوا مع المسلمين، لأنهم لا يمنعون ذلك مع إظهارهم الايمان لكن ليس لهم فى الآخرة نصيب من الثواب.

قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ١٥٦

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقعٌ بِهِمْ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَٰلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَ هُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَغْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥)

خمس آيات بلا خلاف. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥٧

قرأ ابن كثير، و نافع، و ابو عمرو، و ابن عامر، و ابو بكر عن عاصم «يفعلون» بالياء. الباقون بالتاء.

من قرأ بالياء، فعلى أن الله يعلم ما يفعله الكفار فيجازيهم عليه. و من قرأ بالتاء فعلى وجه الخطاب لهم بذلك.

لما اخبر الله تعالى ان من يطلب بأعماله الدنيا أنه يعطيه شيئاً منها، و انه ليس له حظ من الخير في الآخرة. و قال (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ) يعنى بل هؤلاء الكفار لهم شركاء فى ما يفعلونه أى اشركوهم معهم فى أعمالهم بأن «شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ» الذى قلدوهم فيه «ما لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ» أى لم يأمر به و لا أذن فيه. ثم قال «وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفُضْلِ» أى كلمة الحكم الذى قال الله: «إِنى أؤخر عقوبتهم، و لا أعجلهم به فى الدنيا «لَقَضَيْتُ بَيْنَهُمْ» و فصل الحكم فيهم و عوجلوا بما يستحقونه من العذاب. ثم قال «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ» لنفوسهم بارتكاب المعاصى «لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أى مؤلم أى هم مستحقون لذلك يوم القيامة. ثم قال «تَرَى الظَّالِمِينَ» يا محمد «مُشْفِقِينَ» أى خائفين «مِمَّا كَسَبُوا» يعنى من جزاء ما كسبوا من المعاصى و هو العقاب الذى استحقوه «وَهُوَ وَقَعَ بِهِمْ» لا محالة لا ينفعهم إشفاقهم منه، و لا خوفهم من وقوعه، و الإشفاق الخوف من جهة الرقة على المخوف عليه من وقوع الأمر، و اصل الشفقة الرقة من قولهم ثوب مشفق أى رقيق ردى، و دين فلان مشفق أى ردى.

ثم قال «وَالَّذِينَ آمَنُوا» بالله و صدقوا رسله «وَعَمِلُوا» الأفعال «الصَّالِحَاتِ»، من الطاعات «فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ» فالروضة الأرض الخضرة بحسن النبات، و الجنة الأرض التى يجنها الشجر، و البستان التى عمها النبات أى هم مستحقون للكون فيها «لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» و معناه لهم ما يشتهون من اللذات، لان التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥٨

الإنسان لا يشاء الشئ إلا من طريق الحكمة او الشهوة او الحاجة فى دفع ضرر و دفع الضرر لا يحتاج اليه فى الجنة، و إرادة الحكمة تتبع التكليف، فلم يبق بعد ذلك إلا انهم يشاؤون ما يشتهون. و قوله «عِنْدَ رَبِّهِمْ» يعنى يوم القيامة الذى لا يملك فيه الأمر و النهى غيره، و ليس يريد ب «عند ربهم» من قرب المسافة، لأن ذلك من صفات الأجسام.

ثم قال «ذلك» يعنى الكون عند ربهم و أن لهم ما يشاؤون «هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» يعنى الزيادة التى لا يوازيها شئ فى كثرتها. ثم قال «ذلك» يعنى ما تقدم ذكره مما يشاءونه هو «الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ» به و من شدد الشين أراد الكثير، و من خفف، فلائنه يدل على القليل و الكثير. و قيل: هما لغتان، و حكى الأخفش لغة ثالثة: أبشرتة. ثم وصفهم فقال «الَّذِينَ آمَنُوا» بالله و صدقوا رسله «وَعَمِلُوا» الاعمال «الصَّالِحَاتِ».

ثم قال «قل» لهم يا محمد صلى الله عليه و آله «لَا أَشْكُرْكُمْ عَلَيْهِ» أى على ادائى إليكم «أَجراً» عن الرسالة، و ما بعثنى الله به من المصالح «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» و قيل فى هذا الاستثناء قولان:

أحدهما- إنه استثناء منقطع لان المودة فى القربى ليس من الأجر و يكون التقدير لكن أذكركم المودة فى قرابتي.

الثانى- إنه استثناء حقيقة و يكون أجرى المودة فى القربى كأنه أجر، و إن لم يكن أجر و اختلفوا فى معنى

«الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» فقال على بن الحسين عليهما السلام و سعيد ابن جبير و عمرو بن شعيب: معناه أن تودوا قرابتي، و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله عليهما السلام

و قال الحسن: معناه «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» إلى الله تعالى و التودد بالعمل الصالح اليه. و قال ابن عباس و قتادة و مجاهد و السدى و الضحاك التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٥٩

و ابن زيد و عطاء بن دينار: معناه إلا ان تودونى لقرابتي منكم. و قالوا: كل قرشى كانت بينه و بين رسول الله صلى الله عليه و آله قرابة، و يكون المعنى إن لم تودونى لحق النبوة افلا تودونى لحق القرابة. و الاول هو الاختيار عندنا، و عليه أصحابنا. و قال بعضهم: إلا ان تصلوا قرابتكم. و قال آخرون: معناه إلا ان تتقربوا إلى الله بالطاعات.

ثم قال تعالى «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا» أى من فعل طاعة نزد له فى تلك الطاعة حسناً بأن نوجب له عليها الثواب. و الاقتراف الاكتساب و أصله من قرفت الشئ إذا كشفت عنه، كقولك قرفت الجلد و هو من الاعتماد و الاكتساب «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» أى ستار على عباده معاصيهم بالتوبة و غير التوبة تفضلاً منه تعالى و إحساناً منه إلى عباده «شَكُورٌ» و معناه انه يعاملهم معاملة الشاكر فى

توفية الحق حتى كأنه ممن وصل اليه النفع فشكره. وقيل: معناه يجازيهم على شكرهم إياه فسماه شكراً على عاداتهم في تسمية الشيء باسم ما كان سببه مجازاً، كما قال «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» (١).

ثم قال «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً» بمعنى بل يقولون هؤلاء الكفار إنك يا محمد افتريت على الله كذباً في ادعائك رساله على الله فقال له تعالى «فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» قال قتاده: معناه يختم على قلبك بأن ينسيك القرآن.

وقيل: معناه لو حدثتك نفسك بأن تفتري على الله كذباً لطبعت على قلبك وأذهبت الوحي الذي أتيتك، لاني أمحو الباطل وأحق الحق. وقال الزجاج: معناه فان يشأ الله ان يربط على قلبك بالصبر على أذاهم لك وعلى قولهم افتري على الله كذباً «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ» وقوله «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ» رفع إلا أنه حذف الواو من المصاحف كما حذف من قوله «سَيَذَرُكَ الرَّبَّانِيَّةُ» (٢) على اللفظ وذهابه لالتقاء

(١) آية ٤٠ من هذه السورة

(٢) سورة ٩٦ العلق آية ١٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦٠

الساكنين، وليس بعطف على قوله «يختم» لأنه رفع، وبين ذلك بقوله «وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» أى وثبت الحق بأقواله التي ينزلها على أنبيائه يتبين بها كذب من ادعى على الله كذباً في أنه نبي، ولا يكون كذلك «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» أى بأسرار ما فى الصدور، لا يخفى عليه شيء منها. ثم قال «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» فتمدحه بأن يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات بأن لا يعاقب عليها دليل على ان إسقاط العقاب عندها تفضل، ويعلم ما تفعلونه من التوبة وغيرها فيجازيكم عليا. فمن قرأ بالتاء فعلى الخطاب و من قرأ بالياء فعلى وجه الاخبار عن الغائب.

قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ١٦٠

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَائَةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر و نافع «بما كسبت» بلا فاء، وكذلك هو فى مصاحف اهل التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦١

المدينة و اهل الشام. الباقون بالفاء، وكذلك فى مصاحفهم، فعلى هذا يكون جزء و على الأول يكون المعنى الذى أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم.

لما اخبر الله تعالى انه يقبل التوبة عن عباده و انه يعلم ما يفعلونه من طاعة او معصية و انه يجازيهم بحسبها، ذكر انه «يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» يجيبهم بمعنى و (الذين) فى موضع نصب، و أجاب و استجاب بمعنى واحد، قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب (١)

وقيل: الاستجابة موافقة عمل العامل ما يدعو اليه، لأجل دعائه اليه، فلما كان المؤمن يوافق بعمله ما يدعو النبي صلى الله عليه و آله من اجل دعائه كان مستجيباً له، و كذلك من وافق بعمله داعى عقابه كان مستجيباً للداعى بالفعل. و عن معاذ بن جبل: إن الله تعالى يجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات فى دعاء بعضهم لبعض.

وقيل: معناه و يجب المؤمنون ربهم في ما دعاهم اليه، فيكون (الَّذِينَ) في موضع رفع، و يكون قوله «و يزيدهم» راجعاً إلى الله أى يزيدهم الله من فضله. وقيل:

معناه و يستجيب دعاء المؤمنين، و لا يستجيب دعاء الكافرين، لأنه ثواب و لا ثواب للكافرين. وقيل: بل يجوز ان يكون ذلك إذا كان فيه لطف للمكلفين.

وقوله «و يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» معناه و يزيدهم زيادة من فضله على ما يستحقونه من الثواب. و قال الرماني: الزيادة بالوعد تصير اجراً على العمل إذا كان ممن يحسن الوعد بها من طريق الوعد، كما لو كان إنسان يكتب مائة ورقة بدينار، و رغبه ملك في نسخ مائة ورقة بعشرة دنانير، فانه يكون الأجر حينئذ عشرة دنانير و إذا بلغ غاية الأجر في مقدار لا يصلح عليه أكثر من ذلك، فإنما تستحق

(١) مر تخريجه في ٢/ ١٣١ و ٣/ ٨٨ و ٦/ ٢٣٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦٢
الزيادة بالوعد.

وقوله «وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» اخبار عما يستحقه الكافر على كفره من العقاب المؤلم الشديد.

وقوله «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ» إخبار منه تعالى بأنه لو وسع رزقه على عباده و سوى بينهم لبطروا النعمة و تنافسوا و تغالبوا، و كان ذلك يؤدي إلى وقوع الفساد بينهم و القتل و تغلب بعضهم على بعض و استعانة بعضهم ببعض ببذل الأموال، و لكن دبرهم على ما علم من مصلحتهم في غناء قوم و فقر آخرين، و إحواج بعضهم إلى بعض و تسخير بعضهم لبعض، فلذلك قال «وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقُدْرٍ مَا يَشَاءُ» مما يعلمه مصلحته لهم «إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» يعنى عالم بأحوالهم بصير بما يصلحهم مما يفسدهم.

ثم قال «وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا» أى ينزله عليهم من بعد إياسهم من نزوله، و وجه إنزاله بعد القنوط انه أدعى إلى شكر الآتي به و تعظيمه و المعرفة بمواقع إحسانه، و كذلك الشدائد التي تمر بالإنسان، و يأتي الفرج بعدها، تعلق الأمل بمن يأتي به و تكسب المعرفة بحسن تدبيره في ما يدعو اليه من العمل بأمره و الانتهاء إلى نهيهِ. و نشر الرحمة عمومها لجميع خلقه، فهكذا نشر رحمة الله مجددة حالا بعد حال. ثم يضاعفها لمن يشاء، و كل ذلك على مقتضى الحكمة و حسن التدبير الذي ليس شيء احسن منه «وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» معناه هو الأولي بكم و بتدبيركم المحمود على جميع أفعاله لكونها منافعة و إحساناً.

ثم قال «وَمِنْ آيَاتِهِ» أى من حججه الدالة على توحيده و صفاته التي باين بها خلقه «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» لأنه لا يقدر على ذلك غيره لما فيهما من العجائب و الأجناس التي لا يقدر عليها قادر بقدره «وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ» أى التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦٣

من سائر أجناس الحيوان «وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ» أى على جمعهم يوم القيامة و حشرهم إلى الموقف بعد إماتتهم قادر، لا يتعذر عليه ذلك.

ثم قال «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ مِنْ مُصِيبَةٍ» معاشر الخلق (فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) قال الحسن: ذلك خاص في الحدود التي تستحق على وجه العقوبة. و قال قتادة: هو عام، و قال قوم: ذلك خاص و إن كان مخرجه مخرج العموم لما يلحق من المصائب على الأطفال و المجانين و من لا- ذنب له من المؤمنين. و قال قوم: هو عام بمعنى ان ما يصيب المؤمنين و الأطفال إنما هو من شدة محنة تلحقهم، و عقوبة للعاصين كما يهلك الأطفال و البهائم مع الكفار بعذاب الاستئصال. و لأنه قد يكون فيه استصلاح اقتضاه وقوع تلك الاجرام.

وقيل قوله (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ) بحسب ما يطلبونه و يقترحونه (لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) فانه لم يمنعهم ذلك لعجز، و لا بخل. وقوله (إذا يشاء) يدل على حدوث المشيئة، لأنه لا يجوز ان يكون إذا قدر على شيء فعله و لا إذا علم شيئاً فعله.

و يجوز إن شاء ان يفعل شيئاً فعله.

وقوله (أصابكم) قال ابو على النحوى: يحتمل أمرين أحدهما- ان يكون صلة ل (ما). الثانى- ان يكون شرطاً فى موضع جزم، فمن قدره شرطاً لم يجوز سقوط الفاء- على قول سيبويه- و أجاز ذلك ابو الحسن و الكوفيون. و إن كان صلة فلا ثبات و الحذف جائز ان على معنيين مختلفين، فإذا ثبت الفاء كان ذلك دليلاً على ان الامر الثانى وجب بالأول كقوله (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ) «١» فثبت الفاء يدل على وجوب الإنفاق و إذا حذف احتمل الأمرين.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦٤

قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ١٦٤

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْمَارِضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥)

خمس آيات كوفى و أربع فى ما عداه عد الكوفيون (كالاعلام) و لم يعد، الباقون.

قرأ ابو عمرو، و نافع (الجوارى فى البحر) بياء فى الوصل، و وقف ابن كثير بياء ايضاً. الباقون بغير ياء فى الوصل و الوقف. و قرأ نافع و ابو جعفر و ابن عامر (و يعلم الذين) رفعاً على الاستئناف، لان الشرط و الجزاء قد تم، فجاز الابتداء بما بعده. الباقون بالنصب. فمن نصبه فعلى الصرف، كما قال النابغة:

فان يهلك ابو قابوس يهلك ربيع الناس و البلد الحرام

و تأخذ بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام «١»

قال الكوفيون: هو مصروف من مجزوم إلى منصوب، و قال البصريون:

هو نصب بإضمار (أن) و تقديره ان يعلم، كما قال الشاعر:

و ليس عباءة و تقر عيني أحب إلى من لبس الشفوف

و تقديره و أن تقر عيني، قال ابو على: و من نصب (و يعلم) فلان قبله

(١) تفسير القرطبي ٣٤ / ١٦ و الشوكاني ٥٢٥ / ٤ و الطبرى ٢٥ / ٢٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦٥

شرط و جزاء، و كل واحد منهما غير واجب، تقول فى الشرط إن تأتني و تعطيني أكرمك فينصب و تعطيني، و تقديره إن يكون منك إتيان و إعطاء أكرمك، و النصب بعد الشرط إذا عطفته بالفاء أمثل من النصب بالفاء بعد جزاء الشرط فأما العطف على الشرط نحو إن تأتني و تكرمنى أكرمك، فالذى يختار سيبويه فى العطف على الشرط نحو إن تأتني و تكرمنى الجزم، فيختار (و يعلم الذين) إذا لم يقطعه عن الأول فيرفعه، و إن عطف على جزاء الشرط، فالنصب أمثل. و من اثبت الياء فى الحالىن فى قوله (الجوارى) فلائها الأصل، لكن خالف المصحف، و من أثبتها وصلاً دون الوقف استعمل الأصل و تبع المصحف، و من حذفها فى الحالىن يتبع المصحف، و اجتزأ بالكسرة الدالة على الياء. و واحد الجوارى جارية، و هى السفينة، و حكى عن ابن مسعود انه قرأ بضم الراء كأنه قلب، كما قالوا (شاك) فى (شائك) فأراد الجوائر فقلب.

قوله (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ) خطاب من الله تعالى للكفار بأنكم لستم تفوتون الله بالهرب منه في الأرض ولا في السماء، فانه يقدر عليكم في جميع الأماكن ولا يمكن النجاة من عذابه إلا بطاعته، فواجب عليكم طاعته، ففي ذلك استدعاء إلى عبادة الله و ترغيب في كل ما أمر به و تحذير عما نهى عنه. و وجه الحجة بذلك على العبد انه إذا كان لا يعجز الله، و لا يجد دافعاً عن عقابه خف عليه عمل كل شيء في جنب ما توعده به.

وقوله (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) اي ليس لكم من يدفع عنكم عقاب الله إذا أراد فعله بكم و لا ينصركم عليه، فيجب أن ترجعوا إلى طاعته من هذه صفته.

وقوله (و من آياته الجوار في البحر كالأعلام) معناه من آياته الدالة على التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦٦

انه تعالى مختص بصفات لا يشركه فيها احد، السفن الجارية في البحر مثل الجبال، لأنه تعالى يسيرها بالريح لا يقدر على تسييرها غيره، و وجه الدلالة في السفن الجارية هو ان الله خلق الماء العظيم و عدل الريح بما يمكن أن يجرى فيه على حسب المراد لأنه إذا هبت الريح في جهة و سارت بها السفينة فيها، فلو اجتمعت الخلائق على صرفها إلى جهة أخرى لما قدروا، و كذلك لو سكنت الريح لوقفت. و ما قدر احد على تحريكها، و لا إجرائها غيره تعالى.

ثم بين ذلك بأن قال (إِنْ يَشَأْ يُسَيِّرِ الرِّيحَ) و تقديره إن يشأ يسكن الريح أسكنها او إن يشأ ان يسكنها سكنت، و ليس المعنى إن وقعت منه مشيئة أسكن لا محالة، لأنه قد وقعت منه مشيئة لاشياء كثيرة و لم تسكن الريح. و الجوارى السفن - في قول مجاهد و السدى - و الاعلام الجبال - في قولهما - و قوله (فَيُظَلِّلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ) قال ابن عباس: معناه تظل السفن واقفة على ظهر الماء، قال الشاعر:

و إن صخرًا لتأتم الهداء به كأنه علم في رأسه نار

وقوله (إن في ذلك) يعنى في تسخير البحر و جريان السفن فيها لآيات أى حججاً واضحات (لكل صبار) على أمر الله (شكور) على نعمه، و إنما أضاف الآيات إلى كل صبار و إن كانت دلالات لغيرهم أيضاً من حيث هم الذين انتفعوا بها دون غيرهم، ممن لم ينظر فيها.

وقوله (أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا) معناه يهلكهم بالغرق - في قول ابن عباس و السدى و مجاهد - (بما كسبوا) أى جزاء على ما فعلوه من المعاصى (وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ) اخبار منه تعالى انه يعفو عن معاصيهم لا يعاجلهم الله بعقوبتها.

وقوله (وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ) اخبار منه تعالى أن التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦٧

الذين يجادلون في إبطال آيات الله تعالى و يدفعونها سيعلمون انه ليس لهم محيص أى ملجأ يلجئون اليه - في قول السدى -.

قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٣٦ الى ٤٠] ص: ١٦٧

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ وَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً (كبير الإثم) على التوحيد. الباكون (كبائر) على الجمع جمع التكسير. و من وحد قال: إنه اسم جنس يقع على القليل و الكثير. و قال قوم: أراد الشرك فقط. و من جمع، فلان انواع الفواحش، و اختلاف أجناسها كثيرة.

يقول الله تعالى مخاطباً لمن تقدم وصفه (فَمَا أُوتِيتُمْ) يعنى ان الذى اوتيتموه و أعطيتموه (من شىء) من الأموال، (فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى هو شىء ينتفع به عاجلاً لا بقاء له و لا محصول له. و المتاع يخبر به عن الامتاع و يعبر به عن الأثاث، ففي ذلك ترهيد في الدنيا و

حث على عمل الآخرة. ثم قال (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ) يعنى من الثواب فى الجنة (خير و أبقى) من هذه المنافع العاجلة التى هى قليلة و الآخرة التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦٨

باقية دائمة، و هذه فانية منقطعة. ثم بين انها حاصلة (للذين آمنوا) بتوحيد الله و تصديق رسله (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) أى يفوضون أمرهم اليه تعالى دون غيره فالتوكل على الله تفويض الامر اليه باعتقاد أنها جارية من قبله على احسن التدبير مع الفزع اليه بالدعاء فى كلما ينوب. و التوكل واجب، الترغيب فيه كالترغيب فى جملة الايمان.

و قوله (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ) يحتمل ان يكون (الذين) فى موضع جر بالعطف على قوله (للذين) فكأنه قال و ما عند الله خير و أبقى للمؤمنين المتوكلين على ربهم المجتنبين كبائر الإثم و الذنوب. و الفواحش جمع فاحشة، و هى أقبح القبيح. و يحتمل ان يكون فى موضع رفع بالابتداء، و يكون الخبر محذوفاً، و تقديره الذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش (وَإِذَا مَا غَضِبُوا) مما يفعل بهم من الظلم و الاساءة (هم يغفرون) و يتجاوزون عنه و لا يكافونهم عليه مثل ذلك.

و العفو المراد فى الآية هو ما يتعلق بالاساءة الى نفوسهم الذى لهم الاختصاص بها فمتى عفا عنها كانوا ممدوحين، فأما ما يتعلق بحدود الله و وجوب حدوده فليس للإمام تركها و لا-العفو عنها، و لا يجوز له ان يعفو عن المرتد و عمن يجرى مجراه. ثم زاد فى صفاتهم فقال (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) فى ما دعاهم اليه (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) على حقها (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) أى لا ينفردون بأمر حتى يشاوروا غيرهم، لأنه قيل: ما تشاور قوم إلا وفقوا لآحسن ما يحضرهم (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) فى طاعة الله و سبيل الخير.

ثم قال (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ) من غيرهم و ظلم من جهتهم (هم ينتصرون) يعنى ممن بغى عليهم من غير ان يعتدوا فيها فيقتلوا غير القاتل و يجنوا على غير الجانى، و فى قوله (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) ترغيب فى انكار التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٦٩

المنكر. ثم قال (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) قال ابو نجيح و السدى: معناه إذا قال أخزاه الله متعدياً قال له مثل ذلك أخزاه الله. و يحتمل ان يكون المراد ما جعل الله لنا إلا-الاقتصاص منه من (النَّفْسِ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَ السِّنُّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحُ قِصَاصٌ) «١» فان للمجنى عليه أن يفعل بالجانى مثل ذلك من غير زيادة و سماه سيئة للازدواج، كما قال (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) «٢» و قال (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) «٣» ثم مدح العافى عما له أن يفعله، فقال (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ) عما له المؤاخذه فيه «فَأَجْرُهُ» فى ذلك و جزاؤه «عَلَى اللَّهِ» فانه يثيبه على ذلك.

و قوله (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) قيل فى معناه وجهان:

أحدهما- إني لم أرغبكم فى العفو عن الظالم لأنى أحبه، بل لأنى أحب الإحسان و العفو.

و الثانى- إني لا أحب الظالم لتعديه ما هو له إلى ما ليس له فى القصاص و لا غيره.

وقيل الكبائر الشرك بالله، و قتل النفس التى حرم الله، و قذف المحصنات، و عقوق الوالدين، و أكل مال اليتيم، و الفرار من الزحف، و أكل الحرام.

و عندنا كل معصية كبيرة، و إنما تسمى صغيرة بالإضافة إلى ما هو اكبر منها لا انها تقع محبطة، لان الإحباط باطل عندنا. و قيل إن هذه الآيات نزلت فى قوم من المهاجرين و الأنصار.

(١) سورة ٥ المائدة آية ٤٨

(٢) سورة ١٦ النحل آية ١٢٦ [.....]

(٣) سورة ٢ البقرة آية ١٩٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧٠

قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٤١ الى ٤٥]..... ص: ١٧٠

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥)

خمس آيات بلا خلاف قوله (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ) اخبار من الله تعالى أن من انتصر لنفسه بعد أن كان ظلم وتعدى عليه، فأخذ لنفسه بحقه، فليس عليه من سبيل. قال قتادة: بعد ظلمه في ما يكون فيه القصاص بين الناس في النفس او الأعضاء او الجراح، فأما غير ذلك فلا يجوز أن يفعل لمن ظلمه ولا ذم له على فعله. وقال قوم: معناه إن له أن ينتصر على يد سلطان عادل بأن يحمله اليه و يطالبه بأخذ حقه منه، لأن السلطان هو الذى يقيم الحدود، و يأخذ من الظالم للمظلوم، ويمكن أن يستدل بذلك على أن من ظلمه غيره بأخذ ماله كان له إذا قدر أن يأخذ من ماله بقدره، فلا إثم عليه، و الظالم هو الفاعل للظلم. وقد بينا حكم الظالم في غير موضع، فلما بين أن للمظلوم أن يقتص منه، و انه متى أخذ بحقه لم يكن عليه سبيل التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧١

بين (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) و يأخذون ما ليس لهم و يتعدون عليهم (و يَبْغُونَ) عليهم (فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) لأنه متى سعى فيها بالحق لم يكن مذموماً به إن طلب بذلك ما أباحه الله له (أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) اخبار منه تعالى أن من قدّم وصفه لهم عذاب موجه مؤلم. ثم مدح تعالى من صبر على الظلم و لم ينتصر لنفسه و لا طالب به و يغفر لمن أساء اليه بأن قال (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) أى من ثابت الأمور التى أمر الله بها فلم ينسخ. و (عزم الأمور) هو الأخذ بأعلاها فى باب نيل الثواب و الأجر و احتمال الشدائد على النفس و إثثار رضا الله على ما هو مباح. و قيل: (إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) جواب القسم الذى دل عليه (لَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ) كما قال (لَنْ أُخْرِجُوا لَّا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ) «١» و قيل: بل هى فى موضع الخبر. كأنه قال إن ذلك منه لمن عزم الأمور، و حسن ذلك مع طول الكلام.

وقوله (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ) يحتمل أمرين:

أحدهما- ان من أضله الله عن طريق الجنة إلى عذاب النار فليس له ناصر ينصره عليه و يرفعه عنه من بعد ذلك بالتخليص منه.

والثانى- أن من حكم الله بضلاله و سماه ضالاً عن الحق فما له من ولى و لا ناصر يحكم بهدايته و يسميه هادياً.

ثم قال (وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ) اخبار منه تعالى إنك يا محمد ترى الظالمين إذا شاهدوا عذاب النار يقولون هل إلى الرجوع و الرد إلى دار التكليف من سبيل تمنياً منهم لذلك و التجاء إلى هذا القول لما ينزل بهم من البلاء. مع علمهم بأن ذلك لا يكون، لان معارفهم ضرورية.

(١) سورة ٥٩ الحشر آية ٢٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧٢

ثم قال (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ) قال ابن عباس: من طرف ذليل. و قال الحسن و قتادة: يسارقون النظر، لأنهم لا- يجرون أن ينظروا إلى النار بجميع أبصارهم لما يرون من هول النار و ألوان العذاب. و قيل: يرون النار بقلوبهم، لأنهم يحشرون عمياً (وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا) يعنى الذين صدقوا الله و رسوله ذلك اليوم إذا رأوا حصول الظالمين فى النار و اليم العقاب (إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) باستحقاق النار (و أهليهم) لما حيل بينهم و بينهم (يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا- إِنَّ) هؤلاء (الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ) أى دائم لا زوال له. و قد منعوا من الانتفاع بنفوسهم و أهليهم ذلك اليوم.

قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٤٦ الى ٥٠]..... ص: ١٧٢

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَحَ بِهَا وَإِنْ تُصَبِّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

خمس آيات بلا خلاف التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧٣

لما اخبر الله تعالى أن الظالمين أنفسهم بارتكاب المعاصي وترك الواجبات في عذاب مقيم دائم غير منقطع، اخبر في الآية التي بعدها انهم لم يكن لهم أولياء في ما عبدوه من دون الله، ولا- فيمن أطاعوه في معصية الله، أى أنصار ينصرونهم من دون الله و يرفعون عنهم عقابه. وقيل: المراد من يعبدونه من دون الله او يطيعونه في معصية الله لا ينفعهم يوم القيامة. فالفائدة بذلك اليأس من أى فرج إلا من قبل الله، فلهذا من كان هلاكه بكفره لم يكن له ناصر يمنع منه.

ثم قال (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ) أى من أضله الله عن طريق الجنة و عدل به إلى النار (فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ) يوصله إلى الجنة و الثواب. و يحتمل ان يكون المراد و من يحكم الله بضلاله و يسميه ضالاً- لم يكن لأحد سبيل الى ان يحكم بهدايته. ثم قال تعالى لخلقه (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ) يعنى أجيئوه إلى ما دعاكم اليه و رغبتكم فيه من المصير الى طاعته و الانقياد لأمره (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ) أى لا مرجع له بعد ما حكم به. وقيل معناه لا يتهدى لاحد رده و لا يكون لكم ملجأ تلجئون اليه فى ذلك اليوم. و الملجأ و المحرّز نظائر (وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ) أى تعبير انكار. وقيل: معناه من نصير ينكر ما يحل بكم ثم قال لنبى صلى الله عليه و آله (فَإِنْ أَعْرَضُوا) يعنى هؤلاء الكفار و عدلوا عما دعوناهم اليه و لا يستجيبون اليه (فَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) أى حافظاً تمنعهم من الكفر (إِنْ عَلَيْكَ) أى ليس عليك (إِلَّا-البلاغ) و هو إيصال المعنى الى افهامهم و تبين لهم ما فيه رشدهم، فالذى يلزم الرسول دعاؤهم الى الحق، و لا- يلزمه ان يحفظهم من اعتقاد خلاف الحق. ثم اخبر تعالى عن حال الإنسان و سرعته تنقله من حال الى حال فقال (وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) و أوصلنا اليه نعمة (فَرَحَ بِهَا) و إِذْ تُصَبِّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) أى عقوبه جزاء بما قدمته أيديهم من المعاصي (فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ) يعدد المصائب التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧٤

و يجحد النعم و قوله (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) و معناه له التصرف فى السموات و الأرض و ما بينهما و سياستها بما تقتضيه الحكمة حسب ما يشاء و (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) من انواع الخلق (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ) من خلقه (إِنِثَاءً) يعنى البنات بلا ذكور (وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ) من خلقه (الذكور) بلا إناث (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً) قال ابن عباس و الحسن و قتادة و الضحاك و السدى: معناه ان يكون حمل المرأة مرة ذكراً و مرة أنثى و يحتمل ان يكون المراد ان يرزقه توماً ذكراً و أنثى او ذكراً و ذكراً و أنثى و أنثى و هو قول ابن زيد (وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا) فالعقيم من الحيوان الذى لا يكون له ولد و يكون قد عقم فرجه عن الولادة بمعنى منع (انه عليم) بمصالحهم (قدير) أى قادر على خلق ما أراد من ذلك.

قوله تعالى: [سورة الشورى (٤٢): الآيات ٥١ الى ٥٣]..... ص: ١٧٤

وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْكَمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

ثلاث آيات بلا خلاف قرأ نافع و ابن عامر فى رواية الداحونى عن صاحبه (او يرسل... فيوحى) بالرفع على تقدير او هو يرسل فيوحى و يكون المعنى يراد به الحال بتقدير إلا موحياً التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧٥

او مرسلًا و ذلك كلامه اياهم. الباقون بالنصب و يرسل فيوحى على تأويل المصدر، كأنه قال إلا ان يوحى او يرسل. و معنى (او) فى قوله (أَوْ يُرْسَلُ رَسُولًا) يحتمل وجهين:

أحدهما- العطف، فيكون إرسال الرسول احد اقسام الكلام كما يقال عتابك السيف كأنه قيل الا وحيًا او إرسالًا.

الثانى- ان يكون (الا ان) كقولك لألزمك او تعطينى حقى، فلا يكون الإرسال فى هذا الوجه كلامًا. و لا يجوز ان يكون (او يرسل) فيمن نصب عطفًا على قوله (أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ) لأنك لو حملته على ذلك لكان المعنى و ما كان لبشر أن يكلمه الله او ان يرسل رسولًا، و لم يخل قولك (أَوْ يُرْسَلُ رَسُولًا) من ان يكون المراد به او يرسله رسولًا- او يكون المراد او يرسل اليه رسولًا، و التقديران جميعًا فاسدان، لأننا نعلم أن كثيرًا من البشر قد أرسل رسولًا، و كثيرًا منهم أرسل اليه رسولًا، فإذا بطل ذلك صح ما قدرناه أولاً، و يكون التقدير ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى وحيًا او يرسل رسولًا، فيوحى، و يجوز فى قوله (إلا وحيًا) أمران: أحدهما- ان يكون استثناء منقطعًا.

و الآخر- ان يكون حالًا، فان قدرته استثناء منقطعًا لم يكن فى الكلام شىء توصل به (من) لأن ما قبل الاستثناء لا يعمل فى ما بعده، لأن حرف الاستثناء فى معنى حرف النفى، ألا ترى أنك إذا قلت: قام القوم إلا زيدًا، فالمعنى قام القوم لا زيد، فكما لا يعمل ما قبل حرف النفى فى ما بعده كذلك لا يعمل ما قبل الاستثناء- إذا كان كلامًا تامًا- فى ما بعده إذ كان بمعنى النفى، و كذلك لا يجوز أن يعمل ما بعد (إلا) فى ما قبلها، فإذا كان كذلك لم يتصل الجار بما قبل (إلا) التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧٦ و يمتنع أن يتصل به الجار من وجه آخر، و هو ان قوله (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) من صلته (يوحى) الذى هو بمعنى (أن يوحى) فإذا كان كذلك لم يجز ان يحمل الجار الذى هو فى قوله (مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) على (أو يرسل) لأنك تفصل بين الصلة و الموصول بما ليس منهما. ألا ترى أن المعطوف على الصلة من الصلة إذا حملت العطف على ما ليس فى الصلة فصلت بين الصلة و الموصول بالاجنبى الذى ليس منها، فإذا لم يجز حمله على (يكلمه) فى قوله (ما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ) و لم يكن بدّ من ان يعلق الجار بشىء، و لم يكن فى اللفظ شىء يحمل عليه أضمرت (بما يكلم) و جعلت الجار فى قوله (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) متعلقًا بفعل مراد فى الصلة محذوف حذفًا للدلالة عليه، و يكون فى المعنى معطوفًا على الفعل المقدر صلة، لأن الموصول يوحى، فيكون التقدير: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى اليه، او يكلمه من وراء حجاب، فحذف (يكلم) من الصلة، لان ذكره قد جرى و إن كان خارجًا من الصلة، فحسن لذلك حذفه من الصلة.

و من رفع (أو يرسل رسولًا) فانه يجعل (يرسل) حالًا و الجار فى قوله (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) يتعلق بمحذوف، و يكون فى الظرف ذكر من ذى الحال، و يكون قوله (إلا وحيًا) على هذا التقدير مصدرًا وقع موقع الحال، كقولك جئت ركضًا او أتيت عدوًا. و معنى (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) فيمن قدر الكلام استثناء منقطعًا او حالًا: يكلمهم غير مجاهر لهم بكلامه، يريد ان كلامه يسمع و يحدث من حيث لا يرى، كما ترى سائر المتكلمين، ليس ان ثم حجابًا يفصل موضعًا من موضع، فيدل ذلك على تحديد المحجوب.

و من رفع (يرسل) كان (يرسل) فى موضع نصب على الحال. و المعنى هذا كلامه كما تقول: تحببك الضرب و عتابك السيف. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧٧

يقول الله تعالى إنه ليس لبشر من الخلق أن يكلمه الله إلا أن يوحى اليه وحيًا (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) معناه او بكلام بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب، لأنه تعالى لا يجوز عليه ما لا يجوز إلا على الأجسام من ظهور الصورة للابصار (أَوْ يُرْسَلُ رَسُولًا) فان جعلناه عطفًا على إرسال الرسول، كان احد اقسام الكلام كما قلناه فى قولهم: عتابك السيف، كأنه قال إلا وحيًا او إرسالًا، و إن لم تجعله عطفًا لم يكن احد اقسامه، و يكون كقولهم: لألزمك او تعطينى حقى، فلا يكون الإرسال فى هذا الوجه كلامًا، فيكون كلام الله لعباده على ثلاثة اقسام:

أولها- ان يسمع منه كما يسمع من وراء حجاب، كما خاطب الله به موسى عليه السلام.

الثاني- بوحى يأتى به الملك إلى النبي من البشر كسائر الأنبياء.

الثالث- بتأدية الرسول إلى المكلفين من الناس، وقيل فى الحجاب ثلاثة اقوال:

أحدها- حجاب عن إدراك الكلام لا المكلم وحده.

الثاني- حجاب لموضع الكلام.

الثالث- إنه بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب (فَيُوحَىٰ بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ) معناه إن ذلك الرسول الذى هو الملك يوحى إلى النبي من البشر بأمر الله ما شاء الله (إِنَّهُ عَلَيَّ حَكِيمٌ) معناه إن كلامه المسموع منه لا- يكون مخاطبه يظهر فيها المتكلم بالرؤية، لأنه العلى عن الإدراك بالأبصار وهو الحكيم فى جميع أفعاله وفى كيفية خطابه لخلقه.

وقال السدى: معنى الآية إنه لم يكن لبشر ان يكلمه الله إلا وحيًا بمعنى إلا إلهامًا بخاطر أو فى منام أو نحوه من معنى الكلام اليه فى خفاء (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) يحجبه عن إدراك جميع الخلق إلا عن المتكلم الذى يسمعه كما سمع موسى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧٨

كلام الله (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) يعنى به جبرائيل.

وقوله (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) معناه مثل ما أوحينا إلى من تقدم من الأنبياء أوحينا اليك كذلك الوحي من الله إلى نبيه روح من أمره وهو نور يهدى به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم بصاحبه إلى الجنة والصراط المستقيم الطريق المؤدى إلى الجنة، وهو صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض، ملك له يتصرف فيه كيف يشاء، وهو صراط من تصير الأمور اليه، ولا يبقى لأحد أمر ولا نهى ولا ملك ولا تصرف، وهو يوم القيامة. وقوله «مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ» يعنى ما كنت قبل البعث تدري ما الكتاب ولا- ما الايمان قبل البلوغ «وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ» يعنى الروح الذى هو القرآن «نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» يعنى من المكلفين، لان من ليس بعقل وإن كان عبد الله، فلا يمكن هدايته لأنه غير مكلف.

ثم قال (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي) يا محمد «إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أى طريق مفض الى الحق، وهو الايمان، وإنما جر (صراط الله) بأنه بدل من قوله «صراط مستقيم» ثم قال «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» أى اليه ترجع الأمور والتدبير وحده يوم القيامة

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٧٩

٤٣- سورة الزخرف..... ص: ١٧٩

إشارة

هى مكية فى قول مجاهد وقادة وهى تسع وثمانون آية بلا خلاف فى جملتها.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ١٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥)

خمس آيات فى الكوفى وأربع فى ما سواه، عد الكوفيون «حم» ولم بعده الباقون.

قرأ نافع و حمزة و الكسائى و خلف «ان كنتم» بكسر الهمزة جعلوه شرطاً مستأنفاً واستغنى عما تقدم، كقولك: انت عالم ان فعلت، فكأنه قال: ان كنتم قوماً مسرفين نضرب. الباقون بفتحها جعلوه فعلا ماضياً أى إذا كنتم، كما قال «أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى» (١) و المعنى إذ

جاءه الأعمى، فموضع (ان) نصب عند البصريين، وجر عند الكسائي، لان التقدير أنفضرب الذكر صفحاً لأن كنتم، و بأن كنتم قوماً مسرفين. و المسرف الذى ينفق ماله فى معصية الله، و لا إسراف فى الطاعة. قد بينا معنى «حم» فى ما مضى، و اختلاف المفسرين فيه، فلا معنى لإعادته

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨٠

و قوله «و الكتاب» خفض بالقسم. و قيل: تقديره و رب الكتاب، و المراد بالكتاب القرآن، و المبين صفة له. و انما وصف بذلك لأنه أبان عن طريق الهدى من الضلالة، و كل ما تحتاج اليه الأئمة فى الديانة. و البيان هو الدليل الدال على صحة الشئ و فساده. و قيل: هو ما يظهر به المعنى للنفس عند الإدراك بالبصر و السمع، و هو على خمسة أوجه: باللفظ، و الحظ، و العقد بالأصابع، و الاشارة اليه، و الهيئة الظاهرة للحاسة، كالاعراض عن الشئ، و الإقبال عليه، و التقطيب و ضده و غير ذلك. و اما ما يوجد فى النفس من العلم، فلا يسمى بياناً على الحقيقة و كل ما هو بمنزلة الناطق بالمعنى المفهوم فهو مبين.

و قوله «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» اخبار منه تعالى انه جعل القرآن الذى ذكره عربياً بأن يفعله على طريقة العرب فى مذاهبها فى الحروف و المفهوم. و مع ذلك فانه لا- يتمكن أحد منهم من إنشاء مثله و الإتيان بما يقاربه فى علو طبقته فى البلاغة و الفصاحة، اما لعدم علمهم بذلك أو صرفهم على حسب اختلاف الناس فيه.

و هذا يدل على جلاله موقع التسمية فى التمكن به و التعذر مع فقد. و فيه دلالة على حدوثه لان المجعول هو المحدث. و لان ما يكون عربياً لا يكون قديماً لحدوث العربية. فان قيل: معنى جعلناه سميانه لأن الجعل قد يكون بمعنى التسمية. قلنا:

لا يجوز ذلك- هاهنا- لأنه لو كان كذلك لكان الواحد منا إذا سماه عربياً فقد جعله عربياً، و كان يجب لو كان القرآن على ما هو عليه و سماه الله اعجمياً أن يكون اعجمياً أو كان يكون بلغه العجم و سماه عربياً ان يكون عربياً، و كل ذلك فاسد. و قوله «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» معناه جعلناه على هذه الصفة لكى تعقلوا و تفكروا فى ذلك فتعلموا صدق من ظهر على يده.

و قوله «وَإِنَّهُ» يعنى القرآن «فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا» يعنى اللوح المحفوظ التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨١ الذى كتب الله فيه ما يكون إلى يوم القيامة لما فيه من مصلحة ملائكته بالنظر فيه و للخلق فيه من اللطف بالأخبار عنه «أُمُّ الْكِتَابِ» أصله لأن أصل كل شئ أمه.

و قوله «لَعَلَّيْ حَكِيمٌ» معناه لعال فى البلاغة مظهر ما بالعباد اليه الحاجة مما لا شئ منه إلا يحسن طريقه و لا شئ أحسن منه. و القرآن بهذه الصفة علمه من علمه و جهله من جهله لتفريطه فيه و (حكيم) معناه مظهر المعنى الذى يعمل عليه المؤدى الى العلم و الصواب. و القرآن من هذا الوجه مظهر للحكمة البالغة لمن تدبره و أدركه.

ثم قال لمن جحدته و لم يعتبر به على وجه الإنكار عليهم «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا» معناه أن نعرض عنكم جانباً باعراضكم عن القرآن و التذكر له و التفكير فيه «أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ» على نفوسكم بترككم النظر فيه و الاعتبار بحججه.

و من كسر الهمزة جعله مستأنفاً شرطاً. و من فتحها جعله فعلاً ماضياً أى إذ كنتم كما قال «أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى» (١) بمعنى إذ جاءه الأعمى، فموضع (أن) نصب عند البصريين و جر عند الكسائي، لأن التقدير الذكر صفحاً، لان كنتم و بأن كنتم.

قال الشاعر:

أ تجزع ان بان الخليط المودع و جعل الصفا من عزه المتقطع «٢»

و المسرف الذى ينفق ماله فى معصية الله، لان من أنفقه فى طاعة او مباح لم يكن مسرفاً و

قال على عليه السلام (لا إسراف فى المأكول و المشروب)

و (صفحة) نصب على المصدر، لأن قوله «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ» يدل على ان اصفح عنكم صفحاً و كأن قولهم: صفحت عنه أى أعرضت و وليته صفحة العنق. و المعنى أفضرب ذكر الانتقام منكم و العقوبة لكم أن كنتم قوماً مسرفين، كما قال

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٢

(٢) مر فى ١ / ٤٩ و ٧ / ٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨٢

«أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى» (١) و من كسر فعلى الجزاء و استغنى عن جوابه بما تقدم كقولهم:

انت ظالم ان فعلت كأنه قال إن كنتم مسرفين نضرب، و قال المبرد: المعنى متى فعلتم هذا طلبتم أن نضرب الذكر عنكم صفحاً. قال الفراء: تقول العرب:

أضربت عنك و ضربت عنك بمعنى تركتك و أعرضت عنك. و قال الزجاج:

المعنى أفضرب عنكم الذكر أى نهلككم فلا نعرفكم ما يجب عليكم لأن أسرفتم و أصل ضربت عنه الذكران الراكب إذا ركب دابة فأراد أن يصرفها عن جهة ضربها بعضاً او سوط لتعدل به إلى جهة أخرى يريد لها ثم يوضع الضرب موضع الصرف و العدل. و صفحاً مصدر أقيم مقام الفاعل، و نصب على الحال. و المعنى افضرب عنكم تذكيرنا إياكم الواجب صافحين او معرضين، يقال صفح فلان بوجهه عنى أى اعرض قال كثير:

صفوح فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت

و الصفوح فى صفات الله معناه العفو يقال: صفح عن ذنبه إذا عفا. و قال بعضهم: المعنى أظننتم أن نضرب عنكم هذا الذكر الذى بينا لكم فيه امر دينكم صفحاً، فلا يلزمكم العمل بما فيه، و لا نؤاخذكم لمخالفتكم إياه إن كنتم قوماً مسرفين على أنفسكم، و جرى ذلك مجرى قول أحدنا لصاحبه و قد أنكر فعله أ أتركك تفعل ما تشاء أغفل عنك إذا أهملت نفسك، ففى ذلك إنكار و وعيد شديد.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ١٨٢

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَ لئن سألْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)

(١) سورة ٧٥ القيامة آية ٣٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨٣

خمس آيات بلا خلاف يقول الله تعالى مخبراً «وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ» يعنى فى الأمم الماضية (و كم) موضوعه للتكثير فى باب الخبر، و هى ضدّ (رب) لأنها للتقليل.

ثم اخبر عن تلك الأمم الماضية انه كان ما يجيئهم نبي من قبل الله إلا كانوا يستهزؤن به بمعنى يسخرون منه. فالاستهزاء إظهار خلاف الإبطان استصغاراً او استحقاراً فالأمم الماضية كفرت بالأنبياء و احتقروا ما أتوا به، و ظنوا انه من المخاريق التى لا يعمل عليها لجهلهم و فرط عنادهم، فلذلك حملوا أنفسهم على الاستهزاء بهم، و هو عائد بالوبال عليهم.

فان قيل: لم بعث الله الأنبياء مع علمه بأنهم يستهزؤن بهم و لا يؤمنون عنده؟ قيل: يجوز أن يكون قوم آمنوا و إن قلوا. و إنما اخبر الله

بالاستهزاء عن الأكثر، ولذلك قال في موضع «وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» (١) و أيضاً فكان يجوز ان يكون لولا إرسالهم لوقع منهم من المعاصي أضعاف ما وقع عند إرسالهم، فصار إرسالهم لطفاً في كثير من القبائح، فلذلك وجب و حسن، على ان في إرسالهم تمكينهم مما كلفوه، لأنه إذا كان هناك مصالح لا يمكنهم معرفتها إلا من جهة الرسل وجب على الله أن يبعث اليهم الرسل ليعرفوهم تلك المصالح، فإذا لم يؤمنوا بهم و بما معهم من المصالح أتوا بالقبائح من قبل نفوسهم، و الحجة قائمة عليهم و قوله «فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا» اخبار منه تعالى انه أهلك الذين هم أشد

(١) سورة ١١ هود آية ٤٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨٤

بطشاً من هؤلاء المشركين الذين كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وآله، فلذلك قال «وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» أي و هو مثل لهؤلاء السابقين، و معناه انكم قد سلكتهم في تكذيب الرسل مسلك من كان قبلكم فاحذروا أن ينزل بكم من الخزي ما نزل بهم. قال الحسن: أشد قوة من قومك. ثم قال «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» يعني الكفار «مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» بأن انشاءها و اختراعها «لَيَقُولُنَّ» أي لم يكن جوابهم في ذلك إلا أن يقولوا «خَلَقَهُنَّ» يعني السموات و الأرض «الْعَزِيزُ» الذي لا يغالب و لا يقهر «الْعَلِيمُ» بمصالح الخلق، و هو الله تعالى، لأنهم لا يمكنهم أن يحلفوا في ذلك على الأجسام و الأوثان لظهور فساد ذلك، و ليس في ذلك ما يدل على انهم كانوا عالمين بالله ضرورة، لأنه لا يمتنع أن يكونوا عالمين بذلك استدلالاً و إن دخلت عليهم شبهة في انه يستحق العبادة سواه. و قال الجبائي: لا يمتنع أن يقولوا بذلك تقليداً لأنهم لو علموه ضرورة لعلموا أنه لا يجوز أن يعبد معه غيره و هو الذي يليق بمذهبنا في الموافاة.

ثم وصف العزيز العليم الخالق للسموات و الأرض فقال هو «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا» تسلكونها لكي تهتدوا إلى مقاصدكم في اسفاركم.

و قيل: معناه لتهتدوا إلى الحق في الدين و الاعتبار الذي جعل لكم بالنظر فيها.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ١٨٤

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لَتَسْتَبِهُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨٥

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى إن الذي جعل لكم الأرض مهدياً لتهتدوا إلى مرشدكم في دينكم و دنياكم هو «الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» يعني غيثاً و مطراً (بقدر) أي على قدر الحاجة لا زيادة عليها فيفسد و لا ناقصاً عنها فيضر و لا ينفع، بل هو مطابق للحاجة و بحسبها و ذلك يدل على انه واقع من مختار يجعله على تلك الصفة قد قدره على ما تقتضيه الحكمة لعلمه بجميع ذلك.

و قوله «فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا» أي أحييناها بالنبات بعد أن كانت ميتاً بالقحل و الجفاف تقول: أنشر الله الخلق فنشروا أي أحياهم فحيوا، ثم قال «وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ» أي مثل ما أخرج النبات من الأرض اليابسة فأحيها بالنبات مثل ذلك يخرجكم من القبور بعد موتكم، و إنما جمع بين إخراج الانبات و إخراج الأموات لأن كل ذلك متعذر على كل قادر إلا القادر لنفسه الذي لا يعجزه شيء و من قدر على أحدهما قدر على الآخر بحكم العقل.

وقوله «وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا» معناه الذى خلق الأشكال من الحيوان و الجماد من الحيوان الذكر و الأنثى و من غير الحيوان مما هو متقابل كالحلو و الحامض و الحلوا و المر و الرطب و اليبس و غير ذلك من الاشكال. و قال الحسن: الأزواج الشتاء و الصيف، و الليل و النهار، و الشمس و القمر، و السماء و الأرض، و الجنة و النار التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨٦

وقوله «وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ» يعنى السفن «وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ» يعنى الإبل و البقر و ما جرى مجراهما من الدواب و الحمير التى تصلح للركوب.

ثم بين انه خلق ذلك و غرضه «لِتَشْتَبَهُوا عَلَى ظُهُورِهِ» و إنما وحد الهاء فى قوله «على ظهوره» لأنها راجعة إلى (ما) كما قال «مِمَّا فِي بُطُونِهِ» (١) و فى موضع آخر (بطونها) ردها إلى الأنعام، فذكر فى (ما) و أنث فى الانعام.

و قال الفراء: أضاف الظهور الى الواحد، لأن الواحد فيه بمعنى الجميع، فردت الظهور إلى المعنى. و لم يقل ظهوره، فيكون كالواحد الذى معناه و لفظه واحد.

و معنى الآية ان غرضه تعالى ان تنتفعوا بالاستواء على ظهورها «ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ» فتشكروه على تلك النعم و تقولوا معترفين بنعم الله و منزهين له عن صفات المخلوقين «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا» يعنى هذه الانعام و الفلك «وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» أى مطيقين، يقال: أنا لفلان مقرن أى مطيق أى انا قرن له، و يقال: أقرن يقرن إقراناً إذا أطاق و هو من المقارنة كأنه يطبق حمله فى تصرفه. و قيل «مقرنين» أى مطيقين أى يقرن بعضها ببعض حتى يسيرها إلى حيث يشاء، و ليقولوا أيضاً «وَأَنَا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» أى راجعون اليه يوم القيامة.

فان قيل: قوله «لِتَشْتَبَهُوا عَلَى ظُهُورِهِ» يفيد ان غرضه بخلق الانعام و الفلك ان يستووا على ظهورها، و إنه يريد ذلك منهم. و الاستواء على الفلك و الانعام مباح، و لا يجوز ان يريده الله تعالى؟! قيل: يجوز ان يكون المراد بقوله «لِتَشْتَبَهُوا عَلَى ظُهُورِهِ» فى المسير إلى

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨٧

ما أمر الله بالمسير اليه من الحج و الجهاد و غير ذلك من العبادات، و ذلك يحسن إرادته، و إنما لا يحسن إرادة ما هو مباح محض. و أيضاً، فانه تعالى قال «ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ» أى تعترفون بنعم الله بالشكر عليها و تقولوا «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا» و ذلك طاعة يجوز ان يكون مراداً تتعلق الارادة به.

وقوله «وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا» اخبار منه تعالى ان هؤلاء الكفار جعلوا لله من عباده جزءاً. و قيل فيه وجهان: أحدهما- انهم جعلوا لله جزءاً من عبادته لأنهم أشركوا بينه و بين الأصنام، و قال الحسن: زعموا ان الملائكة بنات الله و بعضه فالجزء الذى جعلوه له من عباده هو قولهم «الملائكة بنات الله» ثم قال تعالى مخبراً عن حال الكافر لنعم الله فقال «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ» لنعم الله جاحد لها «مبين» أى مظهر لكفره غير مستتر به.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ١٨٧

أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مِنْ يُنْسَوْنَ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتِ كُنْتُ شَاهِدًا لَهُمْ وَ يُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر «او من ينشأ» بضم الياء و تشديد الشين. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨٨

الباقون بفتح الياء و التخفيف. و قرأ ابن كثير و نافع و ابن عامر «عند الرحمن» بالنون. الباقون «عباد» على الجمع و قرأ نافع «أشهدوا» بضم الألف و فتح الهمزة من (أشهدت) الباقون «أشهدوا» من (شهدت) من قرأ (ينشأ) بالتشديد جعله في موضع مفعول لأنه تعالى قال «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً» (١) فأنشأت و نشأت بمعنى إذا ربيت. و تقول: نشأ فلان و نشأه غيره و غلام ناشئ أى مدرّك. و قيل فى قوله «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» (٢) قال هو نبات شعر إبطه و من خفف جعل الفعل لله، لان الله انشأهم فنشئوا، و يقال للجوار الملاح: النشأ قال نصيب:

و لو لا ان يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشأ الصغار (٣)

و من قرء عباد فجمع (عبد) فهو كقوله نَ يَسْتَنْكِفُ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ

«٤» فأراد الله أن يكذبهم فى قولهم: إن الملائكة بنات الله، و بين انهم عباده. و من قرأ «عند» بالنون، فكقوله «إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ» (٥) و قال سعيد بن جبیر: قلت لابن عباس فى مصحفى «عباد» فقال: حكه. و وجه قراءة نافع «أشهدوا» انه جعله من اشهد يشهد جعلهم مفعولين. و قال تعالى (ما أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) (٦) من قرأ بفتح الهمزة جعله من شهد يشهد فهؤلاء الكفار إذا لم يشهدوا خلق السموات و الأرض و لا خلق أنفسهم من اين علموا ان الملائكة بنات الله و هم

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٣٥

(٢) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٤

(٣) مر فى ٣٠٤ / ٤ و ١٩٤ / ٨

(٤) سورة ٤ النساء آية ١٧١

(٥) سورة ٧ الاعراف آية ٢٠٥

(٦) سورة ١٨ الكهف آية ٥٢ [.....]

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٨٩

لم يشهدوا ذلك، و لم يخبرهم عنه مخبر!؟

لما اخبر الله تعالى عن الكفار انهم جعلوا له من عباده جزءاً على ما فسرناه، و حكم عليهم بأنهم يجحدون نعمه و يكفرون أياديها، فسر ذلك و هو انهم قالوا «أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ» فى هذا القول حجة عليهم لأنه ليس بحكيم من يختار لنفسه أدون المنزلتين و لغيره أعلاهما، فلو كان على ما يقول المشركون من جواز اتخاذ الولد عليه لم يتخذ لنفسه البنات و يصفيهن بالبنين فغلطوا فى الأصل الذى هو جواز اتخاذ الولد عليه، و فى البناء على الأصل باتخاذ البنات، فنعوذ بالله من الخطأ فى الدين. و معنى (أصفاكم) خصكم و آثركم بالذكر و اتخذ لنفسه البنات.

ثم قال تعالى «وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا» يعنى إذا ولد لواحد منهم بنت حسب ما أضافوها الى الله تعالى و نسبوها اليه على وجه المثل لذلك «ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا» أى متغيراً مما يلحقه من الغم بذلك حتى يسود وجهه و يريد «وَهُوَ كَظِيمٌ» قال قتادة معناه حزين، و فى هذا أيضاً حجة عليهم لأن من اسود وجهه بما يضاف اليه مما لا يرضى فهو أحق ان يسود وجهه باضافة مثل ذلك إلى من هو اجل منه، فكيف الى ربه.

ثم قال تعالى على وجه الإنكار لقولهم «أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ» قال ابن عباس «أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ» المراد به المرأة. و به قال مجاهد و السدى، فهو فى موضع نصب و التقدير او من ينشأ فى الحلية يجعلون. و يجوز ان يكون الرفع بتقدير أولئك ولده على ما قالوا هم بناته يعنى من ينشأ فى الحلية على وجه التزين بها يعنى النساء فى قول اكثر المفسرين. و قال ابو زيد: يعنى الأصنام. و الاول أصح «وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» فى حال الخصومة، فهو ناقص عن هو بخلاف هذه الصفة من التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص:

الشبيه على ما يصلح للجدال و دفع الخصم الألد بحسن البيان عند الخصومة، فعلى هذا يلزمهم ان يكونوا باضافة البنات قد أضافوا ادنى الصفات اليه.

ثم قال تعالى «وَجَعَلُوا» يعنى هؤلاء الكفار «الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ» متذللون له خاضعون له. و من قرأ بالنون أراد الذين هم مصطفىون عند الله «إِنَّا» فقال لهم على وجه الإنكار «أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ» ثم قال «سَيَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ» بذلك «وَيُسْتَلُونَ» عن صحتها. و فائدة الآية أن من شهد بما لا- يعلم فهو حقيق بأن يوبخ و يذم على ذلك و شهادته بما هو متكذب به على الملائكة أعظم من الفاحشة، للاقدام على تنقصهم فى الصفة، و إن كان فى ذلك على جهالة.

ثم حكى عنهم إنهم قالوا «لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ» كما قالت المجبرة بأن الله تعالى أراد كفرهم، و لو لم يشأ ذلك لما كفروا، فقال الله لهم على وجه التكذيب «مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» أى ليس يعلمون صحة ما يقولونه و ليس هم إلا كاذبين ففى ذلك إبطال مذهب المجبرة فى ان الله تعالى يريد القبيح من أفعال العباد. لان الله تعالى قطع على كذبهم فى ان الله تعالى يشأ عبادتهم للملائكة، و ذلك قبيح لا محالة و عند المجبرة الله تعالى شاء. و قد نفاه تعالى عن نفسه و كذبهم فى قولهم فيه.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ١٩٠

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَحَدِّثْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِآهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكُفْرَ الَّذِي كَانُوا عَلَى الْكُفْرِ (٢٥)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٩١

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر و حفص عن عاصم (قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ) على انه فعل ماض، و تقديره قال النذير. الباقون (قل) على الأمر على وجه الحكاية لما اوحى الله إلى النذير. قال كأنه قال أوحينا اليه أى فقلنا له (قل ا و لو جئتمكم) و قرأ ابو جعفر (جئناكم) بالنون على وجه الجمع.

لما حكى الله تعالى تخرص من يضيف عبادة الأصنام و الملائكة إلى مشيئة الله، و بين انه لا يشاء ذلك قال (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا) و المعنى التقرع لهم على خطئهم بلفظ الاستفهام، و التقدير أ هذا الذى ذكروه شىء تخرصوه و افتروه (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ)؟! فإذا لم يمكنهم ادعاء ان الله أنزل بذلك كتاباً علم انه من تخرصهم و دل على حذف حرف الاستفهام (أَمْ) لأنها المعادلة.

ثم قال ليس الامر على ما قالوه (بل قالوا) يعنى الكفار (إِنَّا وَحَدِّثْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و السدى: يعنى على ملء و سميت الديانة أمة لاجتماع الجماعة على صفة واحدة فيها. و قرئ «على إمة»- بكسر الهمزة- و المراد به الطريقة (و إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ) أى على آثار آبائنا (مهتدون) نهتدى بهداهم. ثم قال مثل ما قال هؤلاء فى الحوالة على تقليد آبائهم فى الكفر كذلك لم نرسل من قبلك فى قرية و مجمع من الناس نذيراً- لان (من) زيادة- (إِلَّا قَالَ التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٩٢)

مُتْرَفُوهَا)

و هم الذين آثروا الترفه على طلب الحجة، و هم المتنعمون الرؤساء (إِنَّا وَحَدِّثْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) يعنى على ملء (و إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) نفتدى بهم فأحال الجميع على التقليد للاباء فحسب، دون الحجة، و التقليد قبيح بموجب العقل لأنه لو كان جائزاً لزم فيه أن يكون الحق فى الشىء و نقيضه، فيكون عابد الوثن يقلد أسلافه، و كذلك يقلد اسلافه اليهودى و النصرانى و المجوسى، و كل فريق

يعتقد أن الآخر على خطأ وضلال. وهذا باطل بلا خلاف، فإذا لا بد من الرجوع إلى حجة عقل أو كتاب منزل من قبل الله، فقال الله تعالى للنذير (قل) لهم (أ) وَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ) فهل تقبلونه؟ وفي ذلك حسن التلطف في الاستدعاء إلى الحق، وهو انه لو كان ما تدعونه حقاً وهدى على ما تدعونه، لكان ما جئتمكم به من الحق اهدى من ذلك ووجب ان يتبع و يرجع اليه، لأن ذلك، إذا سلموا أنه اهدى مما هم عليه بطل الرد والتكذيب، وإذا بطل ذلك لزم اتباعه في ترك ما هم عليه. ثم حكى ما قالوا في الجواب عن ذلك فإنهم قالوا (إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ) معاشر الأنبياء (كافرون) ثم اخبر تعالى فقال (فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) بأن أهلكناهم وعجلنا عقوبتهم (فانظر) يا محمد (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) لانياء الله و الجاحدين لرسله.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ١٩٢

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٩٣

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله و اذكر يا محمد (إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ) حين رآهم يعبدون الأصنام والكواكب (إِنِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) أى برىء من عبادتكم الأصنام والكواكب فقلوه (براء) مصدر وقع موقع الوصف، لا يشئ ولا يجمع ولا يؤنث. ثم استثنى من جملة ما كانوا يعبدونه الله تعالى فقال (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) معناه انى برىء من كل معبود سوى الله تعالى الذى فطرني أى خلقني و ابتدأني، و تقديره إلا من الذى فطرني. و قال قتادة: كانوا يقولون الله ربنا مع عبادتهم الأوثان (فانه سيهدين) فى ما بعد. و المعنى انه سيهدينى إلى طريق الجنة بلطف من ألطافه يكون داعياً إلى ان أتمسك به حتى يؤدبنى إليها، و إنما قال ذلك ثقة بالله تعالى و دعاء لقومه إلى ان يطلبوا الهداية من ربه. و التبرى من كل معبود من دون الله واجب بحكم العقل، كما يجب ذمهم على فعل القبيح لما فى ذلك من الزجر عن القبيح و الردع عن الظلم، فكذلك يجب قبول قول من أخلص عبادة الله، كما يجب مدحه على فعله.

و قوله (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ) معناه جعل هذه الكلمة التى قالها إبراهيم كلمة باقية فى عقبه بما اوصى به مما أظهره الله من قوله إجلالاً له و تنزيهاً له و رفعاً لقدره بما كان منه من جلالة الطاعة و الصبر على أمر الله. و قال قتادة و مجاهد و السدى: معنى قوله (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ) قوله: لا إله إلا الله لم يزل فى ذريته من يقولها و قال ابن زيد: هو الإسلام بدلالة قوله (هُوَ سَيَمَّاكُمُ التَّيْبَانِ) فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٩٤

الْمُسْلِمِينَ)

«١». و قال ابن عباس: فى عقبه من خلفه. و قال مجاهد: فى ولده و ذريته. و قال السدى: فى آل محمد عليهم السلام. و قال الحسن: عقبه ولده إلى يوم القيامة. و قوله (لعلهم يرجعون) قال الحسن: معناه راجع إلى قوم إبراهيم. و قال الفراء: معناه (لعلهم يرجعون) عما هم عليه إلى عبادة الله، و قال قتادة: معناه لعلهم يعترفون و يذكرون الله. و قال الله تعالى إنا لم نعاجل هؤلاء الكفار بالعقوبة (بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ) يعنى القرآن (و رسول مبين) أى مظهر للحق، يعنى محمداً صلى الله عليه وآله. ثم قال تعالى (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ) يعنى القرآن (قَالُوا هَذَا سِحْرٌ) و هو حيلة خفية توهم المعجزة (و إنا به) يعنى بالقرآن (كافرون) أى جاحدون لكونه من قبل الله تعالى و إنما كان من نسب الحق و الدين إلى السحر كافراً بالله، لأنه بمنزلة من عرف نعمة الله و جحدها فى عظيم الجرم، فسمى باسمه ليدل على ذلك.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ١٩٤

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَهُمْ سُلُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِيُثْبِتَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)

(١) سورة ٢٢ الحجج آية ٧٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٩٥

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و ابو عمرو (سقفًا) على التوحيد- بفتح السين- الباقون (سقفًا) بضم السين و القاف- على الجمع- و قرأ حمزة و الكسائي (لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) مشددة الميم. الباقون خفيفة. من شدد الميم جعل (لما) بمعنى (إلا) و من خفف جعل (ما) صلة إلا ابن عامر فانه خفف و شدد. قال ابو علي: من خفف جعل (إن) المخففة من الثقيلة و أدخل اللام للفصل بين النفي و الإيجاب، كقوله (وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) «١» و من نصب بها مخففة، فقال إن زيدا منطلق استغنى عن اللام، لأن النافية لا ينتصب بعدها الاسم، و (ما) زائدة. و المعنى:

و إن كل ذلك لمتاع الحياة.

حكى الله عن هؤلاء الكفار الذين حكى عنهم أنهم قالوا لما جاءهم الحق الذي هو القرآن (لولا نزل) إن كان حقاً (على رجلٍ منَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) يعنى بالقريتين مكة و الطائف، و يعنون بالرجل العظيم من احد القريتين- فى قول ابن عباس- الوليد ابن المغيرة المخزومي القرشى من أهل مكة، أو حبيب بن عمرو ابن عمير من الطائف، و هو الثقفى. و قال مجاهد: يعنى بالذى من أهل مكة عقبه بن ربيعة، و الذى من اهل الطائف ابن عبد ياليل. و قال قتادة: الذى من أهل مكة يريدون الوليد ابن المغيرة، و الذى من اهل الطائف عروة بن مسعود الثقفى. و قال السدى: الذى من أهل الطائف كنانة بن عمرو. و إنما قالوا ذلك لأن الرجلين كانا عظيمى قومهما، و ذوى الأموال الجسمية فيهما، فدخلت الشبهة

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٠١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٩٦

عليهم فاعتقدوا أن من كان كذلك كان أولى بالنبوة. و هذا غلط لان الله تعالى يقسم الرحمة بالنبوة كما يقسم الرزق فى المعيشة على حسب ما يعلم من مصالح عباده فليس لأحد ان يتحكم فى شىء من ذلك. فقال تعالى على وجه الإنكار عليهم و التهجين لقولهم (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ) أى ليس لهم ذلك بل ذلك اليه تعالى.

ثم قال تعالى (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا) و قيل: الوجه فى إختلاف الرزق بين الخلق فى الضيق و السعة زيادة على ما فيه من المصلحة إن فى ذلك تسخير بعض العباد لبعض باحواجهم اليهم، لما فى ذلك من الأحوال التى تدعو الى طلب الرفعة و ارتباط النعمة و لما فيه من الاعتبار بحال الغنى و الحاجة، و ما فيه من صحة التكليف على المثوبة.

ثم قال تعالى (وَ رَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) يعنى رحمة الله و نعمه من الثواب فى الجنة خير مما يجمعه هؤلاء الكفار من حطام الدنيا.

ثم اخبر تعالى عن هوان الدنيا عليه و قلة مقدارها عنده بأن قال (وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) أى لولا انهم يصيرون كلهم كفاراً (لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَهِمْ سِقْفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) استحقاراً للدنيا و قلة مقدارها و لكن لا يفعل ذلك، لأنه يكون مفسدة. و الله تعالى لا يفعل ما فيه مفسدة.

ثم زاد على ذلك و كنا نجعل لبيوتهم على كون سقفهم من فضة معارج، و السقف بالضم سقف مثل رهن و رهن. و قال مجاهد: كل شيء من السماء فهو سقف، و كل شيء من البيوت فهو سقف بضمين، و منه قوله (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) «١» قال الفراء قوله (لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَهِمْ سَقْفًا) يحتمل أن تكون اللام

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ٣٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٩٧

الثانية مؤكدة للأولى، و يحتمل أن تكون الثانية بمعنى (على) كأنه قال لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم سقفاً، كما تقول: جعلنا لك لقومك العطاء أى جعلته لأجلك (وَلِيُثْبِتَهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُوراً) جمع سرير (عليها يتكئون) من فضة ايضاً و حذف لدلالة الكلام عليها. و قوله (و زخرفاً) قال ابن عباس: هو الذهب.

و به قال الحسن و قتادة و الضحاك. و قال ابن زيد: هو الفرش و متاع البيت، و المزخرف المزين. و قال الحسن المزخرف المنقوش و السقف جمع سقوف كرهون و رهن. و قيل:

هو جمع سقف و لا نظير له و الأول أولى، لأنه على وزن زبور و زبر. و المعارج الدرج- فى قول ابن عباس و قتادة- و هى المراقى قال جندب بن المثنى:

يا رب رب البيت ذى المعارج «١»

(و معارج) درجا (عليها يظهرون) أى يصعدون. و قال ابن عباس و الحسن و قتادة و السدى لولا ان يكون الناس أمة واحدة أى يجتمعون كلهم على الكفر. و قال ابن زيد: معناه يصيرون كلهم أمة واحدة على طلب الدنيا.

ثم قال (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) معناه ليس كل ذلك يعنى ما ذكره من الذهب و الفضة و الزخرف إلا متاع الحياة الدنيا الذى ينتفع به قليلاً ثم يفنى و ينقطع.

ثم قال (و الآخرة) أى العاقبة (عند ربك) الثواب الدائم (للمتقين) الذين يتقون معاصيه و يفعلون طاعاته فصار كل عمل ما للدنيا صغير بالاضافة إلى ما يعمل للآخرة، لأن ما يعمل للدنيا منقطع و ما يعمل للآخرة دائم.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠]..... ص: ١٩٧

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠)

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٩٨

خمس آيات بلا خلاف. قرأ حمزة و الكسائي و ابو عمرو و حفص عن عاصم (جاءنا) بالتوحيد.

الباقون (جاءنا) على التشية. من قرأ على التشية أراد الكافر و قرينه من الشياطين كقوله (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) «١» أى قرنت بنظيرها. و

من أفرد قال: لأن الكافر هو الذى أفرد بالخطاب فى الدنيا وأقيمت عليه الحجة بإنفاذ الرسول اليه فاجتزى بالواحد عن الاثنين، كما قال (لَيْتَ لَدُنَّ فِي الْحُطَمَةِ) «٢» والمراد لينبذان يعنى هو و ماله. وقرأ يعقوب و العليمى (يقيض) بالياء على لفظ الخبر عن الغائب. الباكون بالنون على وجه الخبر عن الله تعالى.

يقول الله تعالى (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ) أى يعرض عن ذكر الله لا ظلامه عليه لجهله، يقال: عشا يعيشو عشواً و عشواً إذا ضعف بصره و أظلمت عينه كأن عليها غشاوة قال الشاعر:

متى تأته تعيشو إلى ضوء ناره تجد حطباً جزلاً و ناراً تأججاً «٣»

و إذا ذهب بصره قيل: عشى يعيشى عشاء، و منه رجل أعشى و امرأه

(١) سورة ٨١ كورت آية ٧

(٢) سورة ١٠٤ الهمزة آية ٤

(٣) تفسير الطبرى ٣٩ / ٢٥ و الكتاب لسيبويه ٣٩٦ / ١

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ١٩٩

عشواء، فعشى يعيشى مثل عمى يعمى، و عشا يعيشو إذا نظر نظراً ضعيفاً. و قرئ (من يعيش) بفتح الشين. و معناه يعمى يقال: عشا إلى النار إذا تنورها فقصدتها و عشى عنها إذا أعرض قاصداً لغيرها كقولهم مال اليه و مال عنه. و قيل: معناه بالعين من يعرض عن ذكره. و قوله (نُقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا) قيل فى معناه ثلاثة أقوال:

أحدها- قال الحسن: نخلى بينه و بين الشيطان الذى يغويه و يدعوه الى الضلالة فلا نمعه منه.

الثانى- و قيل: نجعل له شيطاناً قريباً، يقال قىض له كذا و كذا أى سهل و يسر.

الثالث- قال قتادة: نقىض له شيطاناً فى الآخرة يلزمه حتى يصير به إلى النار فحينئذ يتمنى البعد عنه. و أما المؤمن فيوكل به ملك فلا يفارقه حتى يصير به الى الجنة. و إنما جاز ان يقىض له الشيطان إذا أعرض عن ذكر الله حتى يغويه لأنه إذا كان ممن لا يفلح فلو لم يغوه الشيطان لفعل من قبل نفسه مثل ذلك كالفساد الذى يفعله باغواء الشيطان او أعظم منه فلم يمنع لطفاً، و قىض له الشيطان عقاباً. و فى ذلك غاية التحذير عن الاعراض عن حجج الله و آياته.

ثم قال تعالى (و انهم) يعنى الشياطين (ليصدونهم) يعنى الكفار (عن السبيل) يعنى عن سبيل الحق الذى هو الإسلام (و يحسبون أنهم مُهْتَدُونَ) الى طريق الحق. و قوله (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا) على التثنية أراد حتى إذا جاء الشيطان و من أغواه يوم القيامة الى الموضع الذى يتولى الله حساب الخلق فيه و جزاءهم.

و من قرأ على التوحيد فالمراد حتى إذا جاء الكافر و علم ما يستحقه من العقاب ضرورة قال ذلك الوقت لقرينه (يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) قيل فى معناه قولان:

أحدهما- أنه عنى المشرق و المغرب الا انه غلب أحدهما، كما قيل سنه العمرين التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٠

و قال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمرها و النجوم طوال «١»

يعنى الشمس و القمر، و قال المفضل: أراد النبى محمد و ابراهيم عليهما السلام و قال الآخر:

و بصره الأزد منا و العراق لنا و الموصلان و منا مصر و الحرم «٢»

يعنى الموصل و الجزيرة.

الثانى- انه أراد مشرق الشتاء و مشرق الصيف، كما قال (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) «٣» و إنما أراد (يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ

الْمُشْرِكِينَ) مسافه فلم أرك و لا- اغتررت بك (فبئس القرين) كنت أنت، يقول لهذا الشيطان الذى أغواه، فقال الله تعالى (وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ) هذا الندم (إِذْ ظَلَمْتُمْ) نفوسكم بارتكاب المعاصي (أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) أى لأنكم فى العذاب شركاء، فلذلك لا ينفعكم هذا القول. وقيل: إن المراد لا يسليكم عما أنتم فيه من انواع العذاب أن أعداءكم شركاؤكم فيها لأنه قد يتسلى الإنسان عن محنة يحصل فيها إذا رأى ان عدوه فى مثلها فبين الله تعالى أن ذلك لا ينفعكم يوم القيامة ولا يسليكم عن العذاب ولا يخفف عنكم ذلك يوم القيامة.

ثم قال لنبىه صلى الله عليه وآله (أفأنت) يا محمد (تُسْمِعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى) شبه الكفار فى عدم انتفاعهم بما يسمعون من إنذار النبى صلى الله عليه وآله وعظه بالصم الذين لا يسمعون، وفى عدم انتفاعهم بما يرونه بالعمى الذين لا يبصرون شيئاً (وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ) عن الحق (مبين) أى بين ظاهر لا شبهة فيه. ومن لا يطلب الحق ولا يجتهد فيه لسبقه إلى الباطل و اغتباطه به، فهو الذى يمتنع هدايته ولا حيلة

(١) تفسير القرطبي ٩١ / ١٦ والطبرى ٢٥ / ٤٠

(٢) تفسير الطبرى ٢٥ / ٤٠

(٣) سورة الرحمن آية ١٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠١

فيه ولا طريق إلى إرشاده و صار بمنزلة الأصم والأعمى عنه.
وقرأ ابن عامر وحده (وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ... أَنْتُمْ) بكسر الهمزة، جعل تمام الآية والوقف على قوله (إِذْ ظَلَمْتُمْ) ثم استأنف (إنكم) و فتح الباقون، جعلوا (أن) اسماً فى موضع رفع.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٤١ الى ٤٥]..... ص: ٢٠١

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَمَذْكُرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْكِلُونَ (٤٤) وَشَيْئَلٌ مِّنْ أَرْسِلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

خمس آيات بلا- خلاف قوله (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ) معناه إن نذهب بك، فلما دخلت (ما) على حرف الشرط أشبه القسم فى التأكيد والإيذان بطلب التصديق، فدخلت النون فى الكلام لذلك لأن النون تلزم فى جواب القسم ولا تلزم فى الجزاء، لأنه شبه به، و إنما وجب باذهاب النبى إهلا-ك قومه من الكفار، لأنه علامة اليأس من فلاح أحد منهم، كما اسرى لوط بأهله، و موسى بقومه و غيرهما من النبيين و كأنه قال: فاما نذهبن بك على سنتنا فيمن قبلك فيكون إذهابه به إخراجهم من بين الكفار. و

قال قوم: إنما أراد إذهابه بالموت، و يكون قوله (فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ) على هذا ما كان من نقم الله على أهل الكفر أكرم بها نبىه حيث أعلمه ما كان من النعمة فى أمته بعده- ذهب اليه التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٢

الحسن و قتاده- و هو الذى روى عن اهل البيت عليه السلام و روى أن التأويل: فانا بعلى منهم منتقمون،

وقال الأولون إن ذلك فى المشركين، و قووا ذلك بان الله ذكر ذلك عقيب ذكر المشركين، قالوا: و هو ما كان من نقم الله على المشركين يوم بدر بعد إخراج النبى من مكه و إنه استعلى عليهم و أسر منهم مع قلة أصحابه و ضعف عددهم و كثرة الكفار و شدة شوكتهم و كثرة عدتهم، فقتلوهم كيف شاءوا و أسروا من أحبوا و كان ذلك مصداقاً لما قاله لهم. و قوله (أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ) يعنى ما أراهم بهم يوم بدر فى ما قدمناه. و بين تعالى أنه على ذلك قادر و كان كما قال. و من قال بالتأويل

الأخير، قال معنى (او نرينك) او نعلمنك ما وعدناهم و فعلنا بهم. ثم قال لنبية (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ) من إخلاص العبادة لله تعالى و إتباع أوامره و الانتهاء عما نهى عنه (إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وصف الإسلام بأنه صراط مستقيم لأنه يؤدي إلى الحق المطلوب حيث يستقيم بصاحبه حتى يوصله اليه.

و قوله (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) قيل فى معناه قولان:

أحدهما- ان هذا القرآن شرف لك بما أعطاك الله- عز و جل- من الحكمة و لقومك بما عرضهم له من إدراك الحق به و انزاله على رجل منهم.

الثانى- انه حجة تؤدي إلى العلم لك و لكل أمتك. و الاول اظهر. و قال الحسن: و لقومك لأمتك. و قيل: إنه لذكر لك و لقومك يذكرون به الدين و يعلمونه و سوف تسألون عما يلزمكم من القيام بحقه و العمل به.

ثم قال لنبية صلى الله عليه و آله (وَسَيُلْ مِنْ أَرْسِلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا) قال قتادة و الضحاك: سل من أرسلنا يعنى أهل الكتابين التوراة و الإنجيل، و قال ابن زيد:

إنما يريد الأنبياء الذين جمعوا ليلة الاسراء. و هو الظاهر، لأن من قال بالأول التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٣

يحتاج ان يقدر فيه محذوفاً، و تقديره و إرسال أمم من أرسلنا من قبلك. و قيل:

المراد سلمهم فإنهم و إن كانوا كفاراً، فان تواتر خبرهم تقوم به الحجة. و قيل:

الخطاب و إن توجه إلى النبى صلى الله عليه و آله فالمراد به الأمة كأنه قال و أسألوا من أرسلنا كما قال (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) «١» و قوله (أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) معناه سلوا من ذكرناه هل جعل الله فى ما مضى معبوداً سواه يعبداه قوم: من الأصنام او غيرها، فإنهم يقولون لكم إنا لم نأمرهم بذلك و لا تعبدناهم به.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٥٠]..... ص: ٢٠٣

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عِهْدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (٥٠)

خمس آيات بلا خلاف.

هذا قسم من الله تعالى بأنه أرسل موسى بالآيات الباهرات و الحجج الواضحات إلى فرعون و اشراف قومه و خص الملاء بالذكر، و ان كان مرسلًا إلى غيرهم، لان من عداهم تبع لهؤلاء، فقال موسى له (إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الذى خلق الخلق أرسلنى إليكم. ثم اخبر تعالى فقال (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا) يعنى موسى جاء الى فرعون و ملائه بالآيات و الحجج (إذا هم منها) يعنى من تلك

(١) سورة ٦٥ لطلاق آية ١

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٤

الآيات (يضحكون) جهلا منهم بما عليهم من ترك النظر فيها، و ما لهم من النفع بحصول علمهم بها. و فى الخبر عن ضحك أولئك الجهال عند ظهور الآيات زجر عن مثل حالهم و دعاء إلى العلم الذى ينافى الجهل. و فيه ايضاً أنه لا ينبغي ان يلتفت إلى تضاحك أمثالهم من الأدلة إذا كان الإنسان على يقين من أمره.

و الأنبياء كلهم يشتركون فى الدعاء إلى الله بإخلاص عبادته و طاعته فى جميع ما يأمر به او ينهى عنه، و دعوتهم إلى محاسن الأفعال و مكارم الأخلاق و إن اختلفت شرائعهم و تباينت مللهم و نسخت بعضها بعضاً.

وقوله (وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا) معناه إنه تعالى لا يريهم يعنى فرعون وقومه معجزة ولا دلالة إلا وهي أكبر من الأخرى عند إدراك الإنسان لها لما يهوله من أمرها، فيجد نفسه يقتضى أنها أكبر كما يقول الإنسان:

هذه العلة التي نزلت بى أعظم من كل علة، وهو يريد أن لها مزية أعظم منها إلا- أنه ذهب هول الأولى بانصرافها وحكم الثانية بحضورها. وقال قوم: المعنى وما نريهم من آية إلا هي أهول فى صدورهم من التي مضت قبلها.

ثم قال تعالى (وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ) إذ عصوا فيها، وكفروا بها (لعلهم يرجعون) إلى طاعته وإنما جاز أخذهم بالعذاب ليرجعوا مع العلم بأنهم لا يرجعون لإمكان أن يرجعوا إليه، لأن كلما فى المعلوم أنه لا يقع لا يجوز أن يفعل العالم شيئاً من أجل أنه سيقع ولكن يجوز أن يفعل شيئاً لإمكان أن يقع.

و المعنى - هاهنا- لعلهم يرجعون الى طريق الحق الذى ذهبوا عنه الى طريق الباطل.

ثم حكى تعالى ما قال فرعون وملاؤه لموسى عند ذلك فإنهم (قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ) وقال قوم: إنما قالوا له يا أيها الساحر لجهلهم بنبوته و صدقه واعتقادهم انه سحرهم بذلك. وقال قوم: التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٥

كان الساحر عندهم هو العالم ولم يكن صفه ذم. وقال الحسن: إنما قالوا ذلك على وجه الاستهزاء بموسى، كما قال المشركون (يا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) «١» وقال الزجاج: وجه ذلك انه جرى ذلك على ألسنتهم على عادتهم فيه قبل ذلك. وقال قوم: أرادوا يا أيها الفطن يا أيها العالم، لأن السحر عندهم دقة النظر والعلم بالشيء كالسحر الحلال، يقال فلان: يسحر بكلامه.

وقال قوم: وخاطبوه بما تقدم تشبيهاً له بالساحر، فقالوا له (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) معناه أن يا موسى ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب- فى قول مجاهد- فانه متى كشف عنا ذلك اهتدينا و رجعنا إلى الحق الذى يدعونا اليه. وفى الكلام حذف لأن تقديره فدعا موسى و سأل ربه و ضرع اليه أن يكشف عنهم العذاب، فكشف الله عنهم ذلك فإذا هم عند ذلك ينكثون. و معناه ينقضون ما عقدوا على أنفسهم. وقال قتادة: معناه يغدرون، و إنما أخبر الله تعالى و قص خبر موسى و ما جرى له تسلياً للنبي صلى الله عليه وآله و المعنى إن حال موسى مع قومه و حالك مع قومك سواء، فاصبر إن أمرك يؤل إلى الاستعلاء، كما آل أمر موسى عليه السلام.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥١ الى ٦٠]..... ص: ٢٠٥

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ (٥٣) فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦) وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَلِهْتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصَصَ مَوْنٌ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَرِيْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠)

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٦

عشر آيات كوفى و شامى. و احدى عشرة فى ما عداه، عدوا (مَهِينٌ) و لم يعده الكوفيون و الشاميون.

قرأ حفص عن عاصم (اسورة) بغير ألف. الباقون (أساورة) بألف.

و قرأ حمزة و الكسائى و خلف «سلفاً» بضم السين و اللام. الباقون بفتحهما. فمن قرأ بالضم فيهما أراد جمع سليف أى جمع قد مضى

من الناس. و من قرأ «أسورة» أراد جمع سوار، وقال أبو عبيدة: وقد يكون أسوار جمع أسورة. و من قرأ «سلفاً» بضم السين و اللام جعله جمع سليف. و قال أبو علي: و يجوز أن يكون جمع (سلف) مثل أسد و اسد، و وثن و وثن. و من فتح فلائن (فَعَلًا) جاء في حروف يراد بها الكثرة، فكأنه اسم من اسماء الجمع، كقولهم خادم و خدام. و الفتح أكثر. و قد روى - بضم السين - و قرأ الكسائي و نافع و ابن عامر «يصدون» بضم الصاد بمعنى يعرضون أى يعدلون. الباقون - بفتح الياء و كسر الصاد - بمعنى يضجون. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٧

و قيل: هما لغتان.

لما حكى الله تعالى عن قوم فرعون أنه حين كشف العذاب عنهم نكثوا عهدهم و عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، نادى فرعون فى قومه الذين اتبعوه على دينه، و قال لهم «يا قوم» على وجه التقرير لهم «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ» أتصرف فيها كما أشاء لا يمنعنى احد منه «وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ» كالليل و غيرها «تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» أى من تحت أمرى. و قيل: إنها كانت تجرى تحت قصره، و هو مشرف عليها «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» أن ما ادعيه حق و أن ما يقوله موسى باطل. و قيل:

قوله «من تحتى» معناه إن النيل كانت تجرى منه أنهار تحت قصره. و قيل (من تحتى) من بين يديه لارتفاع سريره. ثم قال لهم فرعون «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» و قال قوم: معنى (أم) بل. فكأنه قال: بل أنا خير من موسى، و قال قوم: مخرجها مخرج المنقطعة، و فيها معنى المعادلة لقوله «أَفَلَا تَبْصِرُونَ» أم أنتم بصراء، لأنه لو قالوا نعم لكان بمنزلة قولهم انت خير.

و الأصل فى المعادلة على أى الحالىين أنتم على حال البصر أم على حال خلافه. و لا يجوز ان يكون المعنى على أى الحالىين أنتم على حال البصر أم حال غيرها فى أنى خير من هذا الذى هو مهين، و إنما المعادلة تفصيل ما أجمله. و قيل له - هاهنا - بتقدير أنا خير من هذا الذى هو مهين أم هو إلا - أنه ذكر ب (أم) لاتصال الكلام بما قبله. و حكى الفراء (أما أنا) و هذا شاذ على انه جيد المعنى. و المهين الضعيف - فى قول قتادة و السدى - و قيل: معناه فقير. و قيل يمتهن نفسه فى جميع ما يحتاج اليه ليس له من يكفيه، و لا يكاد يبين - و قال الزجاج كانت فى لسانه. و قال قتادة: كانت فى لسانه آفة. و به قال السدى. و قيل: إنه كان احترق لسانه بالجمهر الذى وضعه فى فيه حين أراد أن يعتبر فرعون عقله لما لطم وجهه، و أراد أن التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٨

يأخذ غير النار فصرف جبرائيل يده إلى النار، فدفع عنه القتل، و قال الحسن:

كان فى لسانه ثقل، فنسبه إلى ما كان عليه أولاً.

و قوله «فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ» معناه هلا إن كان صادقاً فى نبوته طرح عليه أساورة من ذهب. فمن قرأ (أساورة) بألف أراد جمع أسورة و أسورة جمع سوار و هو الذى يلبس فى اليد. و أما أسوار، فهو الرامى الحاذق بالرمى، و يقال أسوار - بالضم - و من جعله جمع أسورة أراد أساوير، فجعل الهاء عوضاً عن الياء. مثل الزنادقة، فلذلك صرفه، لأنه صار له نظير فى الآحاد.

و مثله فى الجمع الزنادقة. و الاسورة الرجل الرامى الحاذق بالرمى من رجال العجم.

و قوله «أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ» قال قتادة و معناه متتابعين، و قال السدى معناه يقارن بعضهم بعضاً. و قيل معناه متعاضدين متناصرين كل واحد مع صاحبه ممالئاً له على أمره. و قال مجاهد: معناه مقترنين يمشون معه.

و قوله «فَأَسِخَفَ قَوْمَهُ» يعنى فرعون استخف عقول قومه، فأطاعوه فى ما دعاهم اليه، لأنه احتج عليهم بما ليس بدليل، و هو قوله «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ» وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» و لو عقلوا و فكروا لقالوا ليس فى ملك الإنسان ما يدل على انه محق لكون ملوك كثيرة يخالفونك مبطلين عندك، و ليس يجب ان يأتى مع الرسل ملائكة، لأن الذى يدل على صدق الجميع المعجز دون غيره.

ثم اخبر الله تعالى عنهم بأنهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن طاعة الله إلى معصيته. ثم قال «فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و السدى و ابن زيد: معنى اسفونا أغضبونا، لأن الله تعالى يغضب على العصاة بمعنى يريد عقابهم، و يرضى عن

المطيعين بأن يريد ثوابهم بما يستحقونه من طاعاتهم و معاصيهم كما يستحقون المدح و الذم. و قيل الاسف هو الغيظ من المغتم إلا انه- هاهنا- بمعنى التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٠٩

الغضب. ثم بين تعالى بماذا انتقم منهم، فقال «فَأَعْرِضْنَا عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ» ثم قال «فَجَعَلْنَاهُمْ سِلَافًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ» فالسلف المتقدم على غيره قبل مجيء وقته، و منه السلف في البيع. و السلف نقيض الخلف. و من قرأ- بضم السين و اللام- فهو جمع سليف من الناس، و هو المتقدم أمام القوم. و قيل: معناه «فَجَعَلْنَاهُمْ سِلَافًا» متقدمين ليتعظ بهم الآخرون. و قال قتادة: جعلناهم سلفاً إلى النار و مثلاً أى عظة للآخرين. و المثل بيان عن أن حال الثانى كحال الأول بما قد صار فى الشهرة كالعلم، فحال هؤلاء المشركين كحال من تقدم فى الاشراك بما يقتضى أن يجروا مجراهم فى الإهلاك إن أقاموا على الطغيان.

ثم قال الله تعالى «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» قيل: المراد بذلك لما ضرب الله المسيح مثلاً بآدم فى قوله «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ» (١) اعترض على النبى صلى الله عليه و آله عن ذلك قوم من كفار قريش، فانزل الله تعالى هذه الآية. و وجه الاحتجاج فى شبه المسيح بآدم ان الذى قدر أن ينشئ آدم من غير ذكر قادر على إنشاء المسيح من غير ذكر، فلا- وجه لاستنكاره من هذا الوجه. و قيل: إنه لما ذكر المسيح بالبراءة من الفاحشة و انه كآدم فى الخاصة، قالوا: هذا يقتضى ان نعبد كما عبده النصرانى. و قيل: انه لما نزل قوله «إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» (٢) قالوا قد رضينا أن يكون آلهتنا مع المسيح. و روى عن النبى صلى الله عليه و آله انه قال يوماً لعلى عليه السلام (لولا أنى أخاف ان يقال فيك ما قالت النصرانى فى عيسى لقلت فيك قولاً لا تمر بملاء إلا أخذوا التراب من تحت قدميك) أنكر ذلك جماعة من المنافقين، و قالوا: لم يرض

(١) سورة آل عمران آية ٥٩

(٢) سورة الأنبياء آية ٩٨ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢١٠

ان يضرب له مثلاً إلا بالمسيح، فانزل الله الآية.

و قوله «يصدون» بكسر الصاد و ضمها لغتان. و قد قرئ بهما مثل يشد و يشد و ينم و ينم من النيمة. و قيل: معنى يصدون- بكسر الصاد- يضجون أى يضجون سروراً منهم بأنهم عبدوا الأوثان كما عبد النصرانى المسيح و من ضمها أراد يعرضون.

ثم حكى عن الكفار انهم قالوا آلهتنا خير أم هو؟! قال السدى: يعنون أم المسيح. و قال قتادة: يعنون أم محمد صلى الله عليه و آله و قيل: معنى سؤالهم آلهتنا خير أم هو؟ انهم ألزموا مالا يلزم على ظن منهم و توهم، كأنهم قالوا: و مثلنا فى ما نعبد مثل المسيح، فأيهما خير أعبادة آلهتنا أم عبادة المسيح، على انه إن قال عبادة المسيح أقر بعبادة غير الله، و كذلك إن قال عبادة الأوثان. و إن قال ليس فى عبادة المسيح خير، قصر به عن المنزلة التى ليست لأحد من سائر العباد. و جوابهم عن ذلك إن اختصاص المسيح بضرب من التشريف و الانعام عليه لا يوجب العبادة له كمالاً يوجب ذلك انه قد أنعم على غيره النعمة. و وجه اتصال سؤالهم بما قبله انه معارضة لالهية الأوثان بإلهية المسيح كمعارضة إنشاء المسيح عن غير ذكر بإنشاء آدم عليه السلام من غير ذكر. ثم قال لنبى صلى الله عليه و آله ما ضربه يعنى المسيح مثلاً «إلا جدلاً» أى خصومة لك و دفعاً لك عن الحق، لأن المجادلة لا تكون إلا و أحد المجادلين مبطلاً. و المناظرة قد تكون بين المحققين، لأنه قد يعارض ليظهر له الحق.

ثم قال تعالى «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» أى جدلون فى دفع الحق بالباطل.

ثم وصف المسيح عليه السلام فقال «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» أى ليس هو سوى عبد خلقناه و أنعمنا عليه «وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ» قال السدى و قتادة:

يعنى موعظة و عبرة لهم يعتبرون به و يتعظون به. ثم قال «وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ الْتِبْيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ج ٩، ص: ٢١١ ملائكة»

أى بدلا منكم معاشر بنى آدم ملائكة فى الأرض «يخلفون» بنى آدم غير انه انشأ بنى آدم لاسباع النعمة عليهم. وقرأ قالون عن نافع «آلهتنا» بهمزة واحدة بعدها مدّة. الباقون بهمزتين على أصولهم، غير انه لم يفصل احد بين الهمزتين بألف، واما حققهما اهل الكوفة وروح. و لين الباقون الثانية. وقال ابو عبد الله بن خالويه: هى ثلاث ألفات الأولى للتوبيخ و التقرير بلفظ الاستفهام و الثانية الف الجمع و الثالثة اصلية. و الأصل «آلهتنا» فصارت الهمزة الثانية مدّة ثم دخلت الف الاستفهام.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦١ الى ٦٥]..... ص: ٢١١

وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ الْإِنسَانِيَةَ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصْطَدِّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (٦٥)

خمس آيات بلا خلاف.

الضمير فى قوله «وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ الْإِنسَانِيَةَ» يحتمل أن يكون راجعاً إلى عيسى عليه السلام لأن ظهوره يعلم به مجيء الساعة، لأنه من أشرافها، و هو قول ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاك و السدى و ابن زيد. و قيل: إنه إذا نزل المسيح رفع التكليف التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢١٢

لثلا يكون رسولا الى اهل ذلك الزمان فى ما يأمرهم به عن الله و ينهاهم عنه.

و قيل: انه عليه السلام يعود غير مكلف فى دولة المهدي و إن كان التكليف باقياً على اهل ذلك الزمان. و قال قوم: إن الضمير يعود الى القرآن يعلمكم بقيامها و يخبركم عنها و عن أحوالها. و هو قول الحسن، و الفائدة بالعلم بالساعة انه يجب التأهب لها من اجل انها تقوم للجزاء لا- محالة، و فى الشك فيها فتور فى العمل لها، و يجب لأجلها اجتناب القبائح التى يستحق بها الذم و العقاب و اجتناء المحاسن التى يستحق بها المدح و الثواب. و روى عن ابن عباس شاذاً أنه من- العلم- بفتح العين و اللام بمعنى انه علامة و دلالة على الساعة و قربها.

ثم خاطب الأمة فقال «فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا» أى لا تشكن فيها. و المريء الشك و يدل على ان المراد به جميع الامّة قوله «وَ اتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» أى ما أخبرتكم به من البعث و النشور و الثواب و العقاب «صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» ثم نهاهم فقال «وَلَا يَصْطَدِّكُمُ الشَّيْطَانُ» أى لا يمنعكم الشيطان عن اتباع الطريق المستقيم الذى بينه الذى يفضى بكم إلى الجنة، و لا يعدل بكم إلى الطريق المؤدى إلى النار «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» فالعداوة طلب المكروه و المكيدة و الإيقاع فى كل مهلكة من أجل العداوة التى فى هلاك صاحبها شفاء لما فى صدره منها.

ثم اخبر تعالى عن حال عيسى عليه السلام حين بعثه الله نبياً فقال «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ» يعنى بالمعجزات. قال قتادة يعنى بالإنجيل «قال» لهم «قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ» أى بالذى من عمل به من العباد نجا و من خالفه هلك. و قوله تعالى «وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ». قال مجاهد: يعنى من احكام التوراة و قال قوم: تقديره قد جئتكم بالإنجيل، و بالبينات التى يعجز عنها الخلق، و الذى

جاء به عيسى هو بعض ما اختلفوا فيه، و بين لهم فيه. و قال قوم: البعض يراد به التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢١٣

- هاهنا- الكل كأنه قال: و لأبين لكم جميع ما تختلفون فيه. و قيل أراد به من أمر دينكم دون أمر دنياكم. و الاختلاف اصل كل عداوة. و الوفاق أصل كل ولاية لأن الخلاف يوجب البغضة، ثم يقوى بالكثرة حتى يصير عداوة، ثم قال لهم يعنى عيسى عليه السلام «فَاتَّقُوا اللَّهَ» بأن تجتنبوا معاصيه و تفعلوا طاعاته «وَ اطِيعُونَ» فى ما أَدْعُوكم اليه من العمل بطاعة الله. ثم قال لهم أيضاً «إِنَّ اللَّهَ الَّذِي

تحق له العبادة «هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ» خالصاً ولا تشركوا به معبوداً آخر. ثم قال «هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» يفضى بكم إلى الجنة و ثواب الله.

وقوله «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ» قال السدي يعنى اليهود والنصارى.

وقال قتادة: يعنى الفرق الذين تحزبوا فى أمر عيسى عليه السلام فقال الله تعالى «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا» نفوسهم بارتكاب معاصى الله «مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ» وهو يوم القيامة.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦٦ الى ٧٠] ص: ٢١٣

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمُ تُحْبَبُونَ (٧٠) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخاطباً لخلقهم وموبخاً لهم «هَلْ يَنْظُرُونَ» أى هؤلاء الكفار، ومعناه هل ينتظرون «إِلَّا السَّاعَةَ» يعنى القيامة. وقيل: معناه هل ينتظر بهم لأنهم لم يكونوا ينتظرونها، فأضاف اليهم مجازاً. وقيل سميت القيامة الساعة لقرب أمرها، كأنها تكون فى ساعة. ثم يحصل اهل الجنة فى الجنة و اهل التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢١٤

النار فى النار، وقيل: سميت بذلك لأنها ابتداء أوقات الآخرة، فهى ابتداء تجديد الساعات.

وقوله «بَغْتَةً» أى فجأة، وإنما كانت الساعة بغتة مع تقديم الانذار بها، لأنهم مع الانذار لا يدرون وقت مجيئها، كما لا يدري الإنسان وقت الرعد والزلازل، فتأتى بغتة وإن علم انها تكون.

ثم قال تعالى «الْأَخْلَاءُ» وهو جمع خليل «يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» يعنى من كانت خلته فى دار الدنيا فى غير طاعة الله بل كانت فى معصية الله، فان تلك الخلّة تنقلب عليه عداوة، لان صاحبها يتبين فساد تلك الخلّة يوم القيامة وإنما كان كذلك، لان كل واحد من المتخالفين فى غير طاعة الله يزين لصاحبه خلاف الحق ويدعوه إلى ما يوبقه ويورثه سوء العاقبة بدل ما كان يلزمه من النصيحة له فى الدعاء إلى ترك القبيح وفعل الحسن ثم استثنى من جملة الأخلاء الذين اخبر عنهم أنهم يصيرون أعداءاً «المتقين» لأن من كانت مخالفته فى طاعة الله و على ما أمر الله به فإنها تتأكد ذلك اليوم ولا تنقلب عداوة.

ثم اخبر تعالى بما يقال للمؤمنين المطيعين من عباده فانه يناديهم فيقول لهم «يا عباد» و خصهم بأنهم عباده من حيث أطاعوه واجتنبوا معاصيه «لَا- خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» من العقاب «وَلَا- أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» من فوت الثواب. ثم وصف عباده و ميزهم من غيرهم فقال «الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا» يعنى الذين صدقوا بحجج الله فاتبعوها «وَكَانُوا مُسْلِمِينَ» أى مستسلمين لما أمرهم الله به منقادين له.

ثم بين انه يقال لهم «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمُ» اللاتى كن مؤمنات «تَحْبِرُونَ» أى تسرون فيها، و الحبور السرور الذى يظهر فى بشرة الوجه اثره، و خبرته حسنه بما يظهر أثر السرور به. و قال قتادة و ابن زيد: معنى «تَحْبِرُونَ» التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص:

٢١٥

تنعمون. قال السدي: معناه تكرمون، و المراد بالأزواج من كان مستحقاً للثواب و دخل الجنة. وقيل: المراد بالأزواج اللاتى يزوجهن الله بهن من الحور العين فى الجنة.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٧١ الى ٧٥] ص: ٢١٥

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَلَكُمْ فِيهَا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ

مُتِلْسُونَ (٧٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم «ما تَشْتَهِيهِ» الأنفس ب (هاء). الباقون «تشتهي» بلا هاء. وحذف الهاء من الصلة إذا كانت للمفعول حسن، كقوله تعالى «أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا» (١) و من أثبتها، فلأنه الأصل.

لما استثنى الله تعالى المتقين من جملة الأخلاء الذين تنقلب خلتهم عداوة و أن خلتهم باقية و أنه يقال لهم و لأزواجهم ادخلوا الجنة محبورين، اخبر بما لهم فيها من انواع اللذات، فقال «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ» و تقديره تنقل ألوان الطعام اليهم في صحاف الذهب. ثم يؤتون بأكواب الشراب على جهة الاستمتاع في جميع تلك الأحوال. و الصحاف الجامات التي يؤكل فيها الوان

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢١٦

الأطعمة واحداها صحفة. و الذى يطوف بذلك الوصف او الوصائف من الحور العين الذين يخلقهم الله فى الجنة و اكتفى بذكر الصحاف و الأكواب عن ذكر الطعام و الشراب. و واحد الأ-كواب كوب و هو إناء على صورة الإبريق لا- أذن له و لا خرطوم قال الأعشى:

صليفيه طيبا طعمها لها زيد بين كوب و دنّ

و هو كالكأس للشراب. و قال السدى: الصحاف القصاع.

و قوله تعالى «وَفِيهَا» يعنى فى الجنة «ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ» و إنما أضاف الالتذاذ إلى العين و هو للسان لأن المناظر الحسنة سبب من اسباب اللذة، فاضافتها إلى هذه الجهة احسن و أبلغ لما فيه من البيان مع الإيجاز، لأنه الموضع الذى يلتذ الإنسان به عند رؤيته بعينه.

ثم قال «وَأَنْتُمْ فِيهَا» يعنى فى الجنة و فى هذه الأنواع من اللذات «خَالِدُونَ» أى مؤبدون. و قوله «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» قال الحسن: ورث الله تعالى الذين أطاعوه و قبلوا أمره و نهى منازل الذين عصوه و لم يقبلوا أمره و نهى. و يجوز ان يكون المراد لما كانت الجنة جزاء على أعمالهم التى عملوها و عقيب ذلك عبر عن ذلك بأنهم أورثوها. ثم بين مالهم فى الجنة ايضا فقال «لَكُمْ» معاشر المتقين «فِيهَا» يعنى فى الجنة «فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ» أى ثمار عظيمة «مِنْهَا تَأْكُلُونَ».

ثم اخبر تعالى عن حال أهل النار و العصاة فقال «إِنَّ الْمَجْرِمِينَ» يعنى الذين عصوا الله «فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ» و عقابها «خالدون» أى دائمون «لَا يُقْتَرَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ» و اصل الفتور ضعف الحرارة «وَهُمْ فِيهِ» يعنى فى العذاب (مُتِلْسُونَ) أى يأسون من رحمة الله و فرجه- و هو قول قتادة- و الإبلاس اليأس من الرحمة التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢١٧

من شدة الحيرة، يقال أبلس فلان إذا تجبر عند انقطاع الحجة.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٧٦ الى ٨٠]..... ص: ٢١٧

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَ نَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ بَلَى وَ رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)

خمس آيات بلا خلاف.

لما بين الله تعالى ما يفعله بالفساق و المجرمين من انواع العذاب بين انه لم يظلمهم بذلك لأنه تعالى غنى عن ظلمهم عالم بقبح الظلم، و من كان كذلك لا يفعل القبيح، و الظلم قبيح. و بين انهم هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكابهم المعاصى و فعل القباح. ثم

حكى تعالى ما ينادى به هؤلاء العصاة في حال العذاب، فإنهم ينادون مالكا خازن النار فيقولون (يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) أى ليميتنا حتى لتلخص من العذاب، فيقول مالِكُ مجيباً لهم (إِنَّكُمْ مَا كُتُبُونَ) أى لا تبثون فيها. وقال ابن عباس والسدى: إنما يجيبهم مالِكُ خازن جهنم بذلك بعد ألف سنة، وقال عبد الله بن عمر: بعد أربعين سنة. وقال نوف: بعد مائة عام.

ثم أخبر تعالى إنه جاء الخلق بالحق فى ما أخبر به من حال أهل الجنة وأهل النار. ولكن أكثركم معاشر الخلق كارهون للحق. وإنما لا يكره ذلك المؤمنون منكم. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢١٨

ثم قال (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) أى اجمعوا على التكذيب أى عزموا عليه فانا مجمعون على الجزاء لهم بالتعذيب - وهو قول قتادة - ويكون ذلك على وجه الازدواج، لان العزم لا يجوز عليه تعالى، ومثله (وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) «١» وقيل: معناه أم احكموا أمراً فى المخالفة، فانا محكمون أمراً فى المجازاة.

ثم قال (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) أى يظن هؤلاء الكفار انا لا نسمع سرهم ونجواهم أى ما يخفونه بينهم وما يعلنونه. ثم قال تعالى (بلى) نسمع ذلك وندرکه ومع ذلك (رُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) قال السدى و قتادة: معناه إن رسلنا الذين هم الحفظة لديهم يكتبون ما يفعلونه ويقولونه. وقد روى إن سبب نزول هذه الآية ما هو معروف فى الكتب لا نطول بذكره

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٨١ الى ٨٥] ص: ٢١٨

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٨٣) وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَ تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قيل فى معنى قوله (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) اقوال: أحدها - فانا أول الأنفين من عبادته، لأن من كان له ولد لا يكون إلا

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢١٩

جسماً محدثاً ومن كان كذلك لا يستحق العبادة، لأنه لا يقدر على النعم التى يستحق بها العبادة تقول: العرب عبدت فصمت قال الفرزدق:

واعبد ان يهجي كليب بدارم «١»

وقال آخر:

ألا هذيت أم الوليد و أصبحت لما أبصرت فى الرأس منى تعبد «٢»

الثانى - ما قاله ابن زيد وابن أسلم و قتادة: إن (ان) بمعنى (ما) و تقديره ما كان للرحمن ولد فانا أول العابدين لله.

الثالث - هو انه لو كان له ولد لعبدته على ذلك كما تقول لو دعت الحكمة إلى عبادة غير الله لعبدته لكنها لا تدعوا إلى عبادة غيره، و كما تقول: لو دل الدليل على أن له ولداً لقلت به، لكنه لا يدل، فهذا تحقيق نفى الولد لأنه تعليق محال بمحال.

الرابع - قال السدى: لو كان له ولد لكنت أول من عبده بأن له ولداً، لكن لا ولد. وهذا قريب من الوجه (الثالث).

الخامس - إن كان لله ولد على قولكم، فانا أول من وحده و عبده على ان لا ولد له - ذهب اليه مجاهد - وإنما لم يجز على الله تعالى

الولد لأنه لا يخلو من ان يضاف اليه الولد حقيقة او مجازاً، و حقيقته أن يكون مخلوقاً من مائه او مولوداً على فراشه، و ذلك مستحيل عليه تعالى. و مجازاه أن يضاف اليه على وجه التبنى و إنما يجوز فيمن يجوز عليه حقيقته، ألا ترى انه لا يقال تبني شاب شيخاً لما لم يمكن أن يكون له ولد حقيقة، و انما جاز ان يضاف إلى شيخ شاب على انه تبناه لما

(١) القرطبي ١٦/ ١٢٠ و الشوكاني ٤/ ٥٥٠

(٢) تفسير الطبري ٢٥/ ٥٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٠

كان حقيقته مقدورة فيه، و كذلك لا يقال تبني انسان بهيمة لما كان يستحيل أن يكون مخلوقاً من مائه او على فراشه، فلما استحال حقيقته على الله تعالى استحال عليه مجازاه ايضاً. و إنما جاز أن يقال روح الله، و لم يجز ان يقال ولد الله لأن روح الله بمعنى ملك الله للروح، و إنما أضيف اليه تشريفاً. و إن كانت الأرواح كلها لله بمعنى انه مالك لها. و لا يعرف مثل ذلك في الولد. ثم نزه نفسه تعالى عن اتخاذ الولد فقال (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) يعني الذي خلقهن (رب العرش) أى خالفه و مدبره (عما يصفون) من اتخاذ الولد، لأن من قدر على خلق ذلك و إنشائه مستغن عن اتخاذ الولد.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه و آله على وجه التهديد للكفار (فذرهم) أى اتركهم (يخوضوا) فى الباطل (وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوعَدُونَ) بمعنى يوعدون فيه بالعذاب الأبدى. و قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ) أى يحق له العبادة فى السماء و يحق له العبادة فى الأرض، و إنما كرر لفظه إليه فى قوله (و فى الأرض إله) لأحد أمرين: أحدهما- للتأكيد ليتمكن المعنى فى النفس لعظمه فى باب الحق.

الثانى- إن المعنى هو فى السماء إله، يجب على الملائكة عبادته، و فى الأرض اله يجب على الآدميين عبادته (و هو الحكيم) فى جميع أفعاله (العليم) بجميع المعلومات (و تبارك) و هو مأخوذ من البرك و هو الثبوت، و معناه جل الثابت الذى لم يزل و لا يزال. و قيل: معناه جل الذى عمت بركه ذكره (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ) أى الذى له التصرف فيهما بلا دافع و لا منازع (وَمَا بَيْنَهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) يعنى علم يوم القيامة، لأنه لا يعلم وقته على التعيين غيره (و اليه ترجعون) يوم القيامة فيجازى كلا على قدر عمله.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢١

فمن قرأ بالتاء خاطب الخلق. و من قرأ بالياء رد الكناية إلى الكفار الذين تقدم ذكرهم.

قوله تعالى: [سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٨٦ الى ٨٩]..... ص: ٢٢١

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

أربع آيات بلا-خلاف قرأ عاصم و حمزة (و قيله) بكسر اللام على تقدير و عنده علم الساعة و علم قيله. و الباقون بالنصب. و قال الأخفش: ردأ على قوله (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ... وَقِيلَ) و هو نصب على المصدر. و قال قوم: معناه أم يحسبون انا لا نسمع سرهم و لعلمهم وقيله، لأنه لما قال (وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) كان تقديره و يعلم قيله، و قرأ قتادة (و قيل) بالرفع جعله ابتداء.

يقول الله تعالى مخبراً إن الذى يدعونه الكفار إلهاً و يوجهون عبادتهم اليه من الأصنام و الأوثان و غيرها لا يملكون من دون الله الشفاعة. و هى مسألة الطالب العفو عن غيره و إسقاط الضرر عنه، لأن حقيقة الشفاعة ذلك. و عند قوم يدخل فيها المسألة فى زيادة المنافع. ثم استثنى من جملتهم من شهد بالحق و هم عالمون بذلك و هم الملائكة و عيسى و عزيز. و قيل: المعنى و لا يشفع الملائكة و عيسى و عزيز الا من شهد بالحق، و هو يعلم الحق- ذكره مجاهد- و قال قوم (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ) الملائكة و عيسى و عزيز لهم عند

اللَّهُ شهادة بالحق. وقيل: المعنى إلا من يشهد بأنه التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٢

أهل العفو عنه (و هم يعلمون) ذلك. و هؤلاء أصحاب الصغائر و الذين تابوا من الكبائر.

ثم قال تعالى و (لئن سألتهم) يا محمد يعنى هؤلاء الكفار (من خلقهم) و أخرجهم من العدم إلى الوجود (لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) لأنهم يعلمون ضرورة أن الأصنام لم تخلقهم. فقال الله تعالى معنفاً لهم (فأنى يؤفكون) مع علمهم بأن الله هو خالقهم، فكيف ينقلبون عن عبادته إلى عبادة غيره.

و قوله (وقيله يا رب) من نصبه احتمال ان يكون بقوله (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ) و قال (قِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ) على وجه الإنكار عليهم.

وقيل: المعنى أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم و نجواهم.... وقيله. و قال الزجاج:

الاختيار (وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) و يعلم (قيله) و من جر فعلى تقدير وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ و علم قيله يا رب. وقيل: معنى (وقيله) أنه شكا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله شكوة إلى ربه. ثم قال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله (فاصفح عنهم) أى اعف عنهم. قال قتادة: و كان ذلك قبل أمره إياه بقتالهم (و قل سلام) رفع على تقديره و هو عليكم سلام أى ما سلم به من شرهم و أذاهم. و قال الحسن: يعنى (و قل سلام) احلم عنهم ثم هدهم فقال (فسوف تعلمون) بالتاء على وجه الخطاب. الباقيون بالياء على الخبر عن الكفار الذين مضى ذكرهم.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٣

٢٢٣- سورة الدخان..... ص: ٢٢٣

إشارة

و هى مكية فى قول قتادة و مجاهد و هى تسع و خمسون آية فى الكوفى و سبع فى البصرى و ست فى المدنيين و الشامى و سندر اختلافهم.

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ١ الى ٦]..... ص: ٢٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦)

ست آيات فى الكوفى و خمس فى الباقيين.

قد بينا معنى (حم) فى ما مضى و إختلاف الناس فيه و ان أقوى الوجوه انه اسم للسورة. و إنما كرر ذكر (حم) لأنه ينبئ عن استفتاح السورة بذكر الكتاب على وجه التعظيم إذ على ذلك جميع الحواميم، فهو اسم علم للسورة مضمن بمعنى الصفة من وجهين:

أحدهما- انها من الحروف العربية. و الآخر أنه استفتحت بذكر الكتاب على طريق المدحة. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٤ و قوله (وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) فالمراد بالكتاب القرآن، و جره بأنه قسم.

و قال قوم: تقديره و رب الكتاب المبين، و إنما أقسم به لينبئ عن تعظيمه. لان القسم يؤكد الخبر بذكر المعظم منعقداً بما يوجب أنه حق كما أن تعظيمه حق. و إنما وصف بأنه مبين و هو بيان مبالغه فى وصفه بأنه بمنزلة الناطق بالحكم الذى فيه من غير أن يحتاج إلى استخراج الحكم من مبين غيره، لأنه يكون من البيان ما لا يقوم بنفسه دون مبين حتى يظهر المعنى فيه.

و قوله (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ) إخبار منه تعالى أنه انزل القرآن فى الليلة المباركة، و هى ليلة القدر- فى قول قتادة و ابن زيد- و

قال قوم: هي ليلة النصف من شعبان. والأول أصح لقوله تعالى (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) «١» وقيل هي في كل شهر رمضان فيها تقسم الآجال والأرزاق وغيرهما من الألطاف - في قول الحسن - وقيل: انزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر. ثم انزل نجوماً على النبي صلى الله عليه وآله وقيل ينزل في ليلة القدر قدر ما يحتاج إليه في تلك السنة. وقيل المعنى إن ابتداء انزاله في ليلة مباركة، ووصفها بأنها مباركة لأن فيها يقسم الله تعالى نعمه على عباده من السنة إلى السنة. والبركة نماء الخير. و ضده الشؤم وهو نماء الشر، فالليلة التي انزل فيها كتاب الله مباركة، فان الخير ينمى فيها على ما دبره الله لها من علو الخير الذي قسمه فيها. وقوله (إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) فالانذار الاعلام بموضع الخوف ليتقى و موضع الأمن ليرتجى، فالله تعالى قد انذر العباد بأتم الانذار من طريق العقل والسمع وقوله (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) فحكيم - هاهنا - بمعنى محكم، وهو ما بيناه من انه تعالى يقسم في هذه الليلة الآجال والأرزاق وغيرها.

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٨٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٥

وقوله (امراً من عندنا) يحتمل أن يكون نصباً على الحال، وتقديره أنزلناه آمريين. ويحتمل أن يكون على المصدر وتقديره يفرق كل أمر فرقاً، ووضع امراً موضعاً. وقوله (إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) اخبار منه تعالى انه يرسل الرسل (رحمة) أى نعمة. ونصبه على المصدر واختار الأخفش النصب على الحال أى أنزلناه آمريين راحمين. ويجوز ان يكون نصباً على انه مفعول له أى أنزلناه للرحمة. و سميت النعمة رحمة، لأنها بمنزلة ما يبعث على فعله رقة القلب على صاحبه ومع داعى الحكمة إلى الإحسان إليه يؤكد أمره. وقوله (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) معناه إنه يسمع ما يقوله خلقه من المبطلين والمحقين فيجيب كلا منهم على ما يعلمه من مصلحته من إرساله الرسل إليه وإنعامه عليه

قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٧ إلى ١١]..... ص: ٢٢٥

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوتَ مَوْقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا حصصاً (رب السموات) خفضاً بدلاً من قوله (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ... رَبِّ السَّمَاوَاتِ) الباقون بالرفع على الاستئناف. ويجوز أن يكون التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٦

خبر (إن) في قوله (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

لما ذكر الله تعالى أنه - جل وعز - السميع العليم، وصف نفسه ايضاً بأنه الذى خلق السموات والأرض ودبرهما، ودبر ما فيهما (إِنَّ كُنُوتَ مَوْقِنِينَ) بهذا الخبر محققين له، وقيل: إن وجه الاحتجاج بذكر رب السموات والأرض - هاهنا - أن الذى دبرهما على ما فيه مصالح العباد هو الذى دبر الخلق بإرسال الرسول رحمة منه بعباده على ما فيه مصالحهم. ومعنى (إن كنتم موقنين) أى إن كنتم ممن يطلب اليقين، فهذا طريق اليقين يلج الصدور بالعلم، وهو حال يجده الإنسان من نفسه عند التعقل. ولهذا يقال: من وجد برد اليقين كان من المتقين. ولذلك لا يوصف الله تعالى باليقين وإن وصف بأنه عالم وعليم.

ثم بين تعالى انه لا أحد يستحق العبادة سواه بقوله (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وانه (يحيى) الخلق بعد موتهم (ويميت) أى ويميتهم بعد احيائهم (ربكم) الذى خلقكم ودبركم (وَرَبُّ آبَائِكُمْ) الذى خلقهم، دبرهم (الأولين) الذين سبقوكم وتقدموكم.

ثم اخبر تعالى عن الكفار فقال ليس هؤلاء بموقنين بما قلناه (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ) يعنى بما أخبرناك به و وصفنا الله تعالى به (يلعبون) مع ذلك و يسخرون.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه و آله (فارتقب) قال قتادة: فانتظر (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) و الدخان الظلمة التي كانت تغطي أبصار المشركين من قریش لشدة الجوع و

حين دعا عليهم النبي صلى الله عليه و آله، فقال (اللهم سنين كسنين يوسف)

- في قول ابن مسعود و الضحاك- و قال ابن عباس و الحسن و هو

المروى عن النبي صلى الله عليه و آله إن الدخان آية من أشراط الساعة تدخل في مسامع الكافر و المنافق حتى يكون كالرأس الحنيد و نصيب المؤمن منه مثل الزكمة.

و (يغشى الناس) يعنى الدخان يغشى التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٧

الناس. ثم حكى تعالى بأن هؤلاء الكفار يقولون عند ذلك (هذا عذابٌ أليمٌ) أى مؤلم موجه. و الغشى اللباس الذى يغمر الشيء، لأن الإنسان قد يلبس الإزار و لا يغشيه. فإذا غمه كان قد غشاه. و الغاشية من الناس الجماعة يغشون، و غاشية السرج من ذلك، و منه قوله (يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ) «١» و العذاب استمرار الألم و وصفه ب (أليم) مبالغه فى سببه، لأجل استمراره و صار بالعرف عبارة عن العقاب، لان الألم الذى يفعل للعوض و الاعتبار، كأنه لا يعتد به لما يؤل اليه من النفع.

قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ١٢ الى ١٦]..... ص: ٢٢٧

رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعِذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونَ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦)

خمس آيات بلا خلاف.

لما اخبر الله تعالى أن الدخان يغشى الناس عذاباً لهم و عقاباً للكفار، و حكى أنهم يقولون هذا عذابٌ أليمٌ، حكى أيضاً أنهم يقولون و يدعون (ربنا اصرف عنا العذاب) الذى أنزلته من الدخان (إننا موقنون) بأنه لا إله غيرك، و أن لا يستحق العبادة سواك. فقال تعالى (أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى قال ابن عباس معناه (كيف)؟ و قال غيره معناه من أين لهم الذكرى (وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ) و حثهم على ذلك فلم يقبلوا منه، و هذا زمان سقوط التكليف لكونهم ملجئين

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ و سورة ١٣ الرعد آية ٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٨

فلا تقبل لهم توبة.

و قوله (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونَ) قال مجاهد: المعنى ثم تولوا عن محمد صلى الله عليه و آله و قالوا هو معلم يعلمه غيره، و نسبوه إلى الجنون، و أنه مجنون. ثم قال تعالى (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا) على وجه التبكيت لهم على شدة عنادهم إننا لو كشفنا عنكم العذاب و رفعناه عنكم (إنكم عائدون) فمن قال إن العذاب بالدخان عند رفع التكليف قال (إنكم عائدون) فى العذاب، و هو قول قتادة و من ذهب إلى انه فى الدنيا مع بقاء التكليف، قال معناه (إنكم عائدون) فى الضلال. و هو قول جماعة.

و قوله (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى فالبطش الأخذ بشدة وقع الألم، بطش به يبطش بطشاً، و مثله عرش يعرش و يعرش، و هو باطش، و أكثر ما يكون بوقوع الضرب المتتابع، فأجرى إفراغ الألم المتتابع مجراه و (البطشة الكبرى) قال ابن مسعود و مجاهد و ابو العالية، و روى عن ابن عباس و أبى بن كعب و الضحاك و ابن زيد: هو ما جرى عليهم يوم بدر- و فى رواية أخرى عن ابن عباس و الحسن انه

يوم القيامة، و هو اختيار الجبائي.

وقوله (إنا منتقمون) اخبار منه تعالى أنه ينتقم من هؤلاء الكفار بانزال العقوبة بهم، و قد فرق قوم بين النعمة و العقوبة: بأن النعمة ضد النعمة، و العقوبة ضد المثوبة، فهي مضمنة بأنها بعد المعصية في الصفة، و ليس كذلك النعمة و إنما تدل الحكمة على انها لا تقع من الحكيم إلا لأجل المعصية.

قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ١٧ الى ٢١]..... ص: ٢٢٨

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ (٢١)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٩

خمس آيات بلا خلاف.

أقسم تعالى انه فتن قبلهم يعني قبل كفار قوم النبي صلى الله عليه و آله (قوم فرعون) أى اختبرناهم، و شددنا عليهم بأن كلفناهم، لأن الفتنة شدة التعب في الأخذ بالسراء و الضراء، و أصلها الإحراق بالنار لخلاص الذهب من الغش، فهذه الشدة كشدة الإحراق للخلاص. و قيل: الفتنة معاملته المختبر ليجازى بما يظهر دون ما يعلم مما لم يعلم (و جاءهم رسول كريم) أى حقيق بالكرم في الدعاء إلى الله و البرهان الواضح و الدليل القاهر حتى يسلكوا طريق الهدى المؤدى إلى ثواب الجنة و يعدلوا عن طريق الردى المؤدى إلى العقاب. و قيل: معناه كريم عند الله بما استحق بطاعته من الإكرام و الإجلال.

وقوله (أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ) قال الحسن: هو مثل قوله (أَنْ أُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) «١» ف (عباد الله) منصوب ب (أدوا) و قيل: هو منصوب على النداء. أى يا عباد الله أدوا ما أمركم به، في قول الفراء (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) على ما أؤديه إليكم و أدعوكم اليه. (وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ) قال ابن عباس: معناه أن لا تطغوا عليه بافتراء الكذب عليه. و قال قتادة: معناه ان لا تبغوا عليه بكفر نعمه. و قيل معناه أن لا تتكبروا على الله بترك طاعته

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٠

و إتباع أمره. و قيل: معناه أن لا تبغوا على أولياء الله بالبغي عليهم. و قال الحسن: معناه لا تستكبروا عليه بترك طاعته (إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) أى بحجة واضحة لأن السلطان الحجة و المبين الظاهر الذى مع ظهوره يظهر الحق، فكأنه أظهره. ثم قال لهم (وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي) الذى خلقنى (و ربكم) الذى خلقكم (أن ترجمون) قال ابن عباس و ابو صالح: الرجم الذى استعاذ منه موسى هو الشتم، كقولهم:

هو ساحر كذاب و نحوه، و قال قتادة: هو الرجم بالحجارة. ثم قال لهم (وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ) أى لم تؤمنوا بى، فاللام بمعنى الباء و معناه و إن لم تصدقونى فى أنى رسول الله إليكم و أن ما أدعوكم اليه حق يجب عليكم العمل به فلا- أقل من أن تعتزلون بصرف أذاكم عنى، لأنكم إن لم تجازوا الإحسان بالإحسان، فلا اساءة. و إنما دعاهم إلى ترك ملاسته بسوء إن أصروا على الكفر و لم يقبلوا إلى الايمان لان هذا أمر يدعو اليه العقل ببديته و لا يحتاج إلى برهان.

قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٢٢ الى ٢٩]..... ص: ٢٣٠

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِبْ بَعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٢٥) وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَ نَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ (٢٧) كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) ثمان آيات بلا خلاف.

قرأ أبو جعفر (فاكهين) بغير الف - هاهنا - و في المطففين. و في الطور التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣١ وافقه الداجوني و حفص في المطففين.

حكى الله تعالى أن موسى حين يش من قومه ان يؤمنوا به (دعا) الله (ربه) فقال (أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) و قيل إنه دعا بما يقتضيه سوء أفعالهم و قبح إجرامهم و سوء معاملتهم له، فكأنه قال: اللهم عجل لهم بما يستحقونه باجرامهم و معاصيهم بما به يكونون نكالا لمن بعدهم، و ما دعا بهذا الدعاء إلا بعد إذن الله له في الدعاء عليهم.

و قوله (فَأَسْرِبْ بَعَادِي) الفاء وقعت موقع الجواب، و تقديره فدعا فأجيب بأن قيل له (فأسر بعبادي) فهي عطف وقع موقع جواب الدعاء. و أمره الله تعالى بأن يسير بأهله و المؤمنين به لئلا يروهم إذا خرجوا نهاراً، و اعلمه (إنكم متبعون) أنه سيتبعهم فرعون و قومه و يخرجون خلفهم، و أمره بأن (يترك البحر رهواً) أى ساكناً على ما هو به من كثرته إذا قطعه، و لا يرده إلى ما كان و يقال: عيش راه إذا كان خفضاً و ادعاً. و قال قوم: معناه اترك البحر ييساً.

و قيل: طريقاً يابساً. و قال ابن الاعرابي: معناه واسعاً ما بين الطاقات. و قال خالد ابن خبيري: معناه رمثاً أى سهلاً ليس برمل و لا حزن. ذكره الأزهري يقال:

جاءت الخيل رهواً أى متتابعة. و قال ابن الاعرابي الرهو من الخيل و الطير السراع. و قال العكلى: المرهى من الخيل الذى تراه كأنه لا يسرع، و إذا طلب لا- يدرك، و يقال: أعطاه سهواً رهواً أى كثيراً لا يحصى. و إنما قيل ذلك، لأنه كان أمره أولاً ان يضرب البحر بعصاه ليفلق فيه طرقاً لقومه ثم أمره بأن يتركه على الحالة الأولى ليغرق فيه فرعون و جنده، قال الشاعر:

طيراً رأيت بازياً نضح الدماء به و أمة أخرجت رهواً إلى عيد «١»

أى سكوناً على كثرتهم.

(١) تفسير الطبرى ٢٥/ ٦٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٢

ثم أخبره عن فرعون و قومه ب (إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ) أى سيفرقهم الله.

و فى الكلام حذف، لان تقديره ان موسى سار بقومه و تبعه فرعون و جنده و أن الله أهلكتهم و غرقهم.

ثم اخبر عن حالهم بأن قال (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ) يعنى من بساتين لهم تركوها لم تنفعهم حين نزل بهم عذاب الله (و عيون) جارية لم تدفع عنهم عقاب الله (و زروع) جمع زرع (و مقام كريم) قيل: هو المجلس الشريف. و قيل:

مقام الملوك و الامراء و الحكماء. و قيل: المنازل الحسنه. و قال قتادة: يعنى مقام حسن بهج. و قال مجاهد و سعيد بن جبیر: هى المناظر. و قيل: المنابر. و قيل:

المقام الكريم هو الذى يعطى اللذة، كما يعطى الرجل الكريم الصلة (و نَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ)، فالنعمة - بفتح النون - التنعيم - و بكسرهما - منفعة يستحق بها الشكر، و إن كانت مشقة، لأن التكليف نعمة و إن كانت فيه مشقة. و معنى الآية أنهم كانوا متمتعين. فالفاكه المتمتع بها بضروب اللذة، كما يتمتع الأكل بضروب الفاكه، يقال: فكه يفكه فكهاً، فهو فاكه، و فكه و تفكه يتفكه تفكهاً، فهو متفكه.

وقوله (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) فتوريثه النعمة إلى الثاني بعد الأول بغير مشقة كما يصير الميراث إلى أهله على تلك الصفة، وتوريث العلم شبه بذلك، لأن الأول تعب في استخراجها وتوطئة الدلالة المؤدية إليه، ووصل إلى الثاني وهو رافه وادع، لم يكل لطول الفكر وشدة طلب العلم، فلما كانت نعمة قوم فرعون وصلت بعد هلاكهم إلى غيرهم، كان ذلك توريثاً من الله لهم. قال قتادة: يعني بقوم آخرين بنى إسرائيل، لأن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون على ما قيل، وكذلك قال في موضع آخر (وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (١).

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٦٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٣

وقوله (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ) قيل في معناه ثلاثة اقوال:

أحدها- قال الحسن فما بكى عليهم- حين اهلكهم الله- أهل السماء و أهل الأرض، لأنهم مسخوط عليهم مغضوب عليهم بانزال الخزي بهم.

الثاني- إن التقدير ان السماء والأرض لو كانتا ممن يبكى على أحد إذا هلك لما بكتا على هؤلاء، لأنهم ممن أهلكهم الله بالاستحقاق وانزل عليهم جزاً بما كانوا يكفرون. والعرب تقول: إذا أرادت أن تعظم موت إنسان: اظلمت الشمس و كسف القمر لفقده و بكت السماء والأرض، وإنما يريدوا المبالغة قال الشاعر:

الريح تبكى شجوها و البرق يلمع في الغمامه (١)

وقال آخر:

و الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكى عليك نجوم الليل و القمر (٢)

الثالث- انهم لم يبكي عليهم ما يبكى على المؤمن إذا مات، مصلاه و مصعد علمه- ذكره ابن عباس و ابن جبير- و معناه لم يكن لهم عمل صالح. و قال السدي:

لما قتل الحسين عليه السلام بكت السماء عليه و بكأؤها حمرة أطرافها. و قال الحسن: ما بكى عليهم المؤمنون و الملائكة، بل كانوا بهلاكهم مسرورين.

وقوله (وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) أى عوجلوا بالعقوبة و لم يمهلوا.

قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٣٠ الى ٣٦]..... ص: ٢٣٣

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (٣٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)

(١) تفسير القرطبي ١٤٠ / ٦١ نسبه الى يزيد بن يربوع الحميري، و قد مر في ٢ / ٤٠٠

(٢) تفسير القرطبي ١٤٠ / ١٦ نسبه الى جرير

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٤

سبع آيات كوفي و ست في ما عداها، عدّ الكوفيون «لَيَقُولُونَ» و لم يعده الباقون.

اقسم الله تعالى أنه نجى أى خلص بنى إسرائيل الذين آمنوا بموسى من العذاب المهين الذى كان يفعله بهم فرعون و قومه لأنهم

كانوا استعبدوهم، و كانوا يكلفونهم المشاق و يحملوهم القذارات و يكلفونهم كنسها و تنظيفها و غير ذلك، فخلصهم الله تعالى حين أهلك فرعون و قومه و وفقهم للإيمان بموسى.

ثم اخبر تعالى ان فرعون كان عالياً من المسرفين أى متجبراً متكبراً من المسرفين فى الأرض الذين يتجاوزون حد ما يجوز فعله إلى ما لا يجوز فعله استكباراً و علواً و عتواً، يقال: أسرف يسرف اسرافاً فهو مسرف، و مثله الافراط، و ضده الافتار، و إنما وصف المسرف بأنه عال، و إن كان وصف عال قد يكون صفة مدح، لأنه قيده بأنه عال فى الإسراف، لان العالى فى الإحسان ممدوح و العالى فى الإسراف مذموم، و اطلاق صفة عال تعظيم، و إذا اطلق فالمدح به أولى.

ثم اخبر تعالى مقسماً بأنه اختارهم يعنى موسى و قومه على علم على العالمين، فالاختيار هو اختيار الشئ على غيره بالارادة له لتفضيله عليه. و مثله الإيثار، و ليس فى مجرد الارادة تفضيل شئ على غيره، لأنه قد يمكن أن يريد شيئاً من غير أن يخطر بباله ما هو فيه أولى منه فى العقل، فلا يكون اختياره تفضيلاً. و إما ان يريد الأولى و لا يدري انه أولى، فيختاره عليه لجهله بأنه أولى او يختاره و هو يعلم انه غير التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٥

أولى، و يختاره لحاجته اليه من جهة تعجل النفع به، و من اختار الأدون فى الصلاح على الأصلح كان منقوصاً مذموماً، لأنه بمنزلة من اختار القبيح على الحسن.

وقيل: المعنى اخترناهم على عالمى زمانهم بدلالة قوله لأمة نبينا «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» (١) و ذلك يوجب انه ما اختارهم على من هو خير منهم، و إنما اختارهم على من هو فى وقتهم من العالمين. و قال قتادة، و مجاهد: على عالمى زمانهم. و إنما قال «اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمِ الْعَالَمِينَ» بما جعل فيهم من الأنبياء الكثيرين، فهذه خاصة لهم ليست لغيرهم، لما فى العلوم من مصالح المكلفين بأنبيائهم.

ثم بين ما به اختارهم بأن قال «وَأَتَيْنَاهُم» يعنى أعطيناهم «مِنَ الْآيَاتِ» يعنى الدلالات و المعجزات «مَا فِيهِ بَلْؤٌ مُّبِينٌ» قال الحسن: يعنى ما فيه النعمة الظاهرة. قال الفراء: البلاء قد يكون بالعذاب، و قد يكون بالنعمة، و هو ما فعل الله بهم من إهلاك فرعون و قومه، و تخليصهم منه و إظهار نعمه عليهم شيئاً بعد شئ.

ثم اخبر تعالى عن كفار قوم نبينا صلى الله عليه و آله فقال «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى أَمْ مَا نَحْنُ» أى لسنا بعدها بمبعوثين و لا معادين «بِمُنْشَرِينَ» و يقولون «فَأَتُوا بِآبَائِنَا» الذين ماتوا قبلنا و اعيدوهم «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فى ان الله تعالى يقدر على اعادة الأموات و احيائهم لان من قدر على النشأة الثانية قدر على اعادة الآباء، و هذا باطل لان النشأة الثانية انما وجبت للجزاء لا للتكليف، فلا تلزم اعادة الآباء و لا تجب.

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١١٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٦

قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٣٧ الى ٤٠]..... ص: ٢٣٦

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِاعْبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) أربع آيات بلا خلاف.

ان قيل: لم لم يجابوا عن شبهتهم فى الآية، و لم يبين لهم أن ذلك لا يلزم، و ما الوجه فى جوابهم؟ «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعَ» قلنا: من تجاهل فى الحجاج الذى يجرى مجرى الشغب الذى لا يعتقد بمثله مذهب لنفى الشبهة فيه، فانه ينبغى أن يعدل عن مقابله الى الوعظ

له بما هو أعود عليه، فلذلك عدل تعالى معهم الى هذا الوعيد الشديد، وقال «أهم» هؤلاء الكفار «خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَعِّ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» فانا «أَهْلَكْنَاهُمْ» لما جحدوا الآيات و كفروا بنعم الله و ارتبكوا معاصيه فما الذى يؤمن هؤلاء من مثل ذلك. وقيل: تبع الحميرى كان رجلاً من حمير سار بالجيش الى الحيرة حتى حيرها، ثم أتى سمرقند فهدمها، و كان يكتب باسم الذى ملك بحراً و براً وضحاً و ريحاً، ذكره قتادة. و قال سعيد بن جبير و كعب الاخبار ذم الله قومه، و لم يذمه و نهى أن يسب. و حكى الزجاج: ان تبعاً كان مؤمناً، و ان قومه كانوا كافرين. و قيل: انه نظر الى كتاب على قبرين بناحية حمير (هذا قبر رضى و قبر جى ابني تبع لا يشركان بالله شيئاً) و قيل: سمي تبعاً، لأنه تبع من كان قبله من ملوك اليمن. و التبابعة اسم ملوك اليمن.

ثم قال تعالى «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِاعْبَيْنَ» أى لم تخلق ذلك لا لغرض حكى بل خلقناهم لغرض حكى، و هو ان ننفع به المكلفين التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٧

و نعرضهم الثواب و تنفع سائر الحيوان بالمنافع لهم فيها و اللذات. و فى الآية دلالة على من أنكر البعث، لأنه لو كان على ما توهموه انه لا يجر به الى الجزاء فى دار أخرى مع ما فيه من الألم لكان لعباً، لأنه ابتداء باختيار ألم لا يجر به الى عوض. ثم قال تعالى «مَا خَلَقْنَاهُمَا» يعنى السموات و الأرض «إِلَّا بِالْحَقِّ» قال الحسن معناه الا للحق الذى يصل اليه فى دار الجزاء. و قيل فيه قولان آخران:

أحدهما- ما خلقناهما الا بداعى العلم الى خلقهما، و العلم لا يدعو الا الى الصواب.

الثانى- و ما خلقناهما الا على الحق الذى يستحق به الحمد خلاف الباطل الذى يستحق به الذم.

ثم قال «وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» بصحة ما قلناه لعدو لهم عن النظر فيه، و الاستدلال على صحته. و فى ذلك دلالة على بطلان قول من قال: المعارف ضرورية، لأنها لو كانت لما نفى تعالى علمهم بذلك.

ثم قال تعالى «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ» يعنى اليوم الذى يفصل فيه بين المحق و المبطل بما يضطر كل واحد منهما الى حاله من حقه او باطله فيشفى صدور المؤمنين و يقطع قلوب الكافرين بما يرون من ظهور الامر و انكشافه، و هو يوم القيامة، و بين انه ميقات الخلق أجمعين و هو من له ثواب و عوض او عليه عقاب يوصله اليه.

قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٤١ الى ٥٠]..... ص: ٢٣٧

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامٌ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥)

كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٨

عشر آيات كوفى و بصرى و تسع فى ما عداه، عد الكوفيون و البصريون «الزقوم» و وافقهم عليه الشاميون و المدنى الأول. و عد أيضاً العراقيون «يغلى فى البطن» و وافقهم عليه المكيون و المدنى الأخير.

قرأ «يغلى» بالياء كثير و ابن عامر و حفص عن عاصم. الباقون بالتاء.

من قرأ بالياء رده الى المهل. و من قرأ بالتاء رده الى الشجرة. قال ابو على: من قرأ بالياء حملة على الطعام، لان الطعام هو الشجرة فى المعنى ألا ترى انه خبر الشجرة و الخبر هو المبتدأ بعينه إذا كان مفرداً فى المعنى، و لا يحمل على (المهل) لان المهل إنما ذكر ليشبه به فى الذوق، لان التقدير إن شجرة الزقوم طعام الأثيم تغلى فى البطن كالمهل على الحميم.

لما ذكر الله تعالى أن يوم الفصل ميقات الخلق يحشرهم الله فيه و يفصل بينهم بالحق أى يوم هو؟ فوصفه انه «يَوْمَ لَا يُغْنِي فِيهِ مَوْلَى

عَنْ مَوْلَى شَيْئًا، لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَيَّاسٌ مِنْ ذَلِكَ، لَمَّا عَلِمَ فِيهِ مِنْ صِلَاحِ الْعِبَادِ، وَ لَوْلَا ذَلِكَ لَجَازَ أَنْ يَغْرَى.

و المعنى إنه ليس لهم من ينتصر لهم من عقاب الله تعالى، فلا ينافى ذلك ما نقوله:

من أنه يشفع النبي و الأئمة و المؤمنون في إسقاط كثير من عقاب المؤمنين، لأَن الشفاعة لا تحصل إلا بأمر الله و اذنه. و المراد في الآية أنه ليس لهم من يغنى عنهم التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٩

من غير أن يأذن الله له فيه على وجه الدفع عنه و النصر له. و بين ذلك بقوله «وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ» و المولى - هاهنا - الصاحب الذي شأنه أن يتولى معونه صاحبه على أموره، فيدخل في ذلك ابن العم و الحليف و غيره ممن هذه صفته و قد استثنى ما أشرنا اليه بقوله «إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ» فان من يرحمه الله اما أن يسقط عقابه ابتداء أو يأذن في إسقاط عقابه بالشفاعة فيه.

ثم وصف نفسه بأنه القادر الذي لا يغلب و لا يقهر بدفع العقاب عمن يريد فعله به «الرحيم» أى المنعم لمن يريد العفو عنه بإسقاط عقابه.

ثم اخبر تعالى «إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ» الذى يستحق العقاب بمعاصيه و عنى به - هاهنا - أبو جهل، فالزقوم ما أكل بتكره شديد له، لأنه يخشو به فمه و يأكله بشره شديد، و لهذا حكى عن أبى جهل انه أتى بتمر و زبد، فقال: نحن نتزقم هذا أى نمأله به أفواهنا فما يضرنا.

ثم شبه ذلك بأنه مثل المهمل، و هو الشئ الذى يذاب فى النار حتى يشتد حره كالفضة و الرصاص و غيرهما مما يماع بالنار، و هو مهمل، لأنه يمهل فى النار حتى يذوب. و قال ابن عباس: المهمل ما أذيب بالنار كالفضة، و هو قول ابن مسعود و روى عن ابن عباس ايضا أن المهمل دردى الزيت فى النار. ثم وصف (المهمل) بأنه «يَغْلَى فِي الْبُطُونِ» من حرارته، كما يغلى الحميم و هو الماء المغلى على النار، فالمهمل يغلى فى بطون أهل النار، كما يغلى الماء بحر الإيقاد و الغلى ارتفاع المائع من الماء و نحوه بشدة الحرارة. و الحميم الحار و منه أحم الله ذلك من لقاء أى أدناه و قربه لان ما حم فلا يسراع و ما برد فلا يبطأ، و منه حمم ريش الطائر إذا قرب خروجه. ثم بين أنه تعالى يأمر الملائكة بأن يأخذوا الكافر و أن يعتلوه «إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ» يعنى إلى وسطه. و العتل زعزعة البدن بالجفاء و الغلظة للاهانة، فمعنى التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٠

«اعتلوه» اعملوا به هذا العمل، و منه العتل، و هو الجافى الغليظ يقال: عتله يعتله و يعتله عتلا إذا ساقه دفعاً و سحاً. قال الفرزدق:

ليس الكرام بنا حليكم إباءهم حتى ترد إلى عطية تعتل «١»

و «سَوَاءِ الْجَحِيمِ» وسطه - فى قول قتادة - وسمى وسط الشئ سواء، لاستواء المسافة بينه و بين أطرافه المحيطة به، و سواء العدل كقولهم: هذا سواء بيننا و بينكم أى عدل.

ثم بين تعالى أنه يأمرهم بأن يصبوا فوق رأس الكافر من عذاب الحميم.

و هو ما فسرناه. ثم يخاطبه فيقول له «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ» على وجه التهجين له بما كان يدعى له مما ليس به أى أنت كذلك عند نفسك و قومك.

و يجوز ان يكون على معنى النقيض، كأنه قيل: إنك انت الذليل المهين إلا - أنه قيل: على تلك الجهة للتباعد منها على وجه الاستخفاف به. و قيل إن الآية نزلت فى أبى جهل، و قد كان قال: (أنا أعز من بها و أكرم) - ذكره قتادة - و قيل:

المعنى أنت الذى كنت تطلب العز فى قومك و الكرم بمعصية الله. و قيل: المعنى إنك انت العزيز فى قومك، الكريم عليهم، فما أغنى عنك.

ثم قال «إِنَّ هَذَا» يعنى العذاب «مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ» أى تشكون فيه فى دار الدنيا. و فى الآية دلالة على بطلان قول من قال المعارف ضرورة.

و قرأ الكسائى «ذق أنك» بفتح الهمزة بمعنى لأنك أنت العزيز أو بأنك الباقون - بكسر الهمزة - على وجه الابتداء بالخبر عنه، و

يكون التقدير ذق العذاب.

ثم ابتدأ إنك. وقرأ «فاعتله» - بضم التاء - ابن كثير و نافع و ابن عامر. الباقون بكسر التاء و هما لغتان على ما حكيناه.

(١) تفسير الطبري ٢٥ / ٧٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤١

قوله تعالى: [سورة الدخان (٤٤): الآيات ٥١ الى ٥٩]..... ص: ٢٤١

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ (٥٥)
لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَ وُقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضَلَّأ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)
تسع آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر و نافع «في مقام» بضم الميم، و هو موضع الإقامة. الباقون بفتح الميم، و هو موضع القيام.
لما اخبر الله تعالى عن الكفار و ما يفعله بهم من انواع العقاب، أخبر عن حال المطيعين و ما أعد له من الثواب، فقال «إِنَّ الْمُتَّقِينَ»
يعنى الذين يجتنبون معاصيه لكونها قبائح، و يفعلون طاعاته لكونها طاعة «في مقام أمين» أى موضع إقامة - فيمن ضم الميم - و من فتحها يريد أنهم فى موضع قيامهم، و وصفه بأنهم فى «مقام أمين» من كل ما يخاف، و ليس هذا فى الدنيا، لأنه لا يخلو منها احد من موقف خوف من مرض او اذى او غير ذلك.

ثم بين ذلك المقام فقال «في جنات» يعنى بساتين تجننها الأشجار «و عيون» التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٢
ماء نابعه فيها «يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ» فالسندس الحرير - فى قول الحسن.

و الإستبرق الديباج الغليظ - فى قول قتاده - و إنما رغبتهم فى ذلك بحسب ما كانوا يعرفونه، و إن كان - هاهنا - ما هو ارفع منها و احسن «متقابلين» أى يقابل بعضهم بعضاً بالمحبة، لا متدابرين بالبغضة. ثم قال و مثل ما فعلنا بهم «كَذَلِكَ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ»
فالحور جمع حوراء من الحور، و هو شدة البياض. و قال قتاده «بحور» أى ببيض، و منه الحور لبياضه، و حورته أى ببيضته من حار يحور أى رجع إلى الحالة الأولى كما يرجع إلى حال الأبيض، و منه المحور «و العين» جمع عيناء و هى الواسعة العين الحسنه، و كذلك لهم فى حكم الله. و قال الحسن: العيناء الشديدة السواد سواد العين، الشديدة البياض بياضها «يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ»
أى يستدعون أى ثمره شاءوا غير خائفين فوتها. ثم قال «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا» يعنى فى الجنة «الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى» شبه الموت بالطعام الذى يذاق و ينكر عند المذاق. ثم نفى ذلك، و انه لا يكون ذلك فى الجنة، و إنما خصهم بأنهم لا يذوقون الموت مع أن جميع الحيوان يوم القيامة لا يذوقون الموت، لما فى ذلك من البشارة لهم بانتهاء ذلك إلى الحياة الهنيئة فى الجنة، فأما من يكون فيها هو كحال الموت فى الشدة، فلا يطلق له هذه الصفة، لأنه يموت موتات كثيرة بما يلاقى و يقاسى من الشدة، و اما غير المكلفين، فليس مما يعقل، فتلحقه هذه البشارة و إن عم ذلك اهل الجنة.

و قوله «إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى قِيلَ ان (إلا) بمعنى (بعد) كأنه قال بعد الموتة الاولى. و قيل: معنى (إلا) سوى كأنه قال: سوى الموتة الأولى. و قيل:

إنها بمعنى (لكن) و تقديره لكن الموتة الأولى قد ذاقوها. و قال الجبائي: هذا حكاية حال المؤمنين فى الآخرة، فلما أخبرهم بذلك

فى الدنيا، و هم لم يذوقوا بعد التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٣

الموت جاز أن يقال لا يذوقون الموت في المستقبل إلا الموتة الأولى يخرجون بها من دار التكليف، وهذا ضعيف، لان في ذلك خبر عن حكمهم في الجنة وأنهم لا يذوقون فيها الموت ثم استثنى من ذلك الموتة الأولى، وكيف يرد إلى دار الدنيا؟! و حقيقة (إلا) إخراج بعض عن كل و حقيقة (بعد) إخراج الثاني عن الوقت الاول.

وقوله «وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» أى يصرف عنهم عذاب النار، وليس في ذلك ما يدل على أن الفاسق الملى لا يعذب و يخرج من النار، من حيث أنه لا يكون قد وقى النار، لأنه يحتمل أمرين:

أحدهما- ان يكون ذلك مخصوصاً بمن لا يدخل النار ممن لا يستحقه او بمن عفى عنه.

و الثاني- ان يكون المراد «وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» على وجه التأييد او على الوجه الذى يعذب عليه الكفار.

ثم بين أن ذلك فضل من الله، و نصبه على المصدر، و تقديره فضل فضلاً منه تعالى. و اخبر بأن «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» يعنى الفلاح العظيم.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه و آله «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» يعنى باللغة العربية ليفقهوه و يتفكروا فيه، فيعلموا ان الامر على ما قلناه. ثم أمره صلى الله عليه و آله فقال «فَارْتَقِبْ» أى انتظر يا محمد مجيء ما وعدتك به «إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ» ايضاً و هو قول قتاده، و إنما قال فيهم «إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ» لأنهم فى مثل حال المنتظر فى انه سيأتيه عاقبه حاله كما يأتى المنتظر.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٤

٤٥-سورة الجاثية..... ص: ٢٤٤

إشارة

مكية فى قول قتاده و مجاهد و هى سبع و ثلاثون آية فى الكوفى و ست فى البصرى و المدنيين.

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٢٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)

وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)
خمس آيات فى الكوفى و اربع فى الباقي، عد الكوفيون «حم» و لم يعده الباقون.

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً «آيات» بالكسر فى الثلاث مواضع. الباقون بالرفع فى الثانى. و الثالث. من خفض التاء فعلى أنه فى موضع نصب رداً على (إن) و إنما كسرت التاء، لأنها تاء جمع التأنيث. و قال المبرد: هذا بعد الواو لأنه عطف على عاملين على «إن» و «فى» بحرف الواو، لأنه يكون عطف «و إختلاف» على (فى) و عطف على (إن) بهذه الواو وحدها، فأما «آيات» الثانية التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٥

فأجاز عطفها على الاولى، لان معها (فى) و تقديره إن فى خلقكم. قال ابن خالويه ليس ذلك لحناً، لان من رفع أيضاً فقد عطف على عاملين، فيكون عطف جملة على جملة و يحتمل ان يكون عطف على موضع (إن) لان موضعها الرفع، و الأخفش كان يجيز العطف على عاملين، فيقول مررت بزيد فى الدار و الحجرة عمرو، و يحتج بقول الشاعر:

أكل امرئ تحسبين امرأ و نار تأجج للحرب ناراً «١»

عطف على ما عملت فيه (كل) و ما عملت فيه (تحسين) و أجود من العطف على عاملين أن يجعل (آيات) الثانية بدلاً من الأول، فيكون غير عاطف على عاملين، و تقديره إن في السموات و الأرض آيات للمؤمنين لآيات، كما تقول:

ضربت زيداً زيداً، فلا يحتاج إلى حرف العطف، و من رفع آيات الثانية حملها على الابتداء و الخبر، و جعل الثالثة تكرير الثانية بالرفع، قال الزجاج: لأنه يرفع (آيات) عطفاً على ما قبلها، كما خفض (و إختلاف) عطفاً على ما قبلها. و قال ابو على: وجه قراءة الكسائي أنه لم يحمل على موضع (إن) كما حمله من رفع (آيات) في الموضعين أو قطعه و استأنف، لكنه حمله على لفظ (إن) دون موضعها، فحمل (آيات) في الموضعين على نصب (إن) في قوله «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ» و يكون على تقدير إن، و إن كانت محذوفة من اللفظ و يجعلها في حكم المثبت فيه، لأن ذكره قد تقدم في قوله «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ» و قوله «و فِي خَلْقِكُمْ» فلما تقدم الجار في هذين الموضعين قدر في الإثبات في اللفظ، و إن كان محذوفاً منه كما قدر سيبويه في قوله:

أَكْمَلُ امْرِئٍ تَحْسَنُ بِنِ امْرَأَةٍ [و نـ] تَأْجُرُ الْجَرَ نـ رَأً

(۱) قائله ابو دواد الایادی، تفسیر القرطبی ۱۶ / ۱۵۷ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٦

وقيل (كل) في حكم الملفوظ به و استغنى عن إظهاره بتقدم ذكره، و كذلك فعلت العرب في الجار ألا ترى أنهم لم يجيزوا (من تمرر أمرار) و أجازوا (بمن تمرر أمرار) و (على أيهم تنزل انزل) فحذف الجار حسن لتقدم ذكر الجار، و على هذا قول الشاعر:

ان الكريم و أبيض يعتلم إن لم يجد يوماً على من يتكل

لما ذكر (على) و (إن) كانت زائدة- فى قول سيبويه- حسن حذف الجار من الصلة، و لو لم تذكر لم يجزه. و حكى فى بعض القراءات عن أبى إنه قرأ فى المواضع الثلاث «لآيات فى خلقكم و ما يثبت من دابة لآيات» و كذلك الآخر فدخل اللام يدل على أن الكلام محمول على (إن) و إذا كان محمولا- عليها حسن النصب على قراءة حمزة و الكسائى و صار كل موضع من ذلك كأن (إن) مذكورة فيه بدلالة دخول اللام، لأن هذه اللام إنما تدخل على خبر (إن) أو اسمها، و حكى أن أيباً قرأ «لآيات» بالرفع مع إدخال اللام عليها، و هذا لا يجيزه أكثر النحويين كالكسائى و غيره، كما لا يجوز فى الدار لزيد، و اجازة الفراء و انشد لحميد بن ثور:

إن الخلافة بعدهم لذيمة و خلائف طرف لما أحقر «١»

و حكى الفراء أنه يقول العرب (إن) لى عليك مالا و على أيبك مال بالرفع و النصب، و حكى ابو على: إنه يجوز أن يعمل الثانى على التأكيد للأول و كذلك فى الثالث، و لا- يكون عطفاً على عاملين، كما قال بعض شيوخنا فى قوله «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ» (٢) حمل الثانى على أنه تأكيد للأول.

قد ذكرنا في ما تقدم ان (حم) اسم للسورة، وانه أجود الأقوال. قال الرماني: وفي تسمية السورة ب (حم) دلالة على ان هذا القرآن المعجز كله من

(۱) تفسیر الطبری ۷۷ / ۲۵

(۲) سورہ ۹ التوبہ آئہ ۶۴

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٧

حروف المعجم، لأنه سمي به ليدل عليه بأوصافه، و من أوصافه أنه مفصل قد فصلت كل سورة من أختها. و من أوصافه أنه هدى و نور، فكأنه قيل: هذا اسمه الدال عليه بأوصافه. ثم وصف تعالى الكتاب بأنه تنزيل من الله في مواضع من السور لاستفتاحه بتعظيم شأنه على تصريف القول بما يقتضى ذلك فيه من إضافته إلى الله تعالى من أكرم الوجوه و أجلها و ما يتفق الوصف فيه يقتضى انه كالأول

فى علو المنزل و جلالته عند الله و إذا أفاد هذا المعنى باقتضائه له لم يكن تكريراً، و يقول القائل: اللهم اغفر لى اللهم ارحمنى اللهم عافنى اللهم أوسع على فى رزقى فأتى بما يؤذن أن تعظيمه لربه منعقد بكل ما يدعو به.

و قوله «مَنْ اللَّه» يدل على ان ابتداء منه تعالى «الْعَزِيز» و معناه القادر الذى لا- يغالب «الْحَكِيم» معناه العالم. و قد يكون بمعنى أن أفعاله حكمه و صواب ثم أخبر تعالى ان فى السموات و الأرض آيات للمؤمنين الذين يصدقون بالله و يقرون بتوحيده و صدق أنبيائه و إنما أضاف الآيات إلى المؤمنين و إن كانت أدلة للكافرين أيضاً، لأن المؤمنين انتفعوا بها دون غيرهم من الكفار. و الآيات هى الدلالات و الحجج. و فى السموات و الأرض دلالات على الحق من وجوه كثيرة، منها أنه يدل بخلقها على ان لها خالقاً، و انه قادر لا يعجزه شىء و انه مخالف لها، فلا يشبهها و على انه عالم بما فيها من الإتقان و الانتظام. و فى استحالة تعلق القدرة بها دلالة على ان صانعها قديم غير محدث و بوقوفها مع عظمها و ثقل أجرامها بغير عمد و لا سند يدل على أن القادر عليها قادر على الإتيان بما لا يتناهى و لا يشبه احد من القادرين و انه خارج عن حد الطبيعة.

ثم بين تعالى ان فى خلفنا آيات، و الوجه فى الدلالة فى خلقنا ضروب كثيرة: منها خلق النفس على ما هو به من وضع كل شىء موضعه لما يصلح له. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٨

و فى ذلك دلالة على أن صانعه عالم لأنه فعل الحواس الخمس على البنية التى تصلح له مما يختص كل واحد منها بإدراك شىء بعينه، لا يشركه فيه الآخر، لان العين لا تصلح إلا لأدراك المبصرات و كذلك الفم يصلح للذوق، و الأنف للشم، و البشرة للمس، و كل شىء من ذلك يختص بما لا يشركه فيه الآخر و فى ذلك أوضح دلالة على ان صانعها عالم بها، و أنه لا يشبهه شىء، و لو لم يكن إلا- خلق العقل الذى يهدى إلى كل أمر، و يتميز به العقل من كل حيوان، و لا يشبهه شىء فى جلالته و عظم منزلته لكان فيه كفاية على جلاله صانعه و عظم خالقه. و قيل: معنى اختلاف الليل و النهار تعاقبهما. و قيل: زيادتهما و نقصانهما، و إنزال الماء من السماء من الغيث و المطر و احياء الأرض بالنبات بعد الجذب و القحط فيثبت الله بذلك رزق الحيوان.

و قوله «وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» أى فرق فيها من جميع الحيوان بأن خلقها و أوجدها، و تصریف الرياح بأن يجعلها تارة جنوباً و تارة شمالاً و مرة دبوراً و مرة صباً- فى قول الحسن- و قال قتادة: يجعلها رحمة مرة و عذاباً أخرى. و قال الحسن:

كتافه السماء مسيرة خمسمائة عام و ما بين كل سماء إلى سماء فتق مسيرة خمسمائة عام و بين كل أرضين فتق مسيرة خمسمائة عام، و كتافه الأرض مسيرة خمسمائة عام.

قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٢٤٨

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَى حَيْثُ بَعَدَ اللَّهُ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصَبِّرُ مَسِيْرًا كَبِيرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٤٩

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائى «تؤمنون» بالتاء على وجه الخطاب للكفار على تقدير قل لهم يا محمد. الباقون بالياء على وجه الاخبار عنهم و التعجب منهم.

لما اخبر الله تعالى عن القرآن بأنه تنزيل من الله و أن فى السموات و الأرض آيات و دلالات لمن نظر فيها تدل على الحق و أن فى أنفس الخلق و إنزال الماء من السماء و إخراج النبات و بث انواع الحيوان أدلة لخلقه تدلهم على توحيد الله و حكمته لمن أنعم النظر فيها، بين هاهنا أن ما ذكره أدله الله التى نصبها لخلقه المكلفين لازاحة علتهم و انه يتلوها بمعنى يقرؤها على نبيه محمد ليقراها عليهم

بالحق دون الباطل.

و التلاوة الإتيان بالثاني في أثر الأول في القراءة، فتلاوة الحروف بعضها بعضاً يكون في الكتابة و القراءة، و فلان يتلو فلاناً أى يأتى بعده، و فلان يتلو القرآن أى يقرؤه، و الحق الذى تتلى به الآيات هو كلام مدلوله على ما هو به فى جميع أنواعه. و الفرق بين حديث القرآن و آياته ان حديثه قصص تستخرج منه عبر ندل على الحق من الباطل، و الآيات هى الأدلة التى تفصل بين الصحيح و الفاسد فهو مصروف فى الأمرين ليسلك الناظر فيه الطريقين، لما له فى كل واحد منهما من الفائدة فى القطع بأحد الحالين فى أمور الدين.

ثم قال على وجه التهجين لهم إن هؤلاء الكفار إن لم يصدقوا بما تلوناه فبأى شىء بعده يؤمنون. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٠

ثم قال مهدداً لهم «وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ» فالويل قيل: إنه واد سائل من جهنم صديد أهلها. وقيل: إن الويل كلمة يتلقى بها الكفار و الفساق تتضمن استحقاقهم العقاب، و الأفاك الكذاب و يطلق ذلك على من يكتر كذبه او يعظم كذبه و إن كان فى خبر واحد، ككذب مسيلمه فى ادعاء النبوة. و الأثيم ذو الإثم، و هو صاحب المعصية التى يستحق بها العقاب.

ثم وصف هذا الأفاك الأثيم، فقال «يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ» أى حججه «تُتْلَى عَلَيْهِ» أى تقرأ «ثُمَّ يُصِرُّ» أى يقيم مصراً على كفره «مُسْتَكْبِراً» متجبراً عن النظر فى آيات الله لا ينظر فيها و لا يعتبر بها «كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا» أصلاً.

ثم أمر نبيه صلى الله عليه و آله أن يبشر من هذه صفته فقال «فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» أى مؤلم موجع. ثم عاد تعالى إلى وصفه فقال (وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُوًّا) أى إذا علم هذا الأفاك الأثيم من حجج الله تعالى و أدلته شيئاً و سمعها (اتَّخَذَهَا هُزُوًّا) أى سخر منها و تلهى بها، كما فعل ابو جهل حين سمع قوله (إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ) (١) ثم قال أولئك يعنى من هذه صفته (لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) أى مذل لهم. ثم قال (مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ) أى من بين أيديهم يعنى يوم القيامة (جهنم) معدة لهم و إنما قيل: لما بين أيديهم من ورائهم، و وراء هو الخلف، لأنه يكون مستقبل أوقاتهم بعد تقضيهم و معناه ما توارى عنهم قد يكون قدماً و خلفاً فهو لهذه العلة يصلح فيه الوجهان ثم قال تعالى «وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ» إذا جعلوا فى جهنم ما كسبوه فى دار الدنيا من جمع الأموال و لا شيئاً يغنى عنهم أيضاً (مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ) يتولونهم و يحبونهم لينصروهم و يدفعوا عنهم (وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) و وصفه بأنه عظيم، لأنه مؤبد نعوذ بالله منه.

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥١

قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٢٥١

هذا هُدى و الذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم (١١) الله الذى سيخز لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره و لتبتغوا من فضله و لتعلمن تشكرون (١٢) و سيخز لكم ما فى السماوات و ما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (١٣) قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يزجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون (١٤) من عمل صالحاً فلنفسه و من أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون (١٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و حفص (من رجز اليم) بالرفع جعلاه صفة للعذاب. الباقون بالخفض جعلوه صفة للرجز، فكأن قال: من رجز اليم، و الرجز هو العذاب فلذلك صح وصفه بأنه أليم. و قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائي (لنجزى) قوماً بالنون على وجه الأخبار من الله عن نفسه بأنه يجازيهم. الباقون بالياء رداً إلى (الله) على الاخبار عنه.

معنى قوله (هذا هدى) أى هذا القرآن الذى تلوناه و الكلام الذى ذكرناه (هدى) أى دلالة موصلة إلى الفرق بين ما يستحق به الثواب والعقاب، و يفرق به بين الحق و الباطل من امر الدين و الدنيا. ثم قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَجحدوها «لَهُمْ عَذَابٌ» من عند الله جزاء على كفرهم (مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ). التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٢

ثم نبه تعالى خلقه على وجه الدلالة على توحيده، فقال (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ) و وجه الدلالة من تسخير البحر لتجرى الفلك فيه بأمره، لنبغى بتسخيره من فضل الله، فهو محسن فى فعله يستحق الشكر به على وجه لا- يجوز لغيره، و إن احسن، لأنه أعظم من كل نعمه. و بين انه إنما فعل ذلك لكى يشكروه على نعمه. ثم قال (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) من شمس و قمر و نجم و هواء و غيث و غير ذلك و جعل السماء سقفاً مزيئاً و جوهرًا كريمًا و سخر الأرض للاستقرار عليها و ما يخرج من الأقوات منها من ضروب النبات و الثمار و البر فيها إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من ضروب نعمه مما لا- يحاط به علماً، و سهل الوصول إلى الانتفاع به تفضلاً (منه) على خلقه. ثم بين (إن فى ذلك) يعنى فى ما بينه (لآيات) و دلالات (لقوم يتفكرون) فيه و يعتبرون به.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه و آله (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ) أى لا- يخافون عذاب الله إذا أنالوكم الأذى و المكروه، و لا- يرجون ثوابه بالكف عنكم. و قيل: معناه لا- يرجون ثواب الله للمؤمنين، إن الله يعرفهم عقاب سيئاتهم بما عملوا من ذلك و غيره. و معنى (يغفروا) هاهنا يتركوا مجازاتهم على أذاهم و لا- يكافوهم ليتولى الله مجازاتهم. و قال ابن عباس و قتادة و ابن زيد و الضحاك: هو من المنسوخ. و قال ابو صالح: نسخها قوله (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا) «١» و (يغفروا) جواب أمر محذوف دل عليه الكلام، و تقديره: قل لهم اغفروا يغفروا و صار (قل لهم) على هذا الوجه يغنى عنه. و قال الفراء: معناه فى الأصل حكاية بمتزلة الأمر كقولك: قل للذين آمنوا اغفروا، و إذا ظهر الأمر مصرحاً فهو مجزوم

(١) سورة ٢٢ الحجج آية ٣٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٣

لأنه أمر و إن كان على الخبر مثل قوله (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا) (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) «١» فهذا مجزوم تشبيهاً بالجزاء.

و قوله (لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) يحتمل معنيين:

أحدهما- قل لهم يغفروا لهم، فان الله يجازيهم يعنى الكفار، فإنهم اليه يرجعون.
الثانى- ان يكون المعنى ليجزيهم الله يعنى المؤمنين، و يعظم أجرهم على احتمالهم و صبرهم و لن يفوتوه يعنى الكافرين بل اليه مرجعهم.

ثم قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا) يعنى طاعه و خيراً (فلنفسه) لان ثواب ذلك عائد عليه (وَمَنْ أَسَاءَ) بأن فعل المعصية (فعلها) أى على نفسه لان عقاب معصيته يناله دون غيره. ثم قال (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) الذى خلقكم و دبركم تردون يوم القيامة اليه أى إلى حيث لا يملك أحد الأمر و النهى و الضرر و النفع غيره، فيجازى كل إنسان على قدر علمه.

قوله تعالى: [سورة الباقية (٢٥): الآيات ١٦ إلى ٢٠]..... ص: ٢٥٣

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ

الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)

(١) سورة ١٤ ابراهيم آية ٣١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٤

خمس آيات بلا خلاف.

هذا قسم من الله تعالى بأنه أعطى بنى إسرائيل الكتاب يعنى التوراة و آتاهم الحكم، و هو العلم بالفصل بين الخصمين و بين المحق و المبطل، يقال: حكم فى الامر يحكم حكماً، و حكمته فى أمرى تحكيمياً، و احكم العمل إحكاماً، و استحكم الشئ استحكاماً، و حاكمته إلى الحاكم محاكمته (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) فالرزق العطاء الجارى على توقيت و توظيف فى الحكم، و إنما قلنا فى الحكم، لأنه لو حكم بالعطاء الموقت فى الأوقات الدائرة على الاستمرار لكان رازقاً و إن اقتطعه ظالم عن ذلك العطاء. ثم قال (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) و التفضيل جعل الشئ أفضل من غيره بإعطائه من الخير ما لم يعط غيره أو بالحكم لأنه أفضل منه، فالله تعالى فضل بنى إسرائيل بما أعطاهم على عالمى زمانهم. قال الحسن: فضلهم الله على أهل زمانهم و قال قوم: فضلهم بكثرة الأنبياء منهم على سائر الأمم، و إن كانت أمه محمد صلى الله عليه و آله أفضل فى كثرة المطيعين لله، و كثرة العلماء منهم، كما تقول هذا أفضل فى علم النحو، و ذاك فى علم الفقه، فأمه محمد صلى الله عليه و آله أفضل فى علو منزله نبيها عند الله على سائر الأنبياء، و كثرة العلماء منهم و العاملين بالحق لقوله تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) «١» فأولئك خالف أكثرهم أنبياءهم و وافق كثير من هؤلاء علماءهم و أخذوا عنهم و اقتبسوا من نورهم، و الفضل الخير الزائد على غيره و أمه محمد صلى الله عليه و آله أفضل

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١١٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٥

بفضل نبيها.

ثم قال (و آتيناهم) يعنى أعطيناهم (بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ) أى دلالات و براهين واضحات من الأمر ثم قال (فما اختلفوا) أى لم يختلفوا (إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) فلاختلاف اعتقاد كل واحد من النفيسين ضد ما يعتقده الآخر إذا كان اختلافاً فى المذهب، و قد يكون الاختلاف فى الطريق بأن يذهب أحدهما يمينه، و الآخر يسره، و قد يكون الاختلاف فى المعانى بأن لا يسد أحدهما مسد الآخر فى ما يرجع إلى ذاته. و إختلاف بنى إسرائيل كان فى ما يرجع إلى المذاهب.

و قوله (بغياً بينهم) نصب على المصدر، و يجوز ان يكون على انه مفعول له أى اختلفوا للبغى و طلب الرئاسة. و معنى البغى الاستعلاء بالظلم، و هو خلاف الاستعلاء بالحجة. و البغى يدعو إلى الاختلاف لما فيه من طلب الرفعة بما لا يرجع إلى حقيقة و لا يسوغ فى الحكمة، و إنما كان ذلك طلباً للرئاسة و الامتناع من الانقياد للحق بالانفة، ثم قال (إن ربك) يا محمد (يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أى يحكم و يفصل بين المحق منهم و المبطل فى ما كانوا يختلفون فى دار التكليف، و قيل: الحكم العلم بالفصل بين الناس فى الأمور. ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله (ثم جعلناك) يا محمد (على شريعةٍ مِّنَ الْأَمْرِ) فالشريعة السنة التى من سلك طريقها أدته إلى البغية كالشريعة التى هى طريق إلى الماء، و هى علامة منصوبة على الطريق إلى الجنة كأداء هذا الى الوصول إلى الماء، فالشريعة العلامات المنصوبة من الأمر و النهى المؤدية إلى الجنة، ثم قال (فاتبعها) يعنى اعمل بهذه الشريعة (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) الحق و لا يفصلون بينه و بين الباطل.

ثم اخبر النبى صلى الله عليه و آله فقال (إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) يعنى هؤلاء التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٦

الكفار لا يغنون عنك شيئاً (و إن الظالمين) نفوسهم (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) بفعل المعاصى (وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُتَّقِينَ) الذين يجتنبون معاصيه

و يفعلون طاعاته.

ثم قال (هذا) يعنى هذا الذى ذكرناه (بصائر للناس) أى ما يتبصرون به واحدها بصيرة (و هدى) أى و دلالة واضحة (و رحمة) أى و نعمة من الله عليهم (لقوم يوقنون) بحقيقته ذلك. و إنما اضافته إلى المؤمنين لأنهم الذين انتفعوا به دون الكفار الذين لم يفكروا فيه.

قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢١ إلى ٢٥]..... ص: ٢٥٦

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر (سواء) نصباً، الباقون بالرفع. و قرأ أهل التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٧ الكوفة إلا عاصماً (غشوة) على التوحيد الباقون (غشاوة) على الجمع. من رفع (سواء) جعله مبتدأ و ما بعده خبراً عنه، و يكون الوقف على قوله (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

تاماً. و يجعل الجملة فى موضع النصب، لأنها خبر ل (جعل) و رفع (سواء) لأنه اسم جنس لا يجرى على ما قبله كما لا تجرى الصفة المشبهة بالمشبهة إذا كانت لسبب الاول كذلك نحو قولك: مررت بزيد خير منه أبوه. فمثل هذا فى الحال و الخبر و الصفة سبيله واحد إذا كانت لسبب الاول. و من نصب (محياهم و مماتهم) جعل (سواء) فى موضع (مستو) و عامله تلك المعاملة، فجعل فى موضع المفعول الثانى (أن نجعلهم) و الهاء و الميم المفعول الاول، و إن جعلت (كَالَّذِينَ آمَنُوا) المفعول الثانى نصب (سواء) على الحال و هو وقف حسن.

و يرفع (محياهم) بمعنى استوى محياهم و مماتهم. و من قرأ (غشوة) جعله كالرجفة و الخطفة. و من قرأ (غشاوة) جعله مصدراً مجهولاً و الفعل المرة الواحدة، و قال قوم هما لغتان بمعنى واحد. و حكى الضم أيضاً. و قيل: فى الضمير فى قوله (سواءً مَحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ) قولان:

أحدهما- إنه ضمير للكفار دون الذين آمنوا.

و الثانى- انه ضمير للقبيلين. فمن جعل الضمير للكفار قال (سواء) على هذا القول مرتفع بأنه خبر ابتداء متقدم و تقديره محياهم و مماتهم سواء أى محياهم محيا سواء و مماتهم كذلك، فعلى هذا لا يجوز النصب فى (سواء) لأنه إثبات الخبر بأن محياهم و مماتهم يستويان فى الذم و البعد من رحمة الله. و من قال الضمير يرجع إلى القبيلين قال يجوز ان ينتصب (سواء) على انه مفعول ثان لأنه ملتبس بالقبيلين جميعاً، و ليس كذلك الوجه الاول، لأنه للكفار دون المؤمنين، فلا يلتبس بالمؤمنين حيث كان للكفار دونهم التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٨

يقول الله تعالى على وجه التوبيخ للكفار على معاصيهم بكفرهم بلفظ الاستفهام (أم حسب) و معنى (أم) يحتمل ان تكون الهمزة و تقديره أ حسب الذين اجترحوا السيئات، و الحسابان هو الظن. و قد بيناه فى ما مضى. و الاجتراح الاكتساب اجترح السيئة اجترحاً أى اكتسبها من الجراح، لأن له تأثيراً كئاثراً الجراح.

و مثله الاقتراف، و هو مشتق من قرف القرحة. و السيئة التى يسوء صاحبها، و هى الفعلة القبيحة التى يستحق بها الذم، و الحسنه هى

التي يسر صاحبها باستحقاق المدح بها عليها، و وصفها بهذا يفيد هذا المعنى. و قال الرمانى: القبيح ما ليس للقادر عليه ان يفعله. و الحسن هو ما للقادر عليه أن يفعله قال: و كل فعل وقع لا لأمر من الأمور، فهو لغو لا ينسب إلى الحكمة و لا السفه. و جعل تصيير الشيء على صفة لم يكن عليها، و هو انقلاب الشيء عما كان قادراً عليه. و المعنى أ يظن هؤلاء الكفار المرتكبون للمعاصي الذين اكتسبوا القبائح أن يحكم لهم بحكم المؤمنين المعترفين بتوحيد الله المصدقين لرسله العاملين بطاعته؟! ثم اخبر عن الكفار فقال (سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

أى هم متساوون حال كونهم أحياء و حال كونهم أمواتاً، لأن الحى متى لم يفعل الطاعات فهو بمنزلة الميت و قال مجاهد: المؤمن يموت على إيمانه و يبعث عليه. و الكافر يموت على كفره و يبعث عليه. ثم قال (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) أى بنس الشيء الذى يحكمون به فى هذه القصة. و انما قال (يحكمون) مع ان الحكم مأخوذ من الحكمة، و هى حسنة، لأن المراد على ما يدعون من الحكمة، كما قال (حُجِّتُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ) «١» و قوله (مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٥٩

ثم قال تعالى (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) أى للحق لم يخلقهما عبثاً، و انما خلقهما لمنافع خلقه بأن يكلفهم فيها و يعرضهم للثواب الجزيل (وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) من ثواب طاعة او عقاب على معصية (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) أى لا يبخسون حقوقهم.

ثم قال (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ) يا محمد (إِلَهَهُ هَوَاءً) و انما سمي الهوى إلهاً من حيث أن العاصي يتبع هواه و يرتكب ما يدعوه اليه و لم يريد انه يعبد هواه أو يعتقد أنه يحق له العبادة، لأن ذلك لا يعتقد احد. قال الحسن: معناه اتخذ إلهه بهواه، لأن الله يحب أن يعرف بحجة العقل لا بالهوى. و قال سعيد بن جبير كانوا يعبدون العزى و هو حجر أبيض حيناً من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول و عبدوا الآخر. و قال ابن عباس: معناه أ فرأيت من اتخذ دينه ما يهواه لأنه يتخذه بغير هدى من الله و لا برهان. و قوله (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) معناه حكم الله بضلاله عالماً بعدوله عن الحق. و يحتمل ان يكون المعنى يعدل الله به عن طريق الجنة إلى طريق النار جزاء على فعله، عالماً بأنه يستحق ذلك (وَوَحَّتْ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) و قد فسرناه فى ما مضى. و معناه أنه يجعل عليهما علامة تدل على كفره و ضلاله و استحقاقه للعقاب، لا أنه يفعل فيهما ما يمنع من فعل الايمان و الطاعات (وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً) شبهه بمن كان على عينه غشاوة تمنعه من الأبصار، لان الكافر إذا كان لا ينتفع بما يراه و لا يعتبر به، فكأنه لم يره، ثم قال (فمن يهديه) إلى طريق الجنة او من يحكم بهدايته (من بعد الله) إن حكم الله بخلافه (أ فلا تذكرن) أى أ فلا تتفكرون فتعلمون ان الأمر على ما قلناه.

ثم حكى تعالى عن الكفار أنهم (قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) أى ليس الحياة إلا هذه الحياة التى نحن فيها فى دار الدنيا (نُمُوتُ وَ نَحْيَا) و قيل فى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٠ معناه ثلاثة اقوال:

أحدها- انه على التقديم و التأخير و تقديره و نحيا و نموت من غير رجوع و لا بعث على ما تدعون.

و الثانى- ان يكون المراد نموت و يحيا أولادنا كما يقال ما مات من خلف ابناً مثل فلان و الثالث- ان يكون المعنى يموت بعضنا و يحيا بعضنا، كما قال تعالى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا) أى ليقبل بعضكم بعضاً. ثم حكى انهم يقولون (وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) يعنون مرور الليل و النهار و الشهور و الأعوام ثم اخبر تعالى فقال (وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ) أى ليس لهم بما يقولونه علم (إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) أى و ليس هم فى ما يذكرونه إلا- ظانين و إنما الأمر فيه بخلافه. ثم قال تعالى (وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ) أى إذا قرئت عليهم حججنا الظاهرة (مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا) يعنى لم يكن لهم فى مقابلتها حجة إلا قولهم (اتَّبُوا بِآبَائِنَا) الذين ماتوا و بادوا (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

فى أن الله يعيد الأموات و يبعثهم يوم القيامة. و إنما لم يجبهم الله إلى ذلك، لأنهم قالوا ذلك متعنتين مقترحين لا طالبين الحجة.

قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٢٦٠

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِذُ يُخَسِّرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَ تَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠)

(١) سورة ٢ البقرة آية ٥٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦١

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله (قل) لهم يا محمد (الله يحييكم) فى دار الدنيا، لأنه لا يقدر على الأحياء احد سواه تعالى لأنه قادر لنفسه (ثم يميتكم) بعد هذا (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة) بأن يبعثكم و يعيدكم أحياء، و إنما احتج بالاحياء فى دار الدنيا، لأن من قدر على فعل الحياء فى وقت قدر عليها فى كل وقت. و من عجز عنها فى وقت و تعذرت عليه مع كونه حياً و مع ارتفاع الموانع عجز عنها فى كل وقت. ثم بين أن يوم القيامة (لا ريب فيه) أى لا شك فى كونه (و لكن أكثر الناس لا يعلمون) ما قلناه لعدو لهم عن النظر الموجب للعلم بصحة ذلك. ثم قال تعالى (و لله ملك السماوات و الأرض و يوم تقوم) أى و له الملك يوم تقوم (الساعة يخسر فيه المبطلون) ثواب الله. و المبطل هو من فعل الباطل و عدل عن الحق.

ثم اخبر تعالى عن حال يوم القيامة فقال (و ترى كل أمة جاثية) فالأمة الجماعة التى على مقصد، و اشتقاقه من أمة يؤمه أما إذا قصده، و الأمم أمم الأنبياء (جاثية) و قال مجاهد و الضحاك و ابن زيد: معناه باركة مستوفرة على ركبها و الجثو البروك. و الجثو البروك على طرف الأصابع، فهو ابلغ من الجثو.

وقوله (كل أمة تدعى إلى كتابها) قيل معناه إلى كتابها الذى كان التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٢

يستنسخ لها و يثبت فيه أعمالها. و قال بعضهم: كتابها الذى انزل على رسولها- حكى ذلك عن الجاحظ- و الاول الوجه.

ثم حكى إنه يقال لهم (اليوم تجزؤون ما كنتم تعملون) من طاعة او معصية على الطاعة بالثواب و على المعصية بالعقاب. ثم قال تعالى (هذا كتابنا) يعنى الذى أستنسخ (ينطق عليكم بالحق) جعل ثبوت ما فيه و ظهوره بمنزلة النطق، و إنه ينطق بالحق دون الباطل. ثم قال تعالى «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» قال الحسن: نستنسخ ما حفظت عليكم الملائكة الحفظة. و قيل: الحفظة تستنسخ ما هو مدون عندها من أحوال بنى آدم الجزائية فى قول ابن عباس- و

روى عن على عليه السلام أن لله ملائكة ينزلون فى كل يوم يكتبون فيه أعمال بنى آدم

، و معنى نستنسخ نستكتب الحفظة ما يستحقونه من ثواب و عقاب و نلقى ما عداه مما أثبتته الحفظة، لأنهم يثبتون جميعه.

ثم قسم تعالى الخلق فقال «فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات» أى صدقوا بوحدانيته و صدقوا رسله و عملوا الاعمال الصالحات «فیدخلهم ربهم فى رحمته» من الثواب و الجنة. ثم بين ان «ذلك هو الفوز المبین» أى الفلاح الظاهر.

قوله تعالى: [سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٣١ الى ٣٧]..... ص: ٢٦٢

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا

قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ (٣٢) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا لَهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥)

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٣

سبع آيات بلا خلاف قرأ حمزة وحده «و الساعة لا ريب فيها» نصباً عطفاً على «ان وعده» و تقديره ان وعد الله حق و إن الساعة آتية. الباقون بالرفع على الاسيئاف او عطفاً على موضع (إن).

لما اخبر الله تعالى عن حال المؤمنين العاملين بطاعة الله و انه يدخلهم الجنة أخبر عن حال الكفار، فقال «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» أى جحدوا وحدانيتى و كذبوا رسلى، يقال لهم «أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي» و حججى «تُتْلَى عَلَيْكُمْ» قال الزجاج: جواب (إما) محذوف و الفاء فى «أفلم» دلالة عليه بتقدير فيقال لهم «أفلم» و مثله قوله «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» (١) و تقديره فيقال لهم أ كفرتم بعد إيمانكم. و قال قوم: جواب «إما» الفاء فى «أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي» إلا أن الالف تقدمته، لان لها صدر الكلام.

و قوله (فاستكبرتم) فالاستكبار هو طلب التعظيم فى أعلى المراتب فهو صفه

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٤

ذم فى العباد و كذلك متكبر، لأنها تقتضى التعظيم فى أعلى المراتب، و لا يستحق التعظيم فى على المراتب إلا من لا يجوز عليه صفه النقص بوجه من الوجوه «وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ» أى عاصين، فالاجرام الانقطاع إلى الفساد، و أصله قطع الفعل عما تدعو اليه الحكمة. ثم حكى تعالى انه «إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» أى ما وعدوا به من الثواب و العقاب كائن لا محالة «وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا» أى لا شك فى حصولها «قلتم» معاشر الكفار «مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ» أى لا نعرفها «إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا» ليس نعلم ذلك «وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ» أى لسنا بمستيقين ذلك.

ثم اخبر تعالى فقال «وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا» و معناه ظهر لهم جزاء معاصيهم التى عملوها فى دار التكليف من العقاب «وَحَاقَ بِهِمْ» أى حل بهم جزاء «مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» باخبار الله و اخبار نبيه «وَقِيلَ» لهم «الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ» أى نترككم فى العقاب- فى قول ابن عباس- و نحرملك ثواب الجنة «كَمَا نَسَيْتُمْ» أى كما تركتم التأهب ل «لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا» فلم تعملوا الطاعات و ارتكبتم المعاصى و قال مجاهد: كنسيانكم يومكم «وَمَاوَاكُمُ النَّارُ» أى مستقركم جهنم «وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ» يدفعون عنكم عذاب الله و لا لكم من مستنقذ من عذاب الله. ثم بين تعالى لم فعل بهم ذلك بان قال «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا» يعنى حججه و آياته (هزواً) أى سخرية تسخرون منها «وَعَرَّيْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» أى خدعتكم زينتها و معناه اغتررتم بها، «فَالْيَوْمَ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا» يعنى من النار.

و قرأ اهل الكوفة إلا- عاصماً «يخرجون» بفتح الياء و بضم الراء. الباقون بضم الياء و فتح الراء. و من فتح الياء، فلقوله «يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا» (١) و من ضم فلقوله «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» و طابق بينهما

(١) سورة ٥ المائدة آية ٤٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٥

و معنى «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» أى لا يطلب منهم العتبى و الاعتذار، لان التكليف قد زال. و قيل: معناه لا يقبل منهم العتبى. و قيل: الوجه

فى ظهور أحوالهم و سيئاتهم فى الآخرة التبكيت بها و التقرير بالتكذيب لما كان يمكنهم معرفته لظهور حججه على خلقه. ثم قال تعالى «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أى الشكر التام و المدحة التى لا يوازيها مدحة لله الذى خلق السموات و الأرض و دبرهما و خلق العالمين «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أى له السلطان القاهر و له العظمة العالية التى هى فى أعلى المراتب لا- يستحقها سواه «وَهُوَ الْعَزِيزُ» أى القادر الذى لا- يغالب «الْحَكِيمُ» فى جميع أفعاله. و قيل: (عزيز) فى انتقامه من الكفار (حكيم) فى ما يفعل بهم و بالمؤمنين من الثواب.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٦

٢٦٦- سورة الأحقاف..... ص: ٢٦٦

إشارة

مكية بلا خلاف، و هى خمس و ثلاثون آية فى الكوفى و اربع و ثلاثون فى البصرى و المدنيين عد أهل الكوفة (حم) آية و لم يعده الباقون. و الباقي لا خلاف فيه

[سورة الأحقاف (٢٦٦): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٢٦٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِنِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً أَوْ آثَارَهُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)
خمس آيات فى الكوفى و اربع فى ما عداها عد الكوفى (حم) و لم يعده الباقون.

و قد بينا معنى قوله (حم) و إختلاف العلماء فى ذلك، و بينا أيضاً تأويل قوله «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» فلا وجه لإعادته. و قيل: الوجه فى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٧

تكرير ذلك الابانة عن أن هذه السورة حالها حال السورة التى قبلها فى أنه تعالى نزلها و شرفها و كرمها فى الاضافة إلى العزيز الحكيم. و العزيز القادر الذى لا يغالب و لا يقهر. و قيل هو العزيز فى انتقامه من أعدائه الحكيم فى أفعاله. و قد يكون الحكيم بمعنى العالم بتصرف الأمور الذى لا يوقعها الا على مقتضى العلم فى التدبير و هو صفة مدح، و ضده السفية، و ضد العزيز الذليل. ثم قال تعالى مخبراً إنا «مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ» و معناه إنا لم نخلق السموات و الأرض و ما بينهما إلا بالحق و معناه إنه لم توجد السموات و الأرض و ما بينهما من الأجناس إلا للحق و تعريض الخلق لضروب النعم و تعريض المكلفين للثواب الجزيل و لم نخلقها عبثاً و لا سدى بل عرّضناهم للثواب بفعل الطاعات و زجرناهم بالعقاب عن فعل المعاصى، و قدّرنا لهم اوقات نبعثهم اليها و اوقات نجازيهم فيها «وَأَجَلٍ مُّسَمًّى» أى مذكور للملائكة فى اللوح المحفوظ. ثم قال «وَالَّذِينَ كَفَرُوا» بوحداية الله تعالى و جحدوا ربوبيته «عَمَّا أَنْذَرُوا» به معرضون و عما خوّفوا العمل من خلافه بالعقاب «مُعْرِضُونَ» أى عادلون عن الفكر فيه و الاعتبار به.

ثم قال «قُلْ» يا محمد صلى الله عليه و آله لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام و يدعون مع الله إلهاً آخر «أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» آلهة و توجهون عبادتكم اليها بأى شىء استحقوا ذلك «أَرُونِنِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» فاستحقوا بخلق ذلك العبادة و الشكر «أَمْ

لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ» أى فى خلقها، فإنهم لا يقدرُونَ على ادعاء ذلك.

ثم قال لهم «أَتُؤْنِنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا» يعنى هاتوا بكتاب أنزله الله بدل على صحة قولكم قبل هذا القرآن «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ» يعنى شىء يستخرج منه التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٨

فيثار فيعلم به ما هو منفعة لكم- وهو قول الحسن- وقال مجاهد: معناه او علماً تأثرونه عن غيركم- و يؤدى أثره، و هما لغتان: اثره و اثاره، و منه الحديث المأثور أى المرفوع- يدل على صحة ما تذهبون اليه. و قال ابو بكر و ابن عباس: معناه او بقیة من علم يشهد بصحة قولكم و صدق دعواكم «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فى ما تذكرونه و تذهبون اليه. و يقال: اثر الشىء اثاره مثل قبح قباحة و سمرح سماحة، قال الراعى:

و ذات أثاره أكلت عليه

يعنى ذات بقیة من شحم. ثم قال تعالى «وَمَنْ أَضَلُّ» أى من أضل عن طريق الصواب «مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ» أى يضرع اليه و يوجه عبادته إلى «مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» مع ظهور الدلالة على توحيد الله و وضوح آثار نعمه على خلقه «وَهُمْ» مع ذلك «عَنْ دُعَائِهِمْ» إياهم «غَافِلُونَ» أى ذاهبون عن الفكر فيه، لأنهم لا يعقلون و لا يفقهون. و الغفلة ذهاب المعنى عن نفس العاقل بمعنى يمتنع به إدراكه. و ضده اليقظة، و هو حضور المعنى لنفس العاقل بما يجد إدراكه، و انما كنى عن الأصنام بالواو و النون مع أنها لا تعقل لما أضاف اليها ما يكون من العقلاء، كنى عنها بكناياتهم، كما قال «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» (١) و قوله «كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (٢).

قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٠ الى ١٠]..... ص: ٢٦٨

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بِيَكُمُ إِنِ اتَّبَعِ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٤

(٢) سورة ٣٦ يس آية ٤٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٦٩

خمس آيات بلا خلاف.

لما قال تعالى إنه لا أحد أضل عن طريق الحق ممن يدعو من لا يستجيب له، يعنى الأصنام التى عبدوها و إنهم عن دعائهم غافلون ايضاً، ذكر انه «إِذَا حُشِرَ النَّاسُ» يوم القيامة و بعثهم الله للثواب و العقاب «كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً» يعنى هذه الأوثان التى عبدوها ينطقهم الله حتى يجحدوا أن يكونوا دعو إلى عبادتها او شعرت بذكر من أمرها «وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ» يعنى يكفرون بعبادة الكفار لهم و يجحدون ذلك. ثم وصفهم ايضاً فقال «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ» يعنى هؤلاء الكفار الذين وصفهم «آيَاتُنَا» أى أدلتنا التى أنزلناها من القرآن و نصبناها لهم.

و الآية الدلالة التى تدل على ما يتعجب منه، قال الشاعر:

بآية يقدمون الخيل زوراً كأن على سنانكها مداماً (١)

و يروى مناكبها و «بَيِّنَاتٍ» أى واضحات «قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» بوحداية

(١) مر في ٦/ ٦٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٠

اللَّهُ و جحدوا نعمه «لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ» يعنى القرآن، و المعجزات التى ظهرت على يد النبى صلى الله عليه و آله «هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ» أى حيلة لطيفة ظاهرة، و من اعتقد ان السحر حيلة لطيفة لم يكفر بلا خلاف. و من قال انه معجزة كان كافراً، لأنه لا يمكنه مع هذا القول ان يفرق بين النبى و المتنبي.

ثم قال «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» أى بل يقولون اختلقه و اخترعه فقال الله تعالى له «قل» لهم «إِنْ» كنت (افتريته) و اخترعته (فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) أى ان كان الأمر على ما تقولون إني ساحر و مفتر لا يمكنكم أن تمنعوا الله منى إذا أراد اهلاكى على افترائى عليه (هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ) يقال:

أفاض القوم فى الحديث إذا مضوا فيه، و حديث مستفيض أى شائع، من قولكم هذا سحر و افتراء، ثم قل لهم (كفى به) يعنى بالله (شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ) يشهد للمحق منا و المبطل (وَهُوَ الْغَفُورُ) لذنوب عباده (الرحيم) بكثرة نعمه عليهم. و فى ذلك حث لهم على المبادرة بالتوبة و الرجوع إلى طريق الحق، ثم قال (قل) يا محمد صلى الله عليه و آله (مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ) فالبدع الاول فى الأمر يقال:

هو بدع من قوم أبداع قال عدى بن زيد:

فلا أنا بدع من حوادث تعترى رجالا عرت من بعد بؤس و اسعد (١)

قال ابن عباس و مجاهد و قتادة: معناه ما كنت بأول رسول بعث و قوله (وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) قال الحسن: معناه لا أدري ما يأمرنى الله تعالى فيكم من حرب او سلم او تجعيل عقابكم او تأخير. و قال قل لهم (إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ) أى لست اتبع فى أمركم من حرب او سلم او امر او نهى إلا ما يوحى الله إليّ و يأمرنى به (وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) أى لست إلا مخوفاً من

(١) تفسير الطبرى ٢٦/ ٤ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧١

عقاب الله و محذراً من معاصيه و مرغباً فى طاعاته. و

قيل: إن اصحاب النبى صلى الله عليه و آله شكوا إليه ما يلقون من اهل مكة من الأذى، فقال لهم (إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ إِلَى أَرْضِ ذَاتِ نَخْلٍ وَ شَجَرٍ) ففرحوا بذلك، فلما تأخر ذلك، قالوا:

يا رسول الله ما نرى ما بشرتنا به، فانزل الله الآية.

و قوله (مبين) معناه مظهر لكم الحق فيه.

ثم قال (قل) لهم يا محمد (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) يعنى هذا القرآن (و كفرتم به) يعنى بالقرآن (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاك و الحسن و عون بن مالك الاشجعي صحابى، و ابن زيد: نزلت الآية فى عبد الله بن سلام، و هو الشاهد من بنى إسرائيل، فروى أن عبد الله بن سلام جاء إلى النبى صلى الله عليه و آله و قال: يا رسول الله سل اليهود عنى فهم يقولون هو أعلمنا، فإذا قالوا ذلك قلت لهم إن التوراة دالة على نبوتك و أن صفاتك فيها واضحة، فلما سألهم عن ذلك، قالوا ذلك، فحينئذ اظهر ابن سلام إيمانه و أوقفهم على ذلك، فقالوا هو شرنا و ابن شرنا. و قال الفراء: هو رجل من اليهود.

و قال مسروق: الشاهد من بنى إسرائيل هو موسى عليه السلام شهد على التوراة كما شهد النبى صلى الله عليه و آله على القرآن، قال:

لان السورة مكية و ابن سلام أسلم بالمدينة.

وقوله (فَأَمَّنْ وَاسْتَكْبَرْتَ) عن الايمان و جواب (إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) محذوف. قال الزجاج: تقديره (فَأَمَّنْ وَاسْتَكْبَرْتَ) فلا تؤمنون. وقال غيره تقديره فَأَمَّنْ و استكبرتم إنما تهلكون. و قال الحسن: جوابه فمن أضل منكم. ثم اخبر تعالى فقال (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) و يحتمل أمرين: أحدهما- إنه لا يهديهم إلى الجنة لاستحقاقهم العقاب.

و الثاني- إنه لا يحكم بهداهم لكونهم ضاللا ظالمين. و لا يجوز ان يكون التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٢ المراد لا- يهديهم إلى طريق الحق، لأنه تعالى هدى جميع المكلفين بأن نصب لهم الأدلة على الحق و دعاهم إلى اتباعه و رغبتهم في فعله. و قد قال (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى «١» فبين أنه هداهم إلى الحق و إن اختاروهم الضلال.

قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٢٧٢

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٍ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَزَبِيَّا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ الَّذِي ظَلَمُوا وَبُشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير- في إحدى الروايتين عنه- و نافع و ابو جعفر و ابن عامر

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٣

و يعقوب (لتنذر) بالتاء على وجه الخطاب. و يجوز ان يكون مردوداً إلى اللسان و هو مؤنث. الباقر بالياء على وجه الاخبار عن الكتاب او القرآن. و قرأ اهل الكوفة (إحساناً) بالف. الباقر (حسناً) بضم الحاء بلا ألف. و قرأ ابن كثير و نافع و الكسائي و ابو عمرو (كرهاً) بفتح الكاف. الباقر بضمها، و هما لغتان.

و قرأ يعقوب (و فصله) بفتح الفاء و سكون الصاد من غير الف. الباقر (و فصله) بكسر الفاء و إثبات ألف، و هما لغتان و بإثبات الالف كلام العرب. و في الحديث (لا رضاع بعد فصال) و روى بعد (فطام).

اخبار الله تعالى عن الكفار الذين جحدوا وحدانية الله و كذبوا نبيه محمد صلى الله عليه و آله أنهم قالوا (للذين آمنوا) و صدقوا رسوله (لو كان) هذا الذي يدعوننا هؤلاء المسلمون اليه: محمد و من اتبعه (خيراً) أى نفعاً عاجلاً أو آجلاً يظهر لنا ذلك (ما سبقونا) يعنى الكفار الذين آمنوا به (اليه) أى إلى إتياعه لأننا كنا بذلك أولى و به اخرى، و حكى ان اسلم و غفار و جهينة و مزينة لما اسلموا قال بنو عامر ابن صعصعة و غطفان و اسد و أشجع هذا القول، فحكا الله. و سبق المصير إلى الشىء قبل غيره، و كذلك السابق إلى الخير و التابع فيه، فقال الله تعالى (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ) يعنى هؤلاء الكفار بهذا القرآن و لا استبصروا به و لا حصل لهم العلم بأنه مرسل داع إلى الله (فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٍ) أى كذب متقدم حيث لم يهتدوا به، وصفه بالقديم للمبالغة في التقدم أى ليس أول من ادعى الكذب في ذلك بل قد تقدم أشباهه. و القديم في عرف اللغة هو المتقدم الوجود، و في عرف المتكلمين هو الموجود الذى لا أول لوجوده.

ثم قال تعالى (و من قبله) يعنى من قبل القرآن (كتاب موسى) يعنى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٤
التوراة (إماماً و رحمته) أى جعلناه إماماً و رحمته و أنزلناه إماماً يهتدى به و رحمته أى نعمته على الخلق. ثم قال (و هذا) يعنى القرآن
(كتاب مصدق) لذلك الكتاب (لساناً عربياً) نصبه على الحال، و يجوز ان يكون حالا من هذا الكتاب و يجوز ان يكون حالا لما فى
(مصدق) من الضمير. و قوله (لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى ليخوفهم، و يعلمهم استحقاق العقاب على المعاصى و استحقاق الثواب على
الطاعات.

فمن قرأ بالتاء جاز أن يكون خطاباً للنبي صلى الله عليه و آله و يجوز ان يكون رداً على اللسان على ما قدمناه، و هو مؤنث. و من قرأ
بالياء رده إلى الكتاب الذى هو القرآن.

و قوله (وَبُشِّرِ الْمُنَافِقِينَ) معناه ان يكون هذا القرآن بشاره لمن فعل الصالحات و اختار الحسنات، و يجوز فى (بشرى) ان يكون
رفعاً عطفاً على (مصدق) و يجوز ان يكون نصباً لوقوعه موقع (و بشيراً) فيكون حالا، كما تقول: أتيتك لازورك و كرامه لك و قضاء
لحقك.

ثم اخبر تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا) بلسانهم (رَبُّنَا اللَّهُ) و اعتقدوا ذلك بقلوبهم (ثُمَّ اسْتَيْقَمُوا) على ذلك لم يعدلوا عنه (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)
من العقاب فى الآخرة (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) من أهوال القيامة.

ثم اخبر عنهم فقال (أُولَئِكَ) يعنى من تقدم ذكرهم (أصحاب الجنة) أى الملازمون لها (خَالِدِينَ فِيهَا جزاء) لهم (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
فى الدنيا من الطاعات.

ثم قال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا) أى أمرناه بأن يحسن إلى والديه إحساناً. فمن قرأ بلا الف فالمعنى أن يحسن فعله
معهما حسناً، فالحسن و الحسن. لغتان، يقال: حسن يحسن حسناً و من قرأ «إحساناً» جعله مصدر احسن . و كرهاً بفتح الكاف
المصدر و بضمها الاسم. و قيل هما لغتان. و قوله «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا» قال الحسن و قتاده و مجاهد: أى بمشقة. ثم التبيان
فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٥

قال (وَحَمْلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) نبه بذلك على ما يستحقه الوالدان من الإحسان اليهما و معاملتهما من حيث أنهما تكفلا به و
ربياه، و انه «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا» أى بمشقة فى حال الولادة و أرضعته مدة الرضاع. ثم بين ان أقل مدة الحمل و كمال
مدة الرضاع ثلاثون شهراً، و أنهما تكفلا به حتى بلغ حد الكمال «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سِنًا» قيل اكثر الفصال و اكثر مدة
الرضاع اربعة و عشرون شهراً و اقل مدة الحمل ستة أشهر، و المعنى وصيه بذلك ليكون إذا بلغ أشده أى حال التكليف و حال
الأربعين، قال هذا القول علمه الله إياه. و قال قتاده و ابن عباس: أشده ثلاث و ثلاثون سنة. و قال الشعبي: هو وقت بلوغ الحلم. و قال
الحسن: أشده وقت قيام الحجة عليه. ثم «قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَى وَالِدَيَّ» فالإيزاع المنع من
الانصراف عن الشىء فالإيزاع الشكر المنع من الانصراف عنه باللفظ، و منه قولهم يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. و منه قول
الحسن: لا بد للسلطان من وزعة. قال النابغة:

على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما تصح و الشيب وازع

أى مانع. و قيل: إيزاع الشكر هو الهام الشكر و قيل الاعزاء بالشكر «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ أَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» تمام ما علمه الله للإنسان و وصاه ان يدعو به إذا بلغ أشده: أن يقول: إني تائب الى الله من المعاصى و إني من
جملة المسلمين لأمر الله.

قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٢٧٥

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَغَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَ الَّذِي قَالَ

لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ أ تَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبِئْسَ مَا يَكُونُ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٦

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ «نتقبل، و نتجاوز» بالنون فيهما حمزة و الكسائي و خلف، على وجه الاخبار من الله عن نفسه و لقوله «و وصينا» الباقون بالياء فيهما، على ما لم يسم فاعله. و روى هشام «أ تعداني» بنون مشددة. الباقون بنونين. وقرأ ابن كثير و أهل البصرة و عاصم إلا الكسائي عن أبي بكر و الحلواني عن هشام (و ليوفينهم) بالياء. الباقون بالنون. وقرأ ابن ذكوان و روح (أ أذهبتهم) بهمزتين مخففتين على الاستفهام. وقرأ ابن كثير و أبو جعفر و هشام بتخفيف الاولى و تليين الثانية و فصل بينهما بالف أبو جعفر و الحلواني عن هشام. الباقون بهمزة واحدة على الخبر.

لما أخبر تعالى بما أوصى به الإنسان ان يعمل و يقوله عند بلوغ أشده أخبره بعده بما يستحقه من الثواب إذا فعل ما أمره به تعالى فقال (أولئك) يعنى الذين فعلوا ما وصيائهم به من التائبين المسلمين هم (الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) من قرأ بالنون أضاف الفعل إلى الله و انه أخبر عن نفسه بأنه يفعل بهم. و من التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٧

قرأ بالياء و الضم فيهما لم يذكر الفاعل لأنه معلوم أن المراد به أن الله الذى يتقبل الطاعات و يجازى عليها. و قوله (أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) يعنى ما يستحق به الثواب من الواجبات و المندوبات، لأن المباحات و إن كانت حسنة لا يستحق بها الثواب و لا توصف بأنها متقبلة، لأنه لا يتقبل إلا ما ذكرناه من واجب او ندب.

ثم قال (وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ) التى اقترفوها فلا نؤاخذهم بها إذا تابوا منها أو أردنا أن نتفضل عليهم بإسقاطها. و قوله (فى أصحاب الجنة) أى هم فى أصحاب الجنة (وعد الصدق) أى وعدهم وعد الصدق لا الكذب، فهو نصب على المصدر (الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) به فى دار الدنيا إذا أطاعوا الله.

ثم أخبر تعالى عن حال (الذى قال) أى الذى يقول (لوالديه أف لكما) و معناه أنه فى موضع ضجر منهما، و قيل: معناه نتنا و قدراً لكما، كما يقال عند شم الرائحة الكريهة. و قال الحسن: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث و انه يتأفف بهما إذا دعوا إلى الإقرار بالبعث و النشور. و قال قوم: نزلت الآية فى عبد الرحمن بن أبى بكر قبل ان يسلم.

ثم بين أنه يقول لهما (أ تَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ) من القبر و أحيا و ابعث (وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي) أى مضت امم قبلى و ماتوا فما أخرجوا و لا أعيدوا و هما يعنى والديه (يستغيثان الله) و يقولان له (وَبِئْسَ مَا يَكُونُ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أى ليس هذا إلا أخبار الأولين و سطورها، و ليس لها حقيقة، فقال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) باستحقاق العقاب و إدخالهم النار (فى أمم) أى مع أمم و جماعات (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) على مثل حالهم و مثل اعتقادهم. و قال قتادة: قال الحسن: الجن لا يموتون، قال قتادة: التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٨

فقلت (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ...) الآية تدل على خلافه، و يجوز ان يكون الحسن أراد انهم لا يموتون فى دار الدنيا و يبقون إلى وقت قيام الساعة.

ثم يميتهم الله كما ان ذلك سبيل كل خلق من الملائكة.

ثم قال تعالى مخبراً عن حالهم (إنهم) يعنى الذين وصفهم (كانوا قوماً خاسرين) فى أمورهم، لأنهم خسروا الثواب الدائم و حصل لهم العقاب المؤبد.

ثم قال (وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا) أى لكل مطيع درجات ثواب، وإن تفاضلوا فى مقاديرها.

وقوله (وَلِيُوفِيَهُمْ) من قرأ بالياء معناه ليوفيههم الله. و من قرأ بالنون فعلى وجه الاخبار من الله عن نفسه انه يوفيههم ثواب أعمالهم من الطاعات «وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ» أى من غير ان ينقص منه شيئاً.

ثم قال تعالى (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ) يعنى يوم القيامة (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) أى يقال لهم على وجه التهجين والتوبيخ (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ) أى أنفقتم ذلك فى ملاذ الدنيا، و فى معاصى الله، و لم تستعملوها فى طاعاته. فمن خفف الهمزتين أراد بالف الاستفهام التوبيخ. و من لين الثانية كره الجمع بين الهمزتين. و من قرأ على الخبر، فعلى تقدير يقال لهم (أَذْهَبْتُمْ) أو يكون حذف أحدهما تخفيفاً و يكون المحذوفة الاصلية، لان همزة الاستفهام ادخلت لمعنى.

وقوله (و استمتعتم بها) يعنى بالطيبات. ثم حكى ما يقال لهم بعد ذلك فانه يقال لهم (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) يعنى عذاب الهوان - فى قول مجاهد (بِمَا كُنْتُمْ تَشْتَكِبُونَ فِي الْأَرْضِ) أى جزاء بما كنتم تطلبون التكبر و التجبر على الناس (بغير الحق) أى بغير استحقاق (وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) أى تخرجون التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٧٩
من طاعة الله الى معاصيه.

قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٢٧٩

وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّجُومُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتْلُوَ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)
خمس آيات بلا خلاف.

قرأ عاصم و حمزة و خلف (لا- يرى) بالياء مضمومة، على ما لم يسم فاعله (إلا مساكنهم) برفع النون. الباقون - بالتاء - و نصب النون. من ضم الياء فعلى ما لم يسم فاعله. و من فتح التاء، فعلى الخطاب، و المعنيان متقاربان.
يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله (و اذكر) يا محمد (أخا عاد) يعنى هوداً عليه السلام (إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ) أى خوفهم من الكفر بالله و حذرهم معاصيه و دعاهم إلى طاعته (بالأحقاف) قال ابن عباس: هو واد بين عمان و مهوة، و قال ابن إسحاق: الأحقاف الرمل فى ما بين عمان إلى حضرموت. و قال قتادة: الأحقاف رمال التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٠
مشرفة على البحر بالشجر من اليمن، و قال الحسن: الأحقاف أرض خلالها رمال.
و قال الضحاك: جبل بالشام يسمى بذلك، قال العجاج:

بات إلى اربطات حقف أحقفا «١» أى رمل مشرف، و قال ابن زيد: الحقف الرمل يكون كهيئته الجبل.

و قال المبرد: الحقف هو كتيب المكثر غير العظيم و فيه اعوجاج، قال العجاج:

سماوة الهلال حتى احقوقفا «٢» و هو انحناءه. و قوله (وَقَدْ خَلَتْ النُّجُومُ) أى مضت الرسل (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) أى قدامه و ورائه (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) أى أنذرهم و خوفهم بان لا- تعبدا إلا- الله. و قال لهم (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) يعنى عذاب يوم القيامة.

ثم حكى ما أجاب به قومه و انهم (قَالُوا أَجِئْنَا) يا هود (لنأتفكنا) أى لتلفتنا و تصرفنا (عن) عبادة (آلهتنا) بالكذب و الافك (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) من العذاب (إِنْ كُنْتَ صَادِقًا) (من الصادقين) فانا لا نصدقك فى ما تقول، فقال هود لهم (إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ) يريد العلم بوقت إنزال العذاب بكم عند الله، و هو العالم به و لا أعلمه مفصلاً (وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ) أى أودى إليكم ما بعث به إليكم من الدعاء

إلى عبادة الله و إخلاص القرية اليه، فلست أراكم تقبلون ذلك (وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) أى تفعلون ما يفعله الجاهل. وقوله «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ» معناه فلما رأوا العذاب و شاهدوه أطل عليهم «قَالُوا هَذَا عَارِضٌ» أى سحاب «ممطرنا» و العارض المار بمعنى انه

(١) تفسير القرطبي ٢٠٣/١٦ و مجاز القرآن ٢١٣/٢ و الطبرى ١٥/٢٦

(٢) تفسير القرطبي ٢٠٣/١٦ و قد مر فى ٧٩/٦ و ٢٩/٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٨١

لا يلبث من خير أو شر، فلما رأوا العارض ظنوا انه عارض خير بالمطر، فقل لهم ليس الأمر كما ظننتم «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ» أى هو عارض من العذاب الذى استعجلتموه و طلبتموه مكذبين به، و قال (عارض) نكرة و (ممطرنا) معرفة، و إنما وصفه به لان التقدير ممطر إيانا، كقولك: مررت برجل مثلك أى مثل لك ثم فسر فقل «هو ريح فيه عذاب عظيم» أى مؤلم، وسمى السحاب عارضاً، لأخذه فى عرض السماء، و قال الأعشى:

يا من رأى عارضاً قد بت أرمقه كأنما البرق فى حافاته الشعل «١»

و قيل: كانت الريح ترفع الظعينة بحملها حتى ترى كأنها جراد- فى قول عمرو بن ميمون- و قوله تعالى «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ» أى تخرب و تلقى بعض الأشياء على بعض حتى تهلك، قال جرير:

و كان لهم كبكر ثمود لما رغا ظهراً فدمرهم دماراً «٢»

و قوله «فَأَصْبَحُوا» يعنى اهل الأحقاف «لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ» و ما عداها قد هلك. فمن فتح التاء نصب النون من (مساكينهم) على وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله. و من ضم الياء ضم النون و تقديره فأصبحوا لا يرى شىء فى مساكينهم و قرأ الحسن بالتاء و الضم. و قال النحويون: القراءة بالياء ضعيفة فى العربية، لأن العرب تذكر ما قبل (الا) فى الجحد، فتقول: ما قام إلا أختك، لان المحذوف (أحد) و تقديره ما قام احد إلا أختك قامت.

ثم قال تعالى مثل ما أهلكنا اهل الأحقاف و جازيناهم بالعذاب «كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» الذين سلكوا مسلكهم.

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٤٦

(٢) تفسير الطبرى ١٦/٢٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٢

قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٦ الى ٣٠] ص: ٢٨٢

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيْمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيْهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَ صَيَّرْنَا آيَاتٍ لَّعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) وَ إِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠)

خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى على وجه القسم في خبره أنه مكن هؤلاء الكفار الذين اخبر عنهم بأنه اهلكهم انه مكنهم من الطاعات و من جميع ما أمرهم به من انه جعلهم قادرين متمكين بنصب الدلالة على توحيدهم، و مكنهم من النظر فيها، و رغبتهم في ذلك بما ضمن لهم من الثواب و زجرهم عما يستحق به العقاب، و لطف لهم و أراح علمهم في جميع ذلك، لان التمكين عبارة عن فعل جميع ما لا يتم الفعل إلا معه، ثم قال «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا» يسمعون به الادلة «وَأَبْصَارًا» يشاهدون بها الآيات «وَأَفْئِدَةً» يفكرون بها و يعتبرون بالنظر فيها «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمُ التَّيْبَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ج ٩، ص: ٢٨٣

وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ»

أى لم ينفعهم جميع ذلك، لأنهم لم يعتبروا بها و لا فكروا فيها «إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» و أدلته «وَحَاقَ بِهِمْ» أى حل بهم عذاب «مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» و يسخرون منه.

و قوله «فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ» قال ابن عباس و قتادة: معناه فى ما لم نمكنكم فيه. و قال المبرد: (ما) الاولى بمعنى (الذى) و (إن) بمعنى (ما) و تقديره فى الذى ما مكناكم، و المراد بالآية و عيد كفار قريش و تهديدهم و أن الله قد مكن قوم عاد بما لم يمكن هؤلاء منه، من عظيم القوة و شدة البطش و القدرة على جميع ما يطلبونه، و أنهم مع تمكينهم لم ينفعهم ذلك لما نزل بهم عذاب الله حين كفروا به و جحدوا ربوبيته و لم يغنهم جميع ذلك.

ثم قال «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ يَعْنَىٰ قَوْمَ هُودٍ وَصَالِحٍ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِبِلَادِ الْعَرَبِ وَبِلَادِهِمْ حَوْلَ بِلَادِهِمْ، فَإِذَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَعتَبَرُوا بِهِمْ «وَصَيَّرْنَا الْآيَاتِ» و تصريف الآيات تصييرها فى الجهات و تصريف الشئ تصديره فى الجهات، و تصريف المعنى تصديره تارة مع هذا الشئ و تارة مع ذلك، و تصريف الآيات تصييرها تارة فى الاعجاز و تارة فى الإهلاك، و تارة فى التذكير بالنعم و تارة فى وصف الأبرار، و تارة فى وصف الفجار، ليجتنب مثل فعلهم «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أى لكى يرجعوا إلى طاعته.

ثم قال «فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً» و معناه فهلا نصرهم الذين اتخذوا آلهة من دون الله من الأصنام، توبيخاً لهم على فعلهم و اعلاماً بأن من لا يقدر على نصره أوليائه كيف تصح عبادته «قُرْبَانًا آلِهَةً» أى يقربون اليهم قرباناً و سموها آلهة.

ثم قال لم ينصروهم «بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ» و أخبر أن «ذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا التَّيْبَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ج ٩، ص: ٢٨٤

يَقْتَرُونَ»

أى كذبهم الذى كذبوه، و الذى كانوا يفترونه، و يخترعونه.

ثم قال لنبه صلى الله عليه و آله و اذكر يا محمد «إِذْ صَيَّرْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ» يعنى القرآن او النبى «قَالُوا» بعضهم لبعض «أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ» أى حين فرغ من تلاوته «وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ» لهم مخوفين من معاصى الله. و قال قوم: إن الله تعالى أمر نبيه ان يقرأ القرآن على الجن، و أمره بأن يدعوهم إلى عبادته. و قال قوم: هم يسمعون من قبل نفوسهم لقراءة القرآن فلما رجعوا «قَالُوا» لقومهم «يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» يعنى التوراة «يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ» أى يرشد اليه «و يَهْدِي إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ» من توحيد الله و معرفته نبيه المؤدى إلى الجنة. و قال ابن عباس و سعيد ابن جبیر: صرفوا اليه بالرجم بالشهب، فقالوا عند ذلك إن هذا الأمر كبير.

و قال قتادة: صرفوا اليه من جهة. و فى رواية عن ابن عباس من نصيبين. و قيل:

ان نصيبين من أرض اليمن. و قال رزين بن حبیش: كانوا تسعة نفر، و قال ابن عباس: كانوا سبعة نفر. و قال قوم: صرفوا اليه بالتوفيق.

قوله تعالى: [سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٣١ إلى ٣٥]..... ص: ٢٨٤

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يَجْزِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَ مَنِ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي

الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يُومَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٥

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ يعقوب «يقدر» بالياء جعله فعلا مستقبلا. الباقون - بالباء - اسم فاعل.

لما حكى الله تعالى أن نفراً من الجن استمعوا القرآن و تدبروه و رجعوا به إلى قومهم مخوفين لهم من معاصي الله و أنهم قالوا إنا سمعنا كتاباً يعني القرآن انزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يعني التوراة يهدي إلى الحق و إلى طريق مستقيم، حكى أنهم قالوا أيضاً «يا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ» يعنون محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ إذ دعاهم إلى توحيده و خلع الأنداد دونه، و قال قوم: يجوز أن يكون المراد كل من دعا إلى الله تعالى. و الاجابة موافقة الفعل الدعاء اليه بأنه عمل من أجله، و لهذا لا تكون موافقة الكافر - و إن كان إذا دعا به - إجابة له إذ لم يعمل من أجل دعائه اليه، و إنما عمل لأمر آخر. و على هذا قال بعضهم: إنه لا يجب الله دعاء الكافر لان فيه إجلالا له كما لا يعمل شيئاً لأن فيه مفسدة.

فان قيل: لو ان الكافر دعا إلى حق هل تلزم اجابته؟

قلنا: يجب العمل بما يدعو اليه، و لا تلزم إجابته، و إنما يجب العمل به، لأنه حق. و قيل: يجوز إجابته إذا لم يكن فيه مفسدة. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٦

و قالوا لهم «آمِنُوا بِهِ» أى آمِنُوا بِاللَّهِ «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» (من) زائده، و المعنى يغفر لكم ذنوبكم «وَيَجْزُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» فالاجارة من النار جعلهم فى جوار الأولياء المباعدين من النار. و فى الدعاء: اللهم أجرني من النار و اللهم أعذني منها. ثم قالوا أيضاً «وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ» تاركاً له إلى خلافه «فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ» أى بفائت «فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ» ينصرونهم و يدفعون عنهم العذاب إذا نزل بهم، و يجوز ان يكون ذلك من كلام الله ابتداء. ثم قال «أُولَئِكَ» يعنى الذين لا يجيبون داعى الله «فِي ضَلَالٍ» أى فى عدول عن الحق «مُبِينٍ».

ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته على الاعداء و البعث «أَوْ لَمْ يَرَوْا» أى او لم يعلموا «أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» و انشأهما «وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ» أى لم يصبه فى خلق ذلك إعياء و لا تعب «بقادر» فالباء زائدة و موضعه رفع بأنه خبر (أن) و دخول الباء فى خبر (ان) جائز إذا كان أول الكلام نفياً نحو ما ظننت أن زيداً بقائم و لو قلت: إن زيداً بقائم لا يجوز، لأنه إثبات «على أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى» ثم قال «بلى» هو قادر عليه «إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ثم قال «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ» أى يقال لهم على وجه الاحتجاج عليهم أليس هذا الذى جزيتم به حق لا ظلم فيه لأنكم شاهدتموه الآن «قَالُوا بلى وَ رَبَّنَا» فيحلفون على ذلك، فيقال لهم عند ذلك «فَذُوقُوا الْعَذَابَ» جزاء «بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» أى بما كنتم تجحدون من نعمه و تنكرون من وحدانيته ثم قال لنبىه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ «فاصبر» يا محمد على أذى هؤلاء الكفار على ترك إجابتهم لك «كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» قبلك على أممهم. و قال قوم: أولوا العزم التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٧

هم الذين يثبتون على عقد القيام بالواجب و اجتناب المحارم، فعلى هذا الأنبياء كلهم أولوا العزم، و من قال ذلك جعل (من) هاهنا للتبيين لا للتبعيض. و من قال: إن أولى العزم طائفة من الرسل و هم قوم مخصوصون قال (من) هاهنا للتبعيض و هو الظاهر فى روايات أصحابنا، و أقوال المفسرين، و يريدون بأولى العزم من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدم من الأنبياء، قالوا و هم خمسة أولهم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ.

ثم قال «وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» العقاب «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ» من يوم القيامة لقرب مجيئه «لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ» من قلة لبثهم في الدنيا.

وقوله «بلاغ» قيل في معناه قولان:

أحدهما- ذلك اللبث بلاغ. والآخر- هذا القرآن بلاغ.

ثم قال «فَهَلْ يُهْلَكُ» بهذا النوع من الإهلاك على وجه الاستحقاق «إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ» الذين خرجوا من طاعة الله إلى معصيته و من ولايته إلى عداوته.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٨

٢٨٨- سورة محمد صلى الله عليه وآله..... ص: ٢٨٨

إشارة

هي مدينة كلها إلا آية واحدة قال ابن عباس و قتادة: فالآية الواحدة نزلت حين خرج النبي صلى الله عليه وآله من مكة و جعل ينظر إلى البيت، و هو يبكي حزناً عليه فنزل قوله «وَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَوْمِكِ الَّتِي أَخْرَجْتِكِ...» الآية و هي ثمان و ثلاثون آية في الكوفي و تسع و ثلاثون في المدنيين و أربعون في البصري.

[سورة محمد (٢٨٨): الآيات ١ إلى ٥]..... ص: ٢٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَنتَحَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعِيدٌ وَإِمَّا فِتْدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٨٩

خمس آيات كوفي و ست في ما عداه.

قرأ أهل البصرة و حفص عن عاصم «وَالَّذِينَ قُتِلُوا» على ما لم يسم فاعله بضم القاف و كسر التاء. الباقون «قاتلوا» بألف من المفاعلة. و قرئ شاذاً «قاتلوا» بفتح القاف و تشديد التاء. من قرأ بألف كان أعم فائدة، لأنه يدخل فيه من قتل. و من قرأ بغير الف لم يدخل في قراءته القاتل الذي لم يقتل و كلاهما لم يضل الله أعمالهم، فهو أكثر فائدة. و من قرأ بغير الف خص هذه الآية بمن قتل. و قال: علم أن الله لم يضل أعمال من قاتل بديل آخر و لأن من قاتل لم يضل عمله بشرط ألا يحبط عند من قال بالإحباط، و ليس من قتل كذلك، لأنه لا يضل الله أعمالهم على وجه بلا شرط، و لأنه لا يقتل إلا وقد قاتل فصار معناهما واحداً.

قال مجاهد عن ابن عباس إن قوله «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» نزلت في أهل مكة. و قوله «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» في الأنصار.

يقول الله تعالى مخبراً بأن الذين جحدوا توحيد الله و عبدوا معه غيره و كذبوا محمداً نبيه صلى الله عليه وآله في الذي جاء به و صدوا من أراد عبادة الله و الإقرار بتوحيده و تصديق نبيه عن الدين، و منعه من الإسلام «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» و معناه حكم الله على

أعمالهم بالضلال عن الحق والعدل من الاستقامة و سماها بذلك لأنها عملت على غير هدى و غير رشاد. و الصد عن سبيل الله هو الصرف عن سبيل الله بالنهي عنه و المنع منه. و الترغيب في خلافه، و كل ذلك صد، فهؤلاء كفروا في أنفسهم و دعوا التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٠

غيرهم إلى مثل كفرهم. و الضلال الإهلاك حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل، و ليس في الآية ما يدل على القول بصحة الإحباط إذا حملناها على ما قلناه. و من قال بالتحابط بين المستحقين لا بد ان يترك ظاهر الآية.

ثم قال «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» يعنى صدقوا بتوحيد الله و الإقرار بنبوة نبيه و أضافوا إلى ذلك الاعمال الصالحات «و آمَنُوا بما انزل على محمد» من القرآن و العبادات و غيرها «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» الذى لا مريء فيه «كفر الله عنهم سيئاتهم» و قوله «وَهُوَ الْحَقُّ» يعنى القرآن- على ما قاله قوم- و قال آخرون إيمانهم بالله و بالنبي صلى الله عليه و آله «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» أى بلطفه لهم فيه و حثه عليه و أمره به. و معنى تكفير السيئات هو الحكم بإسقاط المستحق عليها من العقاب، فأخبر تعالى انه متى فعل المكلف الايمان بالله و التصديق لنبه أسقط عقاب معاصيه حتى يصير بمنزلة ما لم يفعل. و قوله «وَأَصْلَحَ بِالْحَقِّ» قال قتادة:

معناه و أصلح حالهم فى معاشهم و أمر دنياهم. و قال مجاهد: و أصلح شأنهم، و البال لا يجمع، لأنه أبهم أخواته من الحال و الشأن. ثم بين تعالى لم فعل ذلك و لم قسمهم هذين القسمين فقال «ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» فعلنا ذلك بهم و حكمنا بإبطال أعمالهم جزاء على انهم «اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ» و المعاصى، و فعلنا بالمؤمنين من تكفير سيئاتهم لأنهم «اتَّبَعُوا الْحَقَّ» الذى أمر الله باتباعه. و قيل الباطل هو الشيطان- هاهنا- و الحق هو القرآن، و يجوز ان يكون التقدير الامر بذلك، و حذف الابتداء.

ثم قال تعالى (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) أى هؤلاء الذين حكمنا بهلاكهم و ضلالهم بمنزلة من دعاه الباطل فاتبعه، و المؤمن بمنزلة من دعاه الحق من الله فاتبعه و يكون التقدير يضرب الله للناس صفات أعمالهم بأن بينها و بين ما يستحق التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٩١

عليها من ثواب و عقاب.

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال (فَإِذَا لَقِيتُمْ) معاشر المؤمنين «الذين كفروا» بالله و جحدوا ربوبيته من أهل دار الحرب (فَضْرَبَ الرُّقَابِ) و معناه اضربوهم على الرقاب، و هى الاعناق (حَتَّى إِذَا أَثْقَتُمُوهُمْ) أى اثقلتموهم بالجراح و ظفرتهم بهم (فَشُدُّوا الوثَاقَ) و معناه احكموا وثاقهم فى الأمر. ثم قال (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) و معناه اثقالها.

و قوله (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ) نصب على المصدر و التقدير إما أن تمنوا مناً و إما أن تفدوا فداء و قال قتادة و ابن جريج: الآية منسوخة بقوله (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) «١» و قوله (فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ) «٢» و قال ابن عباس و الضحاك: الفداء منسوخ. و قال ابن عمر و الحسن و عطا و عمر ابن عبد العزيز: ليست منسوخة. و قال الحسن يكره أن يفادى بالمال، و يقال يفادى الرجل بالرجل، و قال قوم: ليست منسوخة، و الامام مخير بين الفداء و المن و القتل بدلالة الآيات الاخر (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) أى اثقالها، و قال قتادة: حتى لا يكون مشرك. و قال الحسن: إن شاء الامام أن يستفد الأسير من المشركين، فله ذلك بالسنة، و الذى رواه أصحابنا ان الأسير إن أخذ قبل انقضاء الحرب و القتال بأن تكون الحرب قائمة و القتال باق، فالإمام مخير بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف و يتركهم حتى ينزفوا، و ليس له المن و لا الفداء. و إن كان أخذ بعد وضع الحرب أوزارها و انقضاء الحرب و القتال كان مخيراً بين المن و المفادات. إما بالمال او النفس، و بين الاسترقاق، و ضرب الرقاب، فان أسلموا فى الحاليين سقط جميع ذلك و صار حكمه حكم المسلم.

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦

(٢) سورة ٨ الانفال آية ٥٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٢

وقوله (ذلك) أى الذى حكمنا به هو الحق الذى يجب عليكم إتباعه (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْتَصِرَ مِنْهُمْ) و أهلكهم بانزال العذاب عليهم (وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ) و يختبرهم و يتعبدهم بقتالهم إن لم يؤمنوا. ثم اخبر تعالى أن (الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ) قال قتادة هم الذين قتلوا يوم احد. و من قرأ (قاتلوا) أراد قاتلوا سواء قتلوا او لم يقتلوا لن يهلك الله أعمالهم و لا يحكم بضلالهم و عدولهم عن الحق. ثم قال (سيهديهم) يعنى إلى طريق الجنة (و يصلح بالهم) أى شأنهم او حالهم، و ليس فى ذلك تكرار البال، لان المعنى يختلف، لان المراد بالأول انه يصلح حالهم فى الدين و الدنيا و بالثانى يصلح حالهم فى النعيم، فالأول سبب النعيم، و الثانى نفس النعيم.

قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٢٩٢

وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَها لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصِرُوا اللَّهَ يَنْصِرْكُمْ وَ يَثْبُتْ أَقْدَامُكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكَافِرِينَ أَمَثَالُهَا (١٠)

خمس آيات بلا خلاف.

لما اخبر الله تعالى انه سيهدى المؤمنين إلى طريق الجنة، و يصلح حالهم فيها، بين أنه ايضاً (يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَها لَهُمْ) و قيل فى معنى (عرفها لهم) قولان:

أحدهما- بانه عرفها لهم بان وصفها على ما يشوق اليها، ليعملوا بما يستوجبونها التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٣

به من طاعة الله و اجتناب معاصيه.

و الثانى- عرفها لهم بمعنى طيها بضروب الملاذ، مشتقاً من العرف، و هى الرائحة الطيبة التى تتقبلها النفس تقبل ما تعرفه و لا تنكره. و قال ابو سعيد الخدرى و قتادة و مجاهد و ابن زيد: معناه انهم يعرفون منازلهم فيها كما كانوا يعرفون منازلهم فى الدنيا. و قال الحسن: وصف الجنة فى الدنيا لهم، فلما دخلوها عرفوها بصفتها.

ثم خاطب المؤمنين فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بتوحيد الله و صدقوا رسوله (إِن تَنْصِرُوا اللَّهَ يَنْصِرْكُمْ) و معناه إن تنصروا دينه بالدعاء اليه، و اضافته إلى نفسه تعظيماً كما قال (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسِينًا) «١» و قيل معناه (تنصروا الله) تدفعوا عن نبيه (ينصركم) الله، أى يدفع عنكم أعداءكم فى الدنيا عاجلاً، و عذاب النار آجلاً (وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) فى حال الحرب. قيل: و يثبت أقدامكم يوم الحساب.

ثم قال (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) بنعم الله و جحدوا نبوه نبيه (فتعسا لهم) أى خزياً لهم و ويلاً- لهم، فالتعس الانحطاط و العثار عن منازل المؤمنين (وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى أهلكها و حكم عليها بالضلال. و إنما كرر قوله (وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) و (فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ) تأكيداً، و مبالغة فى الزجر عن الكفر و المعاصى و كرر ذكر النعيم إذا ذكر المؤمنين مبالغة فى الترغيب فى الطاعات. و إنما عطف قوله (وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) على قوله (فتعسا) و هو اسم، لأن المعنى أتعسهم الله و أضل أعمالهم فلذلك حسن العطف.

ثم بين تعالى لم فعل ذلك، فقال فعلنا (ذلك) جزاء لهم على معاصيهم (بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ) من القرآن و الأحكام و أمرهم بالانقياد لها، فخالقوا

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥ و سورة ٥٧ الحديد آية ١١

ذلك (فَأَخْبِطْ أَعْمَالَهُمْ) من أجل ذلك أى حكم بطلانها، لأنها وقعت على خلاف الوجه المأمور به.

ثم نبههم على الاستدلال على صحة ما دعاهم اليه من توحيده وإخلاص العبادة له، فقال (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) حين أرسل الله اليهم الرسل فدعوههم إلى توحيده وإخلاص العبادة له، فلم يقبلوا منهم وعصوهم و عملوا بخلافه، فأهلكهم الله جزاء على ذلك (و دمر عليهم) مثل ما فعل بعاد و ثمود و قوم لوط و أشباههم. ثم قال (و للكافرين) بك يا محمد إن لم يقبلوا ما تدعوهم اليه (أمثالها) أى أمثال تلك العقوبات أى هم يستحقون مثلها، و إنما يؤخر عذابهم تفضلاً منه.

قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ١١ الى ١٥] ص: ٢٩٤

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٥

ست آيات بصرى، و خمس فى ما عداه، عد البصريون (للشاربين) و لم يعده الباقون.

قرأ ابن كثير (أسن) على وزن (فعل). الباقون على وزن (فاعل) و معناهما واحد، لان المعنى من ماء غير متغير.

لما اخبر الله تعالى انه اهلك الأمم الماضية بكفرهم و أن للكافرين أمثالها بين أنه لم كان كذلك؟ فقال (ذلك) أى الذى فعلناه فى الفريقين (بأن الله مولى الذين آمنوا) ينصرهم و يدفع عنهم لأن الله مولى كل مؤمن (و أن الكافرين لا مولى لهم) ينصرهم من عذابه إذا نزل بهم و لا أحد يدفع عنهم لا عاجلاً و لا آجلاً.

ثم اخبر تعالى انه (يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا) بتوحيده و صدقوا نبيه (و عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) مضافه اليها (جنت) أى بساتين تجننها الأشجار (تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) و قيل: ان أنهار الجنة فى أخاديد من الأرض، فلذلك قال من تحتها.

ثم قال (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) بتوحيده و كذبوا رسله (يتمتمعون) فى دار الدنيا و يلتذون فيها (و يأكلون) المأكّل فيها (كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ) أى مثل ما تأكل الانعام و البهائم، لأنهم لا يعتبرون و لا ينظرون و لا يفكرون و لا يفعلون ما أوجه الله عليهم، فهم بمنزلة البهائم. و قيل: إن المعنى بذلك الاخبار عن خستهم فى أكلهم بأنهم يأكلون للشره و النهم، لأنهم جهال. ثم قال (وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) أى موضع مقامهم الذى يقيمون فيه.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه و آله مهدداً لكفار قومه (و كَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ التَّبْيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ج ٩، ص: ٢٩٦ قَرْيَتِكَ)

يعنى مكة (الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) الآن فما الذى يؤمن هؤلاء أن يفعل بهم مثل ذلك. و معنى (و كَأَيُّنَ) (و كم) و الأصل فيها (أى) قرية إلا أنها إذا لم تضاف تؤنث. ثم قال على وجه التهجين للكفار و التوبيخ لهم (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) أى حجة واضحة. قال قتادة: يعنى محمداً صلى الله عليه و آله.

و قال قوم: يعنى به المؤمنين الذين عرفوا الله تعالى و أخلصوا العبادة (كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ) من المعاصى زينها لهم الشيطان و اغواهم بها (و اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) أى شهواتهم فى ذلك، و ما تدعوهم اليه طبايعهم.

ثم اخبر تعالى عن وصف الجنة التى وعد المتقين بها، فقال (مثل الجنة) أى وصف الجنة (الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ) بها (فيها أنهار من ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ) أى غير متغير لطول المقام (و أنهار من لبنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) لمثل ذلك (و أنهار من خمرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) يلتذون بشربها و لا

يتأذون بها ولا يعاقبتها (وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَيَّفٍ) من كل أذى (وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ) تلحقهم أى لا يلحقهم فى الجنة توبيح بشيء من معاصيهم، لان الله قد تفضل بسترها عليهم فصارت بمنزلة ما لم يعمل بابطال حكمها.

وقوله (مثل الجنة) مرفوع بالابتداء، وخبره محذوف، وتقديره ما يتلى عليكم مثل الجنة التى وعد المتقون، ولو جعل المثل مقحماً جاء الخبر المذكور عن الجنة كأنه قيل الجنة التى وعد المتقون فيها كذا وفيها كذا.

وقوله (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ) أى يتساوى من له نعيم الجنة على ما وصفناه ومن هو فى النار مؤبداً؟! ومع ذلك (سُقُوا مَاءً حَمِيمًا) أى حاراً (فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) من حرارتها، ولم يقل أمن هو فى الجنة لدلالة قوله (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ) عليه. وقيل: معنى قوله (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ) فى النار وسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٧

أَمْعَاءَهُمْ)

أى هل يكون صفتها وحالهما سواء؟! و يتماثلان فيه؟! فانه لا يكون ذلك أبداً.

قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٢٩٧

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنْبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير فى احدى الروايتين (أنفأ) على وزن (فعل) الباقون (آنفاً) بالمد على وزن (فاعل) قال ابو على الفارسي: جعل ابن كثير ذلك مثل (حاذر، وحذر. وفاكه، وفكه) والوجه الرواية الأخرى.

حكى الله تعالى لنبه صلى الله عليه وآله أن من الكفار من إذا جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله واستمع التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٨

لقراءة القرآن منه وسمع ما يؤديه إلى الحق من الوحي وما يدعوه اليه، فلا يصغى اليه ولا ينتفع به حتى إذا خرج من عنده لم يدر ما سمعه ولا فهمه، ويسألون أهل العلم الذين آتاهم الله العلم والفهم من المؤمنين (ما ذا قال آنفاً) أى شىء قال الساعة؟ وقيل: معناه قريباً مبتدياً. وقيل: إنهم كانوا يسمعون للخطبة يوم الجمعة وهم المنافقون، والآنف الجائى بأول المعنى ومنه الاستئناف، وهو استقبال الأمر بأول المعنى، ومنه الأنف لأنه أول ما يبدو من صاحبه، ومنه الأنفة رفع النفس عن أول الدخول فى الرتبة. وإنما قال (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) فرده إلى لفظه (من) وهى موحدة. ثم قال (حَتَّى إِذَا خَرَجُوا) بلفظ الجمع برده إلى المعنى، لان (من) يقع على الواحد والجماعة.

ثم قال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) أى وسم قلوبهم وجعل عليها علامة تدل على أنهم كفار لا يؤمنون، وهو كالختم وإن صاحبه لا يؤمن فطبع الله على قلوب هؤلاء الكفار ذمًا لهم على كفرهم أى لكونهم عادلين عن الحق واخبر أنهم (اتبعوا) فى ذلك (أهواءهم) وهو شهوة نفوسهم وما مال اليه طبعهم دون ما قامت عليه الحجة يقال: هوى يهوى هوى فهو هاو، واستهواه هذا الأمر أى دعاه إلى الهوى.

ثم وصف تعالى المؤمنين فقال (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا) إلى الحق، ووصلوا إلى الهدى والايمان (زادهم هدى) فالضمير فى زادهم يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها- زادهم الله هدى بما ينزل عليهم من الآيات والأحكام، فإذا أقرأوها بها وعرفوها زادت معارفهم.

الثاني- زادهم ما قال النبي صلى الله عليه وآله هدى.

الثالث- زادهم استهزاء المنافقين إيماناً. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٩٩

و الوجه في إضافة الزيادة في الهدى إلى الله هو ما يفعله تعالى بهم من اللطاف التي تقوى دواعيهم إلى التمسك بما عرفوه من الحق و تصرفهم عن العدول إلى خلافه. و يكون ذلك تأكيداً لما عملوه من الحق و صارفاً لهم عن تقليد الرؤساء من غير حجة و لا دالة. ثم قال (و آتاهم) على زيادة الهدى (تقواهم) أى خوفاً من الله من معاصيه و من ترك مفترضاته بما فعل بهم من اللطاف في ذلك. و قيل معناه (آتاهم) ثواب (تقواهم) و لا يجوز ان يكون المراد خلق لهم تقواهم لأنه يبطل أن يكون فعلهم.

ثم قال (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ) أى ليس ينتظرون إلا القيامة (أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً) أى فجأة، فقله (أَنْ تَأْتِيَهُمْ) بدل من الساعة، و تقديره إلا- الساعة إتيانها بغتة، فان حذف الساعة كان التقدير هل ينظرون إلا إتيانهم الساعة بغتة. ثم قال تعالى (فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا) أى علاماتها. و قيل: منها انشقاق القمر في وقت النبي صلى الله عليه وآله و منها مجيء محمد صلى الله عليه وآله بالآيات لأنه آخر الأنبياء، فالأشراط العلامات واحدا شرط قال جرير:

ترى شرط المعزى مهور نسائم و فى شرط المعزى لهن مهور «١»

و أشراط فلان لنفسه إذا علمها بعلامه، و قال أوس بن حجر:

فاشروط فيها نفسه و هو مقصم و القى بأسباب له و توكل «٢»

و الفاء في قوله (فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا) عطف جملة على جملة فيها معنى الجزاء، و التقدير إن تأتيهم بغتة، فقد جاء أشراطها. و قد قرئ شاذاً عن أبي عمرو (إلا- إن) و القراءة بفتح (أن) و قال المبرد: هذا لا يجوز لأنه تعالى أخبر انه لا تأتي الساعة إلا بغتة، فكيف تعلق بشرط؟ و قال تعالى (فَأَنى لَهُمْ) أى من اين لهم (إذا

(١) الطبرى ٢٦ / ٣٠

(٢) الطبرى ٢٦ / ٣١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٠

جاءتهم) يعنى الساعة (ذكرهم) أى ما يذكرهم أعمالهم من خير او شر، فانه لا ينفعهم في ذلك الوقت الايمان و الطاعات لزوال التكليف عنهم.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله و المراد به جميع المكلفين (فاعلم) يا محمد (أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أى لا معبود يحق له العبادة إلا الله. و في ذلك دالة على ان المعرفة بالله اكتساب، لأنها لو كانت ضرورية، لما أمر بها (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) فالخطاب له و المراد به الأمة لأنه صلى الله عليه وآله لا ذنب له يستغفر منه، و يجوز ان يكون ذلك على وجه الانقطاع اليه تعالى.

ثم قال (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) أى الموضع الذى تتقلبون فيه و كيف تتقلبون و موضع استقراركم، لا- يخفى عليه شىء من أعمالكم طاعة كانت او معصية.

و قيل: يعلم منقلبكم فى أسفاركم و مثواكم فى أوطانكم، و قيل: متقلبكم فى أعمالكم و مثواكم فى نومكم.

ثم قال تعالى حكاية عن المؤمنين أنهم كانوا يقولون (لَوْ لَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ) أى هلا- نزلت سورة لأنهم كانوا يأنسون بنزول الوحي و يستوحشون من إبطائه فقال الله تعالى حاكياً عن حالهم عند نزول السورة فقال (فَإِذَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ) أى ليس فيها متشابه و لا تأويل (وَذِكْرٌ فِيهَا الْقِتَالِ) أى أوجب عليهم القتال (رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أى نفاق و شك (يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) لثقل ذلك عليهم و عظمه فى نفوسهم (فَأُولَىٰ لَهُمْ) قال قتادة: هو وعيد، و كأنه قال العقاب أولى بهم، و هو ما يقتضيه قبح

أحوالهم.

و روى عن ابن عباس، انه قال: قال الله تعالى (فأولى) ثم استأنف فقال (لَهُمْ طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ) يعنى للمؤمنين فصارت أولى للذين فى قلوبهم مرض.

وقيل: المعنى (فَأُولَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ) من أن يجزوا عن فرض الجهاد التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٠١ عليهم. وقال الجبائى: معنى الكلام ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم أن يعاقبوا (فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ) فى ما أمرهم به (لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) ودخل بين الكلامين (طَاعِيَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ) وليس من قصته وإنما هى من صفة المؤمن يأمره الله أن يطيعه، و يقول له قولاً معروفاً. و قرأ ابن مسعود «سورة محدثة» و هو شاذ.

قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ٢١ الى ٢٥].... ص: ٣٠١

طَاعِيَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلَى لَهُمْ (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو «و أملى لهم» على ما لم يسم فاعله. الباقون «و أملى لهم» بمعنى الشيطان أملى لهم و يجوز أن يريد ان الله أملى لهم كما قال «إِنَّمَا تُمْلَى لَهُمْ لِيُذَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ» «١» و قرأ يعقوب مثل أبى عمرو إلا انه أسكن الياء بمعنى الاخبار عن الله عن نفسه و أبو عمرو جعله لما لم يسم فاعله. و قرأ رويس «توليتهم» بضم التاء و الواو و كسر اللام. الباقون بفتحهما. و قوله «طَاعِيَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ» قيل فى معناه قولان:

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٢

أحدهما- قولوا أمرنا طاعة و قول معروف. قال مجاهد أمر الله بذلك المنافقين. و قيل هو حكاية عنهم أنهم يقولون «طَاعِيَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ» مثل فرض الجهاد. لأنه يقتضيه قوله «فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ».

الثانى- طاعة و قول معروف أمثل أى أولى بالحق من أقوال هؤلاء المنافقين و قيل: طاعة و قول معروف خير لهم من جزعهم عند نزول فرض الجهاد- ذكره الحسن- و الطاعة موافقة الارادة الداعية إلى الفعل بطريق الترغيب فيه. و القول المعروف هو القول الحسن، وسمى بذلك لأنه معروف صحته، و كذلك الأمر بالمعروف أى المعروف أنه حق. و الباطل منكر، لأنه تنكر صحته، فعلى هذا المعنى وقع الاعتراف و الإنكار.

و قوله «فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ» معناه إذا انعقد الأمر بالارادة انه يفعله فإذا عقد على انه يفعل قيل عزم الأمر على طريق البلاغة، و قيل معنى عزم أى جد الأمر (فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ) يعنى فى ما أمرهم به من القتال و امتثلوا أمره (لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) لأنهم كانوا يصلون إلى نعيم الأبد.

ثم خاطبهم فقال «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» يا معشر المنافقين أن توليتهم، و قيل فى معناه قولان:

أحدهما- «إِنْ تَوَلَّيْتُمْ» الأحكام و جعلتم ولاء «أَنْ تُفْسِدُوا» فى الأرض بأخذ الرشا. و قيل أن أعرضتم عن كتاب الله ان تعودوا إلى ما كنتم من أمر الجاهلية أن يقتل بعضكم بعضاً كما كنتم تفعلونه.

و الثانى- ان وليتم الأمر أن يقطع بعضكم رحم بعض، و يقتل بعضكم بعضاً كما قتلت قريش بنى هاشم. و قتل بعضهم بعضاً. و قيل المعنى ان أعرضتم عن كتاب الله و العمل بما فيه من وجوب القتال «أَنْ تُفْسِدُوا فى الْأَرْضِ» بان التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص:

تعملوا فيها بالمعاصي «وَتُقَطَّعُوا أَرْحَامُكُمْ» فلا تصلونها، فان الله تعالى يعاقبكم عليه بعذاب الأبد و يلعنكم. ثم قال «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ» أى أبعدهم الله عن رحمته «فَأَصَيْمَهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ» أى ساهم عمياً و صماً، و حكم عليهم بذلك، لأنهم بمنزلة الصم و العمى من حيث لم يهتدوا إلى الحق و لا أبصروا الرشد، و لم يرد الاصمام فى الجارحة و الاعماء فى العين، لأنهم كانوا بخلافه صحيحى العين صحيحى السمع.

ثم قال موبخاً لهم «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» معناه أفلا يتدبرون القرآن بأن يتفكروا فيه و يعتبروا به أم على قلوبهم قفل يمنعهم من ذلك تنبيهاً لهم على ان الأمر بخلافه. و ليس عليها ما يمنع من التدبر و التفكير و التدبر فى النظر فى موجب الأمر و عاقبته، و على هذا دعاهم الى تدبر القرآن.

و فى ذلك حجة على بطلان قول من بقول لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر و سمع. و فيه تنبيه على بطلان قول الجهال من اصحاب الحديث انه ينبغى ان يروى الحديث على ما جاء و إن كان مختلاً فى المعنى، لأن الله تعالى دعا إلى التدبر و التفقه و ذلك مناف للتجاهل و التعامى.

ثم قال «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ» أى رجعوا عن الحق و الايمان «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى» أى ظهر لهم الطريق الواضح المفضى إلى الجنة.

و ليس فى ذلك ما يدل على ان المؤمن على الحقيقة يجوز ان يرتد، لأنه لا يمتنع ان يكون المراد من رجع عن إظهار الايمان بعد وضوح الأمر فيه و قيام الحجة بصحته.

ثم قال «الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ» أى زين لهم ذلك. و قيل: معناه أعطاهم سؤالهم من خطاياهم «وَأَمْلَى لَهُمْ» أى أمهلهم الشيطان، و أملى لهم بالاطماع و الاغترار. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٤

و قيل: المعنى و املى الله لهم أى اخرهم فاغترروا بذلك. و من قرأ- على ما لم يسم فاعله- احتمل الامرين ايضاً. و قيل الآية نزلت فى اليهود، لأنهم عرفوا صفات النبى صلى الله عليه و آله فى التوراة فلما جاءهم كفروا به. و قيل نزلت فى المنافقين حين صدوا عن القتال معه من بعد ما علموا وجوبه فى القرآن.

قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٣٠٤

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَشْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر «إسرارهم» بكسر الهمزة على انه مصدر.

الباقون بفتحها على انه جمع سر.

لما اخبر الله تعالى عن حال المرتدين على أعقابهم و الراجعين عن إظهار الحق خلافه، بين لم فعلوا ذلك، فقال «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ» يعنى الشياطين «قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ» من القرآن و ما أمرهم به من الأمر و النهى و الحلال و الحرام التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٥

و شبهوا عليهم ذلك و مالوا إلى خلافه. و قيل: هذا قول اليهود للمنافقين «سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ» أى نفعل بعض ما تريدونه من الميل إليكم و إعطاء شهواتكم.

ثم قال «وَاللَّهُ يَغْلَمُ إِشْرَارَهُمْ» أى بواطنهم - فمن فتح الهمزة، و من كسرهما - أراد يعلم ما يسرونه. ثم قال «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ» والمعنى كيف حالهم إذا توفتهم الملائكة و حذف تفخيماً لشأن ما ينزل بهم «يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ» على وجه العقوبة لهم فى القبر و يوم القيامة.

ثم بين تعالى لم يفعل الملائكة بهم ذلك، فقال «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَشَیْخَطَ اللَّهُ» يعنى المعاصى التى يكرهها الله و يعاقب عليها «وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ» أى كرهوا سبب رضوانه من الايمان و الطاعات و الامتناع من القبائح «فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ» أى حكم بأنها باطله محبطة لا يستحق عليها الثواب.

ثم قال «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أى نفاق و شك يظنون «أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ» أى أحقادهم مع المؤمنين و لا يظهرها و لا - يبدى عوراتهم للنبي صلى الله عليه و آله «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ» يعنى المنافقين بأعيانهم، و لو شئت لعرفتكم حتى تعرفهم. ثم قال «فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ» أى بعلاماتهم التى نصبها الله لكم، يعرفهم بها يعنى الامارات الدالة على سوء نياتهم. ثم قال «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» أى فى فحوى أقوالهم و متضمنها. و منه قوله صلى الله عليه و آله (و لعل بعضكم ألحن بحجته)

أى أذهب بها فى الجهات لقوته على تصريح الكلام، و اللحن الذهاب عن الصواب فى الاعراب، و اللحن ذهاب الكلام إلى خلاف جهته. ثم قال «وَاللَّهُ يَغْلَمُ أَعْمَالَكُمْ» الطاعات منها و المعاصى، فيجازيكم بحسبها.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٦

قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ٣١ الى ٣٥]..... ص: ٣٠٦

وَلَتَبْلُوكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَحْبُطُ أَعْمَالُهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابو بكر عن عاصم «و ليبلونكم حتى يعلم.... و يبلو أخباركم» بالياء فيهن رداً على اسم الله فى قوله «وَاللَّهُ يَغْلَمُ أَعْمَالَكُمْ» الباقون بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه. وقرأ حمزة و ابو بكر عن عاصم «إلى السلم» بكسر السين. الباقون بفتحها، و هما لغتان على ما ببناء فى ما تقدم فى الإسلام و المصالحة ١» يقول الله تعالى مقسماً إنا نبلو هؤلاء الكفار، و معناه نختبرهم بما نكلفهم من الأمور الشاقة، فالابتلا و الاختبار واحد. و قوله «حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ» قيل فى معناه قولان: أحدهما - حتى نعلم جهادكم موجوداً لأن الغرض ان تفعلوا الجهاد فيثيبكم

(١) انظر ٥ / ١٧٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٧

على ذلك، لأنكم لا تستحقون الثواب على ما يعلم الله انه يكون.

الثانى - حتى نعاملكم معاملته من كانه يطلب ان يعلم.

وقيل: معناه حتى يعلم أوليائى المجاهدين منكم، و أضافه إلى نفسه تعظيماً لهم و تشريفاً، كما قال «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»

«١» يعنى يؤذون أولياء الله. و قيل:

معناه حتى يتميز المعلوم في نفسه، لأنهم إنما يتميزون بفعل الايمان. وقيل: المعنى حتى تعلموا أنتم، و اضافه إلى نفسه تحسناً كما أن الإنسان العالم إذا خولف في ان النار تحرق الحطب يحسن ان يقول: نجمع بين النار و الحطب لنعلم هل تحرق ام لا، و لا يجوز ان يكون المراد حتى نعلم بعد ان لم نكن عالمين، لأنه تعالى عالم في ما لم يزل بالأشياء كلها، و لو تجدد كونه عالمًا لاحتاج إلى علم محدث كالواحد منا و ذلك لا يجوز أن يكون غرضاً بالتكليف، لكن يجوز ان يكون الغرض ظهور حق الذم على الاساءة، و إنما جاز في وصف الله الابتلاء، لأن المعنى انه يعامل معاملته المبتلى المختبر مظهرة في العدل بالجزاء لها. و الجهاد احتمال المشقة في قتال المشركين و اعداء دين الله. و أفضل الأعمال علم الدين، و الجهاد في سبيل الله، لأن علم الدين به يصح العمل بالحق و الدعاء اليه. و الجهاد داع إلى الحق مع المشقة فيه. و الصابر هو الحابس نفسه عما لا يحل له، و هي صفة مدح. و مع ذلك ففيها دليل على حاجة الموصوف بها، لأنه إنما يحبس نفسه و يمنعها مما تشتهيه او تنازع اليه من القبيح «وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ» أى نخبر اخباركم و نعلم المطيع من العاصي.

ثم اخبر تعالى «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» بوحداثيته و جحدوا نبوة نبيه «و صدوا» أى منعوا غيرهم «عن» إتباع «سَبِيلِ اللَّهِ» بالقهر تارة و بالإغراء أخرى «و شَاقُّوا الرَّسُولَ» أى عاندوه و باعدوه بمعاداته «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى وَ وَضَحَ لَهُمُ

(١) سورة ٣٣ الأحزاب آية ٥٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٨

سبيله «لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ» بذلك «شَيْئًا» و إنما ضروا نفوسهم «و سَيُحِبُّ أَعْمَالَهُمْ» و يستحقون عليها العقاب. و الهدى الدلالة المؤدية إلى الحق. و الهادى الدال على الحق و فى الآية دلالة على أن هؤلاء الكفار كان قد تبين لهم الهدى فارتدوا عنه او يكون ظهر لهم أمر النبى، فلم يقبلوه. و قيل: تبين لهم الهدى، لأنهم كانوا قد عرفوا الايمان و رجعوا عنه.

ثم خاطب المؤمنين فقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» بالله و صدقوا رسوله «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» أى افعلوا الطاعات التى أمركم الله بها و أمركم بها رسوله «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» بأن توقعوها على خلاف الوجه المأمور به فيبطل ثوابكم عليها و تستحقون العقاب.

ثم اخبر تعالى فقال «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» أى جحدوا وحادثوا الله و كذبوا رسوله «وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» بالمنع و الإغراء و الدعاء إلى غيره «ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ» أى فى حال كفرهم «فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» معاصيهم بل يعاقبهم عليها. ثم قال «فَلَا تَهْنُوا» أى لا تتوانوا. و قال مجاهد و ابن زيد: لا تضعفوا «وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ» يعنى المصلحة «وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ» أى و أنتم القاهرون الغالبون- فى قول مجاهد- «وَاللَّهُ مَعَكُمْ» أى ناصركم و الدافع عنكم فلا- تملوا مع ذلك إلى الصلح و المسالمة بل جاهدوا و اصبروا عليه. و قوله «وَلَنْ يَتْرُكَنَّ أَعْمَالَكُمْ» أى لن ينقصكم أجور أعمالكم يقال: و تره يتره و تراً إذا أنقصه. و هو قول مجاهد. و قال ابن عباس و قتادة و ابن زيد و الضحاك: لن يظلمكم و أصله القطع، فمنه البتر القطع بالقتل. و منه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره. و قوله «وَتَدْعُوا» يجوز ان يكون جراً عطفاً على «تهنوا» أى لا تهنوا و لا تدعوا إلى السلم، و يجوز ان يكون فى موضع نصب على الظرف «١»

(١) المقصود من (الظرف) و او المعصية الذى تضر (ان) بعدها [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٠٩

قوله تعالى: [سورة محمد (٤٧): الآيات ٣٦ إلى ٣٨] ص: ٣٠٩

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ إِنِ تَوَمَّنَا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ (٣٦) إِنِ يَسْئَلْكُمْهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُتَنَفِّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَ مَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ

وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)

ثلاث آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مزهداً لخلقه في الانعكاف على الدنيا، و مرغباً لهم في التوفر على عمل الآخرة (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ) و إنما زهدهم في الدنيا لكونها فانية و رغبتهم في الآخرة لكونها باقية، فمن اختار الفاني على الباقي كان جاهلاً و منقوصاً و معنى (الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ) أى ذات لعب و لهو، لأن غالب أمر الناس في الدنيا اللعب و اللهو، و ذلك عبث و غرور و انصراف عن الحد الذي يدوم به السرور و الجور، و قيل: شبهت باللعب و اللهو لانقطاعها عن صاحبها بسرعة، فالتقدير على هذا إنما الحياة الدنيا كاللعب و اللهو في سرعته الانقضاء، و الآخرة كالحقيقة في اللزوم و الامتداد، فإحداهما كالحقيقة، و الأخرى كالمخرفة. ثم قال (و إن تؤمنوا) بوحدايته و تصديق رسوله (و تتقوا) معاصيه (يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ) على ذلك و ثوابكم على طاعتكم (وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ) أن تدفعوها إليه. و قيل لا- يسألكم أموالكم كلها و إن أوجب عليكم الزكاة في بعض أموالكم. و قيل المعنى لا يسألكم أموالكم بل أمواله، لأنه تعالى مالكمها و المنعم بها. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١٠

ثم بين تعالى لم لا يسألهم أموالهم، فقال (إِنْ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالُهُمْ فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَصْغَانَكُمْ) فالإحفاء الإلحاح في المسألة حتى ينتهي إلى مثل الحفاء، و المشى بغير حذاء، أحفاء بالمسألة يخفيه إحفاء. و قيل الإحفاء طلب الجميع (تبخلوا) أى تمنعونه. و البخل قال قوم: هو منع الواجب. و قال الرماني: البخل منع النفع الذي هو أولى في العقل، قال: و من زعم أن البخل منع الواجب عورض بأن البخل منع ما يستحق بمنعه الذم، لأن البخيل مذموم بلا خلاف، و قد يمنع الواجب الصغير فلا يجوز وصفه بأنه بخيل (و يُخْرِجْ أَصْغَانَكُمْ) لأن في سؤال الأموال بالإحفاء خروج الاضغان و هى الأحقاد التى فى القلوب و العداوات الباطنة. و قيل (الاضغان) هى المشاق التى فى القلوب، و لذلك ذكر الإخراج. و قيل: و يخرج الله المشقة التى فى قلوبكم بسؤال أموالكم. و إنما قدم المخاطب على الغائب فى قوله (أَنْ يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَهُمْ) لأنه ابتداء بالأقرب مع انه المفعول الاول، و يجوز مع الظاهر أن يسألها جماعتكم، لأنه غائب مع غائب، فالمتصل أولى بأن يليه من المنفصل.

ثم قال (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ) و إنما كرر التنبيه فى موضعين للتوكيد، فقال (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ) و قيل (ها) للتقريب، و دخل على المضممر لمشاكله (اليهم) فى انه معرفته تصلح صيغته لكل مكنى عنه على جهة جماعة المخاطب، كما يصلح (هؤلاء) لكل خاص مشار اليه، و لم يجز مع الظاهر لبعده من المبهم. و قال بعضهم: العرب إذا زادت التقريب جعلت المكنى بين (ها) و بين (ذا)، فيقولون ما أنت ذا قائماً، لأن التقريب جواب الكلام فربما أعادت (ها) مع (ذا) و ربما اجتزأت بالأولى و حذفت الثانية، و لا يقدمون (أنتم) على (ها) لأن (ها) جواب، فلا يقرب بها بعد الكلمة. و قوله (تَدْعُونَ لِتُقْفُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) لينيلكم الجزيل من ثوابه و هو غنى عنكم و عن جميع خلقه (فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ) فلا ينفق ماله فى سبيل الله. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١١

ثم قال (وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ) أى عن داعى نفسه، لا عن داعى ربه لأن الله قد صرفه عن البخل بالنهى عنه و الذم له. ثم قال (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ) الذى ليس بمحتاج لا- إليكم و لا- إلى احد (و أنتم الفقراء اليه و إن تتولوا) أى ان تعرضوا عن أمره و نهيه و لا تقبلونهما، و لا تعملون بما فيهما (يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) قال قوم يستبدل الله بهم من فى المعلوم أنهم يخلقون بعد، و يجوز أن يكونوا من الملائكة و قيل: هم قوم من اليمن، و هم الأنصار. و قيل: مثل سلمان و أشباهه من أبناء فارس، و لم يجز الزجاج أن يستبدل الملائكة، لأنه لا- يعبر بالقوم عن الملائكة، لا يكونوا أمثالكم، لأنهم يكونون مؤمنين مطيعين، و أنتم كفار عاصون. و قال الطبرى لا يكونوا أمثالكم فى البخل و الإنفاق فى سبيل الله، و

لما نزلت هذه الآية فرح النبى صلى الله عليه و آله و قال: هى أحب إلى من الدنيا.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١٢

إشارة

مدينة بلا خلاف و هي تسع و عشرون آية بلا خلاف.

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٣١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)
 لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥)
 خمس آيات.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) قال البلخي: الفتح يكون في القتال و بالصلح، و باقامة الحجج، و يكون المعنى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ) بحجج الله و آياته (فَتْحًا مُبِينًا) لينصرك الله بذلك على من ناواك. و قال قتادة: نزلت التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١٣

هذه الآية عند رجوع النبي صلى الله عليه و آله من الحديبية، بشر في ذلك الوقت بفتح مكة، و تقديره (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ) مكة. و قال البلخي عن الشعبي في وقت الحديبية بويح النبي صلى الله عليه و آله بيعه الرضوان، و أطعموا نخيل خيبر، و ظهرت الروم على فارس، و بلغ الهدى محله. و الحديبية بئر، فروى انها غارت فمج النبي صلى الله عليه و آله فيها فظهر ماؤها حتى امتلأت به.

و قال قتادة: معنى (فتحننا) قضينا لك بالنصر. و قيل: معناه أعلمناك علماً ظاهراً في ما أنزلناه عليك من القرآن و أخبرناك به من الدين، و سمى العلم فتحاً، كما قال (وَ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ) (١) أى علم الغيب. و قال (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ) (٢) و قال الزجاج: معناه أرشدناك إلى الإسلام، و فتحنا لك الدين بدلالة قوله (لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ وَ يُتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ) (٣) و قال مجاهد (فَتْحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) يعنى نصره بالحديبية و حلقه. و قال قتادة: معناه قضينا لك قضاء بيناً. و فى الحديبية مضمض رسول الله صلى الله عليه و آله فى البئر و قد غارت فجاشت بالرواء. و الفتح هو القضاء من قولهم:

اللهم أفتح لى. و قوله تعالى (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) (٤) و الفتح الفرج المزيل للهم. و منه فتح المسألة إذا انفرجت عن بيان ما يؤدى إلى المطلوب، و منه فتح عليه القراءة، لأنه متعلق بالسهو، و يفتح بالذكر و الفتح المبين هو الظاهر، و كذلك جرى فتح مكة.

و قوله (لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ) قيل جعل غفرانه جزاء عن ثوابه على جهاده فى فتح مكة. و قيل فى معناه اقوال:

(١) سورة ٦ الانعام آية ٥٩

(٢) سورة ٨ الانفال آية ١٩

(٣) سورة ٣٣ الأحزاب آية ٧٣

(٤) سورة ٧ الاعراف آية ٨٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١٤

أحدها- ما تقدم من معاصيك قبل النبوة و ما تأخر عنها.

الثاني- ما تقدم قبل الفتح و ما تأخر عنه.

الثالث- ما قد وقع منك و ما لم يقع على طريق الوعد بأنه يغفره له إذا كان.

الرابع- ما تقدم من ذنب أبيك آدم، و ما تأخر عنه.

و هذه الوجوه كلها لا تجوز عندنا، لأن الأنبياء عليه السلام لا يجوز عليهم فعل شيء من القبيح لا قبل النبوة و لا بعدها، لا صغيرها و لا كبيرها فلا يمكن حمل الآية على شيء مما قالوه، و لا صرفها إلى آدم لأن الكلام فيه كالكلام في نبينا محمد صلى الله عليه و آله و من حمل الآية على الصغائر التي تقع محبطة فقله فاسد، لأننا قد بينا أن شيئاً من القبائح لا يجوز عليهم بحال. على أن الصغائر تقع مكفرة محبطة لا يثبت عقابها، فكيف يمتن الله تعالى على النبي صلى الله عليه و آله أنه يغفرها له و هو تعالى لو آخذه بها لكان ظالماً و إنما يصح التمدح بما له المؤاخذه أو العفو عنه، فإذا غفر استحق بذلك الشكر. و للآية وجهان من التأويل:

أحدهما- ليغفر لك ما تقدم من ذنب أمتك. ما تأخر بشفاعتك و لمكانك.

و أضاف الذنب إلى النبي و أراد به أمته، كما قال (وَسَيَلِ الْقَرْيَةَ) «١» يريد أهل القرية فحذف المضاف و أقام المضاف إليه مقامه و ذلك جائر لقيام الدلالة عليه، كما قال (وَجَاءَ رَبُّكَ) «٢» و المراد و جاء أمر ربك.

الثاني- أراد يغفر ما أذنبه قومك اليك من صدهم لك عن الدخول إلى مكة في سنة الحديبية، فأزال الله ذلك و ستر عليك تلك الوصمة بما فتح عليك من مكة و دخلتها في ما بعد، و لذلك جعله جزاء على جهاده في الدخول إلى مكة. و الذنب مصدر تارة يضاف إلى الفاعل و تارة إلى المفعول، فيكون- هاهنا- مضافاً

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٨٢

(٢) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١٥

إلى المفعول. و الذنب و إن كان غير متعدي إلى مفعول جاز أن يحمل على المصدر الذي هو في معناه، و الصد متعدي كما قال الشاعر:

جئني بمثل بنى بدر لقومهم أو مثل اسره منظور بن سيار «١»

لما كان معنى جئني هات أعطني عطف أو (مثل) على المعنى فنصبه، و مثله كثير في اللغة.

و قوله (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) فإتمام النعمة فعل ما يقتضيها من تبقيتها على صاحبها و الزيادة منها، فالله تعالى قد أنعم على النبي صلى الله عليه و آله و تممها بنصره على أعدائه الرادين لها المكذبين بها حتى علا بالحجة و القهر لكل من ناواه. و قيل يتم نعمته عليك بفتح مكة و خير و الطائف. و قيل بخضوع من تكبر و طاعة من تجبر.

و قوله (وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) أى يرشدك إلى الطريق الذى إذا سلكته أداك إلى الجنة، و لا يعدل بك إلى غيرها (وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصِيرًا عَزِيزًا) فالنصر العزيز هو الذى يمنع من كل جبار عنيد و عات أثيم. و قد فعل الله تعالى ذلك بنبيه محمد صلى الله عليه و آله فصار دينه أعز الأديان و سلطانه أعظم السلطان.

و قوله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) و هو ما يفعل الله تعالى بهم من اللطف الذى يحصل لهم عنده بصيرة بالحق تسكن اليها نفوسهم و يجدون الثقة بها بكثرة ما ينصب الله لهم من الأدلة الدالة على الحق فهذه النعمة التامة للمؤمنين خاصة. فأما غيرهم فتضطرب نفوسهم لاول عارض من شبهة ترد عليهم، لأنهم لا يجدون برد اليقين فى قلوبهم. و قيل: السكينة ما تسكن اليه قلوبهم من التعظيم لله و رسوله و الوفاء له.

و قوله (لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) أى ليزدادوا معارف آخر بما أوجب

(١) قد مر فى ٣/ ٤٥٥ و ٦/ ٣٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١٦

اللَّهُ عَلَيْهِمْ زِيَادَةُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ الْحَاصِلَةِ، فَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى مَا لِنَبِيِّهِ عِنْدَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا ثِقَةً بِوَعْدِهِ. وَقَوْلُهُ (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) قِيلَ: مَعْنَاهُ أَنْصَارُ دِينِهِ يَنْتَقِمُ بِهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ جَمِيعَ الْجُنُودِ عِيبِدِهِ (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا) بِأَلْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا وَعَالَمًا بَعْدَ كَوْنِهَا (حَكِيمًا) فِي أَفْعَالِهِ لِأَنَّهَا كُلُّهَا مُحْكَمَةٌ وَصَوَابٌ.

و قوله (لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) إِنَّمَا لَمْ يَدْخُلْ وَأَوَّعِطَ فِي (لِيَدْخُلَ) أَعْلَامًا بِالتَّفْصِيلِ، كَأَنَّهُ قَالَ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ، إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ أَيْ بِسَاتِينَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ «خَالِدِينَ فِيهَا» أَيْ مُبْدِينَ لَا يَزُولُ عَنْهُمْ نَعِيمُهَا (وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) أَيْ عِقَابَ مَعَاصِيهِمْ الَّتِي فَعَلُوهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا (وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا) أَيْ الظَّفَرُ، وَالصَّلَاحُ بِمَا طَلَبُوهُ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ.

قوله تعالى: [سورة الفتح (٤٨): آيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٣١٦

وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْهُم مَنُ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)

خمس آيات. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١٧

قرأ ابن كثير و ابو عمرو (دائرة السوء) بضم السين. الباقون بفتحها، وقد فسرناه فى ما تقدم. فالسوء المصدر و السوء الاسم. و قال قوم- بالفتح- الفساد مثل قوله (وَوَضَعْنَاهُمْ ظَنَّ السَّوْءِ) لأنهم ظنوا أن النبى صلى الله عليه و آله لا يعود إلى موضع ولادته أبداً. وقرأ ابن كثير و ابو عمرو (ليؤمنوا بالله و رسوله و يعزروه و يوقروه و سبحوه) بالياء أربعهن، على وجه الاخبار من الله عز و جل عن نفسه.

لما اخبر الله تعالى عن نفسه أنه يدخل المؤمنين و المؤمنات جنات، و وصفها اخبر فى هذه الآية انه يعذب المنافقين و المنافقات و هم الذين يظهرون الايمان و يبطنون الشرك. و النفاق إسرار الكفر و إظهار الايمان، فكل نفاق هو إظهار خلاف الإبطان. و أصله من نفاقاء اليربوع، و هو أن يجعل لسربه باين يظهر أحدهما و يخفى الآخر، فإذا أتى من الظاهر خرج من الآخر، فالمنافق يقوى الباطل على الحق بالظن له، و إلقاء خلافه لتضييعه الدليل المؤدى اليه، (وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ) و هم الذين يعبدون مع الله غيره، و يدخل فى ذلك جميع الكفار. ثم وصفهم فقال (الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ) يعنى الذين يظنون بالله (ظن السوء) أى يتوهمون ان الله ينصرهم على رسوله، و ذلك قبيح لا يجوز وصف الله بذلك. ثم قال تعالى (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) فالدائرة هى الراجعة بخير او شر قال حميد بن ثور:

و دائرات الدهر ان تدورا «١» و من قرأ (دائرة السوء) بضم السين - أراد دائرة العذاب. و من قرأ - بالفتح - أراد ما عاد عليهم من قتل المؤمنين و غنمهم أموالهم، فهذا حسن.

و قيل (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) أى جزاء ظنهم السوء من العذاب. و من ضم أراد الشر، و يقال: رجل سوء - بالفتح - أى رجل فساد. ثم قال

(١) قد مر فى ٣/ ٥٤٣ او ٥٥١

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١٨

(وَوَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) أى لعنه لهم وعذابه (و لعنهم) أى أبعدهم من رحمته. وقوله (وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ) يجعلهم فيها. ثم قال (وَوَسَّاءَتْ مَصِيرًا) أى ساءت جهنم مآلا و مرجعا، لما فيها من انواع العقاب.

وقوله (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيْرًا حَكِيْمًا) قد فسرناه، وإنما أعيد ذكر (و لِلَّهِ جُنُود...) لأنه متصل بذكر المنافقين أى وله الجنود التى يقدر على الانتقام منكم بها، و ذكر أولا، لأنه متصل بذكر المؤمنين أى له الجنود التى يقدر ان يغنيكم بها. والعزير القادر الذى لا يقهر. وقيل (هو العزيز) فى انتقامه من أعدائه «الحكيم» فى جميع أفعاله. ثم خاطب نبيه محمد صلى الله عليه وآله فقال «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ» يا محمد «شاهداً» يعنى على أمتك بالبلاغ والدعاء إلى إخلاص عبادته، أو شاهداً بما عملوه من طاعة ومعصية (و شاهداً) نصب على حال مقدر على القول الأول، وعلى حال غير مقدر على القول الثانى. (و مبشراً) نصب على الحال الحاصلة. والمعنى و مبشراً بالجنة لمن أطاع «و نذيراً» أى مخوفاً من النار لمن عصى - ذكره قتادة - ثم بين الغرض بالإرسال، فقال: أرسلناك بهذه الصفة «لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ» فتوحدوه «و رسوله» فتصدقوه و «تعزروه» أى تنصروه، فالهاء راجعة إلى النبى صلى الله عليه وآله و قال أرسلته إليكم «لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ» فتوحدوه «و رسوله» فتصدقوه و «تعزروه» أى تنصروه، فالهاء راجعة إلى النبى صلى الله عليه وآله و قال المبرد: معنى (تعزروه) تعظموه يقال: عزرت الرجل إذا كبرته بلسانك «و توقروه» أى تعظموه يعنى النبى صلى الله عليه وآله - فى قول قتادة - و قال ابن عباس (تعزروه) من الإجلال (و توقروه) من الإعظام.

وقوله «و تسبحوه» يعنى الله تعالى أى تنزهوه عما لا يليق به «بُكْرَةً التَّيْبَانِ فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣١٩ وَ أَصِيلًا»

أى بالعداء والعشى. وقيل معناه تصلوا له بالغدوات والعشيات.

وقوله «لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» فيه دلالة على بطلان قول المجيرة إن الله تعالى يريد من الكفار الكفر، لأنه تعالى بين أنه أراد من جميع المكلفين الطاعة، و لم يرد أن يعصوا.

ثم قال «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» فالمراد بالبيعة المذكورة - هاهنا - بيعه الحدييئة، و هى بيعه الرضوان - فى قول قتادة و مجاهد - و المبايعة معاقدة على السمع والطاعة، كالمعاقدة فى البيع والشراء بما قد مضى فلا يجوز الرجوع فيه. وقيل: إنها معاقدة على بيع أنفسهم بالجنة للزومهم فى الحرب النصرة.

وقوله «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» قيل فى معناه قولان:

أحدهما - عقد الله فى هذه البيعة فوق عقدهم لأنهم بايعوا الله ببيعة نبيه صلى الله عليه وآله و آله و الآخر - قوة الله فى نصره نبيه صلى الله عليه وآله و آله فوق نصرتهم.

وقيل يد الله فى هدايتهم، فوق أيديهم بالطاعة.

وقوله «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ» و النكث النقض للعقد الذى يلزم الوفاء به، فبين تعالى أن من نقض هذه المبايعة، فإنما ينكث على نفسه، لان ما فى ذلك من استحقاق العقاب عائد عليه «وَمَنْ أَوْفَى بِوَعْدِهِ عِندَ اللَّهِ وَ أَوْفَى بِالْعَهْدِ» و وفى. و أوفى لغة الحجاز، و هى لغة القرآن «بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيماً» أى إذا أوفى بالبيعة و نصر دينه و نبيه آتاه الله فى ما بعد أجراً عظيماً و ثواباً جزيلاً. و من ضم الهاء فى «عليه» و هو حفص، فلأنها الأصل. و من كسرهما فللمجاورة للياء

قوله تعالى: [سورة الفتح (٤٨): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٣١٩

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّتِيهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّوءِ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَ لِلَّهِ

مُلْكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُوا ذُرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٠

خمس آيات.

قرأ أهل الكوفة إلا عاصمًا «كلم الله» على الجمع. الباقون «كلام الله» على التوحيد، لأنه يدل على الكثير من حيث هو اسم جنس، قال أبو علي «كلام الله» يقع على ما يفيد، والكلم يقع أيضاً على الكلام، وعلى ما لا يفيد والكلم جمع كلمة.

وقرأ حمزة والكسائي «ضراً» بالفتح. الباقون بالضم. فمن قرأ - بالفتح - أراد المصدر. ومن قرأ بالضم أراد الاسم. وقيل بالفتح ضد النفع والضم سوء التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢١

الحال، كقوله «مَسْنِي الضَّرُّ» «١» ويقال: ضرني الشيء وأضرني، ولا يقال:

أضربى، وضره يضره وضاره يضيره بمعنى واحد.

هذا اخبار عن الله تعالى لنبه صلى الله عليه وآله انه «سَيَقُولُ لَكَ» يا محمد «الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ» قال ابن إسحاق ومجاهد: لما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله الخروج إلى مكة عام الحديبية أحرم بعمرة ودعا الاعراب الذين حول المدينة إلى الخروج، فتثاقلوا: أسلم وغفار وجهينة ومزينة، فأخبر الله تعالى بذلك. والمخلف هو المتروك في المكان خلف الخارجين عن البلد، وهو مشتق من المتخلف وضده المتقدم. تقول خلفته كما تقول قدمته تقديمًا، وإنما تخلفوا لتشاغلهم عن الجهاد وإن اعتذروا بشغل الأموال والأولاد. والاعراب الجماعة من عرب البادية، وعرب الحاضرة ليسوا بأعراب، ففرقوا بينهما، وإن كان اللسان واحد.

وقوله «شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا» أخبار بما اعتلوا به، فالشغل قطع العمل عن عمل، لا يمكن الجمع بينهما لتنافي أسبابهما كالكتابة والرمي عن القوس والله لا يشغله شأن عن شأن لأنه لا يعمل بآله. وقوله «فَاسْتَغْفِرْ لَنَا» حكاية ما قالوه للنبي وسألوه أن يستغفر لهم والاستغفار طلب المغفرة بالدعاء مع التوبة عن المعاصي فهؤلاء سألوا الدعاء بالمغفرة، وفي قلوبهم خلاف ما أظهروه بأفواههم ففضحهم الله وهتك أستارهم، وأيدى ما نافقوا به في جهادهم، فقال «يَقُولُونَ بِالْأَسْوَءِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ».

ثم قال للنبي صلى الله عليه وآله «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا» لا يقدر احد على دفعه «أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا» لا يقدر احد على إزالته

(١) سورة ٢١ الأنبياء آية ٨٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٢

«يَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» أى عالمًا نافعًا لكم لا- يخفى عليه شىء منها، ثم قال له قل لهم «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا» أى ظننتم انهم لا- يرجعون ويقتلون ويصطلمون. وهو قول قتادة «وَرُئِينَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ» زينه الشيطان ذلك وسأله لكم «وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ» فى هلاك النبى والمؤمنين، وإن الله ينصر عليهم المشركين «وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا» والبور الفاسد وهو معنى الجمع وترك جمعه فى اللفظ لأنه مصدر وصف به قال حسان:

لا ينفع الطول من نوك القلوب وقد يهدى الاله سبيل المعشر «١»

البور والبوار الهلاك و بارت السلعة إذا كسدت والبائر من الفاكهة مثل الفاسدة. وقال قتادة: «بوراً» أى فاسدين. وقال مجاهد: هالكين. ثم قال تعالى مهدداً لهم «وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» أى لم يصدق بهما «فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا» أى ناراً تسعيرهم وتحرقهم. ثم قال «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» بأن يتصرف فيهما كما يشاء لا يعترض أحد عليه فيها «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ» معاصيه (و)

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) إذا استحق العقاب بارتكاب القبائح (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) أى سائراً على عباده معاصيهم إذا تابوا لا يفضحهم بها رحيماً بإسقاط عقابهم الذى استحقوها بالتوبة على وجه الابتداء.

ثم قال تعالى (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا) يعنى غنائم خيبر (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) أى اتركونا نجىء معكم، فقال الله تعالى (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّد (لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ) قال مجاهد و قتادة: يعنى ما وعد به أهل الحديبية أن غنيمه خيبر لهم خاصة، فأرادوا تغيير ذلك بأن يشاركوهم فيها فمنعهم الله من ذلك. و قال ابن زيد: أراد بقوله

(١) تفسير الطبرى ٢٦ / ٤٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٣

(لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عِدًّا) وهذا غلط لأن هذه الآية نزلت فى الذين تأخروا عن تبوك بعد خيبر و بعد فتح مكه، فقال الله تعالى لهم (لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا) لان النبى صلى الله عليه و آله لم يخرج بعد ذلك فى قتال و لا غزو الى أن قبضه الله تعالى. ثم قال (كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ) أى مثل ذلك حكم الله و قال ابن زيد: غنيمه خيبر لأهل الحديبية خاصة لا يشاركهم فيها أحد. ثم حكى ما قالوه بأنهم (فسيقولون) عند ذلك ليس الأمر كذلك (بل تحسدوننا) فقال ليس الأمر على ما قالوه (بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ) الحق و ما يدعون اليه (إلا قليلا) و قيل معناه لا يفقهون الحق إلا القليل منهم، و هم المعاندون. و قال بعضهم لا يفقهون إلا فقها قليلا أو الأشياء قليلا. و إنما قالوا: تحسدوننا، لان المسلمين لما توجهوا إلى خيبر و أخذوا غنائمها، قال المخلفون (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) قالوا نعم على ان لا شىء لكم من الغنيمه، فقالوا عند ذلك تحسدوننا، فقال تعالى (بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا).

قوله تعالى: [سورة الفتح (٤٨): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٣٢٣

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْدَةٌ إِلَى قَوْمِ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَ إِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٤

خمس آيات.

قرأ أهل المدينة، و ابن عامر (ندخله و نعدبه) بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه. الباقون - بالياء - رداً على اسم الله. يقول الله تعالى لنبيه (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ) أى لهؤلاء المخلفين الذين تخلفوا عنك فى الخروج إلى الحديبية (ستدعون) فى ما بعد (إلى قَوْمِ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) قال ابن عباس: أولوا البأس الشديد أهل فارس. و قال ابن أبى ليلى و الحسن: هم الروم. و قال سعيد بن جبیر و عكرمة و قتادة: هم هوازن بحنين. و قال الزهرى:

هم بنو حنيفه مع مسيلمه الكذاب، و كانوا بهذه الصفة.

و استدل جماعة من المخالفين بهذه الآية على إمامه أبى بكر، من حيث ان أباً بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفه، و عمر دعاهم إلى قتال فارس و الروم، و كانوا قد حرموا القتال مع النبى صلى الله عليه و آله بدليل قوله (لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عِدًّا) و هذا الذى ذكره غير صحيح من وجهين:

أحدهما - أنه غلط فى التاريخ و وقت نزول الآية.

و الثاني - أنه غلط في التأويل، ونحن نبين فساد ذلك أجمع، ولنا في الكلام في تأويل الآية وجهان: التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٥

أحدهما - إنه تنازع في اقتضاها داعياً يدعو هؤلاء المخلفين غير النبي صلى الله عليه وآله و يبين أن الداعي لهم في ما بعد كان النبي صلى الله عليه وآله و آله على ما حكيناه عن قتادة و سعيد ابن جبير في ان الآية نزلت في اهل خيبر، و كان النبي صلى الله عليه وآله هو الداعي إلى ذلك.

و الآخر - ان يسلم ان الداعي غيره، و نبين انه لم يكن أبا بكر و لا عمر بل كان أمير المؤمنين عليه السلام. فاما الوجه الاول فظاهر، لأن قوله (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ) إلى قوله (وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا) قد بينا انه أراد به الذين تخلفوا عن الحديبية بإجماع المفسرين ثم قال (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ....) إلى آخر الآية، فبين أن هؤلاء المخلفين سألو ان يخرجوا إلى غنيمه خيبر فمنعهم الله من ذلك، و أمر نبيه صلى الله عليه وآله ان يقول لهم (قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا....) إلى هذه القرية، لأن الله تعالى حكم من قبل بأن غنيمه خيبر لمن شهد الحديبية و انه لا حظ فيها لمن لم يشهدا، و هذا هو معنى قوله (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ) و قوله (كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ) ثم قال (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ) و إنما أراد الرسول سيدعوهم في ما بعد إلى قتال قوم بهذه الصفة، و قد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة. و قال قوم: أولى بأس شديد، كموقعه حين و تبوك و غيرها، فمن أين يجب أن يكون الداعي لهم غير النبي صلى الله عليه وآله و آله فاما قولهم إن معنى قوله (كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ) هو انه أراد قوله (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوا لَلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) مملؤ بالغلط الفاحش في التاريخ، لأننا قد بينا أن هذه الآية التي في التوبة نزلت ب (تبوك) سنة تسع. و آية سورة الفتح نزلت سنة ست، فكيف تكون قبلها، و ينبغي لمن تكلم في تأويل القرآن أن يرجع إلى التاريخ و يراعى اسباب نزول التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٦

الآية على ما روى، و لا يقول على الآراء و الشهوات. و تبين أيضاً أن هؤلاء المخلفين غير أولئك، و إن لم يرجع إلى تاريخ. و نقول قوله (فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَ إِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) فلم يقطع على طاعه، و لا على معصيه بل ذكر الوعد و الوعيد على ما يتعلق به من طاعة او معصية و حكم المذكورين فيهم في سورة التوبة، بخلافه لأنه تعالى قال بعد قوله (إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) إلى قوله (وَهُمْ كَافِرُونَ) «١» فاختلاف أحكامهم يدل على اختلافهم، و قد حكينا عن سعيد بن جبير انه قال هذه الآية نزلت في هوازن يوم حنين. و قال الضحاك: هم ثقيف، و قال قتادة:

هم هوازن و ثقيف، و أما الوجه الذي يسلم معه أن الداعي غير النبي صلى الله عليه وآله و آله فهو ان نقول الداعي أمير المؤمنين عليه السلام، لأنه قاتل بعده أهل الجمل و صفين و أهل النهروان، و بشره النبي صلى الله عليه وآله و آله بقتالهم، و كانوا أولى بأس شديد، فان قالوا من قاتلهم على عليه السلام كانوا مسلمين، و في الآية قال تقاتلونهم او يسلمون! كيف تتناولهم الآية؟! قلنا: أول ما نقوله: إنهم غير مسلمين عندنا، و لا عند جميع من خالفنا من المعتزلة، لأن عندهم صاحب الكبيرة ليس بمؤمن، و لا مسلم. و أما مذهبنا في تكفير من قاتل علياً عليه السلام معروف، و قد ذكرناه في كتب الامامة

لقوله صلى الله عليه وآله (حربك يا علي حربى)

و غير ذلك من الاخبار و الادلة التي ذكرناها في غير موضع و استوفينا ما يتعلق بذلك في كتاب الامامة، و يمكن على تسليم أن الداعي أبو بكر و عمر، أن يقال: ليس في الآية ما يدل على مدح الداعي و لا على إمامته، لأنه قد يدعو إلى الحق من ليس عليه، و يجب ذلك من حيث كان واجباً من

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٧

أجل دعاء الداعي، و ابو بكر دعاهم إلى الدفاع عن الإسلام، و هذا واجب على كل واحد بلا دعاء داع، و يمكن ان يكون المراد بقوله (ستدعون) دعاء الله لهم بإيجاب القتال عليهم، لأنه إذا دلهم على وجوب قتال المرتدين و دفعهم عن بيضة الإسلام، و قد دعاهم إلى القتال و وجبت عليهم طاعته، و الكلام في هذه الآية كالتى قبلها فى أنا إذا قلنا لا تدل على إمامة الرجلين، لا نكون طاعنين عليهما، بل لا يمتنع أن يثبت فضلها و إمامتهما بدليل غير الآية، لأن المحصلين من العلماء يذهبون إلى إمامتهما من جهة الاخبار لا من جهة الآية.

و قوله (تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ) بالرفع معناه إن احد الأمرين لا بد أن يقع لا محالة، و تقديره أو هم يسلمون. و قرئ شاذاً بالنصب، و الوجه فيه حتى يسلموا و لو نصبه، فقال او يسلموا لكان دالا على ان ترك القتال من أجل الإسلام.

و قوله (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ...) الآية، فالأعمى هو من لا يبصر بجارحة العين. و الأعرج الذى برجله آفة تمنعه من المشى مأخوذ من رفعها عند محاوله المشى بغيرها، و منه العروج الصعود إلى السماء، و المريض من به علة تمنعه من الحركة من اضطراب فى البدن حتى يضعف و تحصل فيه آلام، بين الله تعالى انه ليس على وجه هؤلاء الذين بهم هذه الآفات من ضيق و لا حرج فى ترك الحصول مع المؤمنين و الحضور معهم فى الجهاد. قال قتادة: كل ذلك فى الجهاد. ثم قال (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فى ما أمره به و نهاه عنه (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ عَنْ اتِّبَاعِهِمَا وَامْتِثَالِ أَمْرِهِمَا وَنَهْيِهِمَا) (يُعَذِّبُهُ) الله (عَذَابًا أَلِيمًا) فمن قرأ بالياء رده إلى الله. و من قرأ بالنون أراد الاخبار من الله عن نفسه.

و قوله (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) إخبار التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٨ من الله تعالى انه رضى عن الذين بايعوا تحت الشجرة النبى صلى الله عليه و آله و كانوا مؤمنين فى الوقت الذى بايعوه (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) من إيمان و نفاق فرضى عن المؤمنين و سخط على المنافقين. و قيل معناه فعلم ما فى قلوبهم من صدق النية فى القتال و كراهتهم له، لأنه بايعهم على القتال - ذكره مقاتل - (فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) يعنى على المؤمنين، و السكينة الصبر لقوة البصيرة (وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) قال قتادة و ابن أبى لیلی: يعنى فتح خبير و قال قوم: فتح مكة (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا) فالغيمه ملك أموال اهل الحرب من المشركين بالقهر و الغلبة فى حكمه تعالى، و كان القتال من أجلها. و (المغانم) هاهنا يراد به غنائم خبير.

و قوله (وَعَذَّبْنَاكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا) يعنى سائر الغنائم و قال قوم: أراد بها ايضاً غنائم خبير. و قوله (فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ) يعنى الصلح و سميت بيعه الرضوان لقول الله تعالى (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) و قال ابن عباس كان سبب بيعه الرضوان بالحديبه تأخر عثمان حين بعثه النبى صلى الله عليه و آله إلى قريش أنهم قتلوه، فبايعهم على قتال قريش، و قال ابن عباس: كانوا ألفاً و خمسمائة نفس. و قال جابر: كانوا ألفاً و أربعمائة نفس، و قال ابن أوفى ألفاً و ثلاثمائة. و الشجرة التى بايعوا تحتها هى السمره. و استدلل بهذه الآية جماعة على فضل أبى بكر، فانه لا خلاف أنه كان من المبايعين تحت الشجرة. و قد ذكر الله أنه رضى عنهم، و انه أنزل السكينة عليهم و انه علم ما فى قلوبهم من الايمان، و أثابهم فتحاً قريباً.

و الكلام على ذلك مبنى على القول بالعموم، و فى أصحابنا من قال لا صيغه للعموم ينفرد بها. و به قال كثير من المخالفين، فمن قال بذلك كانت الآية عنده مجمله لا يعلم المعنى بها، و قد بايع النبى صلى الله عليه و آله جماعة من المنافقين بلا خلاف، فلا بد التبيان

فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٢٩

من تخصيص الآية على كل حال. على انه تعالى وصف من بايع تحت الشجرة بأوصاف قد علمنا أنها لم تحصل فى جميع المبايعين، فوجب أن يختص الرضا بمن جمع الصفات لأنه قال (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا) و لا خلاف بين أهل النقل ان الفتح الذى كان بعد بيعه الرضوان بلا فصل هو فتح خبير. و

ان رسول الله صلى الله عليه و آله عند ذلك قال: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله كزاراً غير فرار، لا

يرجع حتى يفتح الله على يده) فدعا علياً فأعطاه الراية، و كان الفتح على يده

، فوجب ان يكون هو المخصوص بحكم الآية، و من كان معه في ذلك الفتح لتكامل الصفات فيهم. على ان ممن بايع بيعه الرضوان طلحة و الزبير، و قد وقع منهما من قتال على عليه السلام ما خرجا به عن الايمان و فسقا عند جميع المعتزلة و من جرى مجراهم، و لم يمنع وقوع الرضاء في تلك الحال من مواقعه المعصية في ما بعد، فما الذي يمنع من مثل ذلك في غيره. و ليس إذا قلنا:

أن الآية لا تختص بالرجلين، كان طعنًا عليهما بل إذا حملناها على العموم دخلا، و كل متابع مؤمن معهما، فكان ذلك أولى. و قوله (مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا) يعنى ما غنمتموه من خير من انواع الغنائم (وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا) بمصالح عباده (حكيماً) في جميع أفعاله. ثم قال (وَ عَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ) يعنى غنائم خبير. و الباقي كل ما يغنمه المسلمون من دار الحرب (وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ) يعنى أسداً و غطفان، فإنهم كانوا مع خبير فصالحهم النبى صلى الله عليه و آله فكفوا عنه. و قيل: يعنى اليهود كف أيديهم عنكم بالمدينة من قبل الحديبية و مجيء قريش، فلم يغلبوكم (وَ لَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) يستدلون بها على صحة قولكم (و يهديكم) أى و يرشدكم (صراطاً التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٠ مُسْتَقِيمًا)

يفضى بكم إلى الحق و ما يؤدي إلى الثواب. و الواو في قوله (و لتكون) معناه إنا وعدناكم الغنائم لكف أيدي الناس عنكم و ليكون ذلك آية للمؤمنين إذ وقع الخبر على ما أخبر به، لأنه علم غيب لا يعلمه إلا الله.

قوله تعالى: [سورة الفتح (٤٨): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٣٣٠

وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْوَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا (٢٢) سُبُّهُ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعِيدٍ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهُدًى مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّةَ وَ لَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) خمس آيات.

قرأ ابو عمرو «بما يعملون بصيراً» بالياء على الخبر. الباكون بالتاء على الخطاب لما ذكر الله تعالى انه وعد المؤمنين مغنم كثيرة يأخذونها و انه عجل لهم هذه منها، يعنى غنائم خبير و عدهم بالغنائم الأخر، فقال (وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) أى التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٣١

و غنيمة أخرى- عن ابن عباس و الحسن- إنها فارس و الروم. و قال قتادة:

هى مكه (قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) أى قدر الله عليها و أحاط بها علماً فجعلهم بمنزلة ما قد أدبر حولهم بما يمنع ان يفلت احد منهم (وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) أى ما يصح أن يكون مقدوراً له، فهو قادر عليه. ثم قال (وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) يعنى من قريش يا معشر المؤمنين (لولوا الأذبار) منهزمين بخذلانه إياهم و نصره الله إياكم، و معونته لكم- فى قول قتادة- (ثم لا يجدون) يعنى الكفار (ولياً) بواليهم (و لا نصيراً) يدفع عنهم.

و قوله (سُبُّهُ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ) معناه سنه الله جارية فى خذلانه أهل الكفر و نصره أهل الايمان فى ما مضى من الأمم السالفة، و نصره هو أمره بالقتال (و لن تجد) يا محمد «لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» أى لن تجد لسنة الله ما يدفعها فالسنة الطريقة المستمرة فى معنى و من ذلك

قوله صلى الله عليه و آله (من سن سنة حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها. و من سن سنة سيئة فعليه إثمها و اثم من عمل بها)

والتبديل رفع احد الشئتين وجعل الآخر مكانه، فى ما حكم أن يستمر على ما هو به و لو رفع الله حكما يأتى بخلافه لم يكن تبديلا لحكمه لأنه لا يرفع شيئا إلا فى الوقت الذى تقتضى الحكمة رفعه، وقال ابن عباس: كان المشركون يبعثوا أربعين رجلا ليصيبوا من المسلمين، فأتى بهم رسول الله، فخلى سبيلهم، وهو المراد بقوله «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ» بالرعب «وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ» بالنهاى نزلت فى أهل الحديبية وأهل مكة، لا- فى أهل خيبر. وقيل لم ينهوا عن قتالهم، لأنهم لا يستحقون القتل بكفرهم و صدهم لكن للإبقاء على المؤمنين الذين فى أيديهم «بِطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ» يعنى فتح مكة «وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا» يدبركم بحسب ما تقتضيه مصالحكم وقوله «هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا» أى بوحدانية الله، وهم كفار قريش «وَصَدُّوكُمْ التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٢

عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

فى الحديبية، و صدوكم أن تعتمروا و تطوفوا بالبيت «وَالْهُدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ» أى المحل الذى يحل نحره فيه. و المعكوف المحبوس أى منعوا الهدى ايضا ليذبح بمكة، لأن هدى العمرة لا يذبح إلا بمكة كما لا يذبح هدى الحج إلا بمنى، ثم قال «وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ» بالله و مصدقون بالنبي «وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ» مثل ذلك بمكة- فى قول قتادة- «لَمْ تَعْلَمُوهُمْ» أى لم تعلموا بايمانهم «أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْنَتَ بَيْنِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ» أى ينالكم أثم لاجلهم من غير علم منكم بذلك- فى قول ابن زيد- و قال قوم: معناه عنت. و قال ابن إسحاق: هو غرم الديه فى كفارة قتل الخطأ عتق رقبة مؤمنة و من لم يطق فصيام شهرين، و هو كفارة قتل الخطأ فى الحرب. و جواب لولا محذوف، و تقديره و لولا المؤمنون الذين لم تعلموهم لو طئتم رقاب المشركين بنصرنا إياكم. و المعكوف الممنوع من الذهاب فى جهة بالاقامة فى مكانه، و منه الاعتكاف، و هو الاقامة فى المسجد للعبادة، و عكف على هذا الأمر يعكف عكوفاً إذا اقام عليه. و قوله «لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا» أى لو تميز المؤمنون منهم، و قيل لو تفرقوا و المعنى واحد «لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ» يعنى من أهل مكة «عَذَابًا أَلِيمًا» بالسيف و القتل و الأليم المؤلم، و كان النبي صلى الله عليه و آله: ساق سبعين بدنه فى عام الحديبية، و دخل فى العام المقبل لعمرة القضاء فى الشهر الذى صد فيه و نزل قوله «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشُّهُرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ» «١» ذكره قتادة.

قوله تعالى: [سورة الفتح (٤٨): الآيات ٢٦ الى ٢٩]..... ص: ٣٣٢

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سَتِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكُمْ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٩٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٣

أربع آيات.

قرأ ابن كثير إلا ابن فليح «شطأه» بفتح الطاء و مثله ابن ذكوان.

الباقون بإسكانها. وقرأ أهل الشام «فأزره» مقصور، الباقون بالمد، وهما لغتان من فعل الشيء وفعله غيره نحو كسبت مالا وكسبني غيري، ونزحت البئر ونزحتها ويقال: أزر النبت وآزره غيره. وقوله «إذ جعل» متعلق بقوله «لَعَذَابُ الَّذِينَ التَّبِيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ج ٩، ص: ٣٣٤

كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ

يعنى الأنفة. ثم فسر تلك الأنفة، فقال «حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ» الاولى يعنى عصبتهم لآلهتهم من أن يعبدوا غيرها. وقال الزهرى: هى انفتهم من الإقرار لمحمد بالرسالة. والاستفتاح ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) على عادته فى الفاتحة، حيث أراد ان يكتب كتاب العهد بينهم. ودخولهم مكة لأداء العمرة.

ثم قال تعالى «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ» أى فعل به صلى الله عليه وآله من اللطف والنعمة ما سكنت اليه نفسه و صبر على الدخول تحت ما أرادوه منه «وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ» أى ومثل ذلك فعل بالمؤمنين «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: كَلِمَةُ التَّقْوَى قَوْل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. وقال مجاهد: هى كلمة الإخلاص «وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا» يعنى المؤمنين كانوا أهلها وأحق بها. قال الفراء: ورأيتها فى مصحف الحارث بن سويد التميمى من أصحاب عبد الله (و كانوا أهلها وأحق بها) وهو تقديم وتأخير، وكان مصحفه دفن أيام الحجاج. وقيل:

ان التقدير كانوا أحق بنزول السكينة عليهم وأهلها. وقيل: المعنى فكانوا أحق بمكة أن يدخلوها وأهلها. وإنما قال «أحق» لأنه قد يكون حق أحق من حق غيره، لأن الحق الذى هو طاعة يستحق به المدح أحق من الحق الذى هو مباح لا يستحق به ذلك «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» لما ذم الكفار تعالى بحمية الجاهلية ومدح المؤمنين بالسكينة والزوم الكلمة الصادقة بين علمه ببواطن أمورهم وما تنطوى عليه ضمائرهم إذ هو العالم بكل شىء من المعلومات.

وقوله «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» قسم من الله تعالى ان النبى صلى الله عليه وآله صادق فى قوله انه رأى فى المنام انه يدخل هو والمؤمنون المسجد الحرام، وانه لا بد من كون ذلك. وقوله «إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» قال قوم التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٥

تقييد لدخول الجميع او البعض. وقال قوم: ليس ذلك شرطاً لأنه بشارة بالرؤيا التى رآها النبى صلى الله عليه وآله وطالبه الصحابة بتأويلها وحققها. قوله «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ» ثم استؤنف على طريق الشرح والتأكيد «لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» على ألفاظ الدين، كأنه قيل بمشيئة الله، وليس ينكر أن يخرج مخرج الشرط ما ليس فيه معنى الشرط، كما يخرج مخرج الأمر ما ليس فى معنى الأمر لقريئة تصحب الكلام. وقال البلخى: معنى «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» أى أمركم الله بها، لأن مشيئة الله تعالى بفعل عباده هو أمره به. وقال قوم: هو تأديب لنا، كما قال «وَلَا تَقُولَنَّ لَشَيْءٍ...» «١» الآية.

وقوله «آمِنِينَ» أى بلا خوف عليكم «مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ» أى منكم من يحلق رأسه ومنكم من يقصر «لَا تَخَافُونَ» احداً فى ذلك، وكذلك جرى الأمر فى عمرة القضاء وفى السنة الثانية للحديبية. و

روى أن عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وآله حيث قاضا أهل مكة يوم الحديبية، وهما بالرجوع إلى المدينة: أليس وعدتنا يا رسول الله أن ندخل المسجد الحرام محللين ومقصرين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله (قلت لكم إنا ندخلها العلم)؟! فقال: لا، فقال صلى الله عليه وآله (فإنكم تدخلونها إن شاء الله) فلما كان فى القابل فى ذى القعدة خرج النبى صلى الله عليه وآله لعمرة القضاء، ودخل مكة مع أصحابه فى ذى القعدة واعتمروا، وقام بمكة ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة.

ثم قال «فَعَلِمَ» يعنى علم الله و «مَا لَمْ تَعْلَمُوا» أنتم من المصلحة فى المقاضاة وإجابتهم إلى ذلك. وقيل المعنى فعلم النبى صلى الله عليه وآله عليه وآله من دخولهم إلى سنة ما لم تعلموا معاشر المؤمنين. وقيل: فعلم ان بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٢٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٦

«فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» قال ابن زيد: يعنى بذلك فتح خير. وقال الزهرى: هو فتح الحديبية. ثم قال تعالى «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ» يعنى محمداً صلى الله عليه وآله «بِالْهُدَى» يعنى الدليل الواضح، والحجج البينة «وَدِينِ الْحَقِّ» يعنى الإسلام وإخلاص العبادة «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» قيل بالحجج والبراهين. وقيل: لان الإسلام ظاهر على الأديان كلها. وقيل: إنه إذا خرج المهدي صار الإسلام فى جميع البشر، وتبطل الأديان كلها.

ثم قال (وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) بذلك من إظهار دين الحق على جميع الأديان.

ثم اخبر تعالى فقال (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) صلى الله عليه وآله أرسله إلى خلقه (وَالَّذِينَ مَعَهُ) من المؤمنين يعنى المصدقين بواحدانية الله المعترفين بنبوته الناصرين له (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) لأنهم يقاتلونهم ويجهادونهم بنية صادقة (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) أى يرحم بعضهم بعضاً ويتحنن بعضهم على بعض (تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) لقيامهم بالصلاة والإتيان بها، فهم بين رাকع وساجد (يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) أى يلتمسون بذلك زيادة نعيمهم من الله ويطلبون مرضاته من طاعة وترك معصية (سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) قال ابن عباس: اثر صلاتهم يظهر فى وجوههم.

وقال الحسن. هو السميت الحسن. وقال قوم: هو ما يظهر فى وجوههم من السهر بالليل. وقال مجاهد: معناه علامتهم فى الدنيا من اثر الخشوع. وقيل:

علامة نور يجعلها الله فى وجوههم يوم القيامة- فى قول الحسن وابن عباس وقادة و عطية- و (ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ) أى وصفهم، كأنه مثلهم فى التوراة (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ) أى وصفهم الله فى الإنجيل (كَزَّرَعٍ أُخْرِجَ شَطَأُهُ) يشبههم بالزرع الذى ينبت فى حوالبه بنات و يلحق به، فالشطا فراخ الزرع الذى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٧

ينبت فى جوانبه و منه شاطئ النهر جانبه، يقال أشطا الزرع، فهو مشطى إذا أفرخ فى جوانبه «فَأَزْرَهُ» أى عاونه فشد فراخ الزرع لأصول النبت وقواها يقال أزرت النبت و آزره غيره بالمد، و يقال أزر النبت و ازرته مثل رجوع و رجعته وقال ابو الحسن: هما لغتان. وقال ابو عبيدة: أزره ساواه فصار مثل الأم، و فاعل (آزر) الشطا أى أزر الشطا الزرع، فصار فى طوله «فَاسِيَتَغَلَّظَ» أى صار غليظاً باجتماع الفراخ مع الأصول «فَاسِيَتَوَى» معه أى صار مثل الأم «عَلَى سَوْقِهِ» و هو جمع ساق و ساق الشجرة حاملة الشجر، و هو عوده الذى يقوم عليه، و هو قصبته. و مثله قوى المحبة بما يخرج منها، كما قوى النبى صلى الله عليه وآله بأصحابه.

وقوله «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» يعنى الذين زرعوا ذلك «لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» قيل: معناه ليغىظ بالنبى و أصحابه الكفار المشركين. و وجه ضرب هذا المثل بالزرع الذى أخرج شطاؤه هو ان النبى صلى الله عليه وآله حين ناداهم إلى دينه كان ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى كثر جمعه و قوى أمره كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالا- بعد حال حتى يغلظ ساقه و فراخه، و كان هذا من أصح مثل و أوضح بيان و قال البلخى: هو كقوله «كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ» «١» يريد بالكفار- هاهنا- الزراع واحدهم كافر، لأنه يغطى البذر، و كل شىء غطيته فقد كفرته.

و منه قولهم: تكفر بالسلاح. وقيل: ليل كافر لأنه يستر بظلمته كل شىء قال الشاعر:

فى ليله كفر النجوم غمامها «٢» أى غطاها. ثم قال «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» يعنى من عرف الله و وحده

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٠ [.....]

(٢) مر فى ١ / ٦٠

و أخلص العبادة له و آمن بالنبي صلى الله عليه و آله و صدقه «وَعَمِلُوا» مع ذلك الاعمال «الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ» قيل: انه بيان يخصهم بالوعد دون غيرهم. و قيل يجوز ان يكون ذلك شرطاً فيمن أقام على ذلك منهم، لان من خرج عن هذه الأوصاف بالمعاصي فلا يتناوله هذا الوعد «مَغْفِرَةً» أى سترًا على ذنوبهم الماضية «وَأَجْرًا» أى ثواباً «عَظِيمًا» يوم القيامة. و قرأ ابن كثير وحده «على سؤقه» بالهمزة. الباكون بلا- همزة، و هو الأصح. قال ابو على: من همز فعلى قولهم (أحب المؤمنين إلى موسى) و استعمال السوق في الزرع مجاز.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٣٩

٤٩-سورة الحجرات..... ص: ٣٣٩

إشارة

مدينة إلا- آية واحدة و هى قوله تعالى «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ...» إلى آخرها. و قال قوم: كلها مدنية، و هى ثمان عشر آية بلا خلاف.

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٣٣٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَاقِقٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

خمس آيات.

قرأ يعقوب «لا تقدموا» بفتح التاء و الدال. الباكون بضم التاء و كسر الدال التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٠
من التقديم. و قيل: انهما لغتان. قدم و تقدم مثل عجل و تعجل و قال ابن عباس و الحسن: الآية «لا تقدموا» فى الحكم أو فى الأمر قبل كلامه صلى الله عليه و آله- بفتح الدال و التاء- و قال الحسن: ذبح قوم قبل صلاة العيد يوم النحر، فأمرُوا باعادة ذبيحة اخرى. و قال الزجاج: المعنى لا تقدموا أعمال الطاعة قبل الوقت الذى أمر الله و النبي صلى الله عليه و آله به حتى قيل: لا يجوز تقدم الزكاة قبل وقتها. و قال قوم:

كانوا إذا سألوا عن شىء قالوا فيه قبل النبي صلى الله عليه و آله نهوا عن ذلك، و الأولى حمل الآية على عمومها فيقال: كل شىء إذا فعل كان خلافاً لله و رسوله فهو تقدم بين أيديهما فيجب المنع من جميع ذلك.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين الذين اعترفوا بتوحيده و إخلاص عبادته و أقروا بنبوة نبيه محمد صلى الله عليه و آله ينهاهم أن يتقدموا بين يدي النبي صلى الله عليه و آله بأن يفعلوا خلاف ما أمر به او يقولوا فى الأحكام قبل ان يقول او يخالفوا أوقات العبادة، فان جميع ذلك تقدم بين يديه، و أمرهم ان يتقوا الله بأن يجتنبوا معاصيه و يفعلوا طاعاته «إِنَّ اللَّهَ شَاقِقٌ» لما يقولونه «عَلِيمٌ» بما ينطوون عليه و يضمرونه. ثم أمرهم ثانياً بأن قال «لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» على وجه الاستخفاف به صلى الله عليه و آله، فان مجاهد و قتادة قالوا: جاء أعراب أجلاف من بنى تميم، فجعلوا ينادون من وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا، و لو أن إنساناً رفع

صوته على صوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على وجه التعظيم له و الاجابة لقوله لم يكن مأثوماً. وقد فسر ذلك بقوله «وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ» فان العادة جارية أن من كلم غيره و رفع صوته فوق صوته أن ذلك على وجه الاستخفاف به، فلذلك نهاهم عنه.

و جهر الصوت أشد من الهمس، و يكون شديداً و ضعيفاً و وسطاً. و الجهر ظهور الصوت بقوة الاعتماد، و منه الجهارة في المنطق. و يقال: نهاراً جهاراً، و جاهر التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤١

بالأمر مجاهرة. و نقيض الجهر الهمس.

ثم بين تعالى انهم متى فعلوا ذلك بان يرفعوا الصوت على صوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على الوجه الذي قلناه أن يحبط أعمالهم، و التقدير لا- ترفعوا أصواتكم لأن لا تحبط قال الزجاج: و يكون اللام لام العاقبة، و المعنى يحبط ثواب ذلك العمل، لأنهم لو أوقعوه على وجه الاستحقاق لاستحقوا به الثواب، فلما فعلوه على خلاف ذلك استحقوا عليه العقاب، وفاتهم ذلك الثواب فذاك إحباط أعمالهم، فلا يمكن أن يستدل بذلك على صحة الإحباط في الآية على ما يقوله أصحاب الوعيد، و لأنه تعالى علق الإحباط في الآية بنفس العمل، و أكثر من خالفنا يعلقه بالمستحق على الأعمال، و ذلك خلاف الظاهر.

ثم مدح تعالى من كان بخلاف من يرفع الصوت بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فقال «إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ» اعظاماً للنبي و إجلالاً له، و الغض الحط من منزلة على وجه التصغير له بحالته، يقال: غض فلان عن فلان إذا ضعف حاله عن حال من هو أرفع منه، و غض بصره إذا ضعف عن حدة النظر، و غض صوته إذا ضعف عن الجهر، و قال جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت و لا كلاباً «١»

ثم قال «أُولَئِكَ» يعنى الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم «الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى أَى لاخلاص التقوى فعاملهم معاملة المختبر كما يمتحن الذهب لا خلاص جيده. و قيل «امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى أخلصها- فى قول مجاهد و قتادة- و قال قوم: معناه أولئك الذين علم الله التقوى فى قلوبهم، لان الامتحان يراد به العلم، فعبر عن العلم بالامتحان.

(١) ديوانه و الطبرى ٢٦/ ٦٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٢

ثم قال تعالى «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» من الله لذنوبهم «وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» على أفعالهم و طاعاتهم ثم خاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ على وجه الذم لمن يرفع صوته من أجلايف الاعراب على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ» يا محمد «مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ» و هى جمع حجرة و كل (فعلة) بضم الفاء يجمع بالألف و التاء، لأنه ليس بجمع سلامة محضة إذ ما يعقل من الذكر الحق به، لأنه اشرف المعنيين، فهو أحق بالتفصيل، قال الشاعر:

اما كان عباد كفيًا لدارم بلى و لأبيات بها الحجرات «١»

أى بلى و لبنى هاشم. و قرأ ابو جعفر الحجرات بفتح الجيم. قال المبرد:

أبدل من الضمة الفتحة استقالا لتوالى الضمتين، و منهم من أسكن مثل (عضد و عضد) و قال ابو عبيدة: جمع حجرة و غرفه يقال: حجرات و غرفات.

ثم قال «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» لأنهم بمنزلة البهائم لا يعرفون مقدار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ و ما يستحقه من التوقير و التعظيم. و قيل: إن الذين رفعوا أصواتهم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قوم من بنى تميم. و فى قراءة ابن مسعود (أكثرهم بنو تميم لا يعقلون).

ثم قال «وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا» فلم ينادوك «حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ» من منزلك «لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» من أن ينادونك من وراء الحجرات (وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ) أى سائر لذنوبهم إن تابوا منها لان ذلك كفر لا يغفره الله إلى بالتوبة

قوله تعالى: [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٣٤٢

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّاهُم مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ (٨) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ مَا لَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

(١) الطبري ٢٦ / ٦٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٣

خمس آيات.

قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ) خطاب من الله - عز و جل - للمؤمنين بأنه (إذا جاءكم فاسق) و هو الخارج من طاعة الله إلى معصيته (بنبا) أى بخبر عظيم الشأن (فتبينوا) صدقه من كذبه و لا تبادروا إلى العمل بمتضمنه (أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ) لأنه ربما كان كاذباً و خبره كذباً، فيعمل به فلا يؤمن بذلك و قال ابن عباس و مجاهد و يزيد بن رومان و قتادة و ابن أبي ليلى: نزلت الآية فى الوليد ابن عقبة بن أبى معيط، لما بعثه رسول الله صلى الله عليه و آله فى صدقات بنى المصطلق خرجوا يتلقونه فرحاً به و إكراماً له، فظن أنهم هموا بقتله، فرجع إلى النبی صلى الله عليه و آله فقال: انهم منعوا صدقاتهم، و كان الأمر بخلافه.

و فى الآية دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم و لا العمل، لأن المعنى إن جاءكم فاسق بالخبر الذى لا تأمنون أن يكون كذباً فتوقفوا فيه، و هذا التعليل موجود فى خبر العدل، لان العدل على الظاهر يجوز أن يكون كاذباً فى خبره، التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٤

فالأمان غير حاصل فى العمل بخبره. و فى الناس من استدل به على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان راويه عدلاً، من حيث انه أوجب تعالى التوقف فى خبر الفاسق، فدل على أن خبر العدل لا يجب التوقف فيه. و هذا الذى ذكره غير صحيح، لأنه استدلال بدليل الخطاب و دليل الخطاب ليس بدليل عند جمهور العلماء. و لو كان صحيحاً فليست الآية بأن يستدل بدليلها على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلاً بأولى من ان يستدل بتعليقها فى دفع الأمان من أن يصاب بجهالة إذا عمل بها على ان خبر العدل مثله، على أنه لا يجب العمل بخبر الواحد، و إن كان راويه عدلاً.

فان قيل: هذا يؤدى إلى أن لا فائدة فى إيجاب التوقف فى خبر الفاسق إذا كان خبر العدل مثله فى الفائدة.

قلنا: و القول بوجوب العمل بخبر الواحد يوجب أنه لا فائدة فى تعليل الآية فى خبر الفاسق الذى يشاركه العدل فيه، فإذا تقابلا سقط الاستدلال بها على كل حال و بقى الأصل فى انه لا يجوز العمل بخبر الواحد إلا بدليل.

و من قرأ (تبيينوا) أراد تعرفوا صحة متضمن الخبر الذى يحتاج إلى العمل عليه، و لا- تقدموا عليه من غير دليل، يقال: تبين الأمر إذا ظهر، و تبين هو نفسه بمعنى واحد، و يقال ايضاً: تبينته إذا عرفته. و من قرأ (فتثبتوا)- بالتاء و الشاء- أراد توقفوا فيه حتى يتبين لكم صحته.

و قوله (فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) معناه متى عملتم بخبر الواحد و بان لكم كذب راويه أصبحتم نادمين على ما فعلتموه.

ثم خاطبهم يعنى المؤمنين فقال (و اعلموا) معاشر المؤمنين (أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ) و معناه لو فعل ما تريدونه فى كثير من التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٥

الأمر (لعتنم) أى أصابكم عنت و مكروه، يقال: أعنت الرجل إذا حملت عليه عامداً لما يكره، يقال: أعنته فعنت، و سمي موافقته لما يريدونه طاعة لهم مجازاً لأن الطاعة يراعى فيها الرتبة، فلا يكون المطيع مطيعاً لمن دونه، و إنما يكون مطيعاً لمن فوقه إذا فعل ما أمره به، ألا ترى انه لا يقال فى الله تعالى: إنه مطيع لنا إذا فعل ما أردناه. و يقال فينا إذا فعلنا ما أَرَادَهُ اللهُ: انه مطيع. و النبى صلى الله عليه و آله فوقنا فلا يكون مطيعاً لنا، فإطلاق ذلك مجاز.

و قوله (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ) بما وعد من استحقاق الثواب عليه (وَزَيَّنَّ فِي قُلُوبِكُمْ) بنصب الأدلة على صحته (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) بما وصفه من العقاب عليه- و هو قول الحسن- و فى الآية دلالة على أن أضداد الايمان ثلاثة كفر و فسوق و عصيان.

ثم قال (أولئك) يعنى الذين وصفهم الله بالايمان، و زين الايمان فى قلوبهم و انه كره اليهم الفسوق و غيره (هم الراشدون) أى المهتدون إلى طريق الحق الذين أصابوا الرشد.

ثم قال (فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً) أى فعل الله ذلك بهم فضلاً منه على خلقه و نعمةً مجددة، و هو نصب على المفعول له- فى قول الزجاج- (وَاللَّهُ عَلِيمٌ) بالأشياء كلها (حكيم) فى جميع أفعاله.

ثم قال (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) يقتل بعضهم بعضاً (فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا) حتى يصطلحا، و قرأ يعقوب (بين إختوتكم) حملة على أنه جمع (أخ) أخوة لأذن الطائفة جمع. و من قرأ على التشية رده إلى لفظ الطائفتين، و قرأ زيد ابن ثابت و ابن سيرين و عاصم الجحدري (بين أخويكم) و المعانى متقاربة. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٦

و قوله (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) لا يدل على أنهما إذا اقتتلا بقيا على الايمان، و يطلق عليهما هذا الاسم، بل لا يمتنع ان يفسق احد الطائفتين او يفسقا جميعاً، و جرى ذلك مجرى ان تقول: و إن طائفة من المؤمنين ارتدت عن الإسلام فاقتلواها. ثم قال (فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ) أى فان بغت إحدى الطائفتين على الأخرى بأن تطلب ما لا يجوز لها و تقابل الأخرى ظالمة لها متعدياً عليها (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي) لأنها هى الظالمة المتعديّة دون الأخرى (حَتَّى تَفِيءَ) إلى أمر الله أى حتى ترجع إلى أمر الله و تترك قتال الطائفة المؤمنة. ثم قال (فَإِنْ فَاءَتْ) أى رجعت و تابت و أقلت و أنابت إلى طاعة الله (فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا) يعنى بينها و بين الطائفة التى كانت على الايمان و لم تخرج عنه بالقول، فلا تميلوا على واحدة منهما (و أقسطوا) أى اعدلوا (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) يعنى العادلين، يقال: أقسط إذا عدل، و قسط إذا جار. قال الله تعالى أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١﴾.

وقيل: إن الآية نزلت فى قبيلتين من الأنصار وقع بينهما حرب و قتال- ذكره الطبرى-.

ثم اخبر تعالى (إنما المؤمنون) الذين يوحدون الله تعالى و يعملون بطاعاته و يقرون بنبوة نبيه و يعملون بما جاء به (أخوة) يلزمهم نصره بعضهم بعضاً (فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) يعنى إذا رجعا جميعاً إلى الحق و ما أمر الله به (وَاتَّقُوا اللَّهَ) أى اجتنبوا معاصيه و افعلا طاعته و اتقوه فى مخالفتكم (لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ) معناه لكى ترحمون لآن (لعل) بمعنى الشك و الشك لا يجوز على الله تعالى، قال الزجاج: سمو المؤمنين إذا كانوا متفقين فى دينهم بأنهم أخوة، لاتفاقهم فى الدين و رجوعهم إلى اصل النسب

(١) سورة ٧٢ الجن آية ١٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٧

لأنهم لآدم و حواء.

قوله تعالى: [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٣٤٧

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعِيدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزُنْجِبُوا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)

خمس آيات. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٨

قرا اهل البصرة (لا- يأتكم) بالهمزة. الباقون (لا يأتكم) بلا همزة، و هما لغتان، يقال: ألت يأت إذا أنقص، و لات يليت مثل ذلك. و في المصحف بلا الف و قال الشاعر:

و ليلة ذات ندى سريت و لم يلتني عن سراها ليت «١»

و معنى الآية لا- ينقصكم من أعمالكم شيئاً، و منه قوله (وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) «٢» أى ما نقصناهم. و قرأ يعقوب (ميتاً) بالتشديد. الباقون بالتخفيف. و التشديد الأصل، و هو مثل سيد و سيد.

يقول الله مخاطباً للمؤمنين الذين وحدوه و أخلصوا العبادة له و صدقوا نبيه و قبلوا ما دعاهم الله اليه (لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ) و معناه لا يهزأ به و يتلهى منه، و قال مجاهد: لا يسخر غنى من فقير لفقره بمعنى لا يهزأ به، و السخرية بالاستهزاء و لو سخر المؤمن من الكافر احتقاراً له لم يكن بذلك مأثوماً، فأما في صفات الله، فلا يقال إلا مجازاً كقوله (فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) «٣» معناه إنا نجازيكم جزاء السخرية.

ثم قال (عسى أن يكونوا خيراً منهم) لأنه ربما كان الفقير المهين في ظاهر الحال خيراً عند الله و أجل منزله و أكثر ثواباً من الغنى الحسن الحال. و قال الجيائي: يجوز أن يكونوا خيراً منهم في منافع الدنيا، و كثرة الانتفاع بهم. و قوله (وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ) أى و لا يسخر نساء من نساء على هذا المعنى (عسى أن يكنَّ خيراً مِنْهُنَّ) و يقال: هذا خير من هذا بمعنى أنفع منه فى ما يقتضيه العقل، و كذلك كان نسب رسول الله صلى الله عليه و آله خير من نسب غيره، ثم قال (وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

(١) تفسير الطبرى ٢٦/ ٨٢ و قد مر فى ٤٤٥/ ٦.

(٢) سورة ٥٢ الطور آية ٢١

(٣) سورة ١١ هود آية ٣٨

بيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٤٩

فاللمز هو الرمى بالعيب لمن لا يجوز ان يؤذى بذكره، و هو المنهى عنه، فأما ذكر عيبه، فليس بلمز، و

روى انه صلى الله عليه و آله قال (قولوا فى الفاسق ما فيه كى يحذره الناس)

و قال الحسن: فى صفة الحجاج أخرج إلينا نباتاً قصيراً قل ما عرفت فيها إلا عنه فى سبيل الله ثم جعل يطبب بشعيرات له، و يقول: يا با سعيد. و لو كان مؤمناً لما قال فيه ذلك. و قال ابن عباس و قتادة: معناه لا يطعن بعضكم على بعض كما قال (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) «١» لان المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه بقتله أخاه قاتل نفسه.

و قوله (وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ) قال ابو عبيدة: الانباز و الألقاب واحد فالنيز القذف باللقب، نهاهم الله أن يلقب بعضهم بعضاً. و قال الضحاك: معناه كل اسم او صفة يكره الإنسان أن يدعى به، فلا يدع به. و إنما يدعى بأحب أسمائه اليه. و قوله (بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ

بَعِيدَ الْإِيمَانِ) لا- يدل على ان المؤمن لا- يكون فاسقاً لأن الايمان و الفسق لا يجتمعان، لأن ذلك يجرى مجرى ان يقال: بشس الحال الفسوق مع الشيب على ان الظاهر يقتضى ان الفسوق الذى يتعقب الايمان بشس الاسم، و ذلك لا يكون إلا كفراً، و هو بشس الاسم. ثم قال (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ) يعنى من معاصيه و يرجع إلى طاعه الله و مات مصرأً (فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) الذين ظلموا نفوسهم بأن فعلوا ما يستحقون به العقاب.

ثم خاطبهم ايضاً فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) أى صدقوا بوحدايته (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ) و إنما قال (كثيراً) لان فى جملته ما يجب العمل عليه، و لا يجوز مخالفته، و قوله (إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) فالظن الذى يكون إثماً

(١) سورة ٤ النساء آية ٢٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥٠

إنما هو ما يفعله صاحبه و له طريق إلى العلم بدلا منه مما يعمل عليه، فهذا ظن محرم لا يجوز فعله، فأما ما لا سبيل له إلى دفعه بالعلم بدلا منه، فليس بإثم، فلذلك كان بعض الظن أثم، دون جميعه، و الظن المحمود قد بينه الله و دل عليه فى قوله (لَوْ لَا إِذْ سَرِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) «١» و قيل: يلزم المؤمن أن يحسن الظن به و لا يسىء الظن فى شىء يجد له تأويلا جميلا، و إن كان ظاهره القبيح. و متى فعل ذلك كان ظنه قبيحاً.

و قوله (و لا تجسسوا) أى لا تتبعوا عثرات المؤمن- فى قول ابن عباس و مجاهد و قتادة- و قال ابو عبيدة التجسس و التحسس واحد و هو التبعث يقال:

رجل جاسوس، و الجاسوس و الناموس واحد. و قيل للمؤمن حق على المؤمن ينافى التجسس عن مساوئه. و قيل: يجب على المؤمن أن يتجنب ذكره المستور عند الناس بقبيح، لان عليهم أن يكذبوه و يردّوا عليه، و إن كان صادقاً عند الله، لان الله ستره عن الناس، و إنما دعى الله تعالى المؤمن إلى حسن الظن فى بعضهم ببعض للألفه و التناصر على الحق، و نهوا عن سوء الظن لما فى ذلك من التقاطع و التدابر.

و قوله (وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا) فالغيبه ذكر العيب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه. و

يروى فى الخبر إذا ذكرت المؤمن بما فيه مما يكرهه الله، فقد اغتبتته و إذا ذكرت بما ليس فيه، فقد بهتته.

و قوله (أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) معناه ان من دعى إلى أكل لحم أخيه فعافته نفسه، فكرهته من جهة طبعه، فانه ينبغى إذا دعى إلى عيب أخيه فعافته نفسه من جهة عقله، فينبغى أن يكرهه، لأن داعى العقل أحق بأن يتبع من داعى الطبع لان داعى الطبع أعمى و داعى العقل بصير، و كلاهما

(١) سورة ٢٤ النور آية ١٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥١

فى صفه الناصح، و هذا من أحسن ما يدل على ما ينبغى ان يجتنب من الكلام.

و فى الكلام حذف، و تقديره أ يجب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً فيقولون: لا، بل عافته نفوسنا، فليل لكم فكرهتموه، فحذف لدلالة الكلام عليه. و قال الحسن:

معناه فكما كرهتم لحمه ميتاً فاكروها غيبته حياً، فهذا هو تقدير الكلام.

و قوله (وَأَتَّقُوا اللَّهَ) معطوف على هذا الفعل المقدر، و مثله (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ) «١» و المعنى أ لم نشرح، قد شرحنا فحمل الثانى على معنى الأول، لأنه لا يجوز ان يقول أ لم وضعنا عنك.

ثم قال (وَأَتَّقُوا اللَّهَ) باجتناب معاصيه وفعل طاعاته (إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ) أى قابل لتوبته من يتوب اليه (رحيم) بهم.

ثم قال (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا) قال قتادة: نزلت الآية فى اعراب مخصوصين انهم قالوا (آمنا) أى صدقنا بالله وأقررنا بنبوتك يا محمد، و كانوا بخلاف ذلك فى بواطنهم، فقال الله تعالى لنبية (قل) لهم (لم تؤمنوا) على الحقيقة فى الباطن (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) أى استسلمنا خوفاً من السبى والقتل - وهو قول سعيد بن جبير وابن زيد - ثم بين فقال (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) بل أنتم كفار فى الباطن.

ثم قال لهم (وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) و ترجعوا إلى ما يأمرانكم به من طاعة الله والانتها عن معاصيه (لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا) أى لا ينقصكم من جزاء أعمالكم شيئاً (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى سائر لذنوبهم إذا تابوا رحيم بهم فى قبول توبتهم.

ثم وصف المؤمن على الحقيقة فقال (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ) على الحقيقة (الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ) و صدقوا و أخلصوا بتوحيده (و رسوله) أى و أقروا بنبوة نبيه

(١) سورة ٩٤ الانشراح آية ١-٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥٢

(ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا) أى لم يشكوا فى شىء من أقوالهما (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ثم قال (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) فى أقوالهم دون من يقول بلسانه ما ليس فى قلبه.

وقوله «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» خطاب للخلق كافة من ولد آدم يقول لهم «إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ» بأجمعكم «مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ يَعْنَىٰ آدَمَ وَ حَوَا عَلَيْهِمَا السَّلام و قال مجاهد:

خلق الله الولد من ماء الرجل و ماء المرأة بدلالة الآية «وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ» فالشعوب النسب الأبعد، و القبائل الأقرب - فى قول مجاهد و قتادة - و قيل الشعوب أعم، و القبائل أخص. و قال قوم: الشعوب الأفخاذ و القبائل أكثر منهم. و الشعوب جمع شعب، و هو الحى العظيم، و القبائل مأخوذ من قبائل الرأس، و قبائل الحقة التى يضم بعضها إلى بعض، فاما الحى العظيم المستقر بنفسه فهو شعب، قال ابن احرمر:

من شعب همدان او سعد العشيرة او خولان او مذحج جواله طرباً «١»

و القبائل جمع قبيلة. و قوله «لتعارفوا» معناه جعلكم كذلك لتعارفوا، فيعرف بعضكم بعضاً. و من قرأ بالياء مشددة، أدغم أحدهما فى الأخرى. و من خفف حذف أحدهما. ثم قال «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» لمعاصيه، و أعملكم بطاعته قال البلخى: اختلف الناس فى فضيلة النسب، فأنكرها قوم، و أثبتها آخرون و القول عندنا فى ذلك انه ليس احد أفضل من مؤمن تقى، فان الحسب و النسب و الشرف لا يغنيان فى الدين شيئاً، لأن لهما فضلاً كفضل الخز على الكرباس و الكتان على البهارى و كفضل الشيخ على الشاب. فان الطبائع مبنية و الإجماع واقع على أن شيخاً و شاباً لو استويا فى الفضل فى الدين لقدم الشيخ على الشاب

(١) الطبرى ٢٦ / ٨٠ نسبة الى ابن عمر الباهلى و روايته (هاجرأ له) بدل (جواله)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥٣

و زيد فى تعظيمه و تبجيله، و كذلك الأب و الابن لو استويا فى الفضل فى الدين لقدم الأب، و كذلك السيد و عبده. و هذا مما لا خلاف فيه بين العقلاء، و كذلك لو أن رجلين استويا فى الدين ثم كان أحدهما له قرابة برسول الله أو بالخيار الصالحين لوجب أن يقدم المتصل برسول الله و بالصالح، و يزداد إكرامه فى تعظيمه و تبجيله، و كذلك إذا استويا و كان فى آباء أحدهما أنبياء ثلاثة و أربعة، و كان فى آباء الآخر نبى واحد كان الأول مستحقاً للتقديم، و كذلك لو كان لأحدهم أب نبى إلا انه من الأنبياء المتقدمين، و كان ابو الآخر هو النبى الذى بعث إلينا كان الثانى أعظم حقاً و أحق بالتقديم، و كذلك لو كان أحدهما له آباء معروفون بالفضل و

الأخلاق الجميلة والأفعال الشريفة وبالوقار والنجدة والأدب والعلم كانت الطباع مبنية على تقديمه على الآخر. فان قيل: الطباع مبنية على تقديم ذوى المال فيجب ان يكون الغنى وكثرة المال شرفاً. قلنا: كذلك هو لا ننكر هذا ولا ندفعه. فان قيل: إذا كان لأحدهما مال لا يبذل، والآخر قليل المال يبذل قدر ما يملكه من الحقوق ويضعه في مواضعه؟ قلنا الباذل أفضل من الذى لا يبذل. وإنما تكلمنا فى الرجلين إذا استويا فى خصالهما وفضل أحدهما كثره المال و كان واضعاً له فى موضعه بإذلاله فى حقوقه و كذلك لو أن رجلاً كان ذا حسب و شرف فى آباءه إلا انه كان فاسقاً او سخيلاً او ضيعاً فى نفسه كان الذى لا حسب له و هو عفيف نبيل أفضل منه بالأوصاف التى لا تخفى. و كان حسب ذلك السخيف مما يزيد و بالا، و معنى الحسب أنه يحسب لنفسه آباءً أشرافاً فضلاً، و عمومته و أخوه- انتهى كلام البلخى-.

وقوله «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» يعنى بمن يعمل طاعاته و يتقى معاصيه «خير» التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥٤
بذلك لا- يخفى عليه شىء من ذلك. ثم وصف المؤمنين الذين تقدم ذكرهم فقال «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» على الحقيقة الذين يستحقون ثواب الله تعالى.

قوله تعالى: [سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١٦ الى ١٨]..... ص: ٣٥٤

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بِلِ اللَّهِ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)
ثلاث آيات.

قرأ ابن كثير وحده «بما يعملون» بالياء على الغيبة. الباقيون بالتاء على الخطاب.
يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله «قل» لهؤلاء الكفار «أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» فالتعليم تعريض من لا يعلم حتى يعلم بافهام المعنى او خلق العلم له فى قلبه، فعلى هذا لا يجوز ان يعلم العالم لنفسه الذى يعلم المعلومات كلها بنفسه، ولا يحتاج إلى من يعلمه ولا إلى علم يعلم به، كما انه من يكون قديماً بنفسه استغنى عن موجد يوجده، و إنما يحتاج إلى التعليم من يجوز أن يعلم و ألا يعلم، و من يخفى عليه شىء دون شىء، ففى الآية دلالة على ان العالم بكل وجه لا يجوز ان يعلم. و المعنى بالآية هم الذين ذكرهم فى الآية الأولى و بين أنهم منافقون لقول الله لهم «أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ» إنا آمنّا بالله و برسوله، و هو تعالى يعلم منكم خلاف ذلك من الكفر و النفاق، فلفظه لفظ الاستفهام و المراد التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥٥
به الإنكار.

ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وآله فقال «يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا» فالمن القطع بإيصال النفع الموجب للحق، و منه قوله «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» «١» أى غير مقطوع، و منه قولهم: المنّة تكدر الصنيعة و قيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنّة. و من لا أحد إلا و هو محتاج اليه، فليس فى منه تكدير النعمة، لان الحاجة لازمة لامتناع أن يستغنى عنه بغيره. و اكثر المفسرين على ان الآية نزلت فى المنافقين. و قال الحسن: نزلت فى قوم من المسلمين قالوا: أسلمنا يا رسول الله قبل ان يسلم بنو فلان، و قاتلنا معك بنى فلان. و قال الفراء: نزلت فى اعراب من بنى أسد قدموا على النبی صلى الله عليه وآله و آله بعيالاتهم طمعاً فى الصدقة، و كانوا يقولون أعطنا، فانا أتيناك بالعيال و الأثقال و جاءتك العرب على ظهور رواحلها، فأنزل الله فيهم الآية. ثم قال «بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ» بأنواع نعمه و «بِ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ» و أرشدكم اليه بما نصب لكم من الأدلة عليه و رغبتكم فيه «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فى إيمانكم الذى تدعونه.
و متى كنتم صادقين يجب أن تعلموا ان المنّة لله عليكم فى إيمانكم، لا لكم على الله و رسوله.

و موضع «أَنْ أَسْلَمُوا» نصب ب «يمنوا» و هو مفعول به. و قيل: موضعه الجر، لأن تقديره بأن اسلموا. ثم قال إن الله يعلم غيب السموات والأرض و الله بصير بما يعملون من طاعة و معصية و إيمان و كفر فى باطن او ظاهر لا يخفى عليه شىء من ذلك.

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥٦

٥٠-سورة ق.....ص: ٣٥٦

إشارة

مكية بلا خلاف: و هى خمس و أربعون آية بلا خلاف.

[سورة ق (٥٠): الآيات ١ الى ٥].....ص: ٣٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أِذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)
قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)
بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)
لم يعد أحد (ق) آية، و كذلك نظائره مثل (ن) و (ص) لأنه من المفرد، و كل مفرد فانه لا يعد لعده عن شبه الجملة. و أما المركب فما أشبه الجملة و وافق رؤس الآى، فانه يعد مثل (طه) و (حم) و (الم) و ما أشبه ذلك.
و (قاف) قيل هو اسم للجبل المحيط بالأرض. و قيل: هو اسم من اسماء السورة و مفتاحها على ما بيناه فى حروف المعجم. و هو الأقوى. و قيل: (ق) من قضى الأمر و (حم) من حم أى دنا.
و قوله «و القرآن» قسم من الله تعالى بالقرآن. و جواب القسم محذوف، و تقديره لحق الأمر الذى وعدتم به انكم لمبعوثون، تعجبوا فقالوا «أ إذا مِثْنَا التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥٧
وَ كُنَّا تُرَابًا»

! و قيل: تقديره: و رب القرآن. و استدل بذلك على حدوثه، و هو خلاف الظاهر. و المجيد العظيم الكرم. و وصف القرآن و بعثه بأنه مجيد معناه أنه عظيم القدر عالى الذكر. و يقال مجد الرجل و مجد مجداً و هما لغتان إذا عظم كرمه و أمجد كرمته فعالة، و المجيد فى اسم الله تعالى العظيم الكرم، و مجده خلقه: عظموه بكرمه، و رجل ماجد عظيم الكرم. و تماجد القوم تماجداً، و ذلك إذا تفاخروا بإظهار مجدهم. و المجد مأخوذ من قولهم: مجدت الإبل مجوداً، و ذلك إذا عظمت بطونها لكثرة أكلها من كلاً الربيع. و أمجد القوم إبلهم و ذلك فى الربيع، كأنهم أصابوا أكلاً عظيماً كريماً قال الشاعر:

رفعت مجد تميم باهلال لها رفع الطراف على العلياء بالعمد «١»

و قوله «بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ» اخبار منه تعالى عن حال الكافرين الذين بعث الله اليهم النبي صلى الله عليه و آله من كفار قريش و غيرهم مخوفاً لهم من معاصيه و ترك طاعاته باستحقاق العقاب على ذلك و انه تعالى سيعذبهم و يجازيهم على ذلك بعد الموت، فقال الكافرون جواباً لهذا القول:

هذا شىء عجيب، و التعجب بشير النفس تعظيم الأمر الخارج عن العادة الذى لا يقع بسببه معرفه، يقال عجب عجباً و تعجب تعجباً،

فالذى يتعجب منه عجب.

وقيل: العجب هو كل ما لا يعرف علته ولا سببه، وأفحش العجب التعجب مما ليس بعجب على طريق الإنكار للحق، لأنه يجتمع فيه سببا القبيح، فهؤلاء تعجبوا من مجيء النذير من الله تعالى اليهم ففد فحشوا غاية التفحش، مع انه مما يعظم ضرر الجهل به. ثم قالوا أيضاً فى الجواب عن ذلك انذا متنا و خرجنا من كوننا أحياء و كنا تراباً يبعثنا الله؟! و حذف لدلالة الكلام عليه. ثم قالوا «ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ»

(١) مر فى ٣٤ / ٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥٨

أى يبعد عندنا أن نبعث بعد الموت، لأن ذلك غير ممكن، فقال الله تعالى «قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ» أى علمنا الذى تأكل الأرض من لحومهم، لا- يخفى علينا شىء منه «وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ» أى ممتنع الذهاب بالبلى والدروس، كل ذلك ثابت فيه ولا يخفى منه شىء و هو اللوح المحفوظ ثم قال «بَلْ كَذَّبُوا بِآلِ هَاقٍ لَمَّا جَاءَهُمْ» يعنى بالنبي و القرآن الذى جاء به دالا على صدقه، و بالبعث و النشور، الذى أنذرهم به فهم فى أمر مريج أى مختلط ملتبس واصله إرسال الشىء مع غيره فى المريج من قولهم: مرج الخيل المذكور مع الإناث و هو مرج بالخيول أى المسرح الذى يمرج فيه، و «مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ» أرسلهما فى مرج «يَلْتَقِيَانِ» و لا يختلطان.

و قوله «مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ» أى مرسل الشعاع بانتشاره. قال ابو ذؤيب

فحالت فالتمست به حشاها فخر كأنه غصن مريج (١)

أى قد التبس بكثرة تشعبه و مرجت عهودهم و أمرجوها أى خلطوها، و لم يفوا بها. و قال ابو عبيدة: مرج أمر الناس إذا اختلط، قال ابو ذؤيب

(فخر كأنه خوط مريج) أى سهم مختلط الأمر باضطرابه، فهؤلاء الكفار حصلوا فى أمر مختلط ملتبس من أمر النبي صلى الله عليه و آله، فقالوا تارة هو مجنون و أخرى هو كاهن و أخرى هو شاعر، فلم يثبتوا على شىء واحد، فلذلك كانوا فى أمر مريج.

قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٦ الى ١١]..... ص: ٣٥٨

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا وَ مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أُنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَ النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)

(١) الطبرى ٢٦ / ٨٦ و روايته

(فحط كأنه حوط مريج) [.....]

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٥٩

ست آيات.

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم كذبوا بالحق الذى هو القرآن و جحدوا البعث و النشور و الثواب و العقاب، و تعجبوا من ذلك نبههم الله تعالى على ذلك و بين لهم الطريق الذى إذا نظروا فيه علموا صحته، فقال «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيَّنَّاهَا» و معناه أ فلم يفكروا فى بناء هذه السماء و عظمها، و حسن تزيينها فيعلموا أن لها بانياً بناها و صانعاً صنعها و انه لا بد أن يكون

قادرًا عليها، وانه لا يعجزه شيء، لأنه لا يقدر على مثل ذلك إلا القادر لنفسه الذي لا يجوز عليه العجز و يعلمه، لأنه عالم بما يرون من إحكام الصنعة فيها و انه الذي لا يخفى عليه خافية و قوله «وَزَيَّنَّاها» يعنى حسنا صورتها بما خلقنا فيها من النجوم الثاقبة و الشمس و القمر، و انه «ما لها مِنْ فُروجٍ» أى ليس فيها فتوق يمكن السلوك فيها و إنما يسلكها الملائكة بأن يفتح لها أبواب السماء إذا عرجت إليها.

ثم قال «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا» أى بسطانها، و تقديره و مددنا الأرض مددناها، كما قال «وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ» (١) «فيمن نصب و لو رفع كان جائزاً، و النصب أحسن - هاهنا- لكونه معطوفاً على بنيناها، فعطف الفعل على الفعل احسن.

ثم قال «وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ» أى طرحنا جبالات تمنعها من الحركة ليتمكن استقرار الحيوان عليها «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» قال ابن زيد: البهيج الحسن المنظر و البهجة الحسن الذى له روعة عند الرؤية، كالزهره و الأشجار الملتفة

(١) سورة ٣٦ يس آية ٣٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦٠

و الرياض الخضرة فى الأنواع المتشاكله و المباري المصطفاه خلالها الأنهار الجارية.

و قوله «تَبَصَّرَةٌ وَ ذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ» أى فعلنا ذلك و خلقناه على ما وصفناه ليتبصر به و يتفكر به كل مكلف كامل العقل يريد الرجوع إلى الله و الانابة إليه.

ثم قال «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا» يعنى مطراً و غيثاً «فَأَنْبَتْنَا بِهِ» ذلك الماء «جَنَّاتٍ» أى بساتين فيها أشجار تجننها «وَحَبَّ الْحَصِيدِ» يعنى البر و الشعير، و كل ما يحصد- فى قول قتاده- لان من شأنه ان يحصد، و الحب هو الحصيد، و إنما أضافه إلى نفسه، كما قال «لَحَقُّ الْيَقِينِ» (١) و كما قالوا: مسجد الجامع و غير ذلك. و قوله «وَالنَّخْلَ» عطف على (جنان) فلذلك نصبه و «باسقات» أى عاليات يقال: بسقت النخلة بسوقاً قال ابن نوفل لابن هبيرة:

يا بن الذين بفضلهم بسقت على قيس فزاره (٢)

و قال ابن عباس «باسقات» طوال النخل، و به قال مجاهد و قتاده «لها طلع نضيد» أى لهذه النخل التى وصفها بالعلو «طلع نضيد» نضد بعضه على بعض- فى قول مجاهد و قتاده- و قوله «رِزْقًا لِلْعِبَادِ» أى خلقنا ما ذكرنا من حب الحصيد و الطلع النضيد رزقاً للعباد و غذاء لهم، و هو نصب على المصدر أى رزقناهم رزقاً، و يجوز أن يكون مفعولاً له أى لرزق العباد و الرزق هو ما للحى الانتفاع به على وجه ليس لغيره منعه منه، و الحرام ليس برزق، لان الله تعالى منع منه بالنهى و الحظر و كل رزق فهو من الله تعالى إما بأن يفعله او يفعل سببه، لأنه مما يريد. و قد يرزق الواحد منا غيره، كما يقال: رزق السلطان الجند.

و قوله «وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا» أى أحيينا بذلك الماء الذى أنزلنا من السماء

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٥١

(٢) تفسير الطبرى ٨٧/٢٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦١

بلدة ميتاً أى جدياً قطعاً، لا تنبت شيئاً، فأنبتت و عاشت ثم قال «كَذَلِكَ الْخُرُوجُ» أى مثل ما أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء، مثل ذلك نحى الموتى يوم القيامة فيخرجون من قبورهم لأن من قدر على أحدهما قدر على الآخر، و إنما دخلت على القوم شبهة من حيث انهم رأوا العادة جارية باحياء الأرض الموات بنزول المطر عليها، و لم يروا إحياء الأموات، فظنوا انه يخالف ذلك، و لو انعموا النظر لعلموا ان القادر على أحدهما قادر على الآخر.

قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ١٢ الى ١٥]..... ص: ٣٦١

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)

أربع آيات.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله تسلياً له عن كفر قومه وتركهم الإيمان به ومهدداً لكفار قومه أنه كما كذبوك يا محمد هؤلاء وجحدوا نبوتك مثل ذلك كذب قبلهم من الأمم الماضية قوم نوح فأهلكهم الله وأغرقهم وأصحاب الرس وهم أصحاب البشر الذين قتلوا نبيهم ورسوله فيها- في قول عكرمة- وقال الضحاك: الرس بئر قتل فيها صاحب ياسين. وقيل: الرس بئر لم يطر بحجر ولا غيره. قال الجعدي:

تنابلة يحفرون الرساسا «١»

(١) مر في ٧/ ٤٩٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦٢

و «ثمود» هم قوم صالح حيث كذبوه ونحروا ناقه الله التي أخرجها آية له من الجبل «و عاد» وهم قوم هود، فكذبوه فأهلكهم الله «و فِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ» أى كذب فرعون موسى، وقوم لوط لوطاً، و سماهم اخوته لكونهم من نسبه «و أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ» وهم قوم شعيب، و الايكة الغيظة «وَقَوْمُ تُبَّعٍ»

روى في الحديث لا تلعنوا تبعاً، فانه كان اسلم، وإنما ذم الله قومه.

ثم اخبر تعالى عنهم كلهم فقال «كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ» المبعوثه اليهم، و جحدوا نبوتهم «فَحَقَّ وَعِيدِ» فاستحقوا بما وعدهم به من العقاب، فإذا كانت منازل الأمم الخيالية إذا كذبوا الرسل الهلاك والدمار، وأنتم معاشر الكفار قد سلكتم مسلكهم فى التكذيب فحالكم كحالهم فى استحقاق مثل ذلك. ثم قال الله تعالى على وجه الإنكار عليهم، بلفظ الاستفهام «أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ» قال الحسن الخلق الأول آدم وقد يكون ذلك المراد لإقرارهم به وانهم ولده يقال: عييت بالأمر إذا لم يعرف وجهه وأعييت إذا تعبت، و كل ذلك من التعب فى الطلب. والمعنى إنا كما لم نعي بالخلق الأول لا نعي بخلقهم على وجه الاعادة، والعى عجز بانقلاب المعنى على النفس، ثم قال «بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ» فاللبس منع من إدراك المعنى بما هو كالستر له «مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» وهو القريب الإنشاء، يقال: بناء جديد و ثوب جديد، و خلق جديد و أصله القريب العهد، بالقطع للبس لأنه من جدده أجدده جداً إذا قطعتة فهو كفرت العهد بالقطع للبس.

قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٣٦٢

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَمْ يَدْهِهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦٣

خمس آيات.

يقول الله تعالى مقسماً إنه خلق الإنسان أى اخترعه و انشأه مقدراً. و الخلق الفعل الواقع على تقدير و ترتيب. و المعنى إنه يوجد على

ما تقتضيه الحكمة من غير زيادة ولا نقصان. وأخبر انه يعلم ما يوسوس به صدر الإنسان. فالوسوسة حديث النفس بالشئ في خفي، ومنه قوله «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ» (١) ومنه الوسواس كثرة حديث النفس بالشئ من غير تحصيل قال رؤية: وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق (٢) ثم أخبر تعالى انه أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد. قال ابن عباس ومجاهد: الوريد عرق في الحلق وهما وريدان في العنق: من عن يمين وشمال، وكأنه العرق الذي يرد إليه ما ينصب من الرأس، فسبحان الله الخلاق العليم الذي أحسن الخلق والتدبير، وجعل جبل الوريد العاتق، وهو يتصل من الحلق إلى العاتق هذا العرق الممتد للإنسان من ناحيتي حلقه إلى عاتقه، وهو الموضع الذي يقع الرداء عليه لأنه يطلق الرداء من موضعه. قال رؤية: كان وريديه رشا خلب أي ليف. وقال الحسن: الوريد الوتين: وهو عرق معلق به القلب، فالله تعالى أقرب إلى المرء من قلبه. وقيل: المعنى ونحن أقرب إليه ممن كان بمنزلة جبل

(١) سورة ٢٠ طه آية ١٢٠

(٢) مر في ٣٩٧ / ٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦٤

الوريد في القرب في أنى أعلم به. وقيل: معناه أقرب إليه بما يدركه من جبل الوريد لو كان مدركاً. وقيل: ونحن أملك به من جبل الوريد في الاستيلاء عليه، وذلك أن جبل الوريد في حيز غير حيزه. والله تعالى مدرك بنفسه ومالك له بنفسه. وقوله «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ» (إذ) متعلقه بقوله «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ» حين يتلقى المتلقيان، يعنى الملكين الموكلين بالإنسان «عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ» أي عن يمينه وعن شماله. وإنما وحد «قعيد» لاحد وجهين: أحدهما- إنه حذف من الأول لدلالة الثاني عليه، كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأى مختلف (١)

أي نحن بما عندنا رضوان، فتقدير الآية عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد الثاني- إنه يكون القعيد على لفظ الواحد، ويصلح للثنتين والجمع كالرسول لأنه من صفات المبالغة، وفيه معنى المصدر، كأنه قيل: ذو المراقبة. وقال مجاهد: القعيد الرصيد، وقيل: عن اليمين ملك يكتب الحسنات، وعن الشمال ملك يكتب السيئات- في قول الحسن ومجاهد- وقال الحسن: حتى إذا مات طويت صحيفته عمله وقيل له يوم القيامة «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» (٢) فقد عدل- والله- عليه من جعله حسيب نفسه. وقال الحسن: الحفظ أربعة: ملكان بالنهار و ملكان بالليل. وقوله «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» أي لا- يتكلم بشئ من القول إلا- وعنده حافظ يحفظ عليه، فالرقيب الحافظ والععيد المعد للزوم الأمر.

وقوله «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ» قيل في معناه قولان:

أحدهما- جاءت السكرة بالحق من أمر الآخرة حتى عرفه صاحبه واضطر إليه

(١) مر في ١ / ١٧٢، ٢٠٣، ٢٦٣ و ٥ / ٣٤٦، ٢٨٩ و ٨ / ٤٥٧

(٢) سورة ١٧ الإسراء آية ١٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦٥

والآخر- وجاءت سكرة الموت بالحق الذي هو الموت. و

روى ان أبا بكر و ابن مسعود كانا يقرآن «و جاءت سكرة الحق بالموت» و هى قراءة أهل البيت عليهم السلام

و (سكرة الموت) غمرة الموت التي تأخذه عند نزع روحه فيصير بمنزلة السكران.

وقوله «ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ» أى يقال له عند ذلك هذا الذى كنت منه تهرب و تروغ. وقوله «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ» قيل فيه وجهان: أحدهما - إنه جمع صورة ينفخ الله فى الصور بأن يحييها يوم القيامة.

الثانى - ان الصور قرن ينفخ إسرافيل فيه النفخة الأولى فيموت الخلق، و النفخة الثانية فيحيون يوم القيامة، و هو يوم الوعيد الذى وعد الله أن يعاقب فيه من يكفر به و يعصى أمره، و يثيب من يؤمن به و يمتثل.

قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٣٦٥

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) خمس آيات.

يقول الله تعالى إن يوم الوعيد الذى بينه تجيء كل نفس من المكلفين «معها سائق» يسوقها «و شهيد» يشهد عليها، و هما ملكان أحدهما يسوقه و يحثه على السير، و الآخر يشهد عليه بما يعلمه من حاله و يشاهده منه و كتبه عليه، فهو يشهد بذلك على ما بينه الله و دبره. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦٦

وقوله «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ» أى يقال له «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ» أى فى سهو و نسيان «من هذا» اليوم، فالغفلة ذهاب المعنى عن النفس، و ضده اليقظة.

وقوله «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ» أى أزلنا الغطاء عنك حتى ظهر لك الأمر، و إنما تظهر الأمور فى الآخرة بما يخلق الله فيهم من العلوم الضرورية، فيصير بمنزلة كشف الغطاء عما يرى، و المراد به جميع المكلفين: برهم و فاجرهم، لان معارف الجميع ضرورية، و قوله «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» معناه إن عينك حادة النظر لا يدخل عليها شك و لا شبهة. و قيل: المعنى فعلمك بما كنت فيه من أحوال الدنيا نافذ ليس يراد به بصر العين، كما يقال: فلان بصير بالبحر أو بالفقه. و قال الرماني:

حديد مشتق من الحد، و معناه منيع من الإدخال فى الشئ ما ليس منه و الإخراج عنه ما هو منه، و ذلك فى صفة رؤيته للأشياء فى الآخرة.

وقوله «وَقَالَ قَرِينُهُ» قال الحسن و قتادة و ابن زيد: يعنى الملك الشهيد عليه. و قال بعضهم: قرينه من الشياطين. و الأول الوجه «هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ» أى معد محفوظ «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ» إنما قيل: ألقيا، لأن المأمور به إلقاء كل كافر فى النار اثنان من الملائكة. و قيل: يجوز ان يكون على لفظ الاثنين و المأمور واحد، لأنه بمنزلة إلقاء اثنين فى شدته، كما قال الشاعر:

فان تزجرانى يا بن عفان انزجر و إن تدعانى ام عرضاً ممنعا «١»

و الأول اظهر، و حكى الزجاج عن بعض النحويين: ان العرب تأمر الواحد بلفظ الاثنين تقول: قوما، و اقعدا، قال الزجاج: (يا حرسى اضربا عنقه) و إنما قالوا ذلك، لأن أكثر ما يتكلم به العرب فيمن تأمر به بلفظ الاثنين نحو خيلى مرابى على أم جندب «٢»

(١) تفسير القرطبي ١٦/١٧

(٢) قائله امرؤ القيس ديوانه ٢٧ القصيدة ٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦٧

و قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل «١» و قال المبرد هذا فعل مبنى للتأكيد، كأنه قال: ألقى ألقى، و العنيد الذهاب عن الحق و سبيل الرشد «مناخ للخير» الذى أمر الله به من بذل المال فى وجوهه من الزكاة و غيرها، لأنه صفة ذم تعم منع الخير الذى يجب بذله. و يدخل فيه الأول على وجهه التبعية «معتد» أى متجاوز للحق فى قوله و فعله (مريب) أى آت من المنكر بما يشكك فى أمره.

قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٣٦٧

الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)

خمس آيات.

قرأ نافع و ابو بكر عن عاصم (يوم يقول) بالياء بمعنى يقول الله تعالى (لجهنم) الباقون بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه و (يوم) متعلق بقوله (ما يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) و قيل: إنه متعلق بمحذوف بتقدير (اذكر) يا محمد يوم، و قوله (الذى جعل) موضعه الجر، لأنه من صفة (كفار عنيد مناع للخير معتد مريب)... الذى جعل مع الله إلهاً آخر) أى اتخذ مع الله معبوداً آخر من الأصنام و الأوثان، و وجه قرباته اليه. و الجعل تكوين الشئ على

(١) قائله امرؤ القيس ديوانه ٤٣ قصيدة ٥٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦٨

غير ما كان بقادر عليه فمن جعل مع الله إله آخر فقد صير ذلك الشئ على غير ما كان عليه باعتقاده انه إله آخر مع الله و ذلك جهل منه عظيم و ذهاب عن الصواب بعيد، فيقول الله للملكين الموكلين به يوم القيامة (ألقياه) أى اطرحاه (فى العذاب الشديد) و الإلقاء الرمى بالشئ إلى جهة السفلى، و قولهم: ألقى عليه مسألة بمعنى طرحها عليه مشبه بذلك. و اصل إلقاء المماسه، و الالتقاء من هذا ففى الإلقاء طلب مماسه الشئ الأرض بالرمى (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) قال ابن عباس: قرينه- هاهنا- شيطانه. و به قال مجاهد و قتادة و الضحاك. و سمي قرينه لأنه يقرن به فى العذاب، و هو غير قرينه الذى معه يشهد عليه، و القرين نظير الشئ من جهة مصيره بإزارته.

حكى الله عن شيطانه الذى أغواه انه يقول «مَا أَطْغَيْتُهُ» فالأطغاء الإخراج إلى الطغيان، و هو تجاوز الحد فى الفساد أطغاه و طغى يطغى طغياناً، فهو طاغ.

و الاول مطغى. و قال الحسن: ما أطغيته باستكراه، و هو من دعاه إلى الطغيان.

و المعنى لم أجعله طاغياً «وَلَكِنْ كَانَ» هو بسوء اختياره «فِي ضَلَالٍ» عن الايمان «بَعِيدٍ» عن إتباعه. و مثله قوله «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» «١» فيقول الله تعالى لهم «لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ أَيْ لَا يَخَاصِمُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عِنْدِي (وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ) فَمَنْ تَزَجَرُوا وَ خَالَفْتُمْ أَمْرِي (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىَّ) معناه إن الذى قدمته إليكم فى الدنيا من أنى أعاقب من جحدنى و كذب برسلى و خالفنى فى أمرى لا يبدل بغيره، و لا يكون خلافه (وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) أى لست بظالم لاحد فى عقابى لمن استحقه بل هو الظلام لنفسه بارتكاب المعاصى التى استحق بها ذلك. و إنما قال: بظلام للعبيد على وجه المبالغة رداً لقول من أضاف جميع الظلم اليه- تعالى الله عن ذلك-.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٦٩

وقوله (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ) من قرأ بالنون فعلى وجه الاخبار من الله عن نفسه. و من قرأ - بالياء - و هو نافع و ابو بكر، فعلى تقدير يقول الله لجهنم (هل امتلأت) من كثرة من ألقى فيك من العصاة (فتقول) جهنم (هل من مزيد) أى ما من مزيد؟؟ أى ليس يسعنى اكثر من ذلك. و قال قوم: هذا خطاب من الله لخزنة جهنم على وجه التقرير و التقرير لهم هل امتلأت جهنم، فتقول الخزنة هل من مزيد؟ و قال قوم: و هو الأظهر إن الكلام خرج مخرج المثل أى ان جهنم من سعتها و عظمتها فى ما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة التى إذا قيل لها هل امتلأت فتقول هل من مزيد أى لم أمتلى أى فى سعة كثرة، و مثله قول الشاعر:

امتلاً الحوض و قال قطنى مهلاً رويداً قد ملأت بطنى «١»

و الحوض لم يقل شيئاً، وإنما أخبر عن امتلائها و انها لو كانت ممن تنطق لقالت قطنى مهلاً رويداً قد ملأت بطنى. و كذلك القول فى الآية. و قال الحسن و عمرو بن عبيد و واصل بن عطاء: معنى هل من مزيد ما من مزيد، و انه بمعنى لا مزيد و أنكروا أن يكون طلباً للزيادة، لقوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) «٢» و قال بعضهم: هذا ليس بمنكر من وجهين: أحدهما - أن يكون ذلك حكاية عن الحال التى قبل دخول جميع اهل النار فيها و لم تمتلأ بعد و ان امتلأت فى ما بعد. و الآخر - ان يكون طلب الزيادة بشرط ان يزداد فى سعتها. و قال قوم:

هل من مزيد بمنزلة

قول النبى صلى الله عليه و آله يوم فتح مكة و قد قيل له ألا تنزل دارك، فقال (و هل ترك لنا عقيل من ريع)

لأنه كل قد باع دور بنى هاشم لما خرجوا

(١) مر فى ١ / ٤٣١ و ٨ / ٨٥، ٣٦٩، ٤٧١

(٢) سورة ١١ هود آية ١١٩ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧٠

إلى المدينة، و إنما أراد ان يقول: لم يترك لنا داراً. و قال انس بن مالك: هل من مزيد طلباً للزيادة. و قال مجاهد: هو بمعنى الكفاية.

قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٣١ الى ٣٥] ص: ٣٧٠

وَأَزْلَقَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هذا ما توعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) خمس آيات.

لما حكى الله تعالى ما أعده للكافرين و العصاة من جهنم و عظم موضعها وسعتها أخبر عما أعده للمتقين المجتنبين لمعاصيه الفاعلين لطاعاته فقال (وَأَزْلَقَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ) و الازلاف التقريب إلى الخير، و منه الزلفة، و الزلقى. و يقولون: أزدلف إليه أى اقترب و المزدلفة قريب من الموقف. و هو المشعر و جمع، و منه قول الراجز:

ناج طواه الأين مما و جفا طى الليالى زلفا فلزلفا سماؤه الهلال حتى احقوقفا «١» و الجنة التى وعد الله المتقين بها هى البستان الذى يجمع من اللذة ارفع كل نوع فى الزينة من الابنية الفاخرة بالياقوت و الزمرد و فاخر الجواهر، و من الأنهار و الأشجار و طيب الثمار و من الأزواج الكرام و الحور الحسان و كريم الخدم من الولدان الذين هم زينة لكل ناظر و متعة لكل مبصر، قد أمن أهلها العلة و انواع

(١) مر فى ٦ / ٧٩ و ٨ / ٢٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧١

الأذى من فضول الاطعمة و الاشربة، نسأل الله حسن الاستعداد لها بالعمل الصالح المقرب منها الموجب لرضوان مالكها. وقوله (غير بعيد) أى ليس ببعيد مجيء ذلك، لان كل آت قريب، ولذلك قال الحسن: كأنك بالدنيا لم تكن و بالآخرة لم تزل. ثم قال (هذا ما توعّدون) من قرأ بالتاء فعلى الخطاب أى هذا الذى ذكرناه هو ما وعدتم به من الثواب (لكل أواب) أى رجاع إلى الله تائب اليه (حفيظ) لما أمر الله به يتحفظ من الخروج الى مالا يجوز من سيئه تدنسه او خطيئه تحط منه و تشينه. و قال ابن زيد: الأواب التواب، و هو من آب يؤب أوباً إذا رجع.

وقوله (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) فالخشية انزعاج القلب عند ذكر السيئه و داعى الشهوة حتى يكون فى أعظم حال من طلبه سبع يفترسه او عدو يأتى على نفسه او طعام مسموم يدعى إلى اكله هذه خشية الرحمن التى تنفعه و التى دعا إليها ربه و معنى (بالغيب) أى فى باطنه و سريره (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) أى راجع إلى الله من أناب ينب إنابة، و موضع (من) يحتمل وجهين من الاعراب: أحدهما- الجر على البدن من (كل) كأنه قيل لمن خشى.

و الثانى- الرفع على الاستئناف كأنه قال (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) يقال لهم (ادْخُلُوا بِسَلَامٍ) أى بأمان من كل مكروه و يحيون بذلك على وجه الإكرام.

وقوله (ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ) أى الوقت الذى يبقون فيه فى النعيم مؤبدين لا إلى غاية.

وقوله (أَلَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا) أى ما يريدونه و يشتهونه يجعل لهم فيها (و لدينا مزيد) من نعم الله الذى يعطيهم زيادة على مقدار استحقاقهم بعملهم.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧٢

قوله تعالى: (سورة ق (٥٠): الآيات ٣٦ الى ٤٠)..... ص: ٣٧٢

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)

خمس آيات قرأ (و إدبار) بكسر الألف ابن كثير و نافع و اهل الحجاز و حمزة على المصدر من أدبر إدباراً، و تقديره وقت إدبار السجود. و المصادر تجعل ظرفاً على إرادة اضافة اسماء الزمان إليها و حذفها، كقولهم جئتكم مقدم الحاج و خوق النجم و نحو ذلك يريدون فى ذلك كله وقت كذا و كذا فحذفوه. الباقون بفتح الألف على انه جمع (دبر):

يقول الله تعالى مخبراً (وَكَمْ أَهْلَكْنَا) و معناه و كثيراً أهلكنا و ذلك أن (كم) تكون استفهاماً تارة فى معنى الخبر للتكثير و إنما خرجت عن الاستفهام إلى التكثير لتكون نقيضة (رب) فى التقليل و كانت أحق به، لأنها (اسم) مع احتمالها للتقليل، فأما رب فى الكلام، فهى حرف يجرى مجرى حرف النفى، لان التقليل أقرب إلى النفى، و إنما وجب ل (كم) صدر الكلام فى الخبر إعلاماً بأنها خرجت عن الاستفهام مع انها نقيضة (رب) التى هى بمنزلة حروف النفى، و دخلت (من) على مفسر (كم) فى الخبر بمنزلة عدد يفسر بالمضاف كقولك عشر أثواب، و عشرة من الأثواب. فجاز حرف الاضافة التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧٣

كما جازت الاضافة. و ليس كذلك عشرون درهماً، و جاز ان يفسر فى الخبر بالواحد و بالجمع: و القرن المقدار من الزمان الذى يقترب بالبقاء فيه أهله على مجرى العادة، و قال قوم: هو مائة و عشرون سنة. و قيل: ثمانون سنة و قال آخرون:

هو سبعون سنة. و قال قوم: أربعون سنة. و قيل ثلاثون سنة. و قيل: عشر سنين «هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا» أى الذين أهلكناهم مثل هؤلاء الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء و اكثر عدة كقوم عاد و غيرهم فلم يتعذر علينا ذلك، فما الذى يؤمن هؤلاء من مثل ذلك.

وقوله (فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ) أى فتحوا مسالك فى البلاد بشده بطشهم فالتنقيب التفتيح بما يصلح للسلوك من نقض البنيه، و منه النقب الفتح الذى يصلح للمسلک و قد يفتح الله على العباد فى الرزق بأن يوسع عليهم فى رزقهم، و لا يصلح فيه النقب. و كل نقب فتح. و ليس كل فتح نقباً، فالنقب نقض موضع بما يصلح للسلوك. و قال مجاهد: نقبوا فى البلاد أى ضربوا فى الأرض ضرب جاعل المسالك بالنقب، قال امرؤ القيس:

لقد نقتب في الآفاق حتى رضيت من الغنيمۃ بالإياب « ١ »

وقوله (هل من محيص) أى هل من محيد، وهو الذهاب فى ناحية عن الأمر للهرب منه، حاص يحيص حيصاً فهو حائص مثل حاد يحيد حيداً فهو حايد و المعنى إن أولئك الكفار الذين وصفهم بشدة البطش لما نزل بهم عذاب الله لم يكن لهم مهرب ولا محيص عنه. قيل هل من محيد من الموت، ومنجاً من الهلاك.

قال الزجاج: هؤلاء الكفار طوفوا في البلاد، فلم يجدوا مخلصاً من الموت.

وَقَوْلُهُ (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرٍ يُعْنَى فِي مَا أَخْبَرْتَهُ وَقَصَصْتَهُ لَكَ لَذِكْرٍ أَيْ

(۱) دیوانه ۴۸ و مجاز القرآن ۲/ ۲۲۴ الشاهد ۸۳۶

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧٤

ما يتفكر فيه و يعتبر به (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) قيل معنى القلب - هاهنا- العقل من قولهم اين ذهب قلبك، و فلان ذاهب القلب، و فلان قلبه معه، و إنما قال (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) لان من لا يعيى الذكر لا يعتد بما له من القلب.

وقوله (أَوَ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) قال ابن عباس: معناه استمع و لم يشغل قلبه بغير ما يستمع، فهو شهيد لما يسمع و يفقهه غير غافل عنه، و هو قول مجاهد و الضحاك و سفيان، يقال ألق إلى سمعك أى استمع. و قال قتادة: و هو شهيد على صفه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آله في الكتب السالفة، و هذا في أهل الكتاب. و الأول اظهر.

ثم أقسم الله تعالى فقال (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) وقد مضى تفسير مثله فى غير موضع «١» (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) أى من نصب و تعب- فى قول ابن عباس و مجاهد- و اللغوب الاعياء. قال قتادة: أكذب الله تعالى بذلك اليهود، فإنهم قالوا: استراح الله يوم السبت، فهو عندهم يوم الراحة.

وقيل: إنما خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام مع قدرته على أن يخلفهما في وقت، لأن في ذلك لطفًا للملائكة حين شاهده يظهر حالاً بعد حال وقيل: لأن في الخبر بذلك لطفًا للمكلفين في ما بعد إذا تصوروا أن ذلك يوجد شيئاً بعد شيء مع أدب النفس به في ترك الاستعجال إذا جرى في فعل الله لضروب من التدبير.

ثم قال لنبیه صَلَّى اللّٰهُ عَلَیْهِ وَاٰلِهٖ (فاصبر) یا محمد (عَلٰی مَا یَقُولُوْنَ) من قولهم: هو ساحر، و کذاب، و مجنون، و احتمل ذلک حتی یأتی اللّٰهُ بالفرج (وَ سَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ) أى نزهه عما لا یلیق به (فَبَلِّغِ طُلُوعِ الشَّمْسِ) صلاة الفجر (وَقَبْلِ الْعُرُوبِ) صلاة العصر- فی قول قتاده و ابن زید- (و من اللیل) یعنی صلاة اللیل یدخل

(۱) انظر ۴/ ۴۵۱ و ۵/ ۳۸۵، ۷/ ۵۱۷ و ۷/ ۵۰۰ و ۸/ ۲۹۳ و ۹/ ۱۹

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧٥

فيه صلاة المغرب و العتمة. وقال ابن زيد:

هو صلاة العتمة (وَأَذْبَارَ السُّجُودِ) الركعتان بعد المغرب- في قول الحسن بن علي عليهما السلام و مجاهد و الشعبي و ابراهيم.

وقال الحسن (و قبل الغروب) صلاة الظهر و العصر. و قال الركعتان بعد المغرب تطوعاً. و قيل: التسبيح بعد الصلاة- عن ابن عباس و مجاهد- و قيل: النوافل- عن ابن زيد- و أصل التسبيح التنزيه لله عن كل ما لا يجوز في صفه، و سميت الصلاة تسبيحاً لما فيها من التسبيح، يقال: سبحان ربى العظيم، و

روى أيضاً أراد ب (ادبار السجود) الركعتان بعد المغرب. و أدبار النجوم الركعتان قبل طلوع الفجر. و روى في الشواذ عن أبى عمرو أنه قرأ «فلقبوا» بتخفيف القاف، و هى لغة فى التشديد. و رجل نقاب أى حاذق فطن عالم كان ابن عباس نقاباً، و النقبة الحرب و نقب خف البعير إذا انتقب و قرئ على لفظ الأمر و هو شاذ.

قوله تعالى: [سورة ق (٥٠): الآيات ٤١ الى ٤٥]..... ص: ٣٧٥

وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِنَّا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

خمس آيات.

قرأ ابن كثير (يوم تشقق) مشددة الشين على معنى تشقق و حذف احدى التائين. و التشقق التفطير. يقول الله تعالى لنبه عليه السلام و المراد به جميع المكلفين (و استمع) أى اصغ إلى النداء و توقعه (يوم ينادى المنادى) فالنداء الدعاء بطريقة التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧٦

يا فلان، و كأن الناس يدعون فيقال لهم: يا معشر الناس قوموا إلى الموقف للجزاء و الحساب، و قيل: ينادى المنادى من الصخرة التى فى بيت المقدس، فلذلك قال (مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ) فيقول: يا أيها العظام البالية قومى لفصل القضاء و ما أعد من الجزاء- فى قول قتادة- (من مكان قريب) أى يسمع الخلق كلهم على حد واحد، فلا يخفى على احد لا قريب و لا بعيد.

و قوله (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ) فالصيحه المرة الواحدة من الصوت الشديد و نقيضها الخمدة تقول صاح يصيح صياحاً و صيحه، فهو صائح، و تصايح و تصايحوا فى الأمر تصايحا، و صيح تصييحاً و صايحه مصايحه، و هذه الصيحه هى النفخة الثانية للحشر إلى أرض الموقف (ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ).

و قوله (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِنَّا الْمَصِيرُ) اخبار منه تعالى عن نفسه بأنه هو الذى يحيى الخلق بعد ان كانوا جماداً أمواتاً. ثم يميتهم بعد أن كانوا أحياء ثم يحييهم يوم القيامة و إلى الله يصيرون و يرجعون يوم القيامة (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا) أى إلينا المصير فى اليوم الذى تشقق الأرض عن الأموات (سراعاً) أى بسرعة لا تأخير فيها ثم قال (ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ) أى سهل علينا غير شاق. و الحشر الجمع بالسوق من كل جهة.

ثم قال (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ) يعنى هؤلاء الكفار من جحدهم نبوتك و إنكارهم البعث و النشور، لا يخفى علينا من أمرهم شىء (وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ) يا محمد (بجبار) قال الحسن: ما أنت عليهم برب تجازيهم بأعمالهم. و إنما أنا المجازى لهم. و قيل: و ما انت عليهم بفظ فى دعائهم إلى توحيد الله و إخلاص عبادته.

و الجبار العالى السلطان بأنه قادر على إذلال جميع العصاة بحسب الاستحقاق و هذه الصفة لا تصح إلا لله تعالى وحده، فان وصف بها الإنسان كان ذمماً، لأنه جعل التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧٧

لنفسه من المقدره ما ليس لها، و انشد الفضل:

عصينا حرمة الجبار حتى صبحنا الخوف الفأ معلمينا «١»

و قيل (و ما أنت بجبار) أى لا تتجبر عليهم، قال الفراء: يجوز ان يكون لا يجبرهم على الإسلام يقال: جبرته على الامر و أجبرته بمعنى

واحد. و قال غيره:

لم يسمع (فعال) من (أفعلت) إلا (دراك) من (أدركت) و يكون الجبار العالى السلطان على كل سلطان باستحقاق، و يكون العالى السلطان بادعاء.

ثم قال (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) إنما خص بالتذكير من يخاف وعيد الله، لأنه الذى ينتفع به و إن كان تذكيره متوجهاً إلى جميع المكلفين. قال الزجاج:

إنما قال الله للنبي صلى الله عليه و آله ذلك قبل ان يأمره بالقتال.

(١) تفسير الطبرى ١٠٣/٢٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧٨

٥١-سورة الذاريات..... ص: ٣٧٨

إشارة

مكية بلا خلاف. و هى ستون آية بلا خلاف.

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ١ الى ١٤]..... ص: ٣٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا (٤)
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ (٩)
قَتَلَ الْخَوَاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرِهِ سَاهُونَ (١١) يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فَتَنَتَكُمْ هَذَا
الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)
أربع عشر آية.

روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام و ابن عباس (رحمة الله عليه) و مجاهد ان (الذاريات) الرياح يقال: ذرت الرياح التراب تذروه ذرواً، و هى ذارية إذا طيرته و أذرت تدرى إذراء بمعنى واحد
و سأل ابن الكواء أمير المؤمنين عليه السلام و هو يخطب على المنبر (ما الذاريات ذرواً) قال: الرياح، قال ما التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٧٩

(الحاملات و قرأ) فقال السحاب. فقال ما (الجاريات يسراً) قال السفن.

و المعنى إنها تجرى سهلاً، فقال ما (المقسمات أمراً) قال الملائكة.

و هو قول ابن عباس و مجاهد و الحسن، و هذا قسم من الله تعالى بهذه الأشياء. و قال قوم: التقدير القسم برب هذه الأشياء لأنه لا يجوز القسم إلا بالله. و

قد روى عن أبى جعفر و أبى عبد الله عليهما السلام أنه لا يجوز القسم إلا بالله. و الله تعالى يقسم بما يشاء من خلقه.

و قيل: الوجه فى القسم بالذاريات تعظيم ما فيها من العبرة فى هبوبها تارة و سكونها اخرى، و ذلك يقتضى مسكناً لها و محرراً لا يشبه الأجسام، و فى مجيئها وقت الحاجة لتنشئة السحاب و تذرية الطعام ما يقتضى مصرفاً لها قادراً عليها، و ما فى عصفوها تارة و لينها

أخرى ما يقتضى قاهرًا لها و لكل شىء سواها.

و الوجه فى القسم بالحاملات وقرأ، ما فيه من الآيات الدالة على محمل حملها الماء و أمسكه من غير عماد و اغاث بمطره العباد و احيى البلاد و صرفه فى وقت الغنى عنه بما لو دام لصاروا إلى الهلاك، و لو انقطع أصلاً، لاضربهم جميعاً. و الوجه فى القسم بالجاريات يسراً ما فيها من الدلائل و بتسخير البحر الملح و العذب بجريانها و تقدير الريح لها بما لو زاد لغرق و لو ركد لأهلك، و بما فى هداية النفوس إلى تدبير مصالحها و ما فى عظم النفع بها فى ما ينقل من بلد إلى بلد بها.

و الوجه فى القسم بالملائكة ما فيها من اللطف و عظم الفائدة و جلالة المنزلة بتقسيم الأمور بأمر الله تعالى من دفع الآفة عن ذا و اسلام ذاك و من كتب حسنات ذا و سيئات ذاك، و من قبض روح ذا و تأخير ذاك. و من الدعاء للمؤمنين و لعن الكافرين، و من استدعائهم إلى طريق الهدى و طلب ما هو أولى بصدد داعى الشيطان و الهوى عد و الإنسان. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨٠ و قوله (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) جواب القسم. و معناه إن الذى وعدتم به من الثواب و العقاب و الجنة و النار وعد صدق لا بد من كونه (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) معناه إن الجزاء لكائن يوم القيامة، و هذا يفيد ان من استحق عقاباً، فانه يجازى به و يدخل فى ذلك كل مستحق للعقاب، كأنه قال: إن جميع الجزاء واقع بأهله يوم القيامة فى الآخرة. ثم استأنف قسماً آخر فقال (وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) فالحبك الطرائق التى تجرى على الشىء كالطرائق التى ترى فى السماء. و ترى فى الماء الصافى إذا مرت عليه الريح، و هو تكسر جار فيه. و يقال للشعر الجعد حبك و الواحد حبيك و حبيكة، و الحبك أثر الصنعة فى الشىء و استوائه، حبكه يحبكه و يحبكه حبكاً «وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ» أى ذات حسن الطرائق، و حبك الماء طرائفه قال زهير:

مكَلَّلَ بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك (١)

و تحبكت المرأة بنطاقها إذا شدته فى وسطها، و ذلك زينته لها، و حبك السيف إذا قطع اللحم دون العظم، و قال الحسن و سعيد بن جبير: ذات الحبك ذات الزينة بالنجوم و الصنعة و الطرائق الحسنة. و قيل: الحبك النسج الحسن، يقال: ثوب محبوبك. و قوله (إِنَّكُمْ لَفَى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ) معناه إنكم فى الحق لفى قول مختلف، لا يصح إلا واحد منه، و هو أمر النبى صلى الله عليه و آله و ما دعا اليه، و هو تكذيب فريق به و تصديق فريق. و دليل الحق ظاهر، و فائدته أن احد الفريقين فى هذا الاختلاف مبطل، لأنه اختلاف تناقض فاطلبوا الحق منه بدليله و إلا هلكتم. و قوله (يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أْفِكَ) معناه يصرف عنه من صرف، و منه قوله (أَجِئْنَا لِتَأْفِكِنَا عَنْ آلِهَتِنَا) (٢) أى لتصرفنا، و تصدنا. و إنما قيل (يؤفك) عن الحق

(١) ديوانه ١٧٦ و مجاز القرآن ٢/ ٢٢٥ و القرطبي ١٧/ ٣٢

(٢) سورة الأحقاف آية ٢٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨١

لأنه يمكن فيه ذلك من غيره، و لا يمكن من نفسه، لأن الحق يدعو إلى نفسه و لا يصرف عنها إلى خلافه.

و قوله (قتل الخراصون) معناه لعن الكذابين، و مثله (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) (١) و الخراص الكذاب. و أصله الخرص و هو القطع من قولهم: خرص فلان كلامه و اخترصه إذا افتراه، لأنه اقتطعه من غير أصل. و الخرص جريد يشقق و يتخذ منه الحصر قال الشاعر:

ترى قصد الممران فيهم كأنه تذرع خرصان بأيدي شواطب (٢)

و الخرص حلقة القرط المنقطعة عن ملاصقة الاذن، و الخريص الخليج من من البحر، و الخرص الخرز من العدد و الكيل، و منه خارص النخل، و هو خارزه و جمعه خراص. و قوله (الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) صفة للخراصين و موضعه رفع و تقديره فى غمرة ساهون عن الحق كقوله (طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) (٣) و الغمرة المرة من علو الشىء على ما هو فائض فيه، غمره الماء يغمره غمراً و غمرة، فهو غامر له، و الإنسان مغمور، و يقال: غمره الشغل و غمره الموت و غمره الحياء و غمره الجهل و أصل الغمرة من الغمر و هو السيد

الكثير العطاء، لأنه يغمر بعطائه، والغمر الفرس الكثير الجرى، لأنه يغمر بحريه، والغمر الذى لم يجرب الأمور والغمر الحقد والغمر رائحة الزهومة فى اليد، وغمار الناس مجتمعهم، وغمر المرأة ما تطلّى به من الطيب وغيره مما يحسن اللون، والغمر القدح الصغير، والغمر النبت الصغار، لأنه تغمره الكبار والمعنى ان هؤلاء الكفار لجهلهم بما يجب عليهم معرفته ساهون عما يلزمهم العلم به أى غافلون عن الحق متعامون عنه (يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) يعنى يسأل

(١) سورة ٨٠ عبس آية ٧

(٢) مر فى ٢٦٩ / ٤ مع اختلاف يسير

(٣) سورة ٩ التوبة آية ٩٤ و سورة ١٦ النحل آية ١٠٨ و سورة ٤٧ محمد آية ١٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨٢

هؤلاء الكفار الذين وصفهم بالجهل والغمر: متى يوم الجزاء؟! على وجه الإنكار لذلك لا على وجه الاستفادة لمعرفة، فأجيبوا بما يسوءهم من الحق الذى لا محالة انه نازل بهم فليل (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) أى يحرقون بالنار و يعذبون فيها و أصل الفتنة تخليص الذهب بإحراق الغش الذى فيه، فهؤلاء يفتنون بالإحراق كما يفتن الذهب. ومنه قوله (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) «١» أى أخلصناك للحق، و رجل مفتون بالمرأة أى مخلص بحبها، و هى صفة ذم، (و فتناهم) أى اختبرناهم بما يطلب به خلاصهم للحق. و قيل: يفتنون أى يحرقون، كما يفتن الذهب فى النار- فى قول مجاهد والضحاك- وقوله (يوم هم) يصلح أن يكون فى موضع رفع، لأنك أضفته إلى شيئين، و يصلح فيه النصب على الظرف والبناء، و كله على جواب (أيان) وقوله (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) معناه انه يقال للكفار الذين يعذبون بها هذا الذى كنتم به تستعجلون فى دار التكليف استبعاداً له، فقد حصلتم الآن فيه و عرفتم صحته،

قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ١٥ الى ٢٣]..... ص: ٣٨٢

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَ بِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (١٩) وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوْعَدُونَ (٢٢) فَو رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)

(١) سورة ٢٠ طه آية ٤٠

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨٣

تسع آيات.

قرأ حمزة و الكسائي و ابو بكر عن عاصم (لحق مثل) بالرفع على أنه صفة للحق الباقي بالنصب، و يحتمل نصبه وجهين: أحدهما- قول الجرمي أن يكون نصباً على الحال، كأنه قيل: حق مشبهاً لنطقكم فى الثبوت.

الثانى- قال المازنى إن (مثل) مبنى، لأنه مبهم أضيف إلى مبنى، كما قال الشاعر:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات او قال «١»

و قال: فجعل (مثل) مع (ما) كالأمر الواحد، كما قال (لا ريب فيه) «٢» و قولهم: خمسة عشر، فيكون على هذا (ما) زائدة و أضاف (مثل) إلى (إنكم تنطقون) فبناء على الفتح حين أضافه إلى المبنى، و لو كان مضافاً إلى معرب لم يجز البناء نحو: مثل زيد. و قيل: يجوز أن يكون نصباً على المصدر، و كأنه قال إنه لحق حقاً كنطقكم.

لما حكى الله تعالى حكم الكفار و ما أعدده لهم انواع العذاب، أخبر بما أعدده للمؤمنين المطيعين الذين يتقون معاصي الله خوفاً من عقابه، و يفعلون ما أوجبه عليهم فقال (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) أى فى بساتين تجنّها الأشجار (و عيون) ماء تجرى لهم فى جنّة الخلد، فهؤلاء ينعمون و أولئك يعذبون (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) من كرامته و ثوابه بمعنى آخذين ما أعطاهم الله من ذلك و نصب (آخذين) على الحال (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُّحْسِنِينَ) يفعلون الطاعات و ينعمون على غيرهم

(١) مر فى ٤ / ٤٧٩

(٢) سورة ٢ البقرة آية ١

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨٤

بضروب الإحسان، ثم وصفهم فقال (كانوا) يعنى المتقين الذين وعدهم بالجنات (قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) فى دار التكليف أى كان هجوعهم قليلا- فى قول الزهرى و إبراهيم- و قال الحسن: (ما) صلّه و تقديره كانوا قليلا يهجعون، و قال قتادة: لا ينامون عن العتمّة ينتظرونها لوقتها، كأنه قيل هجوعهم قليلا فى جنب يقظتهم للصلاة و العبادة. و قال الضحاك: تقديره كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا، ثم ابتداء فقال (مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) و تكون (ما) بمعنى النفى و المعنى إنهم كانوا يحيون الليل بالقيام فى الصلاة و قراءة القرآن و غير ذلك. و لا يجوز ان تكون (ما) جحدا لأنه لا يقدم عليها معمولها. و الهجوع النوم- فى قول قتادة و ابن عباس و إبراهيم و الضحاك (وَبِالْأَشْيَارِ هُمْ يَسْتَعْفِزُونَ) أى يطلبون من الله المغفرة و الستر لذنوبهم فى قول الحسن و ابن زيد- و قال مجاهد: معناه يصلون فى السحر.

و قوله (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ) و هو ما يلزمهم لزوم الديون من الزكوات و غير ذلك أو ما التزموه من مكارم الأخلاق، فهو الذى رغب الله فيه بقوله (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) فالسائل هو الذى يسأل الناس، و المحروم هو المحارف- فى قول ابن عباس و مجاهد و الضحاك- و قال قتادة و الزهرى: المحروم هو المتعفف الذى لا يسأل. و قال إبراهيم: المحروم الذى لا سهم له فى الغنيمّة. و قيل: المحروم الممنوع الرزق بترك السؤال أو إذهاب مال أو سقوط سهم أو خراب ضيعه إذا صار فقيراً من هذه الجهة. و قال الشعبي: اعيانى أن أعلم ما المحروم. و فرق قوم بين الفقير و المحروم بأنه قد يحرمه الناس بترك الإعطاء، و قد يحرم نفسه بترك السؤال، فإذا سأل لا يكون ممن حرم نفسه بترك السؤال، و إنما حرمه الغير، و إذا لم يسأل فقد حرم نفسه و حرمه الناس.

و قوله (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ) أى دلالات واضحات و حجج نيرات (للموقنين) التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨٥
الذين يتحققون بتوحيد الله، و إنما أضافها إلى الموقنين، لأنهم الذين نظروا فيها و حصل لهم العلم بموجها و آيات الأرض جبالها و نباتها و معادنها و بحارها، و وقفها بلا عمد لتصرف الخلق عليها.

و قوله (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) معناه و فى أنفسكم أفلا تفكرون بأن تروها مصرفة من حال إلى حال و منتقلة من صفة إلى أخرى، فكنتم نطفاً فصرتم أحياء ثم كنتم أطفالاً فصرتم شباباً، ثم صرتم كهولاً و كنتم ضعفاء فصرتم أقوياء، فهلا دلكم ذلك على ان لها صانعاً صنعها و مدبراً دبرها يصرفها على ما تقتضيه الحكمة و يدبرها بحسب ما توجه المصلحة. و قيل: المعنى أ فلا تبصرون بقلوبكم نظر من كأنه يرى الحق بعينه.

و قوله (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ) ينزله الله إليكم بأن يرسل عليكم الغيث و المطر فيخرج به من الأرض أنواع ما تقتاتونه و تلبسونه و تنتفعون به (و ما توعدون) به من العذاب ينزله الله عليكم إذا استحققتموه، و قال الضحاك: و فى السماء رزقكم يعنى المطر الذى هو سبب كل خير و هو من الرزق الذى قسمه الله و كتبه للعبد فى السماء. و قال مجاهد: و ما توعدون يعنى من خير او شر، و قيل و ما توعدون الجنة، لأنها فى السماء الرابعة.

ثم قال تعالى (فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ) قسما منه تعالى (إنه لحق) و معناه إن ما وعدتكم به من الثواب و العقاب و الجنة و النار لا بد

من كونه «مثل ما تنطقون» أى مثل نطقكم الذى تنطقون به فكما لا تشكون فى ما تنطقون، فكذلك لا تشكوا فى حصول ما وعدتكم به. وقيل الفرق بين قوله «لَحَقَّ مِثْلَ مَا أَنْكُم تَنْطِقُونَ» وبين ما تنطقون مثل الفرق بين أحق منطقك وبين أحق إنك تنطق أى أحق إنك ممن التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨٦

ينطق، و لم يثبت له نطقاً. و الاول قد أثبتته إلا أنه قال: أحق هو أم باطل، ذكره الفراء. و معنى الآية أن هذا القرآن و أمر محمد صلى الله عليه وآله و ما توعدون به من أرزاقكم حق ككلامكم، كقول القائل: إنه لحق مثل ما أنت هاهنا أى كما أنت هاهنا. و قال الفراء: و إنما جمع بين (ما) و (إن) مع انه يكتفى بأحدهما، كما يجمع بين اللاتى و الذين، و أحدهما يجزى عن الآخر قال الشاعر:

من النفر اللاتى و الذين إذا هم يهاب اللئام حلقة الباب قعقعوا (١)

فجمع بين اللاتى و الذين، و لو أفرد ب (ما) لكان المنطق فى نفسه حقاً، و لم يرد ذلك، و إنما أراد أنه لحق كما حق أن آدمى ناطق، ألا ترى ان قولك أحق منطقك معناه أحق هو أم كذب، و قولك أحق إنك تنطق معناه إن للإنسان النطق لا لغيره، فأدخلت (أن) ليفرق بين المعنيين. قال و هذا أعجب الوجهين إلى

قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٢٤ الى ٣٠]..... ص: ٣٨٦

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرٍّ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) سبع آيات.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله «هَلْ أَتَاكَ» يا محمد «حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ»

(١) تفسير الطبرى ١١٣/٢٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨٧

قال الحسن: يعنى المكرمين عند الله. وقيل: أكرمهم إبراهيم برفع مجالسهم فى الإكرام و الإعظام الذى يسر بالإحسان. و الإجلال هو الإعظام بالإحسان، و كذلك يلزم إعظام الله و إجلاله فى جميع صفاته، و لا يجوز مثل ذلك فى الإكرام، و لكن الله يكرم أنبياءه و المؤمنين على طاعتهم.

وقوله «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ» يعنى حين دخلوا على إبراهيم «فَقَالُوا» له «سَلَامًا» على وجه التحية له أى اسلم سلاماً «ف قَالَ» لهم جواباً عن ذلك «سَلَامٌ» و قرئ سلم، فلما ارتاب عليه السلام بهم قال «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» أى أنتم قوم منكرون، و الإنكار بنفى صحة الأمن و نقيضه الإقرار، و مثله الاعتراف. و إنما قال: منكرون، لأنه لم يكن يعرف مثلهم فى أضيافه، و سماهم الله أضيافاً، لأنهم جاءوه فى صفة الأضياف و على وجه مجيئهم. و معنى (سلاماً) أى اسلم سلاماً، و قوله «قَالَ سَلَامٌ» أى سلام لنا. و قوله «فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ» أى ذهب اليهم خفياً، فالرؤى الذهاب فى خفى، راغ يروغ روغاً و روغاناً، و راوغه مراوغه و رواغاً، و أراغه على كذا إذا أراده عليه فى خفى أنفاً من رده. و قوله «فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ» فالعجل واحد البقر الصغير مأخوذ من تعجيل أمره بقرب ميلاده، و سمي عجولاً و جمعه عجاجيل. و قال قتادة: كان عامه مال نبي الله إبراهيم عليه السلام البقر. و السمين الكثير الشحم على اللحم، سمن يسمن سمناً، و سمنه تسميناً و اسمنه اسماناً و تسمن تسمناً، و نقيض السمن الهزال. و قوله «فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ» أى أدناه لهم و قدمه بين أيديهم و قال لهم: كلوه، فلما رآهم لا يأكلون عرض عليهم ف «قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ» و فى الكلام حذف، لان تقديره قدمه اليهم فأمسكوا عن الاكل فقال ألا تأكلون فلما امتنعوا من الأكل «فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» أى خاف منهم و ظن أنهم يريدون به سوء، فلايجاس الاحساس بالشىء خفياً، أو جس

يوجس إيجاساً و توجس توجساً. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨٨

ومنه قوله «فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى» (١) فقالت حينئذ له الملائكة «لَا تَخَفْ» يا إبراهيم فانا رسل الله و ملائكته أرسلنا الله إلى قوم لوط لنهلكهم. وقيل: إنهم دعوا الله فأحيا العجل له فعلم إبراهيم عند ذلك أنهم من الملائكة عليهم السلام «وَبَشَّرُوهُ» عند ذلك «بِغُلَامٍ عَلِيمٍ» أى يكون عالماً إذا كبر و بلغ. قال مجاهد: المبرر به إسماعيل. و قال غيره: هو إسحاق، لأنه من سارة، و هذه القصة لها لا لهاجر، سمعت البشارة امرأته سارة «فَأَقْبَلَتْ فِي صِرَةٍ» يعنى فى صيحة- فى قول ابن عباس و مجاهد و سفيان- و قال مجاهد و سفيان أيضاً فى رثه «فَصَيَّكَتْ وَجْهَهَا» قال ابن عباس لطمت وجهها. و قال السدى: ضربت وجهها تعجباً، و هو قول مجاهد و سفيان، فالصك الضرب باعتماد شديد «وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ» فالتقدير أنا عجوز عقيم كيف ألد؟! و العقيم الممتنعة من الولادة لكبر أو آفة. و قال الحسن: العقيم العاقر. و أصل العقيم الشدة مما جاء فى الحديث (يعقم أصلاب المشركين) أى يشد، فلا يستطيعون السجود، و داء عقام إذا أعيأ، أى اشتد حتى أياس ان يبرأ، و معاقم الفرس مفاصله يشد بعضها إلى بعض، و العقم و العقمه ثياب معلمة أى شدت بها الاعلام، و عقت المرأة، فهى معقومة و عقيم، و قالوا عقت ايضاً و رجل عقيم مثل المرأة من قوم عقيمين و الريح العقيم التى لا تنشئ السحاب للمطر، و الملك عقيم يقطع الولاء لان الابن يقتل أباه على الملك، فقالت الملائكة عند ذلك لها «كَذَلِكَ» أى مثل ما بشرناك به «قَالَ رَبُّكَ» ما بشرناك به فلا تشك فيه «إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ» فى أفعاله «الْعَلِيمُ» بخفايا الأمور لا يخفى عليه خافية و المعنى كما ان إخبارنا و بشارتنا لا شك فيه، كذلك قال الله ما بشرناك به.

(١) سورة ٢٠ طه آية ٦٧ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٨٩

قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٣١ الى ٣٧]..... ص: ٣٨٩

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) سبع آيات.

لما سمع إبراهيم عليه السلام بشرى الملائكة له بالغلام العليم، و علم أنهم ليسوا ببشر و لا- أضياف «قال» لهم «فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ» أى ما شأنكم. و الخطب هو الأمر الجليل، فكأنه قال قد بعثتم لأمر جليل، فما هو؟ و منه الخطبة، لأنها كلام بليغ لعقد أمر جليل تستفتح بالتحميد و التمجيد. و الخطاب أجل من الإبلاغ.

و قوله «أيها» لا يثنى و لا يجمع لأنه مبهم يقتضى البيان عنه ما بعده من غير أن يلزم ما قبله، كما يلزم (الذى و هذا) كقولك مررت بالرجلين هذين، فتبعه فى تنيته، كما تبعه فى اعرابه.

فأجابته الملائكة فقالوا «إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ» عاصين لله كافرين لنعمه استحقوا العقاب و الهلاك «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» فالمسرف المكثّر من المعاصى، و هو صفة ذم، لأنه خروج عن الحق.

و نقيض الإسراف الإقتار، و هو التقصير عن بلوغ الحق. و ليس فى الإكثار من طاعة الله سرف، و لا- فى نعمه إقتار، لأنه سائغ على مقتضى الحكمة، و إرسال الرسول إطلاقه بالأمر إلى المصير إلى من أرسل اليه، فالملائكة أمروا بالمصير إلى التبيان فى تفسير القرآن،

ج ٩، ص: ٣٩٠

قوم لوط لا هلاكهم و إرسال الحجارة إطلاقها. و ليست برسل و لكن مرسله.

و المسومة المعلمة بعلامات ظاهرة للحاسة، لان التسويم كالسيما في انه يرجع إلى العلامة الظاهرة من قولهم: عليه سيماء الخير. و منه قوله «يُمِيدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» و المجرم القاطع للواجب بالباطل، فهؤلاء أجرموا بقطع الايمان بالكفر. و أصل الصفة القطع. و قال ابن عباس: التسويم نقطة في الحجر الأسود بيضاء، او نقطة سوداء في الحجر الأبيض. و قيل: كان عليها أمثال الخواتيم و قوله «حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ» أى أصلها الطين لا حجارة البرد التى أصلها الماء.

و المسومة هى المعلمة بعلامة يعرفها بها الملائكة أنها مما ينبغى أن يرمى بها الكفرة عند أمر الله بذلك. و قيل: حجارة من طين كأنها آجر- فى قول ابن عباس- و قال الحسن: مسومة بأنها من حجارة العذاب. و قيل: مسومة بأن جعل على كل حجر اسم من يهلك به. و قوله «فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى أخرجنا من كان فى قرية لوط من المؤمنين، نحو لوط و أهله و خلصناهم من العذاب و الإهلاك. و قوله «فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» يدل على ان الإسلام هو الايمان و الايمان هو التصديق بجميع ما أوجب الله التصديق به. و الإسلام هو الاستسلام لوجوب عمل الفرض الذى أوجبه الله و الزمه. و المسلم هو المخلص لعمل الفرض على ما أمر الله به، لان صفة (مسلم) كصفة مؤمن فى انها مدح. و البيت الذى وجده فى تلك القرية من المؤمنين هم أتباع لوط و وجدان الضالة هو إدراكها بعد طلبها، و وجدت الموجد إدراك ما يوجب العتاب و الأثمة فى القلب، و وجدت المال أجده أدركت ملكاً لى كثيراً، و وجدت زيدا الصالح بمعنى علمته، و وجدت الضالة وجداناً. و البيت هو البناء المهيأ للايواء اليه و المبيت فيه. التبيان فى تفسير

القرآن، ج ٩، ص: ٣٩١

و قوله «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً» فالترك فى الأصل ضد الفعل ينافى الأخذ فى محل القدرة عليه، و القدرة عليه قدرة على الأخذ. و المعنى فى الآية أبقينا فيها آية، و مثله قوله «وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ» (١) بمعنى لم ينفها مع انه قادر على نفيها، و فلان ترك السوق أى قطعها بأن صار لا يمضى اليها. و معنى «تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً» بمنزلة ما فعل ضد ما تنافيه الآية. و قيل: إن الآية اقتلاع البلدان لا يقدر عليه إلا الله تعالى و قوله «لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» إنما خص الخائفين من العذاب الأليم بالآية لأنهم الذين يعتبرون بها و ينتفعون بها.

قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٣٨ الى ٤٥]..... ص: ٣٩١

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَرِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَ مَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥)

ثمان آيات.

قرأ الكسائى «الصعقة» الباقون «الصاعقة»، فالصعقة مصدر صعق يصعق صعقاً و صعقة واحدة. و الصاعقة الاسم تقول: صاعقة و صاعقة مقدماً و مؤخراً،

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٩٢

و صواعق و صواعق، و قيل: هما لغتان.

قوله «وَفِي مُوسَى عَظْفٌ عَلَى قَوْلِهِ «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً» فكأنه قال:

و تركنا فى موسى آية حين أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين أى بحجة ظاهرة «فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ» قال ابن عباس و قتادة و مجاهد: معناه بقوته. و قيل: معناه تولى بما كان يتقوى به من جنده و ملكه. و الركن الجانب الذى يعتمد عليه. و المعنى ان فرعون أعرض عن حجة

موسى و لم ينظر فيها بقوته فى نفسه «وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» فالسحر حيلة توهم المعجزة بحال خفية. و أصله خفاء الأمر فمنه السحر الوقت الذى يخفى فيه الشخص. و السحر الرئة لخفاء سببها فى الترويح عن القلب بها. و السحارة لخفاء السبب فى تلون خيطها. و المجنون الذى أصابته جنّة فذهب عقله. و قال الزجاج (او) هاهنا بمعنى الواو، و التقدير ساحر و مجنون. و قال غيره: فى ذلك دلالة على عظم جهل فرعون، لأن الساحر هو اللطيف الحيلة و ذلك ينافى صفه المجنون المختلط العقل، فكيف يوصف شخص واحد بهاتين الصفتين فقال الله تعالى مخبراً عن نفسه أَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ

يعنى إنا نبذنا فرعون و جنوده إلى اليم

أى طرحناه فى البحر كما يلقي الشئ فى البر هو مُلِيمٌ

أى آت بما يلام عليه من الكفر و الجحود و العتو و التجبر و التكبر واحد. و المعلوم الذى وقع به اللوم، و المليم الذى أتى بما يلام عليه.

و قوله «وَفِي عَادٍ» عطف ايضاً على قوله «وَتَرَكْنَا فِيهَا» أى و تركنا فى عاد ايضاً آية أى دلالة فيها عظة «إِذْ أَرْسَلْنَا» أى أطلقنا «عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ» و هى التى عقت عن ان تأتى بخير من تنشئه سحب او تلقيح شجرة أو تدرية طعام او نفع حيوان، فهى كالممنوعة من الولادة. و جمع الريح أرواح و رياح، و منه راح الرجل إلى منزله أى رجع كالريح، و الراحة قطع العمل المتعب. و قال ابن عباس:

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٩٣

الريح العقيم التى لا تلقح الشجر و لا تنشئ السحاب. و

روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال (نصرت بالصبا و أهلك عاد بالدبور).

و قوله «مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ» أى لم تترك هذه الريح شيئاً تمر عليه «إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ» و هو السحيق الذى انتفى رمة بانتفاء ملاءمة بعضه لبعض، و أما رمة يرمه رماً فهو رام له و الشئ مرموم فهو المصلح بملاءمة بعضه لبعض، و هو اصل الرميم الذى رمة بنقصه. و قيل: الرميم الذى ديس من يابس النبات.

و قيل: الرميم العظم البالى المنسحق.

و قوله «وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ» ايضاً عطف على قوله «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً...»

وَفِي ثَمُودَ و هم قوم صالح لما كفروا و جحدوا نبوة صالح و عقروا ناقه الله و استحقوا الإهلاك «قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ» أى انتفعوا فى اسباب اللذات من المناظر الحسنه و الروائح الطيبة و الأصوات السجية و كل ما فيه منفعة على هذه الصفة «حَتَّى حِينٍ» أى إلى حين قدر الله ابقاءكم اليه. و قيل: إلى حين آجالكم إن أطعتم الله - فى قول الحسن - «فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» فالتعوى الامتناع عن الحق، و هو الجفاء عنه ترفعاً عن إتباع الداعى اليه «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ» أى أرسل الله اليهم الصاعقة التى أهلكتهم و أحرقتهم و هم يبصرونها «فَمَا اسْتَبَاحُوا مِنْ قِيَامٍ» أى لم يقدروا على النهوض به «وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ» أى طالبين ناصراً يمنعهم من عذاب الله - عز و جل - و قرأ الكسائى «الصعقة» بغير الف. و قد بيناه.

قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٤٦ الى ٥٥]..... ص: ٣٩٣

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَ الْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠)

وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أ تَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَ ذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٩٤

عشر آيات.

قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائي «و قوم نوح» جراً عطفاً على قوله «و في عاد» و تقديره و في قوم نوح آية. الباقون بالنصب على تقدير و أهلكنا قوم نوح، و يحتمل ان يكون على تقدير فأخذت صاعقة العذاب قوم نوح، إذ العرب تسمى كل عذاب مهلك صاعقة، الثالث على تقدير: و اذكر قوم نوح، كقوله «وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى» (١) و القوم الجماعة الذين من شأنهم أن يقوموا بالأمر، و اضافتهم اليه تقتضى انه منهم في النسب. و لم يفرد ل (قوم) واحد. ثم بين لما أهلكهم فقال «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» خارجين من طاعة الله - عز و جل - إلى الكفر بالله فاستحقوا لذلك الإهلاك.

و قوله «وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ» معناه بقوة - في قول ابن عباس و مجاهد و قتادة و ابن زيد - و الايدي القوة، و وجه اتصال قوله «وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ» بما قبله

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٣٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٩٥

و هو ان في قوم نوح آية و في السماء أيضاً آية فهو متصل به في المعنى.

و قوله «وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ» قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال الحسن: التوسعة في الرزق بالمطر - الثاني - قال ابن زيد: بقوة و إنا لموسعون السماء. الثالث - انا لقادرون على الاتساع بأكثر من اتساع السماء.

و الاتساع الإكثار من إذهاب الشيء في الجهات بما يمكن أن يكون أكثر مما في غيره يقال أوسع يوسع إيساعاً، فهو موسع. و الله تعالى قد أوسع السماء بما لا بناء أوسع منه و إيساع الرحمة هو الإكثار منها بما يعم.

و قوله «وَ الْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا» عطف على قوله «وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا» و تقديره و بنينا السماء بنيناها و فرشنا الأرض فرشناها أى بسطانها «فَنَعْمَ الْمَاهِدُونَ» و الماهد الموطئ للشيء المهية لما يصلح الاستقرار عليه، مهد يمهد مهداً، فهو ماهد و مهد تمهيداً، مثل وطأ توطئة.

و قوله «وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ» معناه خلقنا من كل شيء اثنين مثل الليل و النهار، و الشمس و القمر و الأرض و السماء، و الجن و الانس - في قول الحسن و مجاهد - و قال ابن زيد «خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ» الذكر و الأنثى. و في ذلك تذكير بالعبدة في تصريف الخلق و النعمة في المنفعة و المصلحة «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» معناه لتذكروا و تفكروا فيه و تعتبروا به.

و قوله «فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ» أى فاهربوا الى الله من عقابه الى رحمته بإخلاص العبادة له. و قيل: معناه ففروا الى الله بترك جميع ما يشغلكم عن طاعته و يقطعكم عما أمركم به «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ» مخوف من عقابه «مبين» عما أوجب عليكم من طاعته.

ثم نهاهم فقال «وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» أى لا تعبدوا معه معبوداً التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٩٦

آخر من الأصنام و الأوثان «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» أى من الله مخوف من عقابه مظهر ما أوجب عليكم و أمركم به. و قيل: الوجه في تكرار (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) هو ان الثاني منعقد بغير ما انعقد به الاول إذ تقديره انى لكم منه نذير مبين في الامتناع من جعل اله آخر معه، و تقدير الاول انى لكم منه نذير مبين في ترك الفرار اليه بطاعته فهو كقولك: أنذرك أن تكفر بالله أنذرك ان تتعرض لسخط الله، و يجوز أن يقول الله و لا - تجعلوا مع الله قديماً آخر، كما قال (وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا) لان جعلهم ذلك باعتقادهم إلهاً معه او اظهارهم انه مذهب لهم. و لا يجوز ان يقول: لا تكونوا قدماء مع الله لأنه نهى عما لا يمكن، و هو محال، و كذلك لا يجوز ان يقول لا تصيروا قدماء و لا آلهة، لأنه محال.

و النذير هو المخبر بما يحذر منه و يصرف عنه و هو يقتضى المبالغة. و المنذر صفة جارية على الفعل تقول: انذر ينذر إنذاراً، فهو منذر، و نذره أى علم به و استعد له و المبين الذى يأتى ببيان الحق من الباطل.

ثم قال مثل ما أوتى هؤلاء الكفار نبي فكذبوه (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) من الأمم (رَسُولٌ إِلَّا قَالُوا) هو (سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) فالساحر هو الذى يحتال بالحيل اللطيفة. والمجنون الذى به جنون. وإنما قال الجاهل ذلك فى الرسل لان الاقدام عندهم على إنكار عبادة الأوثان لا يكفى فيه الشبهة دون الجنة، فالمجنون المغطى على عقله بما لا يتوجه للإدراك به، فكذلك شبه حال قريش فى التكذيب بحال الأمم حتى قالوا: ساحر او مجنون. وإنما جاز منهم الاتفاق على تكذيب الرسل من غير تواصل ولا تلاق، لان الشبهة الداعية اليه واحدة.

وقوله (أ تواصلوا) فالتواصل هو إيصال بعض القوم إلى بعض بوصية، و الوصية التقدم فى الأمر بالأشياء المهمة مع النهى عن المخالفة، كالوصية بقضاء الدين ورد التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٩٧

الوديعة والحج والصدقة وغير ذلك، فكأن هؤلاء الجاهل قد تواصلوا بعبادة الأوثان بما هم عليه من الملازمة و شدة المحافظة و صورة الكلام صورة الاستفهام والمراد به الإنكار والتوبيخ.

وقوله (بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) معناه لم يتواصلوا بذلك لكنهم طاغون طغوا فى معصية الله و خرجوا عن الحد. ثم قال للنبي صلى الله عليه وآله (فتول عنهم) أى اعرض عنهم يا محمد- فى قول مجاهد- (فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ) فى كفرهم وجحودهم بل اللائمة والذم عليهم من حيث لا- يقبلون ما تدعوهم اليه، وليس المراد أعرض عن تذكيرهم وعظهم، وإنما أراد أعرض عن مكافأتهم ومقابلتهم ومباراتهم و ما أنت فى ذلك بمعلوم (و ذكر) بالموعظة (فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) الذين يتعظون بمواعظ الله ويستدلون بآياته. قال حسين بن صمصم. أما بنو عبس فان هجينهم ولى فوارسه و أفلت أعورا «١»

قوله تعالى: [سورة الذاريات (٥١): الآيات ٥٦ الى ٦٠]..... ص: ٣٩٧

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٦٠) خمس آيات.

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٩٨

هذا اخبار من الله تعالى أنه لم يخلق الجن و الإنس إلا لعبادته، فإذا عبدوه استحقوا الثواب، و اللام لام الغرض و لا يجوز أن يكون لام العاقبة لحصول العلم بأن كثيراً من الخلق لا يعبدون الله. و فى الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة القائلين: بأن الله خلق كثيراً من خلقه للكفر به و الضلال عن دينه و خلقهم ليعاقبهم بالنيران، لأنه لا يجوز أن يكون فى كلام الله تعالى تناقض، و لا إختلاف و قوله (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ) «١» قد بينا فى ما مضى أن اللام لام العاقبة. و المعنى إنه خلق الخلق كلهم لعبادته و تصير عاقبة كثير منهم إلى جهنم بسوء اختيارهم من الكفر بالله و ارتكاب معاصيه.

فان قيل: أليس قد خلق الله كثيراً من خلقه لطفاً لغيرهم، فكيف يكون خلقهم لعبادته؟!

قلنا: ما خلقه الله تعالى على ضربين: مكلف، و غير مكلف، فما ليس بمكلف خلقه للطف المكلفين، جماداً كان او حيواناً. و ما هو مكلف خلقه لعبادته و إن كان فى خلقه أيضاً لطف للغير، و كأنه يكون خلقه للأمرين و يكون بمنزلة ما خلقته إلا ليعبد مع عبادة غيره لأن عبادة غيره مما هو غرض فى خلقه، و لولا- ذلك لم يكن فى خلق النبي عليه لطف لغيره، فالتقدير ما خلقته إلا لعبادته مع عبادة غيره به، و هو بمنزلة قول القائل ما أدبت ولدى إلا ليصلح جميعهم أى بتأديبى له مع تأديب غيره الذى يدعوه إلى خلافه، و ليس

المعنى ما خلقت كل مكلف إلا ليعبد هو فقط.

و في الآية دلالة على انه تعالى لا يريد المباح، لأنه ليس من العباد.

وقوله (ما أريدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أريدُ أَنْ يُطْعَمُونَ) معناه نفى الإبهام عن خلقهم لعبادته ان يكون ذلك لفائدة تقع و تعود عليه تعالى، فبين انه لفائدة

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٣٩٩

النفع العائد على الخلق دونه تعالى لاستحالة النفع عليه و دفع المضار، لأنه غنى بنفسه لا يحتاج إلى غيره، و كل الناس محتاجون اليه. و من زعم ان التأويل ما أريد ان يرزقوا عبادى و لا أن يطعموهم، فقد ترك الظاهر من غير ضرورة. و قال ابن عباس: معنى (وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الا ليتقربوا لى بالعبودية طوعاً و كرهاً.

ثم بين تعالى انه- جل و عز- هو الرازق لعباده فقال (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) و الخلق لا يرزقونه (ذو القوة) صاحب القدرة (المتين) و معناه انه القوى الذى يستحيل عليه العجز و الضعف، لأنه ليس بقادر بقدرة، بل هو قادر لنفسه، و لأنه ليس بجسم، و الجسم هو الذى يلحقه ضعف. و من خفض (المتين)- و هو يحيى ابن وثاب- جعله صفة للقوة، و ذكره لأنه ذهب الى الحبل و الشىء المفتون يريد القوة، قال الشاعر:

لكل دهر قد لبست أثوبا من ريطه و اليمينه المعصبا «١»

فذكر لان اليمينه ضرب من الثياب و صنف منها، و من فسر (المتين) بالشديد فقد غلط، لان الشديد هو الملفت بما يصعب معه تفكيكه. و وصف القوة بأنها أشد يؤذن بالمجاز، و انه بمعنى أعظم.

ثم اخبر تعالى بأن (للذين ظلموا) نفوسهم بارتكاب المعاصي (ذنوباً) أى نصيباً و أصله الدلو الممتلئ ماء، كما قال الراجز:

لنا ذنوب و لكم ذنوب فان أبيتتم فلنا القليب «٢»

و قال علقمة:

(١) اللسان (ثوب) و تفسير القرطبي ٥٧ / ١٧

(٢) مر فى ٤٠٥ / ٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠٠

و فى كل حى قد خبطت بنعمة فحق لشاس من نداك ذنوب «١»

أى نصيب، و إنما قيل الدلو: ذنوب، لأنها فى طرف الحبل، كأنها فى الذنب. و قيل: معناه لهم بلاء و ويل. و الذنوب الدلو العظيمة يؤنث و يذكر، و قوله (مِثْلَ ذُنُوبِ أَصِحَابِهِمْ) أى مثل نصيب أصحابهم من الكفار الذين تقدموهم (فلا- يستعجلون) قل لهم لا تستعجلون بانزال العذاب عليهم، فإنهم لا يفوتون.

ثم قال (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) وحدانيتى و جحدوا نبوة رسولى (مَنْ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) فيه بانزال العذاب بالعصاة و هو يوم القيامة، و الويل كلمة تقولها العرب لكل من وقع فى مهلكة.

(١) تفسير القرطبي ٥٧ / ١٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠١

٥٢- سورة الطور ص: ٤٠١

إشارة

مكية بلا خلاف و هي تسع و أربعون آية في الكوفي، و ثمان في البصري، و سبع في المدنيين.

[سورة الطور (٥٢): الآيات ١ الى ٨] ص: ٤٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ (٣) وَالتِّيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨)
سبع آيات حجازي و ثمان في ما عداها، عَدَّ الكوفيون و الشاميون (و الطور) و لم يعده الحجازيون.
الوجه في القسم بالطور هو ما قدمناه في قوله (و الذاريات) و غير ذلك، و هو أن الله تعالى له أن يقسم بما يشاء من خلقه، و ليس للعباد أن يقسموا إلا به. و قيل: الطور هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى. و قال مجاهد: الطور جبل. و قال المبرد: يقال لكل جبل طور. فإذا ادخلت عليه الألف و اللام كان التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠٢
معرفته لشيء بعينه. و منه قوله (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ) «١» و قيل: إنه سرياني (وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ) أى مكتوب- في قول قتادة و الضحاك- قال رؤبه:

إني و اسطار سطر سطرًا «٢» و قيل: الكتاب المسطور: هو الذي كتبه الله على خلقه من الملائكة في السماء يقرؤون فيه ما كان و يكون. و قيل: هو القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، و هو الرق المنشور. و قال الفراء: الكتاب المسطور صحائف الاعمال فمن أخذ كتابه يمينه، و من أخذ كتابه شماله. و السطر ترتيب الحروف. و المسطور المرتب الحروف على وجه مخصوص، سطرته أسطره سطرًا، فأنا ساطر و ذلك مسطور (فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ) فالرق جلد رقيق يصلح للكتابة. و قال ابو عبيدة:
الرق هو الورق. و قيل: إنما ذكر الرق، لأنه من أحسن ما يكتب عليه، فذكر لهذه العلة، فإذا كتبت الحكمة في ما هو على هذه الصفة كان أبهى و أولى. و المنشور المبسوط. و إنما قيل: منشور، لأنه أبهى في العيون.
و قوله

(وَالْتِيْتِ الْمَعْمُورِ) قيل: هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة، تعمده الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة. و روى ذلك عن علي عليه السلام

و ابن عباس و مجاهد.

قال علي عليه السلام يدخل كل يوم سبعون الف ملك ثم لا يعودون فيه.

و قال الحسن البيت المعمور: البيت الحرام. و

قال أمير المؤمنين عليه السلام و مجاهد و قتادة و ابن زيد (السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) هو السماء.

و قوله (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) فالبحر المجرى الواسع العظيم من مجارى الماء، و أصله الاتساع. و البحيرة الناقصة التي يوسع شق أذنها و تخلى في المرع. و تبحر فلان في العلم إذا اتسع فيه، و المسجور المملو.

و منه سجرت التنور إذا ملأته ناراً. و عين سجاء ممتلئة فيها حمرة كأنها احمرت

(٢) مر في ١١٠ / ٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠٣

مما هو لها كسجار التنور. وقال مجاهد وابن زيد: البحر المسجور الموقد. وقال قتادة: هو المملوء قال لبيد:
فتوسطا عرض السرى و صدعا مسجورة متجاوز أقدامها «١»

و

روى في الحديث ان البحر يسجر، فيكون ناراً في جهنم.

وقوله (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) جواب القسم، أقسم الله تعالى بالأشياء التي تقدم ذكرها ليتحقق عند العباد أن عذابه واقع لا محالة لمن وافى على الصفة التي يستحق بها العقوبة، وأن لا- يطمع أن ينفعه سؤال حميم أو قريب منه قال النمر ابن تولب العكلى: شاهداً في المسجور:

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع و السما سما «٢»

و إنما هي بقعة مملوءة شجراً.

قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ٩ الى ١٦]..... ص: ٤٠٣

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)

هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اضِلُّوها فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

ثمان آيات كوفى و شامى، و سبع فى ما عداهما، عد الكوفيون و الشاميون

(١) مر في ١١٨ / ٧

(٢) تفسير القرطبي ١٧ / ٦١ و مجاز القرآن ٢ / ٢٣٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠٤

(دعاً) و لم يعده الباقون.

قوله (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) يعنى يوم القيامة، و هو متعلق بقوله (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ... يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) و المور تردد الشىء بالذهاب و المجيء كما يتردد الدخان ثم يضمحل، مار يمر موراً فهو مائر. و قيل: يمر موراً بمعنى يدور دوراً- فى قول مجاهد- و قال الضحاك: معناه يموج موجاً قال الأعشى أنشده أبو عبيدة:

كان مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث و لا عجل «١»

و رواه غيره مر السحابة (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) الذين ينكرون اخبار الله تعالى فهؤلاء الجهال أنكروا ما اخبر به الأنبياء بأن نسبوه إلى الكذب (الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) فالخوض الدخول فى الماء بالقدم و شبه به الدخول فى الأمر بالقول، يقال خاض يخوض خوضاً، فهو خائض.

و خوضه فى الشراب تخويضاً، و منه المخوض. و اللعب طلب الفرح بمثل حال الصبى فى انتفاء العمل على مقتضى العقل، لعب لعباً فهو لا لعب، و دخلت الفاء فى (فويل) لما فيه من معنى الجزاء، لادن تقديره إذا كان كذا و كذا فويل، و معنى الآية إني سأعلمهم بكفرهم و تصير عاقبتهم العذاب.

وقوله (يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً) معناه يوم يدعون إلى نار جهنم للعذاب فيها، دعه يدعه دعاً إذا دفعه. و مثله صكه يصكه صكاً، و الداع الدافع و قيل: الدع الدفع بانزعاج و إرهاق- في قول قتادة و الضحاك-.

وقوله (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) أى يقال لهم على وجه التوبيخ:

هذه النار التى كنتم تكذبون بها فى دار التكليف حين جحدتم الثواب و العقاب

(١) ديوان الأعشى ١٤٤ و مجاز القرآن ٢ / ٢٣١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠٥

و النشور. و يقال لهم على وجه الإنكار عليهم (أفسح هذا) قد غطى على أبصاركم (أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) ثم يقال لهم (اصلوها) يعنى النار (فَاصْبِرُوا أَوْ لَا- تُصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ) كونكم فى العقاب صبرتم أو لم تصبروا، فانه لا- يحيف عليكم (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ) أى جزاء ما كنتم (تعملون) فى الدنيا من المعاصى و الصلى لزوم النار المعذب بها صلى صلياً، و منه الصلاة للزوم الدعاء فيها، و منه:

صلى على دنها و ارتسم «١»

أى لزوم، و المصلى الذى يجىء فى اثر السابق على لزوم أثره و الأصل لزوم الشيء، و الصبر حبس النفس على الأمر بالعمل فكأنه قال: احبسوا أنفسكم على النار لتعاملوا بالحق أو لا- تحبسوا سواء عليكم فى ان الجزاء لا- محالة واقع بكم و لا- حق لكم. و الجزاء مقابلة العمل بما يقتضيه فى العقل من خير أو شر. و السواء و الاستواء و الاعتدال بمعنى واحد. و الاستواء امتناع كل واحد من المقدارين من ان يكون زائداً على الآخر أو ناقصاً عنه، فالصبر و ترك الصبر لا ينفع واحد منهما فى رفع العذاب عن أهل النار.

قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ١٧ الى ٢٠]..... ص: ٤٠٥

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

أربع آيات بلا خلاف.

(١) مر فى ١ / ٥٦، ١٩٣ و ٢ / ٤١ و ٥ / ٣٣٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠٦

لما اخبر الله تعالى عن حال الكفار و ما أعد لهم من أليم العقاب، اخبر أيضاً بما أعدده للمؤمنين المتقين من أنواع الثواب فقال (إن المتقين) الذين يجتنبون معاصى الله خوفاً من عقابه (فى جنات) أى بساتين تجننها الأشجار (وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) أى متنعمين بما أعطاهم ربهم من أنواع النعم و قال الزجاج:

معنى (فاكهين) معجبين بما آتاهم. و قال الفراء: مثل ذلك (وقاهم ربهم) أى منع عنهم عذاب الجحيم. و الفاكه الكثير الفاكهة، كقولهم لابن و تامر أى ذو لبن و ذو تمر. و الفكه المسرور بأحواله كسرور آكل الفاكهة بفاكهته.

وقوله (مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ) قيل متكئين على النمارق و هى الوسائد إلا انه حذف ذكرها. و المعنى (عليه)، لأنه أصل الاتكاء، و تقديره متكئين على النمارق الموضوعه على السرر، و هو جمع سرير. و قوله (مصفوفة) أى مصطفة.

وقوله (وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) فالحور البيض النقيات البياض فى حسن و كمال، و العين الواسعة الأعين فى صفاء و بهاء، و المعنى قرنا هؤلاء المتقين بالحور العين على وجه التنعيم لهم و التمتع.

قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ٢١ الى ٢٥] ص: ٤٠٦

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينَ (٢١) وَ
 أَمَدَدْنَاهُمْ بِغَاكِهِ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأثِيمُ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ
 مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠٧

خمسة آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير و أهل الكوفة (و اتبعتهم) بالتاء (ذريتهم) على واحدة (بهم ذريتهم) على واحدة أيضاً. وقرأ نافع (و اتبعتهم) بالتاء
 (ذريتهم) على واحدة (بهم ذرياتهم) على الجمع. وقرأ ابن عامر (و اتبعتهم ذرياتهم) بالتاء على الجمع (بهم ذرياتهم) جماعة أيضاً. و
 قرأ أبو عمرو (أتبعناهم) بالنون (ذرياتهم) جماعة (ألحقنا بهم ذرياتهم) جماعة أيضاً. وقرأ ابن كثير وحده (و ما ألتناهم) بفتح الالف و
 كسر اللام. الباقون - بفتح الألف و اللام - وقرأ ابن كثير و أبو عمرو (لا لغوا فيها و لا تأثيم) نصباً. الباقون بالرفع و التنوين. قال الزجاج:
 فمن رفع فعلى ضربين: أحدهما - على الابتداء و (فيها) الخبر، و الثاني - أن تكون (لا) بمعنى ليس رافعة و انشد سيويه:
 من فر عن نيرانها فأنا ابن قيس لا براح «١»

و من نصب بنى كقوله (لا ريب فيه) «٢» و الاختيار عند النحويين إذا كررت (لا) الرفع. و النصب جائز حسن.
 يقول الله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا) بالله و أقروا بتوحيده و صدقوا رسله (وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) من قرأ بالنون
 معناه، و ألحقنا بهم ذرياتهم أى ألحق الله بهم ذرياتهم يعنى حكم لهم بذلك. و من قرأ (و اتبعتهم) نسب الاتباع إلى الذرية. و
 المعنى إنهم آمنوا كما آمنوا، فمن جمعه فلاختلاف أجناس الذرية، و من وحد، فلانه يقع على القليل و الكثير، و إنما قرأ أبو عمرو

(١) اللسان (برح) و سيويه ٢٨ / ١، ٣٥٤ [.....]

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠٨

(أتبعناهم) بالنون لقوله بعد ذلك (ألحقنا) و قال البلخي: معنى الآية إن ثواب الذرية إذا عملوا مثل أعمال الآباء يثابون مثل ثواب
 الآباء، لان الثواب على قدر الاعمال. و لما قال (و اتبعناهم ذرياتهم) بين أن ذلك يفعل بهم من غير أن ينقص من أجورهم، لئلا يتوهم
 انه يلحقهم نقص أجر. و قال الزجاج: معنى الآية إن الأبناء إذا كانوا مؤمنين فكانت مراتب آبائهم فى الجنة أعلا من مراتبهم ألحق
 الأبناء بالآباء، و لم ينقص الآباء من أعمالهم، و كذلك إن كان اعمال الآباء انقص ألحق الآباء بالأبناء. و الاتباع إلحاق الثانى بالأول
 فى معنى عليه الأول، لأنه لو ألحق به من غير أن يكون فى معنى هو عليه لم يكن اتباعاً، و كان إلحاقاً.
 و إذا قيل: اتبعه بصره فهو الإدراك، و إذا قيل: تبعه فهو يصرف البصر بتصرفه.

و قوله (ألحقنا بهم ذرياتهم) قال ابن عباس و الضحاك و ابن زيد: الحقوا الأولاد بالآباء إذا آمنوا من أجل إيمان الآباء. و فى رواية
 أخرى عن ابن عباس:

أن التابعين الحقوا بدرجة آبائهم، و إن قصرت أعمالهم تكرمهم لآبائهم و الاول هو الوجه. و إنما وجب بالإيمان إلحاق الذرية بهم مع
 أنهم قد يكون ليس لهم ذرية لأنه إنما يستحق ذلك السرور على ما يصح و يجوز مع أنه إذا اتبع الذرية على ما أمر الله به استحق
 الجزاء فيه، فان أبطلته الذرية عند البلوغ بسوء عمل، و فى سروره فى أمر آخر كما أن اهل الجنة من سرورهم ما ينزل بأعدائهم فى
 النار، فلو عفى عنهم لو فوا سرورهم بأمر آخر.

وقوله (و ما ألتناهم) معناه ما نقصناهم يقال: ألتته يألته ألتاً، و ألاته يלתه إلاتة، و لاته يليته ثلاث لغات - ذكرها ابو عبيدة: إذا نقصه، فبين - عز و جل - أنه لا يجوز عليه نقصان شيء من جزاء عمله، لأنه لا يجوز عليه الظلم لا قليله و لا كثيره و لا صغيره و لا كبيره، و قال ابن عباس و مجاهد و الربيع (و ما ألتناهم) ما نقصناهم التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٠٩

قال الشاعر:

ابلق بنى ثعل عنى مغلغلة جهد الرسالة لا ألتاً و لا كذباً «١»

وقوله (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ) أى كل إنسان يعامل بما يستحقه و يجازى بحسب ما عمله إن عمل طاعة أثيب عليها و إن عمل معصية عوقب بها لا يؤاخذ احد بذنب غيره. و الرهين و المرهون و المرتهن هو المحتبس على أمر يؤدي عنه بحسب ما يجب فيه، فلما كان كل مكلف محتسباً على عمله، فان صح له أداؤه على الواجب فيه تخلص، و إلا هلك، فلهذا قال (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ).

قوله (وَ أَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ) فالامداد هو الإتيان بالشيء بعد الشيء يقال:

مد الجرح و أمد النهر، و الفاكهة هى الثمار (وَ لَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) أى و أمددناهم ايضاً بلحم من الجنس الذى يشتهونه.

وقوله (يَتَنَارَعُونَ فِيهَا كَأْساً) أى يتعاطون كأس الخمر، قال الأخطل:

نازعتهم طيب الراح الشمول و قد صاح الدجاج و حانت وقعة السارى «٢»

و الكأس الأناء المملوء بالشراب، فان كان فارغاً فلا يسمى كأساً - ذكره الفراء - و قوله (لَا لَعُوْ فِيْهَا وَلَا تَأْتِيْمٌ) معناه لا يجرى بينهم باطل و لا ما يلغى فيه و لا ما فيه أثم كما يجرى فى الدنيا عند شرب الخمر. و قوله (وَ يَطُوْفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) يعنى فى صفائه و بياضه و حسن منظره، و المكنون المصون.

وقيل: ليس على الغلمان مشقة فى خدمة أهل الجنة، بل لهم فى ذلك لذة، لأنه ليس هناك دار محنة. و قوله (وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) أى يسأل بعضهم بعضاً عن حاله، و ما هو فيه من انواع النعيم فيسرون بذلك و يزداد فرحهم

(١) تفسير الطبرى ٢٧ / ١٥

(٢) تفسير الطبرى ٢٧ / ١٦ و القرطبي ١٧ / ٦٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤١٠

وقيل: يسأل بعضهم بعضاً عما فعلوه فى دار الدنيا مما استحقوا به المصير إلى الثواب و الكون فى الجنان بدلالة قوله (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ).

قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٤١٠

قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ وَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ نافع و الكسائي (ندعوه أنه) بفتح الهمزة على تقدير بأنه او لأنه.

الباقون بكسر الهمزة على الاستئناف.

لما حكى الله تعالى ان اهل الجنة يقبل بعضهم على بعض و يسأل بعضهم بعضاً عن أحوالهم ذكر ما يقولونه فإنهم يقولون (إنا كنا) فى دار الدنيا (ففى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) أى خائفين رقيقى القلب، فلاشفاق رقة القلب عما يكون من الخوف على الشيء، و الشفقة نقيض الغلظة. و أصله الضعف من قولهم: ثوب شفق أى ضعيف النسج رديئة، و منه الشفق، و هو الحمرة التى تكون عند غروب الشمس إلى

العشاء الآخرة، لأنها حمرة ضعيفة. والأهل هو المختص بغيره من جهة ما هو أولى به، وكلما كان أولى به فهو أحق بأنه أهله، فمن ذلك أهل الجنة وأهل النار. ومن ذلك أهل الجود والكرم، وفلان من أهل القرآن، ومن أهل العلم، ومن أهل الكوفة. ومن هذا قيل: لزوجة الرجل: أهله، لأنها مختصة به من جهة هي أولى التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤١١ به من غيره.

فقوله (فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) أي من يختص به ممن هو أولى بنا.

وقوله (فَمِنْ اللَّهِ عَلَيْنَا) فالمن القطع عن المكاره إلى المحاب، يقال: من على الأسير يمن منّا إذا أطلقه وأحسن إليه، و امتن عليه بصنيعه أي اقتطعه عن شكره بتذكير نعمته والمنية قاطعه عن تصرف الحي و (أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) «١» أي غير مقطوع. وقوله (وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ) ألوقا: منع الشيء من المخوف بما يحول بينه وبينه، ومنه الوقاية، و وقاه يقيه وقاء فهو واق، و وقاه توقيه قال الراجز:

إذ الموقى مثل ما وقيت عذاب السموم فالسموم الحر الذي يدخل في مسام البدن بما يوجد ألمه، ومنه ريح السموم، و مسام البدن الخروق الدقاق.

ثم قالوا (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ) يعنى فى دار التكليف ندعوه (إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) أى ندعوه بهذا، فيمن فتح الهمزة، و من كسرهما أراد إنا كنا ندعوه و نتضرع إليه، ثم ابتداء فقال (إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) قال ابن عباس:

البر هو اللطيف و أصل الباب اللطف مع عظم الشأن، و منه البر للطفها مع عظم النفع بها، و منه البر لأنه لطف النفع به مع عظم الشأن، و منه البرية اللطف مسالكها مع عظم شأنها، و البر بالكسر الفاره، و البر بر الوالدين، و قولهم: فلان لا يعرف هره من برّه قيل فى معناه ثلاثة أشياء:

أحدها- لا يعرف السنور من الفاره.

الثانى- لا يعرف من يبره ممن يكرهه.

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤١٢

الثالث- لا يعرف دعاء الغنم و هو برها من سوقها.

ثم قال تعالى للنبي صلى الله عليه وآله (فذكر) يا محمد أى عظ هؤلاء المكلفين (فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ) قسم من الله تعالى بنعمته (بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) على ما يرمونك به. و قال البلخي: معناه ما أنت بنعمة الله عليك بكاهن، و لا يلزم ان يكون الله تعالى لم ينعم على الكاهن، لأن الله تعالى قد عم على جميع خلقه بالنعم و إن كان ما أنعم به على النبي أكثر، و قد مكن الله الكاهن و سائر الكفار من الايمان به، و ذلك نعمه عليه. فالكاهن الذى يذكر انه يخبر عن الجن على طريق العزائم، و الكهانة صنعة الكاهن، و الكاهن الموهوم انه يعلم الغيب بطريق خدمة الجن و المجنون المثوف بما يغطى على عقله حتى لا يدرك به فى حال يقظته، و قد علموا أنه ليس بشاعر، كما علموا أنه ليس بمجنون، لكن قالوا ذلك على جهة التكذيب عليه ليستريحوا إلى ذلك كما يستريح السفهاء إلى التكذب على أعدائهم.

ثم قال (أم) و معناه بل (يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ) قال مجاهد: ريب المنون حوادث الدهر. و قال ابن عباس و قتادة: الموت، و المنون المنية، و ريبها الحوادث التى تريب عند مجيئها و قال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها سيهلك عنها بعلها و شحيح «١»

قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ٣١ الى ٤٠]..... ص: ٤١٢

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَيْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠)

(١) تفسير الطبري ١٧/٢٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤١٣

عشرة آيات بلا خلاف.

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ كَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ، وانه شاعر تتربص به ريب المنون أى نتوقع فيه حوادث الدهر والهلاك، قال الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (قل) لهم يا محمد (تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) فالتربص هو الانتظار بالشئ انقلب حال إلى خلافها. والمعنى إنكم إن تربصتم بى حوادث الدهر والهلاك، فانى معكم من المنتظرين لمثل ذلك، فتربص الكفار بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ قَبِيحٌ، وَ تربص النبي وَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَفَارِ وَ توقعهم لهلاكهم حسن، و قوله (فتربصوا) و إن كان بصيغته الامر فالمراد به التهديد.

و قوله (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا) على طريق الإنكار عليهم ان هذا الذى يقولونه و يتربصون بك من الهلاك. أحلامهم أى عقولهم تأمرهم به، و تدعوهم اليه و الأحلام جمع الحلم، و هو الامهال الذى يدعو إليه العقل و الحكمة، فالله تعالى حليم كريم، لأنه يمهل العصاة بما تدعو اليه الحكمة، و يقال: هذه أحلام قريش أى عقولهم. ثم قال تعالى ليس الأمر على ذلك (بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) و الطاغى هو الطالب للارتفاع بالظلم لمن كان من العباد، و منه قوله (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ) «١» لأنه

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ١١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤١٤

طلب الارتفاع كطلب الظالم للعباد فى الشدة، فحسن على جهة الاستعارة.

و قوله (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ) معناه بل يقولون أفتراه و اخترعه و افعله، لاین تقول لا يكون إلا كذباً، لأنه دخله معنى تكلف القول من غير حقيقة معنى يرجع اليه، و كذلك كل من تكلف أمراً من غير اقتضاء العقل أن له فعله فهو باطل. ثم قال (بل) هؤلاء الكفار (لا يصدقون) بنبوتك و لا بأن القرآن انزل من عند الله. و الآية ينبغى ان تكون خاصة فيمن علم الله انه لا يؤمن.

ثم قال على وجه التحدى لهم (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ) يعنى مثل القرآن و ما يقاربه (إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) فى انه شاعر و كاهن و مجنون و تقوله، لأنه لا يتعذر عليهم مثله. و قيل المثل الذى وقع التحدى به هو ما كان مثله فى أعلا طبقة البلاغة من الكلام الذى ليس بشعر. و أعلا طبقات البلاغة كلام قد جمع خمسة أوجه:

تعديل الحروف فى المخارج، و تعديل الحروف فى التجانس و تشاكل المقاطع مما تقتضيه المعانى و تهذيب البيان بالاجاز فى موضعه و الاطناب فى موضعه، و الاستعارة فى موضعها و الحقيقة فى موضعها. و اجراء جميع ذلك فى الحكم العقلية بالترغيب فى ما ينبغى ان يرغب فيه، و التهيب مما ينبغى ان يرهب منه، و الحجج التى يميز بها الحق من الباطل، و الموعظة التى تليق للعمل بالحق.

و قوله (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) معناه أخلقوا من غير خالق (أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) لنفوسهم فلا يأترون لا مر الله و لا ينتهون عما نهاهم عنه. و قيل:

معنى (أخلقوا من غير شيء) أخلقوا لغير شيء أى أخلقوا باطلا لا لغرض.

وقيل: المعنى أخلقوا من غير أب ولا أم فلا يهلكون، كما أن السموات والأرض خلقتا من غير شيء، فإذا هم أضعف من السماء الذى خلق لا من شيء، فإذا كان ما خلق لا من شيء يهلك فما كان دونه بذلك أولى. وقوله (أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ التَّبْيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ج ٩، ص: ٤١٥) وَالْأَرْضِ

و اخترعوها فلذلك لا يقرون بالله أنه خالقهم. ثم قال تعالى (بل لا يوقنون) بأن لهم إلهاً يستحق العبادة وحده ولا يقرون بأنك نبي من جهة الله.

وقوله (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ) معناه أ عندهم خزائن نعمه ربك وخزائن الله مقدوراته، لأنه يقدر من كل جنس على ما لا نهاية له فشبه ذلك بالخزائن التى تجمع أشياء مختلفة. والمعنى كأنه قال: أ عندهم خزائن رحمة ربك فقد أمنوا أن تجيء الأمور على خلاف ما يحبون (أَمْ هُمُ الْمُسَيِّطُونَ) على الناس فليس عليهم مسيطر ولا لهم ملزم ومقوم، فالمسيطر الملزم غيره امراً من الأمور قهراً. وهو مأخوذ من السطر يقال: سيطر يسيطر سيطرة، وهو (فيعل) من السيطرة، ونظيره يطر يطره.

وقيل: المسيطر الملك القاهر. وقيل: هو الجبار المتسلط، ومنه قوله «لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ» (١) يقولون: سيطر على أى اتخذنى خولاً، وقال ابو عبيدة: المسيطرون الأرباب، والمسيطر والميقر والمبيطر والمهيمن والكميت اسماء جاءت مصغرة لا نظير لها. وقرأ قتادة «بمسيطر» بفتح الطاء، بمعنى لست عليهم بمسلط. وقرأ ابن كثير و ابو عمرو و ابن عامر و الكسائي «المسيطرون» بالسين. الباقر بالصاد إلا ان حمزة يشم الصاد زائياً.

وقوله (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ) فالسلم مرتقى إلى العلو من مشيد الدرجة مرتقى إلى علو من بناء مصمت. ويقال: جعلت فلاناً سلماً لحاجتى أى سبباً. وقال ابن مقبل:

لا يحرز المرء احجاء البلاد ولا تبني له فى السموات السلايم (٢)

فكانه قيل أم يستمعون الوحي من السماء، فقد وثقوا بما هم عليه وردوا

(١) سورة ٨٨ الغاشية آية ٢٢

(٢) تفسير الطبرى ٢٧/ ١٩ و مجاز القرآن ٢/ ٢٣٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤١٦

ما سواه «فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» أى بحجة يظهر صحة قولهم. والاستماع الإصغاء إلى الصوت، وإنما قيل لهم ذلك، لان كل من ادعى ما لم يعلم ببداهة العقول فعليه إقامة الحجة.

وقوله «أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُتُونُ» معناه أ لكم البنون ولله البنات، فصاحب البنين أعلى كلمة من صاحب البنات، وهذا غاية التجهيل لهم والفضيحة عليهم.

وقيل: لو جاز اتخاذ الأولاد عليه لم يكن يختار على البنين البنات فدل بذلك على افراط جهلهم فى ما وصفوا الله تعالى به من اتخاذ الملائكة بنات.

وقوله «أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا» أى ثواباً على أداء الرسالة اليهم بدعائك إياهم إلى الله «فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ» فالمغرم إلزام الغرم- فى المال- على طريق الابدال. والمغرم انفاق المال من غير إبدال. وأصله المطالبة بإلحاح فمنه الغريم، لأنه يطالب بالدين بإلحاح، ومنه «إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا» (١) أى ملحاً دائماً.

والمغرم لأنه يلزم من جهة المطالبة بالحاج لا يمكن دفعه. و المثلث المحمول عليه ما يشق حمله لثقله.

قوله تعالى: [سورة الطور (٥٢): الآيات ٤١ الى ٤٩]..... ص: ٤١٦

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤١٧

تسع آيات بلا خلاف.

قرأ عاصم و ابن عامر (يصعقون) بضم الياء - على ما لم يسم فاعله - الباقون بفتح الياء على اضافته الفعل اليهم، و هما لغتان. يقال: صعق فلان فهو مصعوق و صعق فهو صاعق. و روى عن عاصم أيضاً «يصعقون» بضم الياء و كسر العين بمعنى يحصلون في الصاعقة. و قيل: الصعق الهلاك بصيغة تصدع القلب. و قيل:

الصعق عند النفخة الاولى. قال قوم: إن قوله «أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ» جواب لقولهم ان كان امر الآخرة على ما تدعون حقاً فلنا الجنة كقولهم «وَلَيْتَ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخَيْرَ» (١) ذكره الحسن. و الغيب الذي لا يعلمه إلا الله هو ما لم يعلمه العاقل ضرورة و لا عليه دلالة. و الله تعالى عالم به، لأنه يعلمه لنفسه، و العالم لنفسه لا يخفى عليه شيء من وجه من الوجوه.

و قوله «أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ» فالكيد هو المكر.

و قيل: هو فعل ما يوجب الغيظ في خفي يقال: كاده يكيده كيداً، فهو كائد، و المفعول مكيد و كايده مكايده مثل غايظه مغايظه. و الكيد من الله هو التدبير الذي

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٥٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤١٨

يدبره لأوليائه على أعدائه ليقهروهم و يستعلوا عليهم بالقتل و الأسر. و قال الزجاج: معناه أ يريدون بكفرهم و طغيانهم كيداً، فالله تعالى يكيدهم بالعذاب في الدنيا و الآخرة.

و قوله «أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ» أى على حقيقته معنى الالهية و هو القادر على ما تحقق به العبادة فلذلك عبدوه؟! فإنهم لا يقدرُونَ على دعوى ذلك. ثم نزه نفسه فقال «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» من ادعاء آلهة معه من الأصنام و الأوثان.

و قوله «وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا» فالكسف جمع كسفه كقولك:

سدر و سدره، و هو جواب قولهم «أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا» (١) فقال الله تعالى لو سقط عليهم ما آمنوا و لقالوا (سحاب مركوم) و الكسف القطعة من الغيم بقدر ما يكسف ضوء الشمس. و الكسف من السماء القطعة منها. و السحاب الغيم سمي بذلك لانسحابه في السماء، و المركوم الموضوع بعضه على بعض. و كل الأمور المذكورة بعد (أم) إلزيمات لعبدة الأوثان على مخالفة القرآن، ثم قال تعالى للنبي صلى الله عليه و آله «فذرهم» أى اتركهم «حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ» أى يهلكون فيه بوقوع الصاعقة عليهم. و قيل: الصعقة هى النفخة الاولى التى يهلك عندها جميع الخلائق، ثم وصف ذلك اليوم بأن قال «يَوْمَ لَا يُغْنِي

عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا» أى لا ينفعهم كيدهم و حيلتهم و لا تدفع عنهم شيئاً، لان جميعه يبطل «وَهُمْ لَا يُنْصِرُونَ» بالدفاع عنهم. و الفرق بين الغنى بالشئ و الغنى عنه أن الغنى عنه يوجب أن وجوده و عدمه سواء فى أن الموصوف غنى، و ليس كذلك الغنى به، لأنه يبطل أن يكون الموصوف غنياً. و الغنى هو الحى الذى ليس بمحتاج، و ليس بهذه الصفة إلا الله تعالى. و معنى «لَا يُغْنِي عَنْهُمْ» أى لا يصرف عنهم شيئاً من

(١) سورة ١٧ الإسراء آية ٩٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤١٩

الضرر الذى يقع إلى نفع يصير بمنزلة الغنى لهم.

و قوله «وَأَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ» قال ابن عباس: هو عذاب القبر، و به قال البراء، و قال مجاهد: هو الجوع فى الدنيا. و قال ابن زيد: هو مصائب الدنيا. و قال قوم: هو عموم جميع ذلك.

ثم قال «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» و معناه إن أكثر هؤلاء الكفار لا يعلمون صحة ما أمرناهم و أمرناك به لجحدهم نبوتك. ثم قال تعالى للنبي صلى الله عليه و آله «وَاصْبِرْ» يا محمد «لِحُكْمِ رَبِّكَ» الذى حكم به و ألزمك التسليم له «فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا» أى بمرئى منا ندرلك، و لا يخفى علينا شئ من أمرك، نحفظك لئلا يصلوا إلى شئ من مكروهك. و أمره بالتنزيه له عما لا يليق به فقال «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ» قال ابو الأحوص: معناه حين تقوم من نومك. و قال الضحاك: معناه إذا قمت إلى الصلاة المفروضة، فقل سبحانك اللهم و بحمدك. و قال ابن زيد: معناه صل بحمد ربك حين تقوم من نوم القائلة إلى صلاة الظهر. ثم قال «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبَارَ النُّجُومِ» معناه من الليل يعنى من المغرب و العشاء الآخرة «وَادْبَارَ النُّجُومِ» قال الضحاك و ابن زيد: هو صلاة الفجر قال ابن عباس و قتادة. هما الركعتان قبل صلاة الفجر تطوعاً. و النجوم هى الكواكب واحدها نجم، و يقال: نجم النبت و نجم القرن و السن إلا انه إذا اطلق أفاد الكواكب. و قرأ «و ادبار النجوم» بفتح الهمزة زيد عن يعقوب على انه جمع. الباقون - بكسرها - على المصدر.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٢٠

٥٣- سورة النجم ص: ٤٢٠

إشارة

هى مكية، و هى اثنتان و ستون آية فى الكوفى و ستون فى البصرى و المدنيين.

[سورة النجم (٥٣): الآيات ١ الى ١٠] ص: ٤٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩)
فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠)

عشر آيات بلا خلاف.

قوله «وَالنَّجْمِ» قسم من الله تعالى. و قد بينا أن الله تعالى له أن يقسم بما يشاء من خلقه، و ليس للعباد أن يحلفوا إلا به. و قال قوم:

معناه و رب النجم فحذف المضاف و أقام المضاف اليه مقامه، و فى معنى «النجم» هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها- قال مجاهد: المراد به الثريا إذا سقطت مع الفجر.

الثانى- فى رواية أخرى عن مجاهد أن المراد به القرآن إذا نزل.

الثالث- قال الحسن: معناه جماعة النجوم. «إِذَا هَوَىٰ أَى إِذَا سَقَطَ يَوْمَ التَّبْيَانِ فى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ج ٩، ص: ٤٢١

القيامة كقوله- عز و جل- «وَ إِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ» «١» و قيل: النجم على طريق الجنس، كما قال الراعى:

و باتت تعد النجم فى مستحيرة سريع بأيدي الآكلين جمودها «٢»

(مستحيرة) شحمة مذابة صافية فى إهالة، لأنها من شحم سمين.

و قوله «إِذَا هَوَىٰ قِيلَ: معناه إذا هوى للمغيب و دل على ما فيه من العبرة بتصريف من يملك طلوعه و غروبه، و لا يملك ذلك إلا الله

تعالى. و قيل:

كان القرآن ينزل نجوماً، و بين أول نزوله و آخره عشرون سنة- ذكره الفراء و غيره- و النجم هو الخارج عن الشيء بخروج المنتشىء

عنه. و الهوى ميل الطباع إلى ما فيه الاستمتاع، و هو مقصور و جمعه أهواء، و الهواء الذى هو الجو ممدود و جمعه أهوية.

و قوله «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ» يعنى النبى صلى الله عليه و آله ما ضل عن الحق «وَمَا غَوَىٰ أَى و ما خاب عن إصابته الرشد، يقال: غوى

يغوى غياً إذا خاب، و قال الشاعر:

فمن يلقى خيراً يحمد الناس أمره و من يغو لا يعدم على الغى لائماً «٣»

أى من يخب «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ أَى لَيْسَ يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ أى بالهوى، يقال: رميت بالقوس و عن القوس. و المعنى إنه لا يتكلم

فى القرآن و ما يؤديه إليكم عن الهوى الذى هو ميل الطبع «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ معناه ليس الذى يتلوه عليكم من القرآن إلا وحى

أوحاه الله إليه، فالوحى إلقاء المعنى إلى النفس فى خفى إلا- أنه صار كالعلم فى ما يلقيه الملك إلا النبى صلى الله عليه و آله من

البشر

(١) سورة ٨٢ الانفطار آية ٢

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٣٥ و اللسان (نجم)

(٣) مر فى ٨/ ٣٦، ٤٩٣ و هو فى القرطبي ١٧/ ٨٤ [.....]

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٢٢

عن الله تعالى، و منه قوله «فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» «١» و قوله «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» «٢» أى ألهمها مرادها، و هو

راجع إلى ما قلناه من إلقاء المعنى إلى النفس فى خفى.

و قوله «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ فى نفسه و علمه. و القوة هى القدرة. و قد تستعمل القوة بمعنى الشدة التى هى صلابه العقد كقوى الجبل.

و قوله «ذو مرة» صفة لجبرائيل عليه السلام أى صاحب مرة، و هى القوة.

و اصل المرة شدة الفتل، و هو ظاهر فى الجبل الذى يستمر به الفتل حتى ينتهى إلى ما يصعب به الحل. ثم تجرى المرة على القدرة،

لأنه يتمكن بها من الفعل، كما يتمكن من الفعل بالآلة، فالمرة و القوة و الشدة نظائر. و قوله «فَاسْتَوَىٰ معناه استولى بعظم القوة، فكانه

استوت له الأمور بالقوة على التدبير. و منه قوله «فَاسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ» «٣» أى استولى عليه بالسلطان و القهر. و قال ابن عباس و قتادة:

معنى «ذو مرة» ذو صحة بخلق حسن. و قال مجاهد و سفيان و ابن زيد و الربيع: ذو قوة، و هو جبرائيل. و المرة واحدة المرر، و منه

قوله عليه السلام (لا تحل الصدقة لغنى و لا لذى مرة سوى)

و قيل «فاستوى» جبرائيل و محمد عليهما السلام «بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ أَى سماء الدنيا عند المعراج. و قيل فى «هو» قولان:

أحدهما- انه مبتدأ و خبره في موضع الحال، و تقديره ذو مرة فاستوى في حال كونه بالأفق الأعلى.
الثاني- إنه معطوف على الضمير في (استوى) و حسن ذلك كي لا يتكرر

(١) سورة ١٩ مريم آية ١٠

(٢) سورة ١٦ النحل آية ٦٨

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ٥٣ و سورة ١٠ يونس آية ٣ و سورة ١٣ الرعد آية ٢ و سورة ٢٥ الفرقان ٥٩ و سورة ٣٢ الم السجدة آية ٤ و سورة ٥٧ الحديد آية ٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٢٣

(هو) و انشد الفراء:

ألم تر ان النبع تصلب عوده و لا يستوى و الخروج المتقصف «١»

و قال الزجاج: لا يجوز عطف (هو) على الضمير من غير تأكيد إلا في الشعر و قال تعالى «أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا» «٢» فرد الآباء على المضمير. و قال الربيع:

و استوى يعنى جبرائيل عليه السلام (و هو) كناية عنه على هذا. و في الوجه الأول (هو) كناية عن النبي صلى الله عليه و آله. و قال قتادة: الأفق الأعلى الذي يأتي منه النهار.

و قيل: هو مطلع الشمس «شَدِيدُ الْقُوَى فِي أَمْرِ اللَّهِ «ذو مرة» أي ذو قوة في جسمه. و قيل: فاستوى جبرائيل على صورته التي خلقه الله، لان جبرائيل كان يظهر قبل ذلك للنبي صلى الله عليه و آله في صورة رجل.

و قوله «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» قال الحسن و قتادة و الربيع: يعنى جبرائيل عليه السلام و فيه تقديم و تأخير و التقدير ثم تدلى فدنا. و قال الزجاج: معنى دنا و تدلى واحد، لأن المعنى إنه قرب و تدلى زاد في القرب، كما يقال: دنا فلان و قرب. و المعنى ثم دنا جبرائيل إلى محمد صلى الله عليه و آله، فتدلى اليه من السماء «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» معناه كان بينه و بين جبرائيل مقدار قاب قوسين من القسي العربية أو أقرب بل أقرب منه. و قيل: معنى (أو) في الآية معنى (الواو) كقوله «وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» «٣» و معناه و يزيدون. و

قيل: إنه رأى جبرائيل عليه السلام في صورته له ستمائة جناح

- في قول ابن مسعود- و معنى «قَابَ قَوْسَيْنِ» قدر الوتر من القوس مرتين «أَوْ أَدْنَى» منه و أقرب.

و قوله «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى

قيل اوحى جبرائيل إلى عبد الله محمد

(١) تفسير الطبري ٢٧/٢٣ و القرطبي ١٧/٨٥

(٢) سورة ٢٧ النحل آية ٦٧

(٣) سورة ٣٧ الصافات آية ١٤٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٢٤

ما أوحى. و قيل أوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى. و يحتمل ان تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر و التقدير فأوحى إلى عبده وحيًا. و يحتمل ان يكون بمعنى الذي و تقديره فأوحى إلى عبده الذي أوحى اليه. و المعنى أوحى جبرائيل إلى محمد ما أوحى اليه ربه- و هو قول ابن زيد- و قوله «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» قال ابن عباس رأى ربه بقلبه و هو معنى قوله «علمه» و إنما علم ذلك بالآيات

التي رآها. وقال ابن مسعود وعائشة وقادة: رأى محمد جبرائيل على صورته. وقال الحسن: يعني ما رأى من مقدورات الله تعالى وملكوته. وقال الحسن: عرج بروح محمد صلى الله عليه وآله إلى السماء وجسده في الأرض. وقال أكثر المفسرين - وهو الظاهر من مذهب أصحابنا والمشهور في أخبارهم - أن الله تعالى صعد بجسمه حياً سليماً حتى رأى - ملكوت السموات وما ذكره الله - بعيني رأسه، ولم يكن ذلك في المنام بل كان في اليقظة. وقد بيناه في سورة بني إسرائيل.

قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ١١ إلى ٢٠]..... ص: ٢٢٤

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥)

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠)
عشر آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً ويعقوب «أفتمرونه» بمعنى أفتجحدونه، وهو التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٥
قول إبراهيم. وقرأ الباقر «أفتمارونته» بمعنى أفتجادلونه في أنه رأى ربه بقلبه أو آيات الله ومعجزاته. وقرأ ابن عامر - في رواية هشام - وأبي جعفر «ما كذب» مشددة الدال الباقر بالتخفيف. وقرأ ابن كثير والأعشى إلا ابن غالب «و مناة» مهموزة ممدودة. الباقر «و مناة» مقصورة، وهما لغتان.

يقول الله تعالى إنه لم يكذب فؤاد محمد ما رآه بعينه يعني لم يكذب محمد بذلك بل صدق به والفؤاد القلب. وقال ابن عباس: يعني ما رأى بقلبه. وقال الحسن: إنه رأى ربه بقلبه. وهذا يرجع إلى معنى العلم. ومعنى «ما كذب الفؤاد» أي ما توهم أنه يرى شيئاً وهو لا يراه من جهة تخيله لمعناه، كالرائي للسراب بتوهمه ماء ويرى الماء من بعيد فيتوهمه سراباً. ومن شدد أراد لم يكذب فؤاد محمد ما رأت عيناه من الآيات الباهرات فعدها. ومن خفف فلأن في العرب من يعدى هذه اللفظة مخففة، فيقولون صدقني زيد وكذبنى خفيفاً، وصدقني وكذبنى ثقيلًا وانشد:

و كذبتني و صدقتني و المرؤ ينفعه كذابه «١»

و الفرق بين الرؤية في اليقظة وبين الرؤية في المنام أن رؤية الشيء في اليقظة إدراكه بالبصر على الحقيقة، و رؤيته في المنام لصورة في القلب على توهم الإدراك بحاسة البصر من غير أن يكون كذلك.

وقوله «أفتمارونه» فمن قرأ «أفتمرونه» أراد أفتجحدونه. ومن قرأ «أفتمارونه» أراد أفتجادلونه وتخاصمونه مأخوذ من المراء وهو المجادلة (على ما يرى) يعني على الشيء الذي يراه.

(١) مر في ٨ / ٣٩٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٦

وقوله (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) قال عبد الله بن مسعود وعائشة ومجاهد والربيع: رأى محمد صلى الله عليه وآله جبرائيل عليه السلام دفعة أخرى. و

روى أنه رآه في صورته التي خلقه الله عليها مرتين.

وقوله (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ) قيل: هي شجرة النبق وقيل لها: سدره المنتهى في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج إلى السماء - في قول ابن مسعود والضحاك - وقيل: لأنه ينتهي إليها أرواح الشهداء وقوله (عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ) معناه عند سدره المنتهى جنه المقام و

هى جنّة الخلد، وهى فى السماء السابعة. وقيل: إنه يجتمع فيها أرواح الشهداء. وقال الحسن: جنّة المأوى هى التى يصير إليها أهل الجنة.

وقوله (إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى) معناه يغشى السدرة من النور والبهاء والحسن والصفاء الذى يروق الأبصار ما ليس لوصفه منتهى. وقال ابن مسعود ومجاهد - و

روى ذلك عن النبى صلى الله عليه وآله أنه غشى السدرة فراش الذهب.

وقال الربيع: غشيها من النور نور الملائكة. وقوله (ما يغشى) أبلغ لفظ فى هذا المعنى والغشيان لباس الشئ مما يعمه، يقال غشيه يغشاه غشياناً.

وقوله «ما زاعَ البَصِيرُ» أى ما ذهب عن الحق المطلوب، والزيع الذهاب عن الحق المطلوب، يقال: زاعَ بصره وقلبه يزيع زيعاً، ومنه قوله «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» (١) ومنه قوله «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ» (٢) والزيع الميل عن الحق «وَمَا طَغَى معناه ما طغى البصر أى ما ذهب يميناً وشمالاً. وقيل: ما ارتفع كارتفاع الظالم عن الحق لمن يريده، والطاغى الذى لا يلو على شئ. والطغيان طلب الارتفاع بظلم العباد: طغى يطغى طغياناً.

والطاغى والباغى نظائر. وهم الطغاة والبغاة، والمعنى ما زاعَ بصر محمد وما طغى

(١) سورة ٦١ الصف آية ٥

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٢٧

أى ما جاوز القصد ولا عدل فى رؤية جبرائيل، وقد ملأ الأفق.

وقوله «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» قسم من الله تعالى ان النبى صلى الله عليه وآله رأى من آيات الله ودلائله أكبرها جنّة الخلد وهى فى السماء السابعة وقيل: إنه يجتمع فيها أرواح الشهداء وهى الكبرى التى تصغر عندها الآيات فى معنى صفتها. والأكبر هو الذى يصغر مقدار غيره عنده فى معنى صفتها. وقيل رأى رفراً أخضر من رفارف الجنة قد سد الأفق - فى قول ابن مسعود -.

وقوله (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) أسماء أصنام كانت العرب تعبدوها، والعزى كانت تعبدوها غطفان، وهى شجرة سمره عظيمة، واللات صنم كانت ثقيف تعبدوها، ومناة كانت صخرة عظيمة لهذيل وخزاعة كانوا يعبدونها فليلهم: أخبرونا عن هذه الآلهة التى تعبدونها وتعبدون معها الملائكة وتزعمون ان الملائكة بنات الله، فوبخهم الله تعالى فقال (أَفَرَأَيْتُمُ) هذه (اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) والمعنى أخبرونا عن هذه الآلهة التى تدعونها من دون الله هل لها من هذه الآيات والصفات شئ.

قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٤٢٧

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذْ قَسِمَتهُ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥)

خمس يأت بلا خلاف. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٢٨

قرأ أهل مكة (ضئى) مهموز إلا ابن فليح. الباقون بلا همز.

يقول الله تعالى على وجه الإنكار على كفار قريش الذين أضافوا إلى الله تعالى الملائكة بأنهم بنات الله، فقال لهم: كيف يكون ذلك وأنتم لو خيرتم لا اخترتم الذكر على الأنثى، فكيف تضيفون إليه تعالى مالا ترضون لأنفسكم، فقد أخطأتم فى ذلك من

وجهين: أحدهما- أنكم أضفتم اليه ما يستحيل عليه ولا يليق به، فهو قسم فاسد غير جائز. الثاني- أنكم أضفتم اليه ما لا ترضون لأنفسكم، فكيف ترضونه لله تعالى. وقيل: إنما فضل الذكر على الأنثى لأن الذكر يصلح لما لا تصلح له الأنثى، و ينتفع به في ما لا ينتفع فيه بالأنثى، ولهذا لم يبعث الله نبياً من الإناث.

وقوله (تِلْكَ إِذْ قَسِمَٰهُ صَبَٰئُ أَيُّ تِلْكَ قَسِمَٰهُ فَاسِدٌ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ تَجْعَلُوا لِأَنفُسِكُمُ الْأَفْضَلَ وَلِرَبِّكُمُ الْأَدُونَ، وَ لَوْ كَانَ مِمَّنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْوَلَدُ لَمَا اخْتَارَ الْأَدُونَ عَلَى الْأَفْضَلِ، كَمَا قَالَ (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) «١» فهذا على تقدير الجواز لا على صحة الجواز. والضيفة الجائزة الفاسدة وزنه (فعلى) إلا أنه كسر أوله لتصح الياء من قبل أنه ليس في كلام العرب (فعلى) صفة، و صفة (فعلى) نحو (حبلى) يحمل على ما له نظير. و أما الاسم فانه يجيء على (فعلى) كقوله (فان الذكرى) «٢» و تقول العرب ضربته حقه أضيظه و ضأزته- لغتان- إذا أنقضته حقه و منعه، و منهم من يقول: ضربته- بضم الصاد- أضوزه، و انشد ابو عبيدة و الأخفش:

فان تنأ عنا ننتقصك و ان تغب فسهمك مضؤز و انفك راغم «٣»
و منهم من يقول: ضيزى- بفتح الصاد- و منهم من يقول- ضأزى بالفتح

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٤

(٢) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٥

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٣٧ الشاهد ٨٨٣ و القرطبي ١٧/ ١٠٢

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٢٩

و الهمز، و منهم من يقول: ضؤزى- بضم الصاد و الهمزة- و قال ابن عباس و قتادة (قسمه ضيزى) جائزة. و قال سفيان: منقوصة. ثم قال ان تسميتكم لهذه الأصنام بأنها آلهة و للملائكة بأنها بنات الله (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ) بذلك (ما أنزل الله بها من سلطان) يعنى من حجة و لا برهان إن يتبعون أى ليس يتبعون فى ذلك (إلا الظن) الذى ليس بعلم (وَ مَا تَهْوَى الْأَنفُسُ) أى و ما تميل اليه نفوسكم (وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ عَدْلٌ عَنْ خَطَابِهِمْ إِلَى الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ قَدْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ يَعْنِي الدَّلَالَةُ عَلَى الْحَقِّ).

وقوله (أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى) قيل معناه: بل لمحمد صلى الله عليه و آله ما تمنى من النبوة و الكرامة. و قيل التقدير أ للإنسان ما تمنى؟! من غير جزاء. لا، ليس الامر كذلك، (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولَىٰ يُعْطَىٰ مِنْ يَشَاءُ وَ يَمْنَعُ مِنْ يَشَاءُ. وَ قَالَ الْجَبَائِىُّ مَعْنَاهُ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَىٰ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَ نَعِيمِ الدُّنْيَا، وَ إِنَّمَا الْمَالِكُ لِذَلِكَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَالِكُ لِلْسَمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ، لَا يُعْطَى الْكَفَارُ مَا يَتَمَنُونَهُ، وَ إِنَّمَا يُعْطَى الثَّوَابُ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ).

قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٢٦ الى ٣٠]..... ص: ٤٢٩

وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَرْضَىٰ (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُوكَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَىٰ (٢٧) وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَ لَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ (٣٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٣٠

خمس آيات كوفى و أربع فى ما عداها، عد الشاميون (فأعرض عن من تولى) و لم يعده الباقون. و عد الكوفيون (من الحق شيئاً) و لم

يعده الباقون و عد الكل (الحياة الدنيا) إلا الشاميون، فإنهم عدّوا آخر الآية (اهتدى).

يقول الله تعالى مخبراً بأن كثيراً من ملائكة السموات (لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ) أى لا تنفع شفاعتهم فى غيرهم بإسقاط العقاب عنهم (شيئاً إلا من بعد أن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ) ان يشفعوا فيه و يطلق لهم ذلك (و يرضى) ذلك، و قيل: إن الغرض بذلك الإنكار على عبدة الأوثان و قولهم: إنها تشفع لأن الملك إذا لم تغن شفاعة شيئاً فشفاعة من دونه أبعد من ذلك. و فى ذلك التحذير من الاتكال على الشفاعة، لأنه إذا لم يغن شفاعته الملائكة كان شفاعته غيرهم أبعد من ذلك. و لا ينافى ما نذهب اليه من أن النبى صلى الله عليه و آله و الأئمة و المؤمنين يشفعون فى كثير من أصحاب المعاصى، فيسقط عقابهم لمكان شفاعتهم، لان هؤلاء - عندنا - لا يشفعون إلا بإذن من الله و رضاه، و مع ذلك يجوز أن لا يشفعوا فيه فالزجر واقع موقعه.

ثم أخبر الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) أى لا يصدقون بالبعث و لا بالثواب و لا بالعقاب (لَيَسْئَلَنَّهُ الْمَلَائِكَةُ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى) قال الحسن كانوا يسمون الملائكة بنات الله. ثم قال (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ) أى بما يقولونه و يسمونه (من علم) أى ليسوا عالمين بذلك (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) أى ليس يتبعون فى قولهم ذلك إلا الظن الذى يجوز أن يخطئ و يصيب، و ليس معهم شىء من العلم. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣١

و قوله (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً) معناه إن الظن لا يغنى من العلم لأنه لا بد من علم يحسن الفعل حتى يجوز أن يفعل، و إن كان الظن فى بعض الأشياء علامة للحسن، فما أغنى عن العلم.

ثم قال للنبى صلى الله عليه و آله (فاعرض) يا محمد (عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا) و لم يقر بتوحيدنا و جحد نبوتك و مال إلى الدنيا و منافعها (وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) و التمتع فيها أى لا تقابلهم على أفعالهم و احتملهم، و لم ينه عن تذكيرهم و وعظهم. ثم قال (ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) و معناه إن علمهم انتهى إلى نفع الدنيا دون نفع الآخرة، و هو صغير حقير فى نفع الآخرة، فطلبوا هذا و تركوا ذلك جهلاً به.

ثم قال (إِنْ رِبْكَ) يا محمد (هو أعلم) منك و من جميع الخلق (بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) أى بمن جار و عدل عن طريق الحق الذى هو سبيله (وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى) إليها فيجازى كل واحد على حسب ذلك إن عملوا طاعة أثابهم عليها و إن عملوا معصية عاقبهم عليها.

قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٣١ إلى ٣٥]..... ص: ٢٣١

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَبِئُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَ أَعْطَى قَلِيلاً وَ أَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٣٢

خمس آيات.

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً (كبير الإثم) على لفظ الواحد. الباقون بلفظ الجمع (كبائر) و قد بيناه فى سورة (حم عسق). هذا اخبار من الله بأن له ملك (ما فى السموات) و ملك (ما فى الأرض) من جميع الأجناس بالحق (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا) أى يعاقبهم (بما عملوا) من المعاصى (وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) أى يشيهم على طاعاتهم بنعيم الجنة و الخلود فيها. ثم وصف الذين أحسنوا فقال هم (الَّذِينَ يَجْتَبِئُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ) أى عظام الذنوب (و الْفَوَاحِشِ). و المعاصى - عندنا - كلها كبائر غير ان بعضها اكبر من بعض، فقد تكون المعصية كبيرة بالاضافة إلى ما دونها، و قد تكون صغيرة بالاضافة إلى ما هو اكبر منها. و الفواحش جمع فاحشة و هى أقبح الذنوب و أفحشها، و الاساءة مضره يستحق بها الذم، و لا يستحق الذم إلا مسيء، و ذم من ليس بمسيء قبيح، كذم المحسن بالقبيح، و الإحسان فعل ما هو نفع فى نفسه أو هو سبب للنفع ليستحق به الحمد، و لا يستحق الحمد إلا محسن. و الكبير من الذنوب

هو الذى يعظم به الزجر إلى حد لا يكفره إلا التوبة منه- عند من لم يحسن إسقاط العقاب تفضلاً- والصغير هو الذى يخف فيه الزجر إلى حد يصح تكفيره من غير توبة- عند من قال بالصغائر- وقوله (إلا اللمم) قال قوم: هو الهم بالمعصية من جهة مقاربتها فى حديث النفس بها من غير مواقعتها ولا عزم عليها، لأن العزم على الكبير كبيره. و لكن يقرب من مكانها لشهوته لها غير عازم عليها. و قال قوم (إلا اللمم) استثناء منقطع، لأنه ليس من الكبائر ولا الفواحش، كما قال الشاعر:

و بلـــــــدء ليس بهـــــــا أنيس إلا الـــــــيع الـــــــفير وإلا الـــــــعيس «١»

(١) مر فى ١/ ١٥١ و ٣/ ٣٢٧ و ٥/ ٤٩٨ و ٧/ ٥٠١

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٣٣

و اليعفور من الطباء الأحمر و اليعيس الأبيض. و قيل (اللمم) مقاربه الشيء من غير دخول فيه، يقال: ألم بالشيء يلم إلاماً إذا قاربه. و قيل (اللمم) الصغير من الذنوب، كما قال (إِنْ تَجْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) «١» ذهب اليه ابن عباس و ابن مسعود. و قيل (اللمم) إتيان الشيء من غير إقامه عليه قال الحسن: هو إصابه الفاحشه من غير إقامه للمبادره بالتوبه. ثم أخبر عن نفسه تعالى بأنه واسع المغفرة للمذنبين بقوله (إِنْ رَبِّكَ) يا محمد (وَاسِعِ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ) يعنى أنشأ أباكم آدم من أديم الأرض. و قال البلخي: يجوز ان يكون المراد به جميع الخلق، من حيث خلقهم الله تعالى من الطباع الأربع على حسب ما أجرى العاده من خلق الأشياء عند ضرب من تركيبها، و خلق الحيوان عند تناول أغذيه مخصوصه خلقها الله من الأرض، فكأنه تعالى أنشأهم منها.

و قوله (وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) أى هو أعلم بكم فى هذه الأحوال كلها لم يخف عليه من أحوالكم شيء منها. ثم نهاهم تعالى فقال (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) أى لا تعظموها و لا تمدحوها بما ليس لها، فانى أعلم بها (هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ مَعَاصِيهِ وَفَعَلَ طَاعَاتِهِ وَالْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ خَالَفَهُ، وَ قَالَ قَوْمٌ: نَهَاہُمْ أَنْ يَزَكُّوا أَنْفُسَهُمْ بِفَعْلِ الْوَاجِبَاتِ، وَ فَعْلِ الْمُنْدُوبَاتِ، وَ تَرَكَ الْقَبَائِحَ لِأَنَّهُ أَقْرَبَ إِلَى النَّسْكِ وَ الْخُشُوعِ. وَ الْأَجْنَةُ جَمْعُ جَنِينٍ.

و هو الدفين فى الشيء قال الحارث:

و لا شمطاء لم تترك شفاها لها من تسعة إلا جنيها «٢»

(١) سورة ٤ النساء آية ٣٠ [.....]

(٢) اللسان (جنن)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٣٤

أى إلا- دفينا فى قبره. ثم قال للنبي صلى الله عليه وآله (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَ أَكْذَى قَالَ مجاهد: نزلت فى الوليد ابن المغيرة و كان أعطى قليلا من ماله لمن يتحمل عنه العذاب فى الآخرة. ثم منع ما ضمن له. و قيل: إن (الذى أعطى قليلا و أكذى) هو المنافق الذى يعطى قليلا فى المعونة على الجهاد ثم يمنع و قال ابن عباس و مجاهد: معنى (و أكذى) قطع العطاء، كما يقطع البئر الماء و اشتقاق (أكذى) من كدية الركيه، و هى صلابه تمنع الماء إذا بلغ الحافر اليها يئس من الماء، فيقول بلغنا كديتها أى صلابتها التى تؤيس من الماء، يقال: أكذى يكذى إكداء إذا منع الخير، و كديت أظفاره إذا غلظت، و كديت أصابعه إذا كلت، فلم تعمل شيئا، و كدى النبت إذا قل ريعه، و الأصل واحد. و قيل:

الكديه صخره يبلغ اليها حافر البئر فلا يمكنه الحفر.

وقوله (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْ يَرَىٰ إِنكَارَ عَلَىٰ مِنْ ذَكَرَهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّىٰ وَاعْطَىٰ قَلِيلًا مِنْ مَالِهِ لِيَتَحَمَّلَ عَنْهُ خَطَايَاهُ، فَقَالَ (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْ يَرَىٰ أَىٰ يَعْلَمُ صَدَقَ الَّذِي وَعَدَهُ لِيَتَحَمَّلَ خَطَايَاهُ؟!

قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٣٦ الى ٤٦]..... ص: ٤٣٤

أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنْ سَعِيَّهُ سَوْفَ يُرىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّجُجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٣٥

احدى عشرة آية بلا خلاف.

لما وبخ الله تعالى الذى أعطى قليلا و اكدى، و بين أنه ليس عنده علم الغيب فيصدق من قال إنه يتحمل خطاياها، بين ان الذى وعده بذلك (أم لم ينبأ) أى لم يخبر بما فى صحف الأنبياء و لم يعلم ذلك ف (أم) بمعنى (بل) و تقديره بل لم ينبأ بما فى صحف موسى و الصحف جمع صحيفه و المراد- هاهنا- مكتوب الحكمة، لأنها كتب الله.

وقوله (و ابراهيم) أى و لا فى صحف ابراهيم (الذى و فى) أى و فى بما يجب عليه لله- عز و جل- و استحق أن يمدح بهذا الممدح. و قال مجاهد (و ابراهيم الذى و فى) ألا تزر وازرة وزر أخرى و قيل فى رساله ربه فى هذا أو فى غيره- ذكره سعيد بن جبير و قتاده و ابن زيد- و هو ألقى بالعموم. و قوله (الذى و فى) قيل: استحق الممدح بذبح ولده و إلقائه فى النار و تكذيبه فى الدعاء إلى الله فوفى ما عليه فى جميع ذلك. و قوله (ألا تزر وازرة وزر أخرى أى بين الله تعالى فى صحف ابراهيم و موسى أن لا تزر وازرة وزر أخرى، و معناه أنه لا يؤاخذ احد بذنب غيره. يقال: وزر يزر إذا كسب وزراً، و هو الإثم، فهو وازر.

وقوله (و أن ليس للإنسان إلا ما سعى معناه ليس له من الجزاء إلا جزاء ما عمل دون ما عمله غيره، و متى دعا إلى الايمان من أجاب إليه فهو محمود عليه على طريق التبعية كأنه من أجل عمله صار له الحمد على هذا، و لو لم يعمل شيئاً ما استحق شيئاً لا ثواباً و لا عقاباً. و قوله (و أن سعيه سوف يرى معناه إن ما يفعله الإنسان و يسعى فيه لا- بد أن يرى فى ما بعد بمعنى أنه يجازى عليه من ثواب او عقاب، و بين ذلك بقوله التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٣٦

(ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ أَىٰ يجازى على اعماله الطاعات بأوفى ما يستحقه من الثواب الدائم، و الهاء فى (يجزاه) عائده على السعى. و قوله (و أن إلى ربك المنتهى معناه و أن إلى ثواب ربك و عقابه آخر الأمور، و المنتهى هو المصير إلى وقت بعد الحال الأولى عن حال مثلها، فللتكليف منتهى، و ليس للجزاء فى دار الآخرة منتهى. و المنتهى قطع العمل الى حال أخرى و المنتهى، و الآخر واحد. و قوله (و أنه هو أضحك و أبكى قيل اضحك بأن فعل سبب ذلك من السرور و الحزن، كما يقال أضحكنى فلان و أبكاني إذا كان سبب ذلك بما يقع عنده ضحكى و بكائى، فعلى هذا الضحك و البكاء من فعل الإنسان. و قد قال الله تعالى (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا) «١» و لو لم يكن من فعلنا لما حسن ذلك. و قال تعالى (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَ تَضْحَكُونَ وَ لَا تَتَّبِعُونَ) «٢» و قال (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) «٣» فنسب الضحك اليهم. و قال الحسن: الله تعالى هو الخالق للضحك و البكاء، و الضحك تفتح اسرار الوجه عن سرور و عجب فى القلب، فإذا هجم على الإنسان منه ما لا يمكنه دفعه فهو من فعل الله الذى أضحك و أبكى. و البكاء جريان الدموع على الخد عن غم فى القلب، و إنما يبكى الإنسان عن فرح يمازجه تذكر حزن، فكأنه عن رقة فى القلب يغلب عليها الغم.

وقوله (أَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا) معناه انه تعالى الذى يخلق الموت فيميت به الأحياء لا يقدر على الموت غيره، لأنه لو قدر على الموت غيره لقدر على الحياة، لأن القادر على الشئ قادر على ضده، ولا احد يقدر على الحياة إلا الله.

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٣

(٢) سورة ٥٣ النجم آية ٦٠

(٣) سورة ٨٣ المطففين آية ٣٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٣٧

وقوله (و أحيأ) أى هو الذى يقدر على الحياة التى يحيى بها الحيوان لا يقدر عليها غيره من جميع المحدثات. ثم بين ايضاً (أنه) الذى (خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ) منهما (وَالْأُنثَى مِنْ نُطْفَةٍ) أى خلق الذكر والأنثى من النطفة، وهى ماء الرجل والمرأة التى يخلق منها الولد (إذا تمنى) يعنى إذا خرج المنى منهما و جعل فى الرحم خلق الله تعالى منها الولد إما ذكراً و اما أنثى، و معنى تمنى أى تلقى على تقدير فى رحم الأنثى، و أصله التقدير يقولون: منى يمنى فهو مان إذا قدر قال الشاعر:

حتى تلاقى ما يمنى لك المانى «١»

أى يقدر و منه التمنى تقدير المعنى للاستمتاع به.

قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٤٧ الى ٥٥]..... ص: ٤٣٧

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَ أَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَ تَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١)

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَظْنَىٰ (٥٢) وَ الْمُؤْتَفِكَهُ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) تسع آيات بلا خلاف.

قرأ اهل البصرة غير سهل (عاد الولي) مدغمه بلا همز، و عن نافع خلاف فانه ادغم و ترك الهمزة إلا قالون، فانه همز، الباقون بالهمز و الاظهار. من ادغم القى حركة الهمزة على اللام، فانضمت ثم سكنها و حذف همزة الوصل، و لقيتها

(١) مر فى ٣١٩ / ١ و هو فى القرطبي ١١٨ / ١٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٣٨

النون فأدغمت فى اللام، و نظير ذلك قول العرب: قم الآن عنا، يريدون قم الآن عنا. و قولهم: صم الثنين أى صم الاثنين. الباقون تركوه على حاله. و قرأ حمزة و حفص عن عاصم (و ثمود) بلا تنوين. الباقون بتنوين. قال الفراء: و قوله (وَأَتَيْنَا تَمُودَ النَّاقَةَ) «١» ترك صرفها لأنه ليس فيها الف.

لما بين الله تعالى انه هو الذى يخلق الذكر و الأنثى من النطفة إذا تمنى ذكر (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَىٰ و هى البعثة يوم القيامة. و النشأة الصنعة المخترعة خلاف المسببة، و هما نشأتان: الأولى فى الدنيا، و الثانية فى الآخرة.

ثم قال (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَ أَقْنَىٰ و معناه أغنى بالمال و اقنى بأصول الأموال. و قال مجاهد: اقنى أى اخدم. و قال الزجاج: و معناه اغنى بعد الفقر و اقنى بالمال الذى يقتنى. و قيل: معنى (اقنى) انه جعل له اصل مال، و هو القنية التى جعلها الله للعبد، فاما (اغنى) فقد يكون بالعافية و القوة و المعرفة قال الأعشى:

فاقنيت قوماً و اعمرتهم و أخربت من ارض قوم ديارا «٢»

أى جعل لهم قنية. و اصل (اقنى) الاقتناء، و هو جعل الشيء للنفس على اللزوم، فمنه القناء، لأنها مما يقتنى و من ذلك اقنى الانف، لأنه كالقناء فى ارتفاع وسطه و دقة طريقه. و القنو العذق قبل ان يبلغ لأنه كالذى يقنى فى اللزوم حتى يبلغ، و المقناة المشاكلة فى اللون.

و قوله (وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَىٰ) معناه و ان الله الذى خلق الشعرى و اخترعها.

و الشعرى النجم الذى خلف الجوزاء و هو احد كوكبى ذراع الأسد و قم المرزم، و كانوا يعبدونهما فى الجاهلية- فى قول مجاهد و قتادة- ثم قال «وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ قِيلَ هُوَ عَاد بن ارم، و هم الذين اهلكهم الله بريح صرصر عاتية. و عاد

(١) سورة ١٧ الإسراء آية ٥٩

(٢) ديوانه (دار بيروت) ٨٢ و روايته (فأقلت)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٣٩

الآخرة أهلكوا ببغى بعضهم على بعض، فتفاتوا بالقتل - ذكره ابن إسحاق - و قال الحسن: الأولى أى قبلكم، و إنما فتحت (أن) فى المواضع كلها، لأنها عطف على قوله «أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَ بكَذًا وَ كَذًا، فلما حذف الباء نصبه. و قوله «وَ تَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ» نصب ب (أهلك) الذى قبله، و تقديره و أهلك ثموداً فما أبقى، و لا يجوز أن يكون منصوباً بقوله «فما أبقى» لان (ما) لا يعمل ما بعدها فى ما قبلها، لا تقول:

زيداً ما ضربت، لأنها من الحروف التى لها صدر الكلام، كالف الاستفهام.

و قوله «وَ قَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ» معناه و أهلكنا قوم نوح من قبل قوم صالح «إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ» و أعطى فالأظلم الأعظم ظلماً، و الأظفى الأعظم طغياناً، فالظلم يتعاضم كما يتعاضم الضرر، و عظم الظلم بحسب عظم الزاجر عنه. و قيل:

مكث نوح فى قومه يدعوهم إلى الله و كلما دعاهم فما يزدادون إلا تتابعاً فى الضلال و تواصياً بالكذب لأمر الله - فى قول قتادة - و قوله «وَ الْمُؤْتَفِكَةَ» يعنى المنقلبة، و هى التى صار أعلاها أسفلها، و أسفلها أعلاها اتفتكت بهم توتفتك اتفكاً، و منه الافك الكذب، لأنه قلب المعنى عن وجهه. و معنى «أهوى» نزل بها فى الهوى، و منه الهوى: أهوى بيده ليأخذ كذا، و هوى هواء إذا نزل فى الهواء، فأمّا إذا نزل فى سلم أو درجة، فلا يقال:

أهوى، و لا- هوى. و قيل: قرية سدوم: قوم لوط، رفعها جبرائيل إلى السماء ثم أهوى بها قالباً لها- فى قول مجاهد و قتادة- و قوله «فَعَسَىٰ أَمَّا غَشَىٰ» يعنى من الحجارة المسومة التى رموا بها من السماء- فى قول قتادة و ابن زيد- و المعنى فجعلها من العذاب ما يعمها حتى أتى عليها (ما غشى) و فيه تفخيم شأن العذاب الذى رماها به و نالها من جهة إيهامه فى قوله «ما غشى» كأنه قد جل الأمر عن أن يحتاج التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٤٠

إلى تفصيل وصفه.

و قوله «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ» معناه بأى نعم ربك ترتاب يا بن آدم! - ذكره قتادة - و إنما قيل بعد تعديد النعم «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ» لأن النعم التى عددت على من ذكر نعم من الله علينا لما لنا فى ذلك من اللطف فى الانزجار عن القبيح مع أنه نالهم ما نالهم بكفرهم النعم فبأى نعم ربك أيها المخاطب تتمارى حتى تكون مقارناً لهم فى سلوكك بعض مسالكهم، أى فما بقيت لك شبهة بعد تلك الأحوال فى جحد نعمه.

قوله تعالى: [سورة النجم (٥٣): الآيات ٥٦ الى ٦٢] ص: ٤٤٠

هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَ تَضَحَكُونَ وَ

لَا تَبْكُونَ (٤٠)

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٤١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٤٢)

سبع آيات بلا خلاف.

قوله «هذا نذير» إشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله - في قول قتادة - وقال أبو مالك: هو إشارة إلى القرآن «مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى».

يقول الله تعالى «هذا» يعنى محمداً «نذير» أى مبين لما ينبغى أن يحاذر منه و ما ينبغى أن يرغب فيه بأحسن البيان، وهذه صفته رسل الله عليهما السلام.

و النبي أحسن الناس إنذاراً و أكرمهم إبلاغاً لما أمر الله بتبليغه إلى أمته. وقوله «مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى من جملة الرسل الذين بعثهم الله، و إن كان هو آخرهم، كما تقول: هو من بنى آدم، و إن كان أحدهم.

و قوله «أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ» معناه دنت القيامة، و هى الدانية. قال النابغة الذبياني التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٤١

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا و كأن قد «١»

و قال كعب بن زهير:

بان الشباب و امسى الشيب قد أزفا و لا ارى لشباب ذاهب خلفا «٢»

و إنما سميت القيامة أزفة، و هى الدانية، لأن كل آت قريب، فالقيامة قد قربت بالاضافة إلى ما مضى من المدة من لدن خلق الله الدنيا. وقوله «لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ» معناه لا- يقدر أن يقيمها إلا الله وحده، و ليس يجلى عنها و يكشف عنها سواه. و قيل كاشفه أى جامع كاشفه أى نفس كاشفه، و يجوز أن يكون مصدراً مثل العافية و العاقبة و الواقعة، فيكون المعنى ليس لها من دون الله كشف أى ذهاب أى لا- يقدر أحد غير الله على ردها. و قال الحسن: هو مثل قوله «لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ» «٣» و قيل: كاشفه بمعنى الانكشاف كقوله «لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ» «٤» و مثله «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» «٥» أى خيانه، و السامد اللاهى، يقال دع عنك سمودك أى أمرك، و كأنه المستمر فى اللهو، يقال: سمد يسمد سموداً فهو سامد، و قال الشاعر:

قيل قم فانظر اليهم ثم دع عنك السمودا «٦»

و يقال للجارية: اسمدى لنا أى غنى. وقوله «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا» أمر من الله تعالى بالسجود له و الصلاة و ان يعبدوه خالصاً مخلصاً لا يشركون به احداً فى العبادة، فتعالى الله عن ذلك، و فى الآية دلالة على ان السجود- هاهنا- فرض على ما يذهب اليه أصحابنا لأن الأمر يقتضى الوجوب.

(١) القرطبي ١٧/ ١٢٢ و الطبري ٢٧/ ٤٣

(٢) تفسير الطبري ٢٧/ ٤٣

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٦

(٤) سورة ٥٦ الواقعة آية ٢

(٥) سورة ٥ المائدة آية ١٤

(٦) اللسان (سمد)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٤٢

إشارة

مكية بلا خلاف. و هي خمس و خمسون آية بلا خلاف.

[سورة القمر (٥٤): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٤٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَ اِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَ كُلٌّ أَمْرٌ مُسْتَقَرٌّ (٣) وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)
حِكْمَةٌ بِالْعَاقِبَةِ فَمَا تَغْنِ النَّذْرُ (٥)
خمس آيات.

قرأ ابو جعفر «وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ» بالجر صفة ل (أَمْرٍ). الباقون بالرفع على انه خبر (كُلُّ).
هذا اخبار من الله تعالى بدنو الساعة و قرب أوانها، فقوله «اقْتَرَبَتِ» أى دنت و قربت و فى (اقْتَرَبَتِ) مبالغة، كما أن فى (اقتدر) مبالغة على القدرة، لأن اصل (اقتعل) طلب أعداد المعنى بالمبالغة نحو (اشتوى) إذا أخذ شوى فى المبالغة فى اتخاذه، و كذلك (اتخذ) من (أخذ). و الساعة القيامة. و قال الطبرى:

تقديره اقتربت الساعة التى يكون فيها القيامة. و جعل الله تعالى من علامات دنوها انشقاق القمر المذكور معها، و فى الآية تقديم و تأخير، و تقديره انشق القمر و اقتربت التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٤٣

الساعة. و من أنكر انشقاق القمر و أنه كان، و حمل الآية على كونه فى ما بعد- كالحسن البصرى و غيره، و اختاره البلخى- فقد ترك ظاهر القرآن، لأن قوله «انْشَقَّ» يفيد الماضى، و حمله على الاستقبال مجاز. و قد روى انشقاق القمر عبد الله بن مسعود و انس ابن مالك و ابن عمر و حذيفة و ابن عباس و جبير بن مطعم و مجاهد و إبراهيم، و قد أجمع المسلمون عليه و لا يعتد بخلاف من خالف فيه لشذوذه لان القول به أشتهر بين الصحابة فلم ينكره أحد، فدل على صحته، و أنهم اجمعوا عليه فخلاف من خالف فى ما بعد لا يلتفت اليه. و من طعن فى انشقاق القمر بأنه لو كان لم يخف على أهل الإفطار فقد أبعد لأنه يجوز ان يحجبه الله عنهم بغيم، و لأنه كان ليلا فيجوز ان يكون الناس كانوا نياماً فلم يعلموا به، لأنه لم يستمر لزمان طويل بل رجع فالتأم فى الحال، فالمعجزة تمت بذلك.
و قوله «وَ اِنْ يَرَوْا آيَةً» احتمل ان يكون اخباراً من الله تعالى عن عناد كفار قريش بأنهم متى رأوا معجزة باهرة و حجة واضحة أعرضوا عن تأملها و الانقياد لصحتها عناداً و حسداً، و قالوا هو «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» أى يشبه بعضه بعضاً. و قيل «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» من الأرض إلى السماء. و قال مجاهد و قتادة معناه ذاهب مضمحل و قال قوم: معناه شديد من أمرار الحبل، و هو شدة قتله.

و قوله «وَ كَذَّبُوا» يعنى بالآية التى شاهدوها و لم يعترفوا بصحتها و لا تصديق من ظهرت على يده «وَ اتَّبَعُوا» فى ذلك «أَهْوَاءَهُمْ» يعنى ما تميل طبائعهم اليه، فالهوى رقة القلب بميل الطباع كرقعة هواء الجوى، تقول: هوى يهوى هواءً، فهو هاو إذا مال طبعه إلى الشىء، و هو هوى النفس مقصور، فأما هواء الجوى فممدود و يجمع على أهوية. و هوى يهوى إذا انحدر فى الهواء، و المصدر الهوى.

و الاسم الهاوى. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٤٤

و قوله «وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ» معناه كل أمر من خير او شر مستقر ثابت حتى يجازى به إما الجنة او النار- ذكره قتادة- ثم قال «وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ» يعنى هؤلاء الكفار «مِنَ الْأَنْبَاءِ» يعنى الاخبار العظيمة بكفر من تقدم من الأمم و إهلاكنا إياهم التى يتعظ بها «ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ» يعنى متعظ، و هو مفتعل من الزجر إلا ان التاء أبدلت دالا لتوافق الراء بالجهر مع الدال لتعديل الحروف فيتلاءم و لا يتنافر.
و قوله «حِكْمَةٌ بِالْعَاقِبَةِ» معناه نهاية فى الصواب، و غاية فى الزجر بهؤلاء الكفار و قوله «فَمَا تَغْنِ النَّذْرُ» يجوز فى (ما) وجهان: أحدهما- الجحد، و يكون التقدير: لا يغنى التخويف.

و الثاني - ان تكون بمعنى (أى) و تقديره أى شىء يغنى الانذار. و النذر جمع نذير. و قال الجبائي: معناه إن الأنبياء الذين بعثوا اليهم لا يغنون عنهم شيئاً من عذاب الآخرة الذى استحقوه بكفرهم، لأنهم خالفوهم و لم يقبلوا منهم.

قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٢٢٢

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتَشِيرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ (١٠) خمس آيات.

قرأ «خشعاً» على الجمع أهل العراق إلا عاصما، الباقون «خاشعاً» على وزن (فاعل) و نصبوه على الحال. و من قرأ «خاشعاً» بلفظ الواحد، فلتقدم التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٢

الفعل على الفاعل. و قرأ ابن كثير وحده (نكر) بسكون الكاف. الباقون بالثقل و هما لغتان. و قال ابو على النحوى: النكر أحد الحروف التى جاءت على (فعل، و فعل) و هو صفة. و على ذلك حملة سيويه و أستشهد بالآية. و مثله نافعة أحد و مشيئة سجع. و من خفف جعله مثل رسل رسل و كتب و كتب، و الضمة فى تقدير الثبات، لما حكى الله تعالى عن الكفار أنه ليس ينفع فى وعظهم و زجرهم الحكمة البالغه، و لا يغنى النذر أمر النبى بالاعراض عنهم و ترك مقابلتهم على سفههم. فقال «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ» أى اعرض عنهم «يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ» قيل فى معناه أقوال:

أحدها - قال الحسن فتولى عنهم إلى يوم يدعو الداعى.

و الثاني - فتول عنهم و أذكر يوم يدع الداعى إلى شىء نكر، يعنى لم يروا مثله قط فينكرونه استعظماً له.

الثالث - ان المعنى فتول عنهم، فإنهم يرون ما ينزل بهم من العذاب يوم يدعو الداعى و هو يوم القيامة، فحذف الفاء من جواب الامر. و الداعى هو الذى يطلب من غيره فعلاً - و نقيضه الصارف، و هو الطالب من غيره أن لا يفعل بمنزلة الناطق بأن لا يفعل، تقول: دعا يدعوا دعاء فهو داع و ذاك مدعو. و النكر: هو الذى تأباه من جهة نفور الطبع، و هو صفة على وزن فعل، و نظيره رجل جنب و ارض جرز، و هو من الإنكار نقيض الإقرار، لادن النفس لا تقر بقبوله، و إنما وصف بأنه نكر لغلظه على النفس، و إنهم لم يروا مثله شدة و هؤلاء كأنهم ينكرونه لما قبح فى عقولهم.

و قوله «خاشعاً أبصارهم» فمعنى الخاشع الخاضع، خشع يخشع خشوعاً، فهو خاشع، و الجمع خشع، و يخشع الرجل إذا نسك، و خاشعاً حال مقدمه. و العامل فيها (يخرجون) و قيل «خاشعاً أبصارهم» لتقدم الصفة على الاسم، كما قال الشاعر: التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٢٢٢

و شباب حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد «١»

و قال آخر:

ترى الفجاج بها الركبان معترضا أعناق أبزلها مرخى لها الجدل «٢»

و الجدليل هو الزمام، و لم يقل مرخيات و لا معترضات «يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ» يعنى من القبور واحداً حدث و جدف أيضاً لغة، و اللحد جانب القبر و أصله الميل عن الاستواء «كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتَشِيرٌ» أى من جراد منتشر من كثرتهم و قوله «مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ» قال الفراء و ابو عبيدة: مسرعين. و قال قتادة: معناه عامدين بالاهطاع و الإهطاع الاسراع فى المشى، يقال: اهطع يهطع إهطاعاً، فهو مهطع، فهؤلاء الكفار يهطعون إلى الداعى بالإلجاء و الإكراه و الازلال و وصفت الأبصار بالخشوع، لان ذلة الدليل و عزة العزيز تتبين فى نظره «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ» حكاية ما يقوله الكفار يوم القيامة بأنه يوم عسر شديد عليهم ثم قال مثل ما كذبتك يا محمد هؤلاء الكفار و جحدوا نبوتك «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا» يعنى نوحاً عليه السلام «وَقَالُوا مَجْنُونٌ» أى هو مجنون قد غطى على عقله فزال

بآفة تعتريه «و ازدجر» قال ابن زيد: معناه زجر بالشتيم و الرمي بالقبيح. و قال غيره: ازدجر بالوعيد، لأنهم توعدوه بالقتل في قوله «لئن لم تنته يا نُوح لتكوننَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ» (٣) «فدعا» عند ذلك «ربه» فقال يا رب «انى مغلوب» قد غلبنى هؤلاء الكفار بالقهر لا بالحجة «فانتصر» منهم بالإهلاك و الدمار نصره لدينك و نبيك. و قال مجاهد: معنى (ازدجر) استطار و استفز جنوناً.

(١) تفسير القرطبي ١٧ / ١٢٩ و الطبري ٢٧ / ٤٨ [.....]

(٢) الطبري ٢٧ / ٤٨

(٣) سورة ٢٦ الشعراء آية ١١٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٤٧

قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ١١ الى ١٦]..... ص: ٤٤٧

فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَ فَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَ حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَ دُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نَذْرٍ (١٦) ست آيات.

قرأ ابن عامر «ففتحنا» بالتشديد أى مرة بعد مرة و شيئاً بعد شيء، لأنه كثر و دام لما فار التنور و انهمرت الأرض و السماء بالماء. الباقون بالتخفيف لأنه يأتى على القليل و الكثير، و فى الكلام حذف، و تقديره ان نوحاً عليه السلام لما دعا ربه فقال إني مغلوب فانتصر يا رب و أهلكهم فأجاب الله دعاءه و فتح أبواب السماء بالماء، و معناه أجرى الماء من السماء، فجر يانه إنما فتح عنه باب كان مانعاً له، و ذلك من صنع الله الذى لا يقدر عليه سواه. و جاء ذلك على طريق البلاغة. و الماء المنهمر هو المنصب الكثير قال امرؤ القيس:

راح تمر به الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منهمر (١)

أى منصب مندفق، انهمر ينهمر انهماراً، و فلان ينهمر فى كلامه، كأنه يتدفق فيه مع كثرته.

و قوله «وَ فَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا» فالتفجير تشقيق الأرض عن الماء، و منه انفجر العرق و انفجر السكر، و منه قوله «وَ فَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا» (٢) و عيون الماء

(١) الطبري ٢٧ / ٤٩ و القرطبي ١٧ / ١٣٢

(٢) سورة ١٨ الكهف آية ٣٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٤٨

واحدها عين، و هو ماء يفور من الأرض مستدير كاستدارة عين الحيوان، و العين مشتركة بين عين الحيوان و عين الماء و عين الميزان و عين الذهب و عين السحابة و عين الركبة «فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ» معناه إن المياه كانت تجرى من السماء و من الأرض على ما أمر الله به و أراد و قدره. و إنما قال «فَالْتَقَى الْمَاءُ» و المراد به ماء السماء و ماء الأرض، و لم يش، لأنه اسم جنس يقع على القليل و الكثير «عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ» فيه هلاك القوم فى اللوح المحفوظ. و قيل: معناه إنه كان قدر ماء السماء مثل ما قدر ماء الأرض.

ثم قال تعالى «وَ حَمَلْنَاهُ» يعنى نوحاً «عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَ دُسُرٍ» يعنى السفينة ذات ألواح مركبة بعضها إلى بعض، و الدسر هى المسامير التى تشد بها السفينة- فى قول ابن عباس و قتادة و ابن زيد- واحدها دسار و دسير، و دسرت السفينة ادسرها دسيراً إذا شددتها

بالمسامير او نحوها. وقيل: الدسر صدر السفينة تدر به الماء أى تدفع - عن الحسن - وقال مجاهد: الدسر أضلاع السفينة. وقال الضحاك: الدسر طرفها وأصلها. وقال الزجاج: الدسر المسامير والشرط التى تشد بها الألواح.

وقوله «تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا» معناه تجرى السفينة بمرأى منا، ونحن ندرکہا. وقيل:

أعين الماء التى أنبعناها. وقيل: تجرى بأعين أوليائنا والموكلين بها من الملائكة.

وقوله «جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا» أى كفر به وهو نوح أى لكفرهم به، كأنه قال غرقناهم لأجل كفرهم بنوح. وقيل: جزاء لنوح وأصحابه أى نجيناه ومن آمن معه لما صنع به، وكفر فيه بالله.

وقوله «وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً» يعنى السفينة تركناها دلالة باهرة «فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ» بها ومتعظ بسببها فيعلم أن الذى قدر على ذلك لا يكون من قبيل الأجسام وانه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء. وقال قتادة: أبقي الله تعالى سفينة نوح حتى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩،

ص: ٤٤٩

أدرکہا أوائل هذه الأمه، فكان ذلك آية (و مدكر) أصله متذكر، فقلبت التاء دالا لتواخى الدال بالجهر. ثم أدغمت الذال فيها. وقيل: وجه كونها آية انها كانت تجرى بين ما الأرض وما السماء، وكان قد غطاها على ماء أمره الله تعالى به. وقوله «فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ» قد بينا معناه. وقال قتادة: معناه فهل من طالب علم فيعان عليه.

وقوله «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ» تهديد للكفار وتنبه لهم على عظم ما فعله بأمثالهم من الكفار الجاحدين لتوحيده، وإنما كرر «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ» لأنه لما ذكر أنواع الانذار والعذاب انعقد التذكير لشيء من على التفصيل، والنذر جمع نذير - فى قول الحسن - قال: وتكذيب بعضهم تكذيب لجميعهم. وقال الفراء: هو مصدر، ومنه «عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» «١» مخففة ومثقلة و «إِلَى شَيْءٍ نُكِّرٍ» ويقال: أنذره نذراً بمعنى إنذاراً مثل أنزله نزلاً بمعنى إنزالاً.

قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ١٧ الى ٢١]..... ص: ٤٤٩

وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصِراً فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (٢١) خمس آيات.

أقسم الله تعالى بأنه يسر القرآن للذكر، والتيسير للشيء هو تسهيله، وأخذه بما ليس فيه كثير مشقة على النفس، فمن سهل له طريق العلم فهو حقيق بالحظ الجزيل

(١) سورة ٧٧ المراسلات آية ٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥٠

منه، لان التيسير أكبر داع اليه، وتسهيل القرآن للذكر خفة ذلك على النفس لحسن البيان وظهور البرهان فى الحكم السنية والمعانى الصحيحة الموثوق بها لمجيئها من الله تعالى، وإنما صار الذكر من اجل ما يدعى اليه ويحث عليه، لأنه طريق العلم، لأن الساهى عن الشيء او عن دليله لا يجوز أن يعلمه فى حال شهوة، فإذا تذكر الدلائل عليه والطريق المؤدية اليه فقد تعرض لعلمه من الوجه الذى ينبغى له.

وقوله «فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ» معناه فهل من متعظ معتبر بذلك ناظر فيه.

ثم قال (كذبت عاد) يعنى بالرسول الذى بعثه اليهم، وهو هود عليه السلام فاستحقوا الهلاك فاهلكهم الله (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي) لهم و (نذر) أى وإنذارى إياهم. ثم بين كيفية إهلاكهم فقال (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصِراً) وهى الشديدة الهبوب حتى يسمع فى صوتها

صرير، و هو مضاعف صرّ مثل كب و كبكب و نهه و نههه، و قال ابن عباس و قتادة و الضحاك: كانت ريحاً باردة. و قال ابن زيد و سفيان: كانت شديدة.

و قوله (فِي يَوْمٍ نَحْسٍ) يعنى يوم شؤم- فى قول قتادة- (مستمر) أى استمر بهم العذاب إلى نار جهنم- فى قول قتادة- و قوله (تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) معناه تقتلع هذه الرياح الناس ثم ترمى بهم على رؤسهم فتدق رقابهم فيصيرون كأنهم أعجاز نخل، لان رؤسهم سقطت عن أبدانهم- فى قول مجاهد- و قيل: استمرت بهم الرياح سبع ليال و ثمانية أيام حتى أتت عليهم شيئاً بعد شىء. و قيل (تنزع الناس) من حفر حفروها ليمتنعوا بها من الرياح. و قال الحسن: فيه إضمار تقديره تنزع أرواح الناس، و اعجاز النخل أسافله. و النخل يذكر و يؤنث، و المنقرع المنقلع من أصله، لان قعر الشىء قراره المستقل منه، فلهذا قيل للمنقطع من أصله: منقرع، يقال: انقرع انقاراً، و قعره تقعيراً، و تقعر- فى التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥١

كلامه- تقعرأ إذا تعمق. (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرٍ) تعظيم للعذاب النازل بهم. و الانذار فى الآية هو الذى تقدم اليهم به. و فائدة الآية التحذير من مثل سببه لئلا يقع بالمحذر مثل موجه.

قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ٢٢ الى ٣٠]..... ص: ٤٥١

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَبِّئُهُ إِنَّآ إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَ سُعْرٍ (٢٤) أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اضْطَبِرْ (٢٧) وَ نَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنادَوْا صَاحِبُهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرٍ (٣٠)

تسع آيات.

قرأ «ستعلمون» بالثاء اهل الشام و حمزة، على الخطاب، الباقون بالياء على الغيبة، اللام فى قوله (و لقد) جواب القسم فالله تعالى أقسم بأنه يسر القرآن للذكر، و قد بينا معناه. و قيل: الوجوه التى يسر الله بها القرآن هو أنه ابان عن الحكم الذى يعمل عليه، و المواعظ التى يرتدع بها، و المعانى التى يحتاج إلى التنبيه عليها و الحجج التى تميز بها الحق من الباطل. و إنما أعيد ذكر التيسير لينبئ عن انه يسر بهذا الوجه من الوجوه كما يسر بالوجه الأول. و قد يسر بحسن التأليف للحفظ كما يسر بحسن البيان عما يخاف للوعظ. و قال الزجاج: إن كتب الأنبياء كانوا يقرءونها نظراً و لم يحفظونها، و القرآن سهل الله تعالى عليهم حفظه فيحفظه الخلق الكثير، و التيسير التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥٢

التمكين التام لأنه قد يمكن العمل بمشقة و بغير شقة، فالذى تنتفى عنه المشقة للتمكين التام هو المسهل. و فائدة الآية تبين ما ينبغى أن يطلب العلم من جهته. و إنما كرر لأنه حث على ذلك بعد حث، و أنه ميسر بضروب التيسير.

و قوله (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ) إخبار من الله تعالى أن ثمود، و هم قوم صالح كذبت بالإنذار. و من قال: النذر جمع نذير قال لأن تكذيب واحد من الرسل فى إخلاص توحيد الله كتكذيب جميعهم، لأنهم متفقون فى ذلك و إن اختلفت شرائعهم. و فائدة الآية التحذير من مثل حالهم.

ثم حكى ما قالته ثمود فإنهم (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَبِّئُهُ) و المعنى أ ننبع بشراً منا واحداً أ ننبهه؟! و دخلت عليهم الشبهة، فظنوا أن الأنبياء ينبغى أن يكونوا جماعة، لان الأشياء ذووا نظائر تجرى على حكم واحد، و تركوا النظر فى أنه يجوز ان يصلح واحد من الخلق لتحمل النبوة و إن لم يصلح له غيره، فصار بمنزلة مدع لا دليل معه على صحة دعواه عندهم. و فائدة الآية تبيان شبهتهم الخسيسه الضعيفة و انهم حملوا أنفسهم على تكذيب الرسل لأجلها. و جوابهم أن يقال لهم:

لأنه لا يصلح له سواء من جهة معرفته بربه و قيامه بأداء رسالته و سلامته ظاهره و باطنه.

وقوله (إِنَّا إِذَا لَقِىَ ضَلَالٍ) معناه إن اتبعناه مع انه واحد منا إنا إذا لقي ضلال عن الصواب (و سعر) أى وعناء - فى قول قتادة - و السعر جمع سعيير كأنهم فى ضلال و عذاب كعذاب السعير. و قال قوم: معناه و سعر جنون. و أصله التهاب الشيء و هو شدة انتشاره، يقال: ناقه مسعورة إذا كان لها جنون. و قال الزجاج: يجوز أن يكون المراد و عذاب، و يجوز جنون.

وقوله (أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا) استفهام من قوم صالح على وجه الإنكار و الجحود و التعجب، و معنى (أَلْقَى الذِّكْرَ) يعنى الوحي (من بيننا) لما رأوا التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥٣

استواء حال الناس فى الظاهر لم يكن بعضهم أحق عندهم بانزال الوحي عليه من بعض. و قد وصفوا أنفسهم أن حاله مساوية لأحوالهم فجاء من هذا ألا- يكون أحق بالوحي الذى ينزل عليه منهم، و اغفلوا أن الله اعلم بمصالح عباده و من يصلح للقيام برسالته ممن لا يصلح.

ثم حكى ما قالوه فى صالح، فإنهم قالوا (بَلْ هُوَ كَذَّابٌ) فى دعواه أنه نبي أوحى الله اليه (أشر) أى بطر، فلأشر البطر الذى لا يبالي ما قال. و قيل: هو المرح الطالب للفخر و عظم الشأن، يقال: أشر يأشر أشراً كقولك: بطر يبطر بطراً و أشر و اشر مثل حذر و حذر، و عجل و عجل و فطن و فطن و نحس و نحس. فقال:

اللَّهُ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ لَهُمْ (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِيرُ) و قرأ ابو قلابه (الكذاب الأشير) و هذا ضعيف، لأنهم يقولون: هذا خير من ذا و شر من ذا، و لا يقال: أشير، و لا أخير إلا فى لغة رديئة. و من قرأ (ستعلمون) بالتاء على وجه الخطاب اليهم أى قل لهم، و هى قراءة ابن عامر و حمزة و حفص عن عاصم. و من قرأ بالياء فعلى وجه الاخبار عن الغائب و هى قراءة الباقيين، لأن الكذاب الأشير يوم القيامة يعاقبه الله بعذاب النار، فيعلم حينئذ أى الفريقين هم.

و قرب الله تعالى القيامة كقرب غد من اليوم. و الفرق بين قوله (ستعلمون غداً من الكذاب) و بين قوله لو قال (ستعلمون غداً الكذاب الأشير) أن الأول يفيد فريقين التبس الكذب بكل واحد منهما فيأتى العلم مزيلاً لذلك الالتباس و ليس كذلك الثانى.

ثم بين تعالى أنه أرسل الناقة و بعثها بأن أنشأها معجزاً لصالح، لأنه أخرجها من الجبل الأصم يتبعها ولدها. و قوله (فتنة لهم) نصب (فتنة) على انه مفعول له. و معنى ذلك إبتلاء لهم و محنة، لأنه تعالى نهاهم ان ينالوها بسوء مع تضيق الشرب التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥٤

عليهم بأن لها شرب يوم و لهم شرب يوم آخر. و الشرب - بكسر الشين - الحظ من الماء - و بضم الشين - فعل الشارب. ثم حكى تعالى ما قال لصالح فانه تعالى قال له (و اصطبر) أى أصبر على أذاهم (و نبئهم) أى أخبرهم (أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ) يوم للناقة و يوم لهم (كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ) أى كل قسم يحضره من هو له. و قيل المعنى نبئهم أى يوم لهم و أى يوم لها إلا أنه غلب من يعقل، فقال نبئهم. و قيل: كانوا يحضرون الماء إذا غابت الناقة و يشربونه و إذا حضرت أحضروا اللبن و تركوا الماء لها - ذكره مجاهد - و قيل: كانت الناقة تحضر شربها و تغيب وقت شربهم. و كل فريق يحضر وقت شربه.

وقوله (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ) يعنى الذى وافقوه على عقر الناقة، و هو أحمر ثمود، و العرب تغلط فتقول: أحمر عاد. و يريدون بذلك ضرب المثل فى الشؤم، و إنما هو أحمر ثمود - ذكره الزجاج - و قال قوم: اسمه قدار بن سالف.

وقوله (فَتَعَاطَى فَعَقَرَ) قال ابن عباس تعاطى تناول الناقة بيده فعقرها، و قال معناه تعاطى عقرها فعقرها فأهلكهم الله تعالى عقوبه على ذلك (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نَذْرِي).

قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): (الآيات ٣١ الى ٤٠) ص: ٤٥٤]

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ

(٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (٤٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥٥

عشر آيات.

لما اخبر الله تعالى عن قوم صالح أنهم عقروا الناقة وأنه تعالى أهلكهم بين كيف أهلكهم فقال (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً) وهي المرة من الصوت بشدة عظيمة هلكوا كلهم بها، يقال: صاح يصيح صياحاً وصايحه ومصايحه وصيح به تصيحاً وإنها صيحة تخلع القلوب وتهدم الأبدان لعظمتها وقوله (فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُخْتَطِرِ) أى صاروا كالهشيم، وهو المنقطع بالتكسير والترضيض، هشم أنفه يهشمه إذا كسره ومنه الهاشمة وهي شجة مخصوصة. والهشم - هاهنا - يبس الشجر المتفتت الذي يجمعه صاحب الحظيرة و (المحتظر) المبتنى حظيرة على بستانه أو غيره، تقول احتظر احتظراً، وهو من الحظر، وهو المنع من الفعل بحائط أو غيره، وقد يكون الحظر بالنهى. وقرأ بفتح الظاء وهو المكان الذى يحظر فيه الهشيم. وقيل:

هشيم المحتظر قال الضحاك: هو الحظيرة تتخذ للغنم يبس فتصير ريماً. وقيل:

الهشيم حشيش يابس متفتت يجمعه المحتظر لمواشيه. وقيل: الهشيم اليبس من الشجر أجمع الذى يفتت. وقوله (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ) قد فسرناه وقال قتادة: فهل من طالب علم يتعلم؟ وفيها دلالة على بطلان قول المجبرة، لأنه ذكر انه يسر القرآن ليتذكر العباد به، ولو كان الأمر على ما يقولون لكان ليتذكر القليل منهم دون سائرهم. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥٦

وقوله (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ) اخبار منه تعالى أن قوم لوط كذبوا الرسل بالإنذار على ما فسرناه. وفائدة ذكر التحذير على ما بيناه من فعل مثله لثلاثين بهم مثل ما نزل بأولئك، وفي الكلام حذف وتقديره فأهلكناهم. ثم بين كيف أهلكهم فقال (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا) والحاصب الحجارة التى يرمى بها القوم، حصبوا بها إذا رموا، ومنه الحصباء الأرض ذات الحصى، لأنه يحصب بها وقيل: الحاصب سحاب رماهم بالحجارة و حصبهم بها قال الفرزدق:

مستقبلين رياح الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منشور «١»

ثم استثنى آل لوط، وتقديره إنا أرسلنا عليهم حاصباً أهلكناهم به (إلا آل لوط) فانا (نجيناهم) وخلصناهم من العذاب (بسحر) أى بليل لا سحراً بعينه، لان سحراً إذا أردت به سحر يومك لم تصرفه، وإذا أردت به سحراً من الاسحار صرفته.

وقوله (نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا) قال الزجاج نصبه على انه مفعول له، ويجوز ان يكون على المصدر، وتقديره أنعمنا بها عليهم نعمة. ثم قال (كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ) أى مثل ما فعلنا بهم نفعل بمن يشكر الله على نعمه، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم للمنع، ونقيضه كفر النعمة، ومثله الحمد على النعمة.

ثم اخبر تعالى عن لوط بأنه أنذر قومه بطشه الله و هى الأخذ بالعذاب بشدة فكذلك أخذ الله - عز وجل - آل لوط بأشد العذاب بالانتفاك و رمى الأحجار من السماء.

وقوله (فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ) أى تدافعوا على وجه الجدال بالباطل، يقال: تمارى القوم تمارياً و ماراه مماراة و مراء، و مراه يمرى مرياً إذا أستخرج ما عنده من العلم بالمرى.

(١) مر فى ٥٠٢/٦ و ٢٠٩/٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥٧

وقوله (وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ) إخبار منه تعالى بأن قوم لوط حاولوا ضيفه و راودوهم على الفساد، فالمرادة المحاولة، فكان قوم

لوط طالبوه بأن يخلى بينهم وبين ضيفه لما يرونه من الفاحشة. والضيف المنضم إلى غيره على طلب القرى، إذ كانوا أتوا لوطاً على هذه الصفة إلى أن تبين أمرهم وانهم ملائكة الله أرسلهم لاهلاكهم وقوله (فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) فالطمس محو الأثر بما يبطل معه إدراكه، طمس يطمس طمساً وطمس الكتاب تطميساً وطمست الريح الآثار إذا دفتها بما تسفى عليها من التراب، قال كعب بن زهير: من كل نضaxe الذفرى إذا عرفت عرضتها طامس الاعلام مجهول (١)

وقال الحسن و قتادة: عميت أبصارهم. وقال الضحاك: إنهم دخلوا البيت على لوط، فلما لم يروه سألوا عنهم وانصرفوا. وقوله (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ) معناه قالت لهم الملائكة ذوقوا عذاب الله ونذره أى وما خوفكم به من عذابه. ثم قال تعالى (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ) يعنى قوم لوط (بكرة) نصبه على الظرف فإذا أردت بكرة يومك لم تصرفه. وإذا أردت بكرة من البكرات صرفته. ومثله غدوة و غداة. وقوله (عذاب مستقر) أى استقر بهم حتى هلكوا جميعاً. وقوله (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ) قيل: قالت لهم الملائكة ذلك. وقال قوم: القائل هو الله تعالى قال لهم فى تلك الحال يعنى عند طمس أعينهم. والانتفاك بهم و رميهم بالحجارة (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ). وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) وقد فسرناه و بينا الوجه فيه.

(١) مر فى ٢٢٦/٢ و ٢١٦/٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥٨

قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): الآيات ٤١ الى ٤٦]..... ص: ٤٥٨

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَحَدًا عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَ أَمْرٌ (٤٦) ست آيات.

قرأ روح و زيد (سنهزم) بالنون على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه الباكون بالياء على ما لم يسم فاعله. اخبر الله تعالى عن آل فرعون انه جاءهم النذر. و يحتمل ان يكون جمع نذير، و هو الرسول المخوف. و يحتمل ان يكون المراد به الانذار على ما بيناه و معناه إنه جاءهم التخويف من معاصى الله و الوعيد عليها. ثم اخبر تعالى عنهم بأنهم (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) يعنى حججنا و براهيننا (كلها) و آل فرعون خاصته الذين كانوا ينضافون اليه بالقراة. و الموافقة فى المذهب، و يقال: آل القرآن آل الله، لأنهم بمنزلة الآل فى الخاصة و الاضافة. و الانذار الاعلام بموقع المخافة ليتقى. و النذر و الانذار مثل النكر و الإنكار. و هو جمع نذير و هم الرسل. و الداعى إلى تكذيب الرسل الشبهة الداخلة على العقلاء و التقليد و العادة السيئة و غير ذلك.

ثم اخبر تعالى انه أخذهم بالعذاب و الإهلاك (أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) و هو القاهر الذى لا يقهر و لا ينال، مقتدر على جميع ما يريد له لكثرة مقدوراته. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٥٩

ثم قال (اكفاركم) يعنى قريش و أهل مكة (خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ) الكفار، و المعنى إنهم ليسوا بخير من كفار قوم نوح و عاد و ثمود. و قوله (أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) معناه أ لكم براءة فى الكتب المنزلة من عذاب الله.

و قوله (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ) قال الزجاج: معناه أ يقولون ذلك إدلالاً بقوتهم. و يحتمل أن يكون أرادوا نحن جميع أى يد واحدة على قتاله و خصومته (منتصر) أى ندفعه عنا و ينصر بعضنا بعضاً فقال الله تعالى مكذباً لظنونهم (سيهزم الجمع) معناه إن جميعهم سيهزمون (وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) و لا يشبثون لقتالك، و كان كذلك فكان موافقته لما أخبر به معجزاً له لأنه إخبار بالغيب قبل كونه،

و انهزم المشركون يوم بدر و قتلوا و سبوا على ما هو معروف.

ثم قال (بل الساعة) يعنى القيامة (موعدهم) للجزاء لهم بأنواع العقاب و النيران و قوله (وَالسَّاعِيَةُ أَذْهَى وَ أَمْرٌ) فالأدهى الأعظم فى الدهاء. و الدهاء عظم سبب الضرر مع شدة انزعاج النفس و هو من الداهية و جمعه دواه، و الداهية البلية التى ليس فى إزالتها حيلة، و المراد ما يجرى عليهم من القتل و الأسر عاجلاً لا يخلصهم من عذاب الآخرة بل عذاب الآخرة أدهى و أمر. و الأمر الأشد فى الممرارة، و هى ضرب من الطعم به يكون الشئ مرأً. و يحتمل الأمر الأشد فى استمرار البلاء، لان الأصل التمر. و قيل مرارة لشدة مرورها و طلبها الخروج بحدّة. و قيل: الأمر الأشد مرارة من القتل و الأسر.

قوله تعالى: [سورة القمر (٥٤): (آيات ٤٧ الى ٥٥)] ص: ٤٥٩

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (٥١) وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)

التيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦٠

تسع آيات بلا خلاف.

هذا إخبار من الله تعالى بأن المجرمين الذين ارتكبوا معاصي الله و تركوا طاعاته فى ضلال و سحر، و معناه فى ضلال عن الحق و عدول عنه (و فى سحر) يعنى فى عذاب النار تسعرهم و معناه إنهم يصيرون إليه، و إنما جمع بين الضلال و السحر، لأنه لازم لهم و منعقد بحالهم و إن كان الضلال بعصيانهم و السحر بالعقاب على الضلال، و كأنهم قد حصلوا فيه بحصولهم فى سببه الذى يستحق به. و قيل معنى فى ضلال يعنى فى ذهاب عن طريق الجنة و الآخرة فى نار مسعرة.

و قوله (يوم يسحبون) أى يوم يجرون فى النار على وجوههم (ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) أى يقال لهم مع ذلك ذوقوا مس سقر، و هو كقولهم وجدت مس الحمى و كيف ذقت طعم الضرب. و قيل: إن سقر جهنم و قيل: هو باب من أبوابها، و لم يصرف للتعريف و التأنيث. و لما وصف العقاب قال (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) أى العقاب على مقدار الاستحقاق الذى تقتضيه الحكمة و كذلك غيره فى كل خصله. و فى نصب (كل) ثلاثة أوجه:

أحدها- على تقدير إنا خلقنا كل شئ خلقناه بقدر.

الثانى- انه جاء على زيدا ضربته.

الثالث- على البذل الذى يشتمل عليه، كأنه قال (إن كل شئ خلقناه بقدر) أى هو مقدر فى اللوح المحفوظ. و قوله (وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ التَّيَّانِ فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦١

بِالْبَصَرِ)

فاللمح خطف البصر، و المعنى و ما أمرنا إذا أردنا ان يكون شيئاً إلا مرة واحدة إنما نقول له كن فيكون أى هذه منزلته فى سرعته و انطباعه.

ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش و غيرهم «وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ» يعنى اتباع مذهبكم فى كفرهم بعبادة الأوثان تابعوا قرناً بعد قرن فى الإهلاك بعذاب الاستئصال. و الشيعة أتباع القائد إلى أمر. و قيل: المعنى و لقد أهلكنا أشياعكم ممن هو منكم كما أخبر النبى صلى الله عليه و آله فهى لكل أمة فهل من متعظ. و قال الحسن:

هو على الأمم السالفة «فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» معناه فهل من متذكر لما يوجبه هذا الوعظ من الانزجار عن مثل ما سلف من أعمال الكفار لئلا يقع به ما وقع بهم من الإهلاك.

وقوله (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) يعنى فى الكتب التى كتبته الحفظة.

وقال ابن زيد فى الكتاب. وقال الضحاك فى الكتب وقوله (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) قال ابن عباس معناه إن جميع ذلك مكتوب مسطور فى الكتاب المحفوظ، لأنه من أعظم العبرة فى علم ما يكون قبل أن يكون على التفصيل، و به قال مجاهد و قتادة و الضحاك و ابن زيد.

ثم قال تعالى (إن المتقين) يعنى الذين اتقوا معاصيه و فعلوا واجباته (فى جنات) يعنى بساتين تجننها الأشجار (و نهر) أى انهار، فوضع نهراً فى موضع أنهار، لأنه اسم جنس يقع على القليل و الكثير، و النهر المجرى الواسع من مجارى الماء، و هو خلاف الجدول، لأنه المجرى الصغير الشديد الجرى من مجارى الماء (فى مَقْعِدِ صِدْقٍ) معناه فى مجلس حق لا لغو فيه و لا تأثيم (عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ) أى بالمكان الذى كرمه لأولياؤه المليك المقتدر. و قيل: فى مقعد صدق عند المليك المقتدر بما هو عليه من صدق دوام النعيم به. و قال الفراء: معنى (فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ) أى فى ضياء وسعة، و يقال: أنهر دمه إذا سال و انهر بطنه إذا جاء بطنه مثل جرى النهر.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦٢

٥٥-سورة الرحمن..... ص: ٤٦٢

إشارة

قال قوم:هى مكية. و قال آخرون هى مدنية: و هى ثمان و سبعون آية فى الكوفى و الشامى و سبع و سبعون عند الحجازيين و ست و سبعون فى البصرى.

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ١ الى ١٣]..... ص: ٤٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)
وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)

ثلاث عشرة آية كوفى و شامى، و اثنتا عشرة آية بصرى و إحدى عشرة آية فى ما عداها، عد الكوفى و الشامى (الرحمن) و لم يعده الباقون، و عدوا (خَلَقَ الْإِنْسَانَ) إلا أهل المدينة فإنهم عدوا (البيان) آخر الآية. و قرأ (الحب ذو العصف) بالنصب شامى (و الريحان) خفض كوفى غير عاصم، و عدّ الكوفيون التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦٣

(الرحمن) آية مع أنه ليس بجمله، لأنه فى تقدير الله الرحمن حتى تصح الفاصلة و هو خبر مبتدأ محذوف نحو قوله (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا) «١» أى هذه أنزلناها، و معنى (الرحمن) هو الذى وسعت رحمته كل شىء، فلذلك لا يجوز أن يوصف به إلا الله تعالى، فأما (راحم و رحيم) فيجوز ان يوصف به العباد.

وقوله (عَلَّمَ الْقُرْآنَ) فالتعليم تبين ما به يصير من لم يعلم عالماً. و الاعلام إيجاد ما به يصير عالماً، و فى قوله (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ)

تذكير بالنعمة في ما علم من الحكم بالقرآن التي يحتاج إليها الناس في دينهم ليؤدوا ما يجب عليهم و ينالوا الفضل بطاعة ربهم و يستوجبوا به الثواب و ينالوا الرضوان.

وقوله (خَلَقَ الْإِنْسَانَ) معناه إنه الذي اخترع الإنسان و أخرجه من العدم إلى الوجود، وقيل: المراد بالإنسان- هاهنا- آدم عليه السلام. وقيل: محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله. وقيل: جميع الناس و هو الظاهر و هو الأعم في الجميع. وقوله (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) أى خلق فيه التمييز الذى بان به من سائر الحيوان. وقيل: معناه علمه الكلام الذى يبين به عن مراده و يتميز به عن سائر الحيوان، فالبيان هو الأدلة الموصلة إلى العلم. وقيل: البيان إظهار المعنى للنفس بما يتميز به عن غيره كتميز معنى رجل من معنى فرس، و معنى قادر من معنى عاجز، و معنى عام من معنى خاص، و معنى شىء من معنى هذا بعينه، و فيه تنبيه على أنه تعالى خلق الإنسان غير عالم، ثم علمه البيان، خلافاً لقول من يقول من الجهال: إن الإنسان لم يزل عالماً بالأشياء، و إنما يحتاج فيه إلى تذكير، فكيف يكون عالماً من لم يخلق بعد لولا الغباوة و قلة التحصيل.

وقوله (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) أى يجريان بحسبان فأضمر يجريان و حذفه لدلالة الكلام عليه، فيكون ارتفاع الشمس بالفعل المقدر. و قال قوم:

ارتفاعاً بتقديرهما بحسبان أى بحساب، و المعنى علمه البيان أن الشمس و القمر بحسبان

(١) سورة ٢٤ النور آية ١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦٤

وقيل: المعنى أن أمرهما يجرى فى الأدوار على مقدار من الحساب على ما وضعه حكيم عليم بتدبير صحيح، قد كان يمكن وضعهما على خلافه غير انه اختار ذلك لاستغناء العباد بها فى وجوه المنافع و ما فى ذلك من المصالح. و قال ابن عباس و قتادة و ابن زيد: بحسبان، و منازل يجريان فيها و لا يعدوانها. وقيل: إن القمر يقطع بروج السماء فى ثمانية و عشرين يوماً، و الشمس تقطع ذلك فى ثلاثمائة و خمسمائة و ستين يوماً و شىء. و قوله (بحسبان) خبر الشمس و القمر على قول من رفعهما بالابتداء (و حسبان) مصدر حسبته أحسبه حساباً نحو السكران و الكفران. وقيل: هو جمع حساب كشهاب و شهبان.

وقوله (وَ النَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) فالنجم من النبات ما طلع، يقال:

نجم ينجم إذا طلع، و نجم القرن و النبات إذا طلعا، و به سمى نجم السماء، و هو الكوكب لطلوعه. و النجم- هاهنا- النبات الطالع من الأرض، و هو النبات الذى ليس له ساق- فى قول ابن عباس و سعيد و سفيان- و قال مجاهد: هو نجم السماء، و به قال قتادة، و الأول أقوى لمصاحبة الشجر. و الشجر عند أهل اللغة النبات الذى له ساق و ورق و أغصان يبقى ساقه على دور الحول من الرمان و أكثره مما له ثمار تجنى على ما دبرها صانعها من الإتيان بها فى أبنائها.

وقوله (يسجدان) إخبار من الله تعالى بأنهما يسجدان، و سجودهما هو ما فيهما من الآية الدالة على حدوثهما و على وجوب الخضوع لله تعالى و التذلل له لما خلق فيها من الأقوات المختلفة فى النبات للناس و غيرهم من الحيوان و الاستمتاع بأصناف الثمار و الفواكه و الرياض اللذيذة، فلا شىء أدعى إلى الخضوع و العبادة لمن أنعم بهذه النعمة الجليلة مما فيه مثل الذى ذكرنا فى النجم و الشجر، و قال مجاهد و سعيد بن جبير: سجودهما ظلالهما الذى يلقيانه بكره و عشياً، فكل جسم له ظل التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦٥ فهو يقتضى الخضوع بما فيه من دليل الحدوث الذى لا يقدر عليه إلا قادر لا يعجزه شىء.

وقوله (وَ السَّمَاءُ رَفَعَهَا) أى رفع السماء رفعها فوق الأرض للاعتبار بها و التفكير فيها، و أنه لا يقدر على رفعها غير القادر لنفسه الذى لا يعجزه شىء و لا يماثله موجود.

وقوله (وَ وَضَعَ الْمِيزَانَ) فالميزان آله التعديل فى النقصان و الرجحان، و الوزن يعدل فى ذلك، و لو لا الميزان لتعذر الوصول إلى

كثير من الحقوق، فلذلك نبه على النعمة فيه و الهداية اليه.

وقوله «أَلَا تَطْعَمُوا فِي الْمِيزَانِ» نهى كأنه قال أى لا تطغوا، لأن (أن) تكون بمعنى أى و يجوز أن تكون علّة، و تقديره و وضع الميزان لأين لا- تطغوا، و إنما أعاد ذكر الميزان من غير إضمار لثلاثا يكون الثانى مضمناً بالأول، و ليكون قائماً بنفسه فى النهى عنه إذا قيل أَلَا تَطْعَمُوا فِي الْمِيزَانِ. و قيل: لأنه نزل فى وقتين. و الأول أحسن. و قيل: المراد بالميزان العدل لان المعادلة موازنة الأسباب، و الطغيان الافراط فى مجاوزة الحد فى العدل. و قيل: لا تطغوا فيه لان مالا يضبط فى الوزن موضوع عنهم. و قال الزجاج: تقديره فعلت ذلك لثلاثا- تطغوا. و يحتمل ان يكون نهياً مفرداً. و يجوز أن يكون بمعنى (أى) مفسرة و قوله «وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» أمر من الله تعالى أن يقيموا الوزن إذا أرادوا الأخذ أو الإعطاء «بِالْقِسْطِ» أى بالعدل «وَ لَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ» بمعنى لا تنقصوه.

و الخسران نقصان أصل المال، و هو ذهاب ما كان من رأس المال: خسر يخسر خسراً و خسراً، و خسره تخسيراً، فهو خاسر و مخسر. قال الزجاج: قولهم: التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦٦

أخسرت الميزان و خسرت، فعلى خسرت «لا تخسر» بفتح التاء، و قد قرأ به بعض المتقدمين شاذاً لا يؤخذ به.

وقوله «وَ الْمَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ» ليستقروا عليها. و قال ابن عباس: الأنام كل شىء فيه روح. و قال الحسن: الأنام الانس و الجن. و قال قتادة: الأنام الخلق. و يجوز أن يكون الأنام من و نم الذباب إذا صوت من نفسه، و يسمى كل ما يصوت من نفسه أناماً. و قلبت الواو من و نام همزة كقولهم: أناة من (وناة).

ثم بين وجه المنافع للخلق فوضع الأرض «فِيهَا فَاكِهَةٌ» و هى أنواع الثمار التى تؤخذ من الشجر فيها أنواع الملاذ و فنون الامتاع، فسبحان الذى خلقه لعباده و أجرى فيه ضروب الطعوم بلطفه، و كله يسقى بماء واحد فى ارض واحدة من شجرة يابسّة تنقلب إلى حال الغضاضة و النضرة، ثم تحمل الثمرة الكريمة، و كل ذلك بعين المعبر و علم المفكر.

وقوله «وَ النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ» اسم جنس يقع على القليل و الكثير و واحده نخلة، و هو يذكر و يؤنث، و الأكمام جمع (كم) و هو وعاء ثمر النخل، تكمم فى وعائه إذا اشتمل عليه. و قيل: الأكمام ليف النخلة التى تكمم فيه- فى قول الحسن و قتادة- و قال ابن زيد: الأكمام الطلع الذى فيه ثمر النخلة. و قال الزجاج: كم القميص من هذا، لأنه يغطى اليد.

وقوله «وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرِّيحَانُ» قال ابن عباس و قتادة و ابن زيد:

العصف التبن. لان الرياح تعصفه أى تطيره بشدة هبوبها و منه الريح العاصف، قال علقمة بن عبدة:

تسفى مـذانب قـد مـالت عصـيفتها حـدورها مـن أنى المـاء مطـمـوم «١»

(١) ديوانه ١١١ و اللسان (عصف) و مجاز القرآن ٢/ ٢٤٢

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦٧

و هو دقاق الزرع إذا ييس عصفته الريح. و قيل: العصف التبن. و يقال:

له العصفية. و الحب حب الحنطة و الشعير و نحوهما، و الريحان الرزق- فى قول ابن عباس و مجاهد و الضحاك- و قال الحسن و ابن زيد: الريحان هو الذى يشم. و فى رواية اخرى عن ابن عباس و الضحاك: إن الريحان الحب. و العرب تقول: خرجنا نطلب ريحان الله أى رزقه و يقال: سبحانك و ريحانك أى رزقك، قال النمر بن تولب

سماء الاله و ريحانه و جنته و سماء درد «١»

و قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً «و الريحان» جراً على تقدير، و ذو الريحان.

الباقون بالرفع عطفاً على (الحب) و قرأ ابن عامر وحده «و الحب ذا العصف و الريحان» بالنصب فيها كلها على تقدير، و خلق الحب ذا العصف و خلق الريحان الباقون بالرفع على تقدير فيها الحب ذو العصف و فيها الريحان.

وقوله «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قال ابن عباس والحسن و قتادة: معناه فبأي نعمة من نعمه يا معشر الجن والانس تكذبان؟! و ريحان أصله ريحان، فخفف. و تلخيصه ريوحان على وزن فيعلان، فلما التقت الواو والياء والثاني ساكن قلبوا الواو ياء و أدغموا ثم خففوا كراهية التشديد كما قالوا: هين لين.

قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ١٤ الى ٢١]..... ص: ٤٦٧

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٤٣ و اللسان (روح)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦٨

ثمان آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى إنه «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» و أنشأه و يعنى به آدم عليه السلام «مِنْ صَلْصَالٍ» و هو الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة- فى قول قتادة- «كَالْفَخَّارِ» أى مثل الطين الذى طبخ بالنار حتى صار خزفاً «وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ» فالمارج هو المختلط الأجزاء، قال الحسن إبليس ابو الجن، و هو مخلوق من لهب النار، كما أن آدم ابو البشر مخلوق من طين. وصف الله تعالى الإنسان الذى هو آدم ابو البشر انه خلقه من صلصال. و فى موضع آخر «مِنْ طِينٍ لَازِبٍ» (١) و فى موضع آخر «مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (٢) و فى موضع آخر «خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ» (٣) و اختلاف هذه الألفاظ لا- تناقض فيها، لأنها ترجع إلى أصل واحد و هو التراب، فجعله طيناً. ثم صار كالحمى المسنون. ثم يبس فصار صلصالا كالفخار.

وقوله «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» معناه فبأي نعم ربكما يا معشر الجن والانس تكذبان؟! و إنما كررت هذه الآية، لأنه تقرير بالنعمة عند ذكرها على التفصيل نعمة نعمة، كأنه قيل بأى هذه الآلاء تكذبان. ثم ذكرت آلاء آخر فاقتضت من التذكير و التقرير بها ما اقتضت الأولى ليتأمل كل واحد فى نفسها و فى ما تقتضيه صفتها من حقيقتها التى تتفصل بها من غيرها.

وقوله «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ» تقديره هو رب المشرقين، فهو خبر ابتداء، و لو قرئ بالخفض رداً على قوله «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا» لكان جائزاً غير انه

(١) سورة ٢٧ الصفات آية ١١

(٢) سورة ١٥ الحجر آية ٢٦، ٢٨، ٣٣

(٣) سورة ٣ آل عمران آية ٥٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٦٩

لم يقرأ به أحد. و المعنى انه الخالق المشرق الشتاء و مشرق الصيف، و هو عند غايه طول النهار فى الصيف و غايه قصره فى الشتاء «وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ» مثل ذلك- و هو قول مجاهد و قتادة و ابن زيد- و المشرق موضع شروق الشمس، و هو طلوعها تقول: شرقت الشمس تشرق شروقاً إذا طلعت و أشرقت إذا أضئت و صفت.

و المغرب موضع غروب الشمس. و الغروب مصيرها فى حد الغروب و هو المغيب، غربت تغرب غروباً، و منه الغريب و هو الصابر فى حد الغائب عن النفس و أصله الحد و منه الغروب مجارى الدموع لزوالها من حدها إلى الحد الآخر. و قوله «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»

أى فبأى نعمة ربكما معاشر الجن و الانس تكذبان. و قد بينا الوجه فى تكراره. و واحد الآلاء ألى على وزن (معاً) و (ألا) على وزن (قفا) عن أبى عبيدة.

و قوله «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ» معنى مرج أرسل - فى قول ابن عباس. و قال الحسن و قتادة و (البحران) بحر فارس و الروم. و قال ابن عباس فى رواية أخرى هما بحر السماء و بحر الأرض «يَلْتَقِيَانِ» فى كل عام.

و قيل البحرين الملح و العذب، و قيل: مرج البحرين خلط طرفيهما عند التقائهما من غير أن يختلط جملتها «لَا يَبْغِيَانِ» أى لا يبغى أحدهما على الآخر بأن يقلبه إلى مثل حاله فى الملوحة و العذوبة. و مرج معناه أرسل باذهاب الشئيين فصاعداً فى الأرض، فمرج البحرين أرسلهما بالإجراء فى الأرض يلتقيان، و لا يختلطان، ذلك تقدير العزيز العليم. و البرزخ الحاجز بين الشئيين، و منه البرزخ الحاجز بين الدنيا و الآخرة. و قال قتادة: البرزخ الحاجز أن يبغى الملح على العذب أو العذب على الملح. و قال مجاهد: معناه لا يبغيان لا يختلطان و معناه لا يبغيان على الناس.

و النعمة بتسخير الشمس أنها تجرى دائبة بمنافع الخلق فى الدنيا و الدين، فبأى آلاء التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧٠

ربكما تكذبان معاشر الجن و الانس.

قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٢٢ الى ٣٠] ص: ٤٧٠

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦)

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَشِئُلُهُ مِّنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)

تسع آيات بلا خلاف.

قرأ «المنشآت» بالكسر حمزة، و يحيى و قرأ «يخرج» بفتح الياء أهل الكوفة، و ابن كثير و ابن عامر أسندوا الفعل إلى اللؤلؤ و المرجان. الباقون، على ما لم يسم فاعله. و إنما أجازوا اسناد الفعل إلى الجوار و اللؤلؤ و المرجان، كما قالوا مات زيد و مرض عمرو و ما أشبه ذلك فى ما يضاف الفعل اليه إذا وجد منه.

و إن كان فى الحقيقة لغيره، و كان المعنى المنشآت السير فحذف المفعول و أضاف السير اليه اتساعاً، لان سيرها إنما يكون بهبوب الريح. و قال الزجاج: من فتح الشين أراد المرفوعات الشرع، و بالكسر الحاملات الرافعات الشرع.

لما ذكر الله تعالى النعمة على الخلق بمرج البحرين اللذين يلتقيان، و إنهما مع ذلك لا يبغيان، بين أيضاً ما فيهما من النعمة، فقال يخرج منهما يعنى من البحرين اللؤلؤ و المرجان. فاللؤلؤ معروف، و يقع على الصغار و الكبار. و المرجان ضرب من الجوهر كالقضب

يخرج من البحر. و قال ابن عباس: اللؤلؤ كبار الدر و المرجان التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧١

صغاره. و به قال الحسن و قتادة و الضحاك، و سمى المرجان بذلك لأنه حب من الجوهر كبير مختلط من مرجت أى خلطت. و إنما جاز أن يقول يخرج منهما، و هو يخرج من الملح دون العذب، لان العذب و الملح يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح، كما يقال يخرج الولد من الذكر و الأنثى، و إنما تلده الأنثى. و قال قوم:

لا- يخرج اللؤلؤ إلا- من الموضع الذى يلتقى فيه العذب و الملح، و ذلك معروف عند الغواصين. و قال الزجاج: لأنه إذا أخرجه من أحدهما فقد أخرجه من الآخر، لأنه داخل فيهما و قال ابن عباس: إذا جاء القطر من السماء تفتحت الاصداف فكان من ذلك القطر اللؤلؤ. و قال قوم: المعنى من جهتهما و لا يجب إنه من كل واحد منهما، و الأول وجه التأويل.

و قوله «وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ» و الجوار جمع جارية و هى السفينة لأنها تجرى فى الماء بأمر الله تعالى. و الجارية المرأة الشابة، لأنه

يجرى فيها ماء الشباب، و المنشئات المبتدئات للسير برفع القلاع. و قال مجاهد: ما رفع له القلاع، فهو منشأ و ما لم يرفع قلاعه فليس بمنشأ، فجعل الإنشاء برفع القلاع. و الاعلام الجبال واحدها علم سمي بذلك لارتفاعه كارتفاع الاعلام المعروفة. و قال جرير:

إذا قطعن علماً بعد علم [حتى تنهين بنا إلى حكم] «١»

و قيل كالاعلام في العظم. و قوله «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» إخبار من الله تعالى أن جميع من على وجه الأرض من المقلاء يفنون و يخرجون من الوجود إلى العدم. و إذا ثبت ذلك و كانت الجواهر لا- تفنى إلا- بفناء يضادها على الوجود، فإذا وجد الفناء انتفت الجواهر كلها، لأنها اختصاص له بجوهر دون جوهر، فالآية دالة على عدم جميع الأجسام على ما قلناه، لأنه إذا ثبت عدم العقلاء بالآية ثبت

(١) مجاز القرآن ٢/ ٢٤٤ و القرطبي ١٧/ ١٦٤ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧٢

عدم غيرهم، لأنه لا يفرق من الأمة أحد بين الموضوعين.

و قوله «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» معناه و يبقى ربك الظاهر بأدلتة كظهور الإنسان بوجهه فالوجه يذكر على وجهين: أحدهما- بعض الشيء كوجه الإنسان.

الثاني- بمعنى الشيء المعظم في الذكر كقولهم: هذا وجه الرأي، و هذا وجه التدبير أى هو التدبير، و هو الرأي. و الإكرام و الإعظام بالإحسان، فالله تعالى يستحق الإعظام بالإحسان الذى هو فى أعلى مراتب الإحسان. و معنى ذو الجلال ذو العظمة بالإحسان. و قوله «يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» معناه يسأل الله تعالى من فى السموات و الأرض من العقلاء حوائجهم، و يضرعون اليه. ثم قال «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» فالشأن معنى له عظم، و كذلك قال كل يوم هو فى شأن، و يقال: لا يشغله شأن عن شأن. و المعنى إن كل يوم الله تعالى فى شأن من احياء قوم و إماتة آخرين، و عافية قوم و مرض غيرهم، و نجاة و إهلاك و رزق و حرمان و غير ذلك من الأمور و النعمة. و قوله «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ» فى التسوية بين الخلق فى الفناء «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قد فسرناه.

قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٣١ الى ٣٦]..... ص: ٤٧٢

سَفَرُغْ لَكُمْ أَيُّهُ التَّغْلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاظٍ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧٣

سبع آيات حجازى و ست فى ما عداه، عد الحجازيون «من نار» و لم يعده الباقون.

قرأ «شواظ»- بكسر الشين- أهل مكة. الباقون بضمها، و هما لغتان مثل صوار و صوار. و قرأ «نحاس» بالجر أهل مكة و البصرة، غير يعقوب عطفاً على (نار). الباقون بالرفع عطفاً على «شواظ» و قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً «سيفرغ» على تقدير سيفرغ الله لكم. الباقون- بالنون- على وجه الاخبار من الله عن نفسه يعنى قوله «سَفَرُغْ لَكُمْ» من أبلغ الوعيد و أعظم التهديد. و قيل فى معناه قولان:

أحدهما- سيفرغ لكم من الوعيد و ينقضى و يأتيكم المتوعد به فشبّه ذلك بمن فرغ من شىء و أخذ فى غيره.

الثانى- إنا نستعمل عمل من يتفرغ للعمل لتجويده من غير تضجيع فيه كما يقول: القائل: سأتفرغ لك. و الله تعالى لا يشغله شىء عن شىء، لأنه من صفات الأجسام، و هو من أبلغ الوعيد لأنه يقتضى أن يجازى بصغير ذنبه و كبيره إذا كان مستحقاً لسخط الله. و الفراغ

انتفاع القاطع عنه من القادر عليه. و الشغل و الفراغ من صفات الأجسام التي تحملها الأعراض، و شغلها عن الاضداد في تلك الحال و لذلك وجب ان يكون في صفة القديم تعالى مجازاً.

و قوله «أَيُّهُ الثَّقَلَيْنِ» خطاب للجن و الانس، و إنما سميا ثقلين لعظم شأنهما بالاضافة إلى ما في الأرض من غيرهما، فهما أثقل وزناً لعظم الشأن بالعقل و التمكين التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧٤

و التكليف لأداء الواجب في الحقوق، و منه

قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي)

يريد عظيمي المقدار، فلذلك وصفهما بأنهما ثقلان.

و قوله «إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» قال الضحاك: ان استطعتم أن تنفذوا هارين من العذاب يقال: لهم ذلك يوم القيامة.

و قال قوم: معناه إن استطعتم أن تنفذوا هارين من الموت فاهربوا فانه حيث كنتم أدرككم الموت. و قال ابن عباس: معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات و الأرض فاعلموا أنه لا يمكنكم ذلك.

و قوله «لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» معناه إلا بحجة و بيان. و قيل معناه:

إلا بملك و قهر، و ليس لكم ذلك. و قال الزجاج: المعنى «فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» أي حيثما كنتم شاهدين. ثم حجة الله و سلطانه الذي يدل على توحيده و واحد الاقطار قطر و هي الاطراف - في قول سفيان - فانفذوا في صورة الأمر و المراد به التحدى. ثم قال «لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ» و هو القوة التي يتسلط بها على الأمر «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» و قد فسرناه. و فائدة الآية أن عجز الثقلين عن الهرب من الجزاء كعجزهم عن النفوذ من الاقطار، و في ذلك اليأس من رفع الجزاء بوجه من الوجوه، فلينظر امرؤ ما يختار لنفسه مما يجازى به.

و قوله «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ» فالشواظ لهب النار - في قول ابن عباس و مجاهد و قتادة - و منه قول رؤبة:

إن لهم من وقعنا أيقاظاً و نار حرب تسعر الشواظا «١»

و النحاس الصفر المذاب للعذاب - في قول ابن عباس و مجاهد و سفيان و قتادة - و في رواية أخرى عن ابن عباس و سعيد: النحاس الدخان قال النابغة الجعدي:

(١) اللسان (شوظ) و مجاز القرآن ٢/ ٢٤٤ و الطبرى ٢٣/ ٢٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧٥

يضيء كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيها نحاساً «١»

أي دخانا. و السليط دهن السمسم. و قال قوم: هو دهن السنام. و قال الفراء: هو دهن الزيت.

و قوله «فَلَا تَنْتَصِرَانِ» أي لا تقدران على دفع ذلك عنكما، و وجه النعمة في إرسال الشواظ من النار و النحاس على الثقلين هو ما لهم في ذلك من الزجر في دار التكليف عن مواقعته القبيح، و ذلك نعمة جزيلة، فلذلك قال «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» معاشر الجن و الانس «تُكَذِّبَانِ».

قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٣٧ إلى ٤٥] ص: ٤٧٥

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ (٤١)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)

ثمان آيات بصرى و تسع فى ما عداها، عَدَّ الكُلَّ «يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ» و لم يعده البصريون.
يقول الله تعالى «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» و معناه إن ينفك بعضها عن بعض، فالسما تنشق يومئذ و تصير حمراء كالوردة. ثم تجرى كالدهان قال الفراء: الوردة

(١) ديوانه ٧٥ و مجاز القرآن ٢ / ٢٤٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧٦

الفرس الوردة. و قال الزجاج: يتلون كما يتلون الدهان المختلفة أى فكان كلون فرس ورده، و هو الكمية فيتلون فى الشتاء لونه بخلاف لونه فى الصيف، و كذلك فى الفصول فسبحان خالقها و المصرف لها كما يشاء. و الوردة واحدة الورد، و إنما تصير السماء كالوردة فى الاحمرار ثم تجرى كالدهان، و هو جمع دهن كقولك قرط و قراط عند انقضاء الأمر و تنهى المدة. و قال الحسن: هى كالدهان أى كالدهن الذى يصب بعضه على بعض بألوان مختلفة. و قيل: تمر كالدهن صافية. و قال قتادة: لونها حينئذ الحمرة كالدهان فى صفاء الدهن و إشراقه. و قال قوم: إن السماء تذوب يوم القيامة من حر نار جهنم فتصير حمراء ذائبة كالدهن. قال الجبائى:

و

روى أن السماء الدنيا من حديد

و ليس فى الآية ما يدل ما قاله، لاحتمال ذلك ما قاله المفسرون. و الأقوال التى ذكرناها. و قال الفراء: الدهان الأديم الأحمر و وجه النعمة فى انشقاق السماء حتى وقع التقرير بها فى قوله «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» هو ما فى الاخبار به من الزجر و التخويف بانشقاق السماء فوق فى السبب و لا يصلح فى المسبب أن يكون منفعة، و لكن لسبب النفع الذى هو الزجر فى دار الدنيا، فلذلك وقع التقرير بقوله «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

و قوله «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشِئِلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ» معناه لا- يسأل فى ذلك الموطن لما يلحقه من الدهش و الدهول الذى تحار له العقول، و إن وقعت المسألة فى وقت غيره بدلالة قوله «وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ» (١) و قال قتادة: يكون المسألة قبل ثم يختتم على الأفواه عند الجحد فتنتطق الجوارح. و قيل: معناه إن يومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس و لا جان ليعرف المذنب من المؤمن المخلص، لأن الله تعالى قد جعل عليهم علامة كسواد الوجوه و قبح الخلق و لم يدخل فى ذلك سؤال المحاسبة للتوبيخ

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧٧

و التقرير، لأنه تعالى قال «وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ» و تقدير الآية فيومئذ لا- يسأل أنس عن ذنبه و لا جان عن ذنبه. و قيل: يجوز أن يكون المراد أنه لا يسأل احد من انس و لا جان عن ذنب غيره، و إنما يسأل هو سؤال توبيخ عن فعل نفسه.

و قوله «يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَيِّمَاتِهِمْ» معناه إن الله تعالى جعل للكفار و العصاة علامات تعرفهم بها الملائكة و السيماء العلامة. و منه قوله «سَيِّمَاتِهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» (١) و هو مشتق من السوم و هو رفع الثمن عن مقداره، و منه «مُسَوِّمِينَ» (٢) أى معلمين بعلامة و العلامة يرفع باظهارها لتقع المعرفة بها و المعرفة هى العلم عند المتكلمين. و قال بعض النحويين: إن متعلق المعرفة المفرد و متعلق العلم الجملة كقولهم عرفت زيدا و علمت زيد قائماً و لو جئت بقائم فى عرفت لكان حالا و لم يخرج عن معرفة زيد.

وقوله «فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ» قال الحسن: يجمع بين ناصيته وقدمه بالغل فيسحب إلى النار. و الناصية شعر مقدم الرأس، ومنه ناصية الفرس ومنه قوله تعالى «لَنَشْفَعَنَّ لِلْناصِيَةِ» (٣) أى ليقترن بها ما سحقت النار إذلالا لها وأصله الاتصال من قول الشاعر:
 فى ناصيها بلادقى أى يتصل بها فالناصية متصله بالرأس و (الاقدام) جمع قدم و هو العضو الذى يقدمه صاحبه للوطء به على الأرض.
 وقيل: يأخذهم الزبانية بنواصيهم و أقدامهم فتسحبهم إلى النار أى تأخذهم تارة بذا، و تارة بذا. و قال الحسن و قتادة يعرفون بأنهم سود الوجوه زرق العيون، كما قال تعالى

(١) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٩

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٢٥

(٣) سورة ٩٦ العلق آية ١٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧٨

«يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» (١) «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» وجه النعمة بذلك ما فيه من الزجر عن المعاصى و الترغيب فى الطاعات و ذلك نعمة من الله على العباد فى الدين.

وقوله «هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ» معناه يقال لهم يوم القيامة إذا شاهدوا جهنم «هَذِهِ جَهَنَّمُ» و يحتمل أن يكون المراد هذه جهنم التى وصفتها هى التى يكذب بها المجرمون الكفار بنعم الله «يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمِ آنٍ» قيل:

يطوفون بين أطباقها فى عذاب النار، و بين الحميم آن. و الحميم الماء الحار. و الآن الذى بلغ نهايته. و المراد- هاهنا- هو الذى قد بلغ نهاية حره من آنى يأنى أنياً فهو آن، و منه قوله «غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاءً» (٢) يعنى نضاجه و بلوغه غايته «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» و الاخبار بذلك لطف و زجر عن المعاصى فلذلك كانت نعمة اعتد بها و قرر بها.

قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٤٦ الى ٥٥]..... ص: ٤٧٨

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرْشٍ بَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥)

عشر آيات بلا خلاف.

لما وصف الله تعالى ما أعد للكفار من أنواع العذاب، بين بعد ذلك ما أعد

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٦

(٢) سورة ٣٣ الأحزاب آية ٥٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٧٩

للمؤمنين و المتقين، فقال «وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ» و المعنى و لمن خاف المقام الذى يقفه فيه ربه للمسائلة عما عمل فى ما يجب عليه مما أمره به أو نهاه عنه، فيكفه ذلك عما يدعوه هواه اليه يصبر صبر مؤثر للهدى على طريق الردى، و المقام الموضع الذى يصلح للقيام فيه و بضم الميم الموضع الذى يصلح للاقامة فيه. و الجنتان اللتان وعد الله من وصفه بهما قيل هما جنتان: إحداهما داخل قصره و الأخرى خارج قصره على ما طبع الله تعالى العباد عليه من شهوة ذلك و جلالته فشوقوا إلى ما فى طباعهم شهوة مثله.

ثم وصف الجنتين فقال «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» والأفنان جمع (فن) وهو الغصن الغصن الورق، ومنه قولهم: له فنون، وهذا فن آخر أى نوع آخر أى ضرب آخر، وفيه فنون أى ضروب مختلفة، ويجوز أن يكون جمع فن. وقال ابن عباس: معناه ذواتاً ألوان. وقال عكرمة. ظل الاغصان على الحيطان. وقال الضحاك: ذواتاً ألوان يفضل بها على ما سواها «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قد بيناه.

وقوله «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ» اخبار منه تعالى أن فى الجنتين اللتين وعدتهما المؤمنين عينين من الماء تجريان بين أشجارها، فالجارى هو الذهاب ذهاب الماء المنحدر، فكل ذاهب على هذه الصفة فهو جار، وصفت بالعين لصفائها أو بأنها جارية لأنه أمتنع لها «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قد فسرناه.

وقوله «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ» معناه إن فى تلك الجنتين من كل ثمرة نوعين و ضربين متشاكلين كشاكل الذكر والأنثى، فلذلك سماهما (زوجين) وذلك بالرطب واليابس من العنب والزبيب والتين الرطب واليابس، فكذلك سائر الأنواع لا يقصر يابسه عن رطبه فى الفصل والطيب إلا أنه امتنع وأعذب بأن يكون على هذا المنهاج. وقيل: فيهما من كل نوع من الفواكه ضربان ضرب التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٨٠

معروف و ضرب من شكله غريب، و كل ذلك للطراف و الامتاع «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مُتَكَيِّنَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ» فالإتكاء الاستناد للكرمة و الامتاع و المتكى هو ما يطرح للإنسان فى مجالس الملوك للإكرام و الإجلال اتكا يتكى اتكاءاً، فهو متكى، ومنه وكاء السقاء إذا شددته، ومنه قوله صلى الله عليه وآله (العين وكاء الجسد)

و الاتكاء شدة التقوية للإكرام و الامتاع. و هو نصب على الحال (على فرش) و هو جمع فراش و هو الموطأ الممهّد للنوم عليه بطائنها، و هو جمع بطانة و هى باطن الظهار، فالبطانة من أسفله و الظاهرة من أعلاه. وقوله (وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ) فالجنى الثمرة التى قد أدركت فى الشجرة و صلح أن تحبى غصنه قال الشاعر: هذا جناى و خياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه «١»

و الإستبرق الغليظ من الديباج - فى قول عكرمة و ابن إسحاق - وقيل: ان ثمارها دائية لا يرد يده عنها بعد، و لا شوكة - فى قول قتادة - وقيل: الظواهر من سندس و هو الديباج الرقيق، و البطاين من إستبرق و هو الديباج الغليظ. وقيل:

الإستبرق المتاع الصينى من الحرير، و هو بين الغليظ و الرقيق. وقال الفراء: الإستبرق غليظ الديباج. وقوله (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قد تكرر تفسيره.

قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٥٦ الى ٦٥]..... ص: ٤٨٠

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥)

(١) تفسير القرطبي ١٧ / ١٨٠

قرأ الكسائي (لم يطمثن) بكسر إحداهما و ضم الأخرى الباقيون بكسرهما و هما لغتان، يقال: طمئت المرأة تطمث و تطمث إذا حاضت. قال الزجاج وغيره:

في الآية دلالة على أن الجن تنكح. و قال الفراء: لم ينكحهن إنس و لا جان نكاح تدمية أى لم يقتضهن، و الطمث الدم. و الضهير في قوله (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ) عائد على الفرش التي بطائنها من إستبرق، لأنه قد تقدم ذكره، و كان أولى بالعود عليه، و لو لم يتقدم هذا الذكر لجاز أن يرجع إلى الجنان و إلى الجنتين المذكورتين و غيرهما من الجنان لأنه معلوم، لكن المذكور أولى، لأن اقتضائه له أشد، و القاصر المانع من ذهاب الشيء إلى جهة من الجهات، فالحور قاصرات الطرف عن غير أزواجهن إلى أزواجهن. و الطرف جفن العين، لأنه طرف لها، فيطبق عليها تارة و يفتح تارة، و منه الاطراف بالأمر لأنه كالطرف الذي يليك بحدوثه لك. و قوله (لم يطمثن) قيل في معناه قولان:

أحدهما- قال مجاهد و ابن زيد و عكرمة: لم يمسسهن بجماع من قولهم: ما طمث هذا البعير جمل قط أى ما مسه جمل. الثاني- قال ابن عباس: لم يدمهن بنكاح من قولهم: امرأة طامث أى حائض كأنه قال هن أبكار لم يقتضهن أحد قبلهم. و الأصل المس، كأنه ما مسها دم الحيض. و قيل: إنما نفى الجان، لأن للمؤمنين منهم لهم أزواجاً من الحور، التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٨٢

و هو قول ضمرة بن حبيب، قال البلخي: المعنى إن ما يهب الله لمؤمنى الجن من الحور العين لم يطمثن جان، و ما يهب الله لمؤمنى الانس لم يطمثن إنس قبلهم، على أن هذا مبالغة. و قال ضمرة بن حبيب في: الآية دلالة على أن للجن ثواباً فالإنسيات للانس و الجنيات للجن (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قد مضى تفسيره. و قوله (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) قال الحسن: هن على صفاء الياقوت في بياض المرجان. و قيل: كالياقوت في الحسن و الصفاء و النور. و قال الحسن: المرجان أشد اللؤلؤ بياضاً و هو صغاره (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قد بيناه. و قوله (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) معناه ليس جزاء من فعل الاعمال الحسنه و أنعم على غيره إلا أن ينعم عليه بالثواب و يحسن اليه (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قد مضى بيانه.

و قوله (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) معناه إن من دون الجنتين اللتين ذكرنا (لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) جنتين آخريتين دون الأولتين، و إنهما أقرب إلى قصره و مجالسه في قصره ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنه إلى جنه على ما هو معروف في طبع البشريه من شهوة مثل ذلك. و معنى (دون) مكان قريب من الشيء بالاضافه إلى غيره، مما ليس له مثل قربه، و هو ظرف مكان. و إنما كان التنقل من جهة إلى جهة أنفع، لأنه أبعد من الملل على ما طبع عليه البشر، لأن من الأشياء ما لا يمل لغلبه محبته على النفس بالأمر اللازم، و منها ما يمل لتطلع النفس إلى غيره، ثم الرجوع اليه.

و قوله (مدها متان) معناه خضراواتان تضرب خضرتهما إلى السواد من الرى على أتم ما يكون من الحسن، لأن الله شوق اليهما و وعد المطيعين في خوف مقامه بها، فناهيك بحسن صفتها و ما يقتضيه ذكرهما في موضعهما. و قال ابن عباس التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٨٣

و ابن الزبير و عطية و أبو صالح و قتادة: هما خضراوان من الرى. و قال قوم:

الجنان الأربع (لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) ذهب اليه ابن عباس. و قال الحسن: إلا وليان للسابقين و الأخيرتان للتابعين.

قوله تعالى: [سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٦٦ إلى ٧٨] ص: ٤٨٣

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِمَا خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠)

فَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥)
مُتَكَيِّفِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)
ثلاث عشرة آية.

قرأ أهل الشام (ذو الجلال) على الرفع، على أنه نعت ل (اسم). الباقون - بالخفض - على أنه نعت ل (ربك).

وقوله (فيهما) يعني الجنتين اللتين وصفهما بأنهما (مدها متان) (ثِنَانٍ نَضَّاحَتَانِ)

فعين الماء المكان الذي ينبع منه الماء، ومعنى (نضاختان) فوارتان بالماء. وقيل: نضاختان بكل خير. والنضخ - بالخاء - أكثر من النضج - بالحاء - لأن النضج غير المعجمة الرش و بالخاء كالبرك و الفوارة التي ترمى بالماء سعداء، التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٨٤

نضخ ينضخ نضخاً فهو ناضخ. وفي نضاخته مبالغة، و وجه الحكمة في العين النضاخة أن النفس إذا رأت الماء يفور كان أمتع، وذلك على ما جرت به العادة (فَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ).

وقوله (فيهما فاكهية ونخل ورمان) أخبار منه تعالى أن في الجنتين المتقدم وصفهما (فاكهة) و هي الثمار (وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ) وإنما أفرد ذكر النخل و الرمان من الفاكهة، وإن كان من جملة تنبيهاً على فضلها و جلالة النعمة بهما، كما أفرد ذكر جبرائيل و ميكائيل في قوله (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) «١» و قال قوم: ليسا من الفاكهة بدلاً الآية. و ليس له في ذلك حجة، لاحتمال ما قلناه. قال يونس النحوي: النخل و الرمان من أفضل الفاكهة، وإنما فضلاً لفضلهما، و النخل شجر الرطب و التمر. و الرمان مشتق من رم يرم رماً، لأن من شأنه أن يرم الفؤاد بجلالته له (فَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قد مضى بيانه.

وقوله (فيهن خيرات حسان) قال ابو عبيدة: امرأة خيرة و رجل خير، و الجمع خيرات. و الرجال أخيار قال الشاعر:

و لقد طعنت مجامع الربلات ربلات هند خيرة الملكات «٢»

و قال الزجاج: أصل (خيرات) خيرات، و خفف. و في الخبر المرفوع إن المعنى (خيرات الأخلاق حسان الوجوه) و إنما قيل للمرأة في الجنة: خيرة، لأنها مما ينبغي أن تختار لفضلها في أخلاقها و أفعالها، و هي مع ذلك حسنة الصورة، فقد جمعت الأحوال التي تجل بها النعمة (فَبَائِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قد بينا معناه.

وقوله (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) فالحور البيض الحسان البياض، و منه

(١) سورة ٢ البقرة آية ٩٨

(٢) مر في ٣١٩ / ٥ و هو في مجاز القرآن الشاهد ٢٩٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٨٥

الدقيق الحواري لشدة بياضه، و العين الحورا إذا كانت شديدة بياض البياض، و شديدة سواد، السواد، و بذلك يتم حسن العين. و قال ابن عباس و الحسن و مجاهد:

الحور: البيض. و قوله (مقصورات) أي قصرن على أزواجهن، فلا يردن بدلاً منهم - في قول مجاهد و الربيع - و قيل: معناه محبوسات في الحجال - في قول ابن عباس و أبي العاليه و محمد بن كعب و الضحاك و الحسن، و على وجه الصيانة لهن و التكرمة لهن عن البذلة. و قال ابو عبيدة: مقصورات أي مخدرات و (الخيام) جمع خيمة و هو بيت من الثياب على الأعمدة، و الأوتاد مما يتخذ للاصحار، فإذا أصحر هؤلاء الحور، كانت لهن الخيام في تلك الحال و غيرها مما ينفي الابتدال.

و قال الزجاج: يقال للهوداج الخيام و قال عبد الله: الخيام درّ مجوف على هيئة البيت و قال ابن عباس: بيوت اللؤلؤ. و قيل: الخيمة درة

مجوفه فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب (فَبَائٍ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قد مضى بيانه.

وقوله (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبَائٍ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قد مضى تفسيره. قال البلخي في الآية دلالة على قول الحسن البصري: أن الحور العين هن أزواجهن في الدنيا إذا كن مؤمنات مطيعات لأن الله قال (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ) وقال: من نصر الحسن أن المراد لم يطمثهن بعد النشأة الثانية إنس قبلهم ولا جان. وإنما كرر قوله (لم يطمثهن) في الآية للبيان على أن صفه الحور المقصورات في الخيام كصفه القاصرات الطرف مع تمكين التشويق بهذه الحال الجليلة التي رغب فيها كل نفس سليمة. وقوله (مُتَكَيِّئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) (متكئين) نصب على الحال، وقد فسرنا معناه. و الرفارف جمع رفرف، وهي المجالس - في قول ابن عباس و قتادة و الضحاك - و قيل: الرفرف هي فصول المجالس للفرش، و قال التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٨٦

الحسن: هي المرافق، و قيل: الرفارف الوسائد. و قيل: الرفرفة الروضة. و أصله من رف النبات يرف إذا صاد غصناً نضراً. و قيل: لما في الأطراف رفرف، لأنه كالنبت الغض الذي يرف من غضاضته. و الخضر جمع أخضر (و العبقري) الزرابي - في قول ابن عباس و سعيد بن جبیر و قتادة - و هي الطنافس. و قال مجاهد: هو الديباج: و قال الحسن: هو البسط. و قيل (عقبر) اسم بلد ينسج به ضروب من الوشي الحسن، قال زهير:

بخيل عليها جبة عبقريه جديرون يوماً ان يبالوا و يستعلوا «١»

و قيل: الموشى من الديباج عبقري تشبيهاً بذلك، و من قرأ (عباقرى) فقد غلط لأنه لا يكون بعد الف الجمع أربعة أحرف و لا ثلاثة إلا أن يكون الثانى حرف لين نحو (قناديل).

و قوله (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ) معناه تعظيم و تعالى اسم ربك، لأنه يستحق أن يوصف بما لا يوصف به أحد من كونه قديماً و إلهاً، و قادراً لنفسه و عالماً حياً لنفسه و غير ذلك.

و قوله (ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) خفض، لأنه بدل من قوله (ربك) و معنى الجلال العظمة و الإكرام الإعظام بالإحسان و الانعام. و قال الحسن: الإكرام الذى يكرم به أهل دينه و ولايته. و من قرأ (ذو الجلال) بالرفع أراد أن اسم الله فيه البركة، و إذا قرئ بالخفض دل على أن اسم الله غير الله، لأنه لو كان اسمه هو الله لجرى مجرى ذكر وجهه إلا - ترى أنه لما قال (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) و رفعه، لأنه أراد الله تعالى و هاهنا بخلافه.

(١) ديوانه ١٠٣ و مجاز القرآن ٢ / ٢٤٦ و اللسان (عقبر)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٨٧

٥٦- سورة الواقعة..... ص: ٤٨٧

إشارة

هي مكية بلا خلاف و هي تسع و تسعون آية حجازي و شامي، و سبع و تسعون بصرى، و ست و تسعون كوفى، و سبع و تسعون فى المدنيين. و روى عن مسروق أنه قال من أراد أن يعلم نبأ الأولين و نبأ الآخرين و نبأ أهل الجنة و نبأ أهل النار و نبأ الدنيا و نبأ الآخرة، فليقرأ الواقعة.

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١ الى ١٦]..... ص: ٤٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْعَتِهَا كاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا (٦) وَ كُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩)

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦)

ست عشرة آية كوفى، و سبع عشرة آية بصرى و شامى، و ثمان عشرة آية التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٨٨
حجازى، عد الكل (و أصحاب الميمنة و أصحاب المشأمة) و لم يعد الكوفيون.

و عد الحجازيون و الكوفيون (موضونة) و لم يعد الباقون.

(إذا) متعلقه بمحذوف، و تقديره اذكروا (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) قال المبرد: إذا وقعت معناه إذا تقع، و إنما وقع الماضى - هاهنا- لأن (إذا) للاستقبال و معناه إذا ظهرت القيامة و حدثت. و الوقوع ظهور الشئ بالحدوث، وقع يقع وقوعاً فهو واقع، و الأنثى واقعة (و إذا) تقع للجزء (لَيْسَ لَوْعَتِهَا كاذِبَةٌ) معناه قال الفراء ليس لها مردودة و لا رد. و قيل: ليس لوقعتها قضية كاذبة فيها، لأخبار الله تعالى بها و دلالة العقل عليها. و قال قوم: معناه ليس لها نفس كاذبة فى الخبر بها. و قيل الكاذبة- هاهنا- مصدر مثل العاقبة و العافية. و قال الضحاك: القيامة تقع بصيحه عند النفخة الثانية.

و قوله (خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ) قيل: تخفيض قوماً بالمعصية و ترفع قوماً بالطاعة، لأنها إنما وقعت للمجازاة، فالله تعالى يرفع أهل الثواب و يخفض أهل العقاب، فهو مضاف إلى الواقعة على هذا المعنى. و قال الحسن: تخفض أقواماً إلى النار، و ترفع أقواماً إلى الجنة. و القراء: كلهم على رفع خافضة بتقدير هى خافضة رافعة. و قرأه الترمذى فى اختياره بالنصب على الحال، و تقديره إذا وقعت الواقعة تقع خافضة رافعة على الحال.

و قوله (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا) معناه زلزلت الأرض زلزالا- فى قول ابن عباس و مجاهد و قتادة- و الزلزلة الحركة باضطراب و اهتزاز، و منه قولهم:

ارتج السهم عند خروجه عن القوس. و قيل: ترج الأرض بمعنى أنه ينهدم كل بناء على الأرض.

و قوله (وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا) معناه فتت فتاً- فى قول ابن عباس و مجاهد التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٨٩

و أبى صالح و السدى- و هو كما يبس السويق أى يلت. و البسيس السويق أو الدقيق يلت و يتخذ زاداً. و قال لص من غطفان:

لا تخبزاً خبزاً و بسا بسا و لا تطيلاً مناخ حبسا «١»

و قال الزجاج: يجوز أن يكون معنى بست سقت و أنشد:

و انبس حيات الكتيب الأهيل «٢»

و قوله (فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا) فالهباء غبار كالشعاع فى الرقة، و كثيراً ما يخرج مع شعاع الشمس من الكوة النافذة، فسبحان الله القادر على أن يجعل الجبال بهذه الصفة. و الانبثا افتراق الاجزاء الكثيرة فى الجهات المختلفة، فكل أجزاء انفرشت بالتفرق فى الجهات فهى منبثة، و فى تفرق الجبال على هذه الصفة عبرة و معجزة لا يقدر عليها إلا الله تعالى.

و قوله (وَ كُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً) معناه كنتم أصنافاً ثلاثة، كل صنف يشاكل ما هو منه كما يشاكل الزوج الزوجة، و لذلك قيل على هذه المزاوجة: قد زواج بين الكلامين أى شاكل بينهما.

و قوله (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) يعنى أصحاب اليمن و البركة و الثواب من الله تعالى. و قوله (مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) بصورة الاستفهام، و المراد تعظيم شأنهم فى الخبر عن حالهم (وَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) معناه الشؤم و النكد و عقاب الأبد. و قوله (مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) على

تعظيم شأنهم في الشر و سوء الحال. و قيل: أصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، و أصحاب المشأمة الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، و خبر (أصحاب الميمنة) ما أصحاب الميمنة، كأنه قيل: أى

(١، ٢) الصحاح و اللسان (بس) و القرطبي ١٧/ ١٩٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩٠

شئ هم؟ و فيه تعجيب عن حالهم. و قيل: أصحاب اليمين هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، و أصحاب الشمال الذين يأخذون كتبهم بشمالهم.

و قوله «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ» معناه الذين سبقوا إلى اتباع الأنبياء فصاروا أئمة الهدى. و قيل: السابقون إلى طاعة الله السابقون إلى رحمته، و السابقون إلى الخير إنما كانوا أفضل لأنهم يقتدى بهم فى الخير و يسبقوا إلى أعلى المراتب قبل من يجيء بعدهم فلهذا تميزوا من التابعين بما لا يلحقونهم به و لو اجتهدوا كل الاجتهاد و السابقون الثانى يصلح أن يكون خبراً عن الاول، كأنه قال: و السابقون الأولون فى الخير، و يصلح أن يكون «أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» و قوله «أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» معناه الذين قربوا من جزيل ثواب الله و عظيم كرامته بالأمر الأكثر الذى لا يبلغه من دونهم فى الفضل. و السابقون إلى الطاعات يقربون إلى رحمة الله فى أعلا المراتب و أقربها إلى مجالس كرامته بما يظهر لأهل المعرفة منزله صاحبه فى جلالته و يصل بذلك السرور إلى قلبه، و إنما قال «فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» مع أنه معلوم من صفة المقربين، لئلا يتوهم أن التقريب يخرجهم إلى دار أخرى، و إنما هم مقربون من كرامة الله فى الجنة لأنها درجات و منازل بعضها أرفع من بعض. و الفرق بين النعيم و النعمة أن النعمة تقتضى شكر النعم من أنعم عليه نعمة و انعاماً. و النعيم من نعم نعيماً كقولك أنتفع انتفاعاً.

و قوله «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ» فالثلة الجماعة. و أصله القطعة من قولهم: ثل عرشه إذا قطع ملكه بهدم سريره. و الثلة القطعة من الناس، و قال الزجاج: الثل القطع، و الثلة كالفرقة و القطعة. و هو خبر ابتداء محذوف، و تقديره: هم ثلة من الأولين، و هم قليل من الآخرين. و قوله «وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ» إنما قال ذلك لأن الذين سبقوا إلى إجابة النبى صلى الله عليه و آله قليل من كثير ممن سبق إلى النبى. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩١

و قوله «عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ» فالموضونة المنسوجة المداخله كصفه الدرع المضاعفة قال الأعشى:

و من نسج داود موضونة تساق إلى الحى عيراً فغيراً «١»

و منه (وضين الناقة) و هى البطان من السيور إذا نسج بعضه على بعض مضاعفاً و قيل: موضونة مشبكة بالذهب و الجواهر، و قال ابن عباس و مجاهد: موضونة بالذهب و قال عكرمة: مشبكة بالدر، و قال ابن عباس - فى روايه أخرى - موضونة معناه مظفورة، و الوضين حبل منسوج من سيور.

و قوله «مُتَكَبِّرِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ» معناه مستندين متحاذين كل واحد بإزاء الآخر، و ذلك أعظم فى باب السرور. و التقابل و التحاذى و التواجه واحد.

و المعنى إن بعضهم ينظر الى بعض و ينظر الى وجه بعض لا ينظر فى قفاه، من حسن عشرته و تهذيب أخلاقه،

قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١٧ الى ٢٦]..... ص: ٤٩١

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَ أَبَارِيقٍ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَ لَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَ فَاكِهِهٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)

وَ حَوْرٍ عَيْنٍ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَ لَا تَأْتِيهِمْ (٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً

(٢٤)

عشر آيات كوفى و مدنى الأخير، و تسع فيما عداه، عد المكى و إسماعيل

(١) ديوانه ٧١ و اللسان (و ضمن) و مجاز القرآن ٢ / ٢٤٨ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩٢

«وَأَبَارِيقَ» و لم يعده الباقون. و عد المدنى و الكوفى «وَحُورٌ عَيْنٌ» و لم يعده الباقون.

قرأ أبو جعفر و أهل الكوفة إلا- عاصماً و خلفاً «و حور عين» خفصاً. الباقون بالرفع. فمن رفع حمله على: و لهم حور عين. و اختاروا الرفع لأن الحور العين لا- يطاف بهن، و إنما يطاف بالكأس، و على هذا يلزم أن يقرأ «و فاكهة» رفعاً و كذلك «و لحم طير» بالرفع لأنهما لا يطاف بهما، فما اعتذروا فى ذلك فهو عذر من قرأ بالخفض. و من خفض عطف على الاول لتشاكل الكلام من غير إخلال بالمعنى إذ هو مفهوم. و قال الزجاج: و يكون تقديره ينعمون بكذا و حور عين. و قال أبو على تقديره و فى مجاورة حور عين أو معانقه حور عين، لأن الكلام الاول يدل عليه و قال الشاعر:

إذا ما الغايات برزن يوماً و زججن الحواجب و العيونا «١»

و المعنى و كحلن العيون فرده على قوله (و زججن) و مثله:

(متقلداً سيفاً و رمحاً) «٢»

أى و حاملاً رمحاً. و كان يجوز النصب على تقدير و يعطون حوراً عيناً كما قال الشاعر:

جننى بمثل بنى بدر لقومهم أو مثل اخوة منظور بن سيار «٣»

لما كان معنى جننى هات عطف أو مثل على المعنى و قال الحسن الحور البيض. و قال مجاهد يحار فيهن البصر.

لما ذكر الله تعالى ان السابقين الى الخيرات و الطاعات هم المقربون الى نعيم

(١) القرطبي ١٧ / ٢٠٥

(٢) مر فى ٢٣٢ / ٤

(٣) مر فى ٣ / ٤٥٥ و ٦ / ٣٠

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩٣

الجنة و ثوابها، فإنهم على سرر موضوعه متقابلين، اخبر انه «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ» يعنى صبيان «مُخَلَّدُونَ» فالطوف الزور بالتنقل فى المكان، و منه الطائف الذى يطوف بالبلد على وجه الحرس. و الولدان جمع وليد. و مخلصون قال مجاهد معناه باقون لهم لا يموتون، و قال الحسن: معناه انهم على حالة واحد لا يهرمون، يقال:

رجل مخلص أى باق زماناً أسود اللحية لا يشيب و قال الفراء: معناه مقرطون و الخلد القرط. و الأكواب جمع كوب و هى أباريق واسعة الرؤوس بلا خراطيم- فى قول قتادة- قال الأعشى:

صليفيه طيباً طعمها لها زبد بين كوب و دن «١»

و الأباريق التى لها عرى و خراطيم واحدها إبريق و «كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ» أى يطوفون عليهم ايضاً بكأس من خمر معين ظاهر للعيون جار «لَا يَصِيدُ دَعْوَى عَنْهَا» أى لا يلحقهم الصداح من شربها «وَلَا يُنْزِفُونَ» أى لا تنزف عقولهم بمعنى لا تذهب بالكسر- فى قول مجاهد و قتادة و الضحاك- و من قرأ «ينزفون» بالكسر، و هو حمزة و الكسائى و خلف، حمله على أنه لا تنفى خمرهم قال الأبرد:

لعمري لئن أنزفتم أو صحتهم لبئس الندامى كنتم آل أبجرا «٢»

وقوله «وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ» أى ويطاف عليهم بفاكهة مما يختارونه و مما يشتهونه، و ينعمون بفاكهة مما يشتهونه. وقوله «وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ» أى ويطاف عليهم او ينعمون بلحم طير مما يشتهون. وقوله «وَحُورٌ عِينٌ» من رفعه حملة على معنى و لهم فيها حور عين، لأنهن لا يطاف بهن و إنما يطاف بالكأس. و من جر فعلى معنى و ينعمون بحور عين او يحصلون فى معانقة حور عين. و الحور جمع حوراء و الحور نقاء البياض من كل شائب يجرى مجرى الوسخ. وقوله «كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ»

(١) مر فى ٢١٦/٩

(٢) مر فى ٤٩٦/٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩٤

أى مثل هؤلاء الحور فى البياض و النقاء مثل اللؤلؤ «الْمَكْنُونِ» يعنى الدر المصون عما يلحق به من دنس كأنه مأخوذ من أن الدرّة تبقى على حسنّها أكثر مما يبقى غيرها لطبعها و صيانه الناس لها قال عمر بن أبى ربيعة:

و هى زهراء مثل لؤلؤ الغواص ميزت من جوهر مكنون

«جزاء» أى يفعل ذلك بهم جزاء و مكافأة على ما عملوه فى دار الدنيا من الطاعات و اجتناب المعاصى ثم قال «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا» أى لا يسمع المتأبون فى الجنة لغواً يعنى ما لا فائدة فيه من الكلام، لأن كل ما يتكلمون به فيه فائدة (و لا تأثيماً) و لا يجرى فيها ما يؤثم فيه قائله من قبيح القول (إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) يعنى لكن يسمعون قول بعضهم لبعض على وجه التحية (سَلَامًا سَلَامًا) إنهم يتداعون بالسلام على حسن الآداب و كريم الأخلاق الذى يوجب التواد، لان طباعهم قد هذبت على أتم الكمال. و نصب (سلاماً) على تقدير سلمك الله سلاماً بدوام النعمة و حال الغبطة. و جاز أن يعمل فيه سلام، لأنه يدل عليه، كما يدل على قوله «وَاللَّهُ أَتَبَّكُمْ مِنَ الْمَارِضِ نَبَاتًا» «١» و يصلح أن يكون سلاماً نعتاً لقوله «قِيلًا» و يصلح أن ينتصب ب (قيل) فالوجه الثلاثة محتملة. و قيل «إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا» أى قولاً يؤدى إلى السلامة.

قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٢٧ الى ٤٠]..... ص: ٤٩٤

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَ طَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَ ظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَ مَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَ فَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَ لَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَ فُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) غُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩٥

أربع عشرة آية كوفى و عدد إسماعيل و بصرى، و خمس عشرة آية فيما عداه عد المدنى و المكى و البصرى «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ» و لم يعده الباقون. و عد المدنيان و المكى و الكوفى و الشامى «إِنْشَاءً» و لم يعده الباقون.

قرأ إسماعيل و حمزة و خلف و يحيى «غُرُبًا» مخففة. الباقون مثقلة، و هما لغتان. و روى عن على عليه السلام انه قرأ «و طلع منضود» بالعين. و القراء على الحاء و قال على عليه السلام: هو كقوله «وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ» «١» و قال كالمتعجب: و ما هو شأن الطلح؟! فقيل: له أ لا تغيره؟ قال: القرآن لا يهاج اليوم و لا يحول.

وقوله «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ» قيل فى معناه ثلاثة أقوال:

أولها- الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم.

الثاني - الذين يؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنة.

الثالث - اصحاب اليمن والبركة. وقوله «ما أصحاب اليمين» معنا ومعنى «ما أصحاب الميمنة» سواء وقد فسرناه. وقوله «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ» فالسدر شجر النبق، والمخضود هو الذى لا شوك فيه وخضد بكثرة جملته وذهب شوكه - فى قول ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد والضحاك - وأصل الخضد عطف العود اللين. فمن هاهنا قيل: لا شوك فيه، لان الغالب على الرطب اللين أنه لا شوك له.

وقوله «وَطَلَحٍ مَّنْضُودٍ»، قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وابن زيد:

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٤٨

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩٦

الطلح شجر الموز. وقال ابو عبيدة: الطلح كل شجر عظيم كثير الشوك، وقال الحارثي:

بشرها دليلها وقالا غداً ترين الطلح والجبالا «١»

وقال الزجاج: الطلح شجر أم غيلان. وقد يكون على أحسن حال، والمنضود هو الذى نضد بعضه على بعض من الموز - ذكره ابن عباس - وهو من نضدت المتاع إذا عبيت بعضه على بعض. قيل: ففقتوا الموز منضود بعضه على بعض «وَوَظِلٌّ مَّنْجُودٍ» معناه دائم لا تنسخه الشمس قال ليلى:

غلب البقاء و كنت غير مغلب دهر طويل دائم ممدود «٢»

و

روى فى الخبر أن (فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة).

وقوله «وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ» أى مصبوب على الخمر يشرب بالمزاج. وقال قوم: يعنى مصبوب يشرب على ما يرى من حسنه وصفائه، ولا يحتاجون الى تعب فى استقائه.

وقوله «وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ» أى و ثمار مختلفة كثيرة غير قليلة. وقيل الوجه فى تكرار ذكر الفاكهة البيان عن اختلاف صفاتها فذكرت أولاً بأنها مما يتخيرون، وذكر - هاهنا - بأنها كثيرة و بأنها لا مقطوعة ولا ممنوعة. ومعناه لا مقطوعة كما تنقطع فواكه الدنيا فى الشتاء فى اوقات مخصوصة، ولا ممنوعة بتعذر تناول او شوك يؤذى كما يكون ذلك فى الدنيا.

وقوله «وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ» أى عاليه يقال: بناء مرفوع أى عال. وقيل:

معناه و نساء مرتفعات القدر فى عقولهن وحسنهن و كمالهن. وقال الحسن: فرش

(١) القرطبي ٢٠٨ / ١٧ و مجاز القرآن ٢ / ٢٥٠

(٢) القرطبي ٢٠٩ / ١٧ و الطبرى ٩٤ / ٢٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩٧

مرفوعة بعضها فوق بعض، و الفرش المهاد المهيأ للاضطجاع، فرش يفرش فرشاً فهو فرش و الشيء مفروش، و منه قوله «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا» «١» لأنها تصلح للاستقرار عليها.

وقوله «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً» معناه إن اخترعنا أزواجهن اختراعاً، و هذا يقوى قول من حمل الفرش على النساء. وقيل: المعنى انا أنشأناهن من البنية «فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا» و البكر التى لم يفتضها الرجل، و لم تفتض و هى على خلقها الأولى من حال الإنشاء. و أصله الأول، و منه بكرة أول النهار. و الابتكار عمل الشيء أولاً.

و الباكورة أول ما يأتي من الفاكهة. و البكر من الإبل الفتى في أول أمره و حدثه سنه. و قال الضحاك: ابكاراً عذارى. و في الخبر المرفوع (انهن كن عجائز رمضا في الدنيا).

و قوله «عُرباً أتراباً» فالعرب العواشق لأزواجهن المنجبات اليهم- في قول ابن عباس و الحسن و مجاهد و قتادة- و قال ليبد: و في الحدوج عروب غير فاحشة رياء الروادف يعيشى دونها البصر «٢»

و العرب جمع عروب على وزن (رسول، و رسل) و هى اللعوب مع زوجها انساً به رغبة فيه، كأنس العربى بكلام العرب، فكان لها فطنة العرب و إلفهم و عهدهم. و الا-تراب جمع ترب و هو الوليدة التى تنشأ مع مثلها فى حال الصبى، و هو مأخوذ من لعب الصبيان بالتراب أى هم كالصبيان الذين على سن واحد. قال عمر ابن أبى ربيعة:

(١) سورة البقرة آية ٢٢

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٥١ و القرطبي ١٧/ ٢١١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩٨

ابرزوها مثل المهاء تهادى بين عشر كواعب أتراب «١»

و قال ابن عباس و قتادة و مجاهد و الضحاك: الا تراب المستويات على سن واحد. و قوله «لأَصْحَابِ الْيَمِينِ» أى جميع ما تقدم ذكره لهم جزاء و ثواباً على طاعتهم. و قوله «ثَلَاثَةَ مِائَاتٍ مِنَ الْأُولَى وَ ثَلَاثَةَ مِائَاتٍ مِنَ الْآخِرِينَ» فالثلة القطعة من الجماعة، فكانه قال جماعة من الأولين و جماعة من الآخرين. و إذا ذكر بالتنكير كان على معنى البعض من الجملة، كما تقول رجال من جملة الرجال. و فائدة الآية أنه ليس هذا لجميع الأولين و الآخرين. و إنما هو لجماعة منهم. و

روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال (إنى لأرجو ان تكون أمتى شطر أهل الجنة) ثم تلا قوله «ثَلَاثَةَ مِائَاتٍ مِنَ الْأُولَى وَ ثَلَاثَةَ مِائَاتٍ مِنَ الْآخِرِينَ» و قال الحسن: سابقوا من مضى أكثر من سابقينا، فلذلك قيل «وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ» و فى التابعين و ثلة من الآخرين.

قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٢١ الى ٥٠]..... ص: ٤٩٨

وَ أَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ (٤١) فِي سَيِّئٍ وَ حَمِيمٍ (٤٢) وَ ظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَ لَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥)

وَ كَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِثِّ الْعَظِيمِ (٤٦) وَ كَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) عشر آيات كوفى عند جميعهم. و إحدى عشر آية فى المدنى الأول. عد

(١) مر فى ٨/ ٥٧٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٤٩٩

الكل «وَ أَصْحَابُ الشَّامِ» و لم يعده الكوفيون. و عد الكل «فِي سَيِّئٍ وَ حَمِيمٍ» و لم يعده الكوفيون، و عد «الْمَكْنُونِ» و «كَانُوا يَقُولُونَ» و لم يعده الباقون. و عد الكل إلا إسماعيل و الشاميين «الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ» و عد إسماعيل و الشاميون «لَمَجْمُوعُونَ» و لم يعده الباقون.

قيل فى معنى قوله «وَ أَصْحَابُ الشَّامِ» ثلاثة اقوال:

أحدها- إنهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى جهنم.

الثاني- هم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم.

الثالث- الذين يلزمهم حال الشؤم والنكد. و كل هذا من أوصافهم.

وقوله «ما أَصْحَابُ الشَّمالِ» معناه معنى قوله «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ما أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ» وقد فسرناه.

وقوله «فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ» فالسموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن، و مسام البدن خروقه، و منه أخذ السم، لأنه يسرى في المسام. و الحميم الحار الشديد الحرارة من الماء، و منه قوله «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ» (١) و حم ذلك أى أدناه كأنه حرر أمره حتى دنا. و قيل: فى سموم جهنم و حميمها.

وقوله «وَزُلْ مِنْ يَحْمُومٍ» فاليحموم الأسود الشديد السواد باحترق النار، و هو (يفعول) من الحم، و هو الشحم المسود باحترق النار. و أسود يحموم أى شديد السواد «وَزُلْ مِنْ يَحْمُومٍ» أى دخان شديد السواد- فى قول ابن عباس و أبى مالك و مجاهد و قتادة و ابن زيد- وقوله «لا- باردٍ ولا- كريمٍ» معناه لا بارد كبرد ظلال الشمس، لأنه دخان جهنم، و لا كريم، لان كل ما انتفى عنه الخير، فليس بكريم. و قال قتادة: لا بارد المنزل و لا كريم المنظر.

(١) سورة ٢٢ الحج آية ١٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠٠

وقوله «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ» قال ابن عباس: معناه إنهم كانوا فى الدنيا متنعمين. وقوله «وَكَانُوا يُصَيَّرُونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ» قال قتادة و مجاهد كانوا يقيمون على الذنب العظيم، و لا يتوبون منه، و لا يقلعون عنه. و قال الحسن و الضحاك و ابن زيد: كانوا يقيمون على الشرك العظيم. و قيل: إصرارهم على الحنث هو ما بينه الله تعالى فى قوله «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ» (١) و الإصرار الإقامه على الامر من جهة العزم على فعله، فالإصرار على الذنب نقيض التوبة منه، و الحنث نقض العهد المؤكد بالحلف، فهؤلاء ينقضون العهود التى يلزمهم الوفاء بها، و يقيمون على ذلك غير تائبين منه، و وصف الذنب بأنه عظيم أنه اكبر من غيره مما هو أصغر منه من الذنوب. وقوله «وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ»!! حكاية من الله تعالى عما كان يقول هؤلاء الكفار من انكارهم البعث و النشور و الثواب و العقاب و أنهم كانوا يقولون مستبعدين منكبين: أنذا متنا و خرجنا عن كوننا أحياء و صرنا تراباً و عظاما باليه أننا لمبعوثون؟! و لم يجمع ابن عامر بين الاستفهامين إلا هاهنا، أو يبعث واحد من آبائنا الذين تقدموا قبلنا و يحشرون و يردون إلى كونهم أحياء إن هذا بعيد. و الواو فى قوله (أو آباؤنا) متحركة، لأنها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام، فقال الله تعالى لنبى صلى الله عليه و آله (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) أى قل لهم يا محمد إن تقدمكم من آبائكم او غير آبائكم، و الآخرين الذين يتأخرون عن زمانكم يجمعهم الله و يبعثهم و يحشرهم إلى وقت يوم معلوم عند الله، و هو يوم القيامة.

(١) سورة ١٦ النحل آية ٣٨ [.....]

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠١

قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٥١ الى ٦١]..... ص: ٥٠١

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَمَّا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَمَا لَوْ أَنَّ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ (٥٥)
هذا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٧) أَمْ قَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَمْ أَنْتُمْ خَلَقْتُمُوهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ

قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)
عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)

احدى عشرة آية بلا خلاف قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وسهل (شرب الهيم) بضم الشين.

الباقون بالفتح، و هما لغتان. و قرأ (نحن قدرنا) خيفة ابن كثير. الباقون بالتشديد و هما لغتان. يقال قدرت، و قدرت، و قد فرق بينهما فيما ذكره، لما امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه و آله أن يقول لمن أنكر البعث و النشور قل لهم إنكم و من تقدمكم و تأخر عنكم مبعوثون و محشورون إلى يوم القيامة بين ما لهم في ذلك اليوم فقال (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهِيَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ) يعنى الذين ضللتهم عن الدين و عن طريق الحق و حرمتهم عن إتباع الصحيح المكذبون الذين كذبتم بتوحيد الله و اخلاص العبادة له و جحدتم نبوة نبيه (لَا كِلُونَ) يوم القيامة (مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ) فالزقوم ما يبتلع بتصعب، يقال: تزقم هذا الطعام تزقماً إذا ابتلعه بتصعب. و قيل: هو طعام خشن مر كرهه يعسر نزوله في الحلق.

و قوله (فَمَا لُولَؤُنْ مِنْهَا الْبُطُونَ) أى تملئون بطونكم من أكل هذا الزقوم التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠٢
و الشجر يؤث و يذكر، فلذلك قال (منها) و كذلك الثمر يذكر و يؤث، فالتذكير على الجنس، و التأنيث على المبالغة. و البطون جمع بطن و هو خلاف الظهر، و هو داخل الوعاء و خارجه ظهر، و بطن الأمر إذا غمض، و منه الظهارة و البطانة، و بطن الإنسان، و بطن الأرض، و بطن الكتاب.

و قوله (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ) معناه إنكم تشربون على هذا الزقوم الذى ملأتم بطونكم منه (من الحميم) و هو الماء الحار الشديد الحرارة (فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ) أى تشربون مثل ما تشرب الهيم. فمن فتح الشين أراد المصدر و من ضمه أراد الاسم، و قيل هما لغتان و

روى جعفر بن محمد أن النبى صلى الله عليه و آله أمر بلالا ان ينادى بمنى إنها أيام أكل و شرب

- بفتح الشين - و (الهيم) الإبل التى لا تروى من الماء لداء يصيبها، واحدا (أهيم) و الأثنى (هيما) و من العرب من يقول:

هايم و هايمه، و تجمعهم على هيم كغائط و غيط. و قال ابن عباس و عكرمة و الضحاك و قتادة: معناه شرب الإبل العطاشى التى لا تروى. و قيل: هو داء الهيام. و حكى الفراء: إن الهيم الرجل الذى لا يروى من الماء يشرب ما يحصل فيه.

و قوله (هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ) فالنزل الأمر الذى ينزل عليه صاحبه، و منه النزول و هو الجارى للإنسان من الخير، و أهل الضلال قد نزلوا على أنواع العذاب فى النار، و كل ما فصله الله تعالى من ذلك ففيه أتم الزجر و أعظم الردع. و قيل:

معنى الآية هذا طعامهم و شربهم يوم الجزاء.

و قوله (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ) أى نحن انشأناكم و ابتدأناكم فى النشأة الأولى (فهلا تصدقون) أنكم تبعثون. ثم نبههم على وجه الاستدلال على صحته ما ذكرناه فقال (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ) و معناه الذى يخرج منكم من المنى عند الجماع، و يخلق منه الولد (أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ) و تنشئونه (أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ) فهم لا يمكنهم ادعاء إضافة ذلك التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠٣

الى نفوسهم لعجزهم عن ذلك، فلا بد من الاعتراف بأن الله هو الخالق لذلك، و إذا ثبت انه قادر على خلق الولد من النطفة و جب أن يكون قادراً على إعادته بعد موته لأنه مثله، و ليس بأبعد منه، يقال: أمنى يمنى، و منى يمنى، بمعنى واحد، و كذلك أمدى، و مدى - فى قول الفراء.

و قوله تعالى (نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ) فالتقدير ترتيب الأمور على مقدار فالله تعالى أجرى الموت بين العباد على مقدار ما تقتضيه الحكمة، فإنما أجراه الحكيم على ذلك المقدار.

و قوله (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أى لسنا بمسبوقين فى تدبيرنا، لأن الأمور كلها فى مقدور الله و سلطانه على ما يصح و يجوز فيما مكن منه أو أعجز عنه. و قال مجاهد: تقدير الموت بالتعجيل لقوم و التأخير لغيرهم. و قيل (نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ) بأن كتبناه على مقدار،

لا زيادة فيه ولا نقصان. و يقال: قدرت الشيء مخففاً، و قدرته مثقلاً بمعنى واحد.

و قوله (عَلَى أَنْ يُبَدَّلَ أَمْثَالُكُمْ)

فالتبديل جعل الشيء موضع غيره، فتبديل الحكمة بالحكمة صواب و تبديل الحكمة بخلافها خطأ و سفه، فعلى هذا ينشئ الله قوماً بعد قوم، لأن المصلحة تقتضى ذلك، و الحكمة توجب إنشاءهم فى وقت و إماتتهم فى وقت آخر. و انشاؤهم بعد ذلك للحساب و الثواب و العقاب. و قيل: إن معنى (عَلَى أَنْ يُبَدَّلَ)

التبديل أى لنبدل أمثالكم، و بين (على) و (اللام) فرق، لأنه يجوز أن يقال: عمله على قبحه، و لا يجوز عمله لقبحه. و تعليم الاستدلال بالنشأ الاولى على النشأ الثانية فيه تعليم القياس.

و قوله (وَنُنَشِّئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ)

معناه فيما لا تعلمون من الهيئات و الصور المختلفة، لأن المؤمن يخلق على أحسن صورة، و الكافر على أقبح صورة. و قيل: التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠٤

هذا على النشأ الثانية يكونها الله فى وقت لا يعلمه العباد، و لا يعلمون كيفيته، كما علموا الإنشاء الأول من جهة التناسل. و قيل: معناه لو أردنا أن نجعل منكم القردة و الخنازير لم يعيننا ذلك، و لا سبقنا اليه سابق. و يجوز أن يقال: أمثال متفقه، و لا يجوز أن يقال أجناس متفقه، لأن المثل ينفصل بالصورة كما ينفصل رجل عن رجل بالصورة، و ما انفصل بالصورة يجوز جمعه، لأن الصورة قد منعت أن تجرى على الكثير منه صفة التوحيد، فلا يجوز أن يقال هؤلاء الرجال كلهم رجال واحد و يجوز هذا الماء كله ماء واحد، و هذه المذاهب كلها مذهب واحد، و لا يجوز هؤلاء الأمثال كلهم أمثال واحد، لأنهم ينفصلون بالصورة. و جرى مجرى المختلفة فى انه لا يقع على صفة التوحيد.

قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٦٢ الى ٧٠]..... ص: ٥٠٤

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُعْرِضُونَ (٦٦)

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)

تسع آيات بلا خلاف.

قرأ ابو بكر «إنا لمغرمون» على الاستفهام. الباقون على الخبر.

يقول الله تعالى مخاطباً للكفار الذين أنكروا النشأ الثانية، و منبهاً لهم على قدرته عليها، فقال (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَهَلَا تَذَكَّرُونَ) و تفكرون و تعتبرون التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠٥

بأن من قدر عليها قدر على النشأ الثانية. و النشأ المرة من الإنشاء، كالضربة من الضرب، و الإنشاء إيجاد الشيء من غير سبب يولده، و مثله الاختراع و الابتداع.

ثم نبههم على طريق غيره فقال (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ) من الزرع (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ) أى أ أنتم تبتنونه و تجعلونه رزقاً (أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) فان من قدر على إنبات الزرع من الحبة الحقيرة و جعلها حبواً كثيرة قدر على إعادة الخلق إلى ما كانوا عليه. و قوله (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ) يعنى ذات الزرع (حُطَامًا) أى هشيماً لا- ينتفع به فى مطعم و لا- غذاء لفعلنا. و قوله (فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ) معناه قال ابن عباس و مجاهد و قتادة- فى رواية عنه- تعجبون. و قال الحسن و قتادة- فى رواية- فظلمتم تندمون أى لو جعلناه حطاماً لظلمتم تندمون. و المعنى إنكم كنتم تتروحوون إلى التندم، كما تتروح الفكاهة الى الحديث بما يزيل الهم. و أصل التفكه تناول ضروب الفاكهة للأكل.

وقوله (إِنَّا لَمَغْرُمُونَ) المغرم الذى ذهب ماله بغير عوض عنه. و أصله ذهب المال بغير عوض، فمنه الغريم لذهاب ما له بالاحتباس على المدنيين من غير عوض منه فى الاحتباس، و الغارم الذى عليه الدين الذى يطالبه به الغريم. و منه قوله (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) «١» أى ملحقاً دائماً كالحاح الغريم. و قال الحسن: هو من الغرم. و قال قتادة معنى (لمغرمون) لمعذبون، قال الأعشى:

إن يعاقب يكن غراماً وإن يعط جزيلاً فانه لا يبالى «٢»

أى يكن عقابه عذاباً ملحقاً كالحاح الغريم. و قال الراجز:

يوم النصار و يوم الجفار كانا عذابا و كانا غراماً «٣»

أى ملحقاً كالحاح الغريم، و حذف يقولون إنا لمغرمون، لدلالة الحكاية.

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥

(٢، ٣) مر فى ٧ / ٥٠٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠٦

و قال: معنى لمغرمون محدودون عن الخط. و قال قتادة محارفون. و قال مجاهد- فى رواية أخرى- إنا لمولع بنا. و فى رواية غيره عنه معناه إنا لملقون فى الشر.

و من قرأ (أ إنا لمغرمون) على الاستفهام حمل على أنهم يقرعون و يقولون منكرين.

أ إنا لمغرمون؟! و من قرأ على الخبر حملة على أنهم مخبرون بذلك عن أنفسهم. ثم يستدركون فيقولون لا- (يَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) مبخوسون بحظوظنا محارفون بهلاك زرعنا.

ثم قال لهم منبهاً على دلالة اخرى فقال (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ) و المعنى إنه تعالى امتن عليهم بما أنعم عليهم من انزال الماء العذب (من المزن) يعنى السحاب ليشربوه و يتفغوا به، فقال لهم (أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ) له عليكم نعمة منا عليكم و رحمة بكم. ثم قال (لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا) قال الفراء: الأجاج المر الشديد المرارة من الماء. و قال قوم: الأجاج الذى اشتدت ملوحته (فَلَوْ لَا تَشْكُرُونَ) أى فهلا تشكرون على هذه النعمة التى لا يقدر عليها غير الله، و علمتم بذلك ان من قدر على ذلك قدر على النشاء الاخرى فإنها لا تتعذر عليه كما لا يتعذر عليه هذه النعم.

قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٧١ الى ٨٠]..... ص: ٥٠٦

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَ مَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠٧

عشر آيات بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً (بموقع) على التوحيد. الباقون (بمواقع) على الجمع.

هذا تنبيه آخر من الله تعالى على قدرته على النشاء الثانية، و على وجه الدلالة على ذلك و على اختصاصه بصفات لا يشركه فيها غيره، لأنه قال (أَفَرَأَيْتُمُ) معاشر العقلاء (النَّارَ الَّتِي تُورُونَ) فالنار مأخوذ من النور، و منه قول الحارث ابن حلزة:

فتنورت نارها من بعيد بخزازی هیهات منك الصلاء «١»

و جمع النور أنوار، و جمع النار نيران، و النار على ضربين: نار محرقة، و نار غیر محرقة. فالتی لا تحرق النار الكامنة بما هی مغمورة به کنار الشجر و نار الحجر و نار الكید. و التي تحرق هی النار الظاهرة فیما هی مجاورة له مما من شأنه الاشتعال، و هی معروفة. و معنی «تورون» تظهرون النار، و لا- يجوز الهمزة، لأنه من اوری یوری إیراء إذا قدح، فمعنی تورون تقدحون. و وری الزند یوری، فهو وار إذا.

انقدحت منه النار، و وريت بك زنادی إذا أصابك أمری كما یضیء القدح بالزناد ثم قال «أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَ تَهَا» یعنی الشجرة التي تنقدح منها النار أی أنتم انبتموها و ابتدأتموها «أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ» لها، فلا یمکن أحد ان یدعی ان الذی أنشأها غیر الله تعالى و العرب تقدح بالزند و الزنده، و هو خشب معروف یحك بعضه ببعض فیخرج منه النار- ذكره الزجاج و غیره- و فی المثل (كل شجرة فیها نار و استمجد المرخ و العفار) فان قيل: لم لا یكون نار الشجر بطبع الشجر لا من

(١) اللسان (نور)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠٨

قادر علیه. قيل: الطبع غیر معقول، فلا- يجوز أن یسند الیه الأفعال، و لو جاز ذلك للزم فی جميع أفعال الله، و ذلك باطل و لو كان معقولا لكان ذلك الطبع لا بد ان یكون فی الشجر و الله تعالى الذی أنشأ الشجرة و ما فیها، فقد رجع الی قادر علیه و إن كان بواسطة، و لو جاز ان تكون النار من غیر قادر علیها لجاز أن یكون من عاجز، لأنه إذا امتنع الفعل ممن لیس بقادر علیه منا، لأنه فعل، و كل فعل ممتنع ممن لیس بقادر علیه.

و قوله «نَحْنُ جَعَلْنَاهَا» یعنی تلك النار «تَذْكِرَةٌ وَ مَتَاعٌ لِلْمُقْوِينَ» أی جعلنا النار تذكرة للنار الكبرى، و هی نار جهنم، فیکون ذلك زجراً عن المعاصی التي یستحق بها النار- فی قول مجاهد و قتادة- و يجوز ان یكون المراد تذكرة يتذكر بها و یتفكر فیها و یعتبر بها، فیعلم انه تعالى قادر علی النشاء الثانية، كما قدر علی إخراج النار من الشجر الرطب. و قوله «وَ مَتَاعٌ لِلْمُقْوِينَ» یعنی ینتفع بها المسافرون الذین نزلوا الأرض القی و هی القفر، قال الراجز:

قَيَّ يَنَاصِيهَا بِلَادَ قَيَّ «١»

و قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاک: للمقوين المسافرين، و قيل: هو من أقوت الدار إذا خلت من أهلها قال الشاعر:

أَقْوَى وَ أَقْفَرُ مِنْ نَعْمٍ وَ غَيْرِهَا هَوَجَ الرِّيحِ بِهَا فِي التَّرْبِ مَوَارِ «٢»

و قد یكون المقوی الذی قویت خيله و نعمه فی هذا الموضع.

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و المراد به جميع المكلفين بأن «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» أی نزه الله تعالى عما لا یليق به و أدعه باسمه العظيم.

و قوله «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ» قال سعيد بن جبیر: (لا) صلة و التقدير

(١) اللسان (قوا)

(٢) تفسير الطبري ١٠٤/٢٧

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٠٩

أقسم. و قال الفراء: هی نفی بمعنى لیس الأمر كما تقولون. ثم استؤنف «أُقْسِمُ» و قيل (لا) تزداد قبل القسم، كقولك لا و الله لا افعل، و لا و الله ما كلمت زیداً و قال امرؤ القيس:

لا و أيبك ابنه العامرى لا يدعى القوم انى أفر «١»

بمعنى و أيبك و (لا) زائده و «بمواقع النجوم» قال ابن عباس و مجاهد أى القرآن، لأنه أنزل نجوماً. و قال مجاهد- فى رواية أخرى- و قتاده: يعنى مساقط نجوم السماء و مطالعها. و قال الحسن: معناه انكدارها و هو انتشارها يوم القيامة، و من قرأ «بموقع» فلأنه يقع على الكثير و القليل. و من قرأ على الجمع، فلاختلاف أجناسه.

و قوله «وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعْلَمُونَ عَظِيمٌ» اخبار من الله تعالى بأن هذا القسم الذى ذكره بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون عظمه لا نلتفتكم بعلمه. و القسم جملة من الكلام يؤكد بها الخبر بما يجعله فى قسم الصواب دون الخطأ على طريقته بالله إنه لكذا. و قال ابو على الجبائى: القسم فى كل ما ذكر فى القرآن من المخلوقات إنما هو قسم بربه، و هذا ترك الظاهر من غير دليل، لأنه قد يجوز ذلك على جهة التنبيه على ما فى الأشياء من العبرة و المنفعة. و

قد روى أنه لا ينبغى لأحد أن يقسم إلا بالله، و لله ان يقسم بما يشاء من خلقه

، فعلى هذا كل من اقسام بغير الله او بشىء من صفاته من جميع المخلوقات او الطلاق او العتاق لا يكون ذلك يميناً منعقدة، بل يكون كلاماً لغواً. و العظيم هو الذى يقصر عن مقداره غيره فيما يكون منه، و هو على ضربين: أحدهما- عظيم الشخص، و الآخر- عظيم الشأن.

و قوله «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ» معناه إن الذى تلوناه عليكم لقرآن تفرقون به

(١) ديوانه (السندوبى) ٩٤

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥١٠

بين الحق و الباطل «كَرِيمٌ» فالكريم هو الذى من شأنه أن يعطى الخير الكثير، فلما كان القرآن من شأنه أن يعطى الخير الكثير بالادلة التى تؤدى إلى الحق فى الدين كان كريماً على حقيقته معنى الكريم، لا- على التشبيه بطريق المجاز، و الكريم فى صفات الله من الصفات النفسية التى يجوز فيها لم يزل كريماً، لأن حقيقته تقتضى ذلك من جهة ان الكريم الذى من شأنه ان يعطى الخير الكثير، فلما كان القادر على التكرم هو الذى لا يمنعه مانع من شأنه ان يعطى الخير الكثير صح أن يقال إنه لم يزل كريماً.

و قوله «فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ» قيل: هو اللوح المحفوظ أثبت الله تعالى فيه القرآن و المكنون المصون.

و قوله «لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» قال ابن عباس و مجاهد و الضحاك: لا يمس الكتاب الذى فى السماء إلا المطهرون من الذنوب و هم الملائكة- فى قول ابن عباس و الحسن و سعيد بن جبير و جابر و ابن زيد و أبى نهيد و مجاهد. و قيل «لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» فى حكم الله. و قد استدل بهذه الآية على أنه لا يجوز للجنب و الحائض و المحدث أن يمسوا القرآن، و هو المكتوب فى الكتاب الذى فيه القرآن أو اللوح.

و قال قوم: إنه لا- يجوز لهم ان يمسوا الكتاب الذى فيه، و لا- أطراف او راقه، و حملوا الضمير على انه راجع إلى الكتاب و هو كل كتاب فيه القرآن. و عندنا إن الضمير راجع إلى القرآن. و إن قلنا إن الكتاب هو اللوح المحفوظ، فلذلك وصفه بأنه مصون، و يبين ما قلناه قوله «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» يعنى هذا القرآن تنزيل من رب العالمين أنزله الله الذى خلق الخلاق و دبرهم على ما أراد.

قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٨١ الى ٩١]..... ص: ٥١٠

أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥)

فَلَوْ لَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَ رَيْحَانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَ

أَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠)

فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥١١

إثنا عشرة آية شامى، و احدى عشرة فيما عداه، عد الشاميون «و روح و ريحان» و لم يعده الباقون.

قرأ يعقوب «فروح و ريحان» بضم الراء. الباقون بفتحها، و هما لغتان.

و قال الزجاج: الروح بفتح الراء معناه الراحة و بالضم معناه حياة دائمة لا موت معها.

يقول الله تعالى مخاطباً للمكلفين على وجه التقرير لهم و التوبيخ بصورة الاستفهام «أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ» الذى حدثناكم به و أخبرناكم به من حوادث الأمور «أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ» قال ابن عباس: معنى مدهنون مكذبون. و قال مجاهد: معناه تريدون أن تمالؤهم فيه و تركنوا اليهم لأنه جريان معهم فى باطلهم. و قيل: معناه منافقون فى التصديق بهذا الحديث و سماه الله تعالى حديثاً كما قال «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً» (١) و معناه معنى الحدوث شيئاً بعد شىء و نقيض (حديث) قديم، و المدهن الذى يجرى فى الباطل على خلاف الظاهر، كالدهن فى سهولة ذلك

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٢٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥١٢

عليه و الاسراع فيه، أدهن يدهن إدهاناً و داهنه مداهنه مثل نافقه منافقة، و كل مدهن بصواب الحديث مذموم.

و قوله «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ» معناه و تجعلون حظكم من الخير الذى هو كالرزق لكم إنكم تكذبون و يجوز شكر رزقكم، و قال ابن عباس: معناه و تجعلون شكركم، و روى انه كان يقرأ كذلك. و قيل: حظكم من القرآن- الذى رزقكم الله- التكذيب به- فى قول الحسن- و قيل: إنهم كانوا إذا أمطروا و أخصبوا، قالوا مطرنا بنوء كذا، فأنزل الله تعالى الآية تكديماً لهم. و كذلك قرأ المفضل عن عاصم «تكذبون» بفتح التاء خفيفاً.

و قوله «فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ» قال الحسن: معناه هلا- إذا بلغت هذه النفس التى زعمتم أن الله لا- يبعثها الحلقوم «وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ» أى تنظرون ما ينزل بكم من امر الله قال الزجاج: قوله تعالى «وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ» خطاب لأهل الميت، و تقديره إذا بلغت الحلقوم و أنتم معاشر اهله ترونه على تلك الصورة.

و يحتمل ان يكون المراد و أنتم حينئذ تبصرون على ضرب من المجاز. و قوله «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ» معناه إن الله تعالى يراه من غير مسافة بينه و بينه، فلا شىء اقرب اليه منه، و اقرب من كل من يراه بمسافة بينه و بينه «وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ» معناه و لكن لا تعلمون ذلك لجهلكم بالله و بما يجوز عليه و ما لا يجوز. و يحتمل أن يكون المراد و لكن لا تبصرون الله، لأن الرؤية مستحيلة عليه. و قيل معناه: و لكن لا تبصرون الملائكة التى تتولى قبض روحه.

و قوله «فَلَوْ لَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ» معناه هلا- إن كنتم غير مجزيين بثواب الله او عقابه على ما تدعونه من إنكار البعث و النشور «تَرْجِعُونَهَا» أى تردون هذه النفس إلى موضعها «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فى قولكم و ادعائكم. و حكى الطبرى التبيان فى تفسير القرآن،

ج ٩، ص: ٥١٣

عن بعض النحويين ان الكلام خرج متوجهاً الى قوم أنكروا البعث، و قالوا نحن نقدر على الامتناع من الموت، ف قيل لهم: هلا رددتم النفس إذا بلغت الحلقوم إن كنتم صادقين فيما تدعونه. و قال الفراء: جواب (لولا-) (ترجعونها) و هو جواب «فَلَوْ لَا- إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ» أجيبا بجواب واحد، قال و مثله «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ» (١) يعنى إن الجواب و الخبر فى هذا على قياس واحد، و إنما جاز ان يجاب معنيان بجواب واحد، لان كل واحد منهما

يوجب ذلك المعنى، و المعنى فلولاً إذا بلغت الحلقوم على ادعائهم انه لا يصح ان يكون القادر على إخراجها قادراً على ردها يلزم ان يكون القادر على ردها غيره، و كذلك يلزم من قولهم إنه لا- يصح ان يقدر على ردها للجزاء ان يكون القادر غيره منهم و من أشباههم. و الرجوع جعل الشيء على الصفة التي كان عليها قبل، و هو انقلابه الى الحال الأولى، و لو انقلب إلى غيرها لم يكن راجعاً. و وجه إلزامهم على إنكار الجزاء و رجوع النفس الى الدنيا ان إنكار ان يكون القادر على الشئ الأولى قادراً على الشئ الثانية كادعاء ان القادر على الثانية انما هو من لم يقدر على الأولى، لأن إنكار الاول يقتضى إيجاب الثاني كإنكار ان يكون زيد المتحرك حركت نفسه في اقتضاء ان غيره حركه. و معنى «عَبَّرَ مَدِينَيْنِ» غير مجزيين. و قيل: معناه غير مملوكين، و الدين الجزاء. و منه قولهم: كما تدين تدان أى تجزى تجزى و الدين العمل الذى يستحق به الجزاء من قوله «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» (٢) و منه دين اليهود غير دين النصراني، و فلان يتدين أى يعمل ما يطلب به الجزاء من الله تعالى، و العبد مدين، لأنه تحت جزاء

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٨٨

(٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥١٤

مولاه، و إنما يجوز الانقلاب من صفة الى صفة على ان يكون على أحدهما بجعل جاعل و من استحق صفة النفس لا لمعنى و لا بالفاعل، لا يجوز ان ينقلب عنها الى غيرها.

و قوله «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَ رَيْحَانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ» اخبار من الله تعالى بما يستحقه المكلفون لمن كان منهم سابقاً الى الخيرات و الى أفعال الطاعات فله روح و ريحان، و هو الهوى الذى يلذ النفس و يزيل عنها الهم. و قيل: الروح الراحة و الريحان: الرزق- فى قول مجاهد و سعيد بن جبير- و قال الحسن و قتادة: هو الريحان المشموم، و كل نبات طيب الريح، فهو ريحان، و قيل الروح الفرح. و قيل:

الروح النسيم الذى تستريح اليه النفس. و اصل ريحان روحان، لأنه من الواو إلا- انه خفف، و أهمل التثقيب للزيادة التى لحقته من الالف و النون- ذكره الزجاج- و قوله «وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ» أى و لهذا المقرب مع الروح و الريحان «جَنَّةُ نَعِيمٍ» أى بستان ينعم فيها و يلتذ بأنواع الثمار و الفواكه فيها.

و قوله «وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» و قد فسرنا معناه «فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» دخلت كاف الخطاب كما يدخل فى ناهيك به شرفاً، و حسبك به كراماً أى لا تطلب زيادة جلاله على جلاله، و كذلك سلام لك منهم أى لا تطلب زيادة على سلامهم جلاله و عظم منزلته. و قال قتادة: معناه فسلام لك ايها الإنسان الذى من اصحاب اليمين من عذاب الله و سلمت عليك ملائكة الله. و قال الفراء: و سلام لك إنك من اصحاب اليمين فحذفت إنك. و قيل معناه سلمت مما تكره لأنك من اصحاب اليمين. و قال الزجاج: معناه و سلام لك إنك ترى فيهم ما تحب من السلامة، و ذكر اصحاب اليمين فى أول السورة بأنهم «فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ» و ذكرهم فى آخرها بأنهم يبشرون بالسلامة من كل ما يكرهون. و قيل:

إنما كان التبرك باليمين، لان العمل يتيسر بها، و اما الشمال فيتعسر العمل بها من التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥١٥

نحو الكتابة و التجارة و الاعمال الدقيقة.

قوله تعالى: [سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٩٢ الى ٩٦]..... ص: ٥١٥

وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَتَرُلُّ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَ تَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)

خمس آيات بلا خلاف.

لما أخبر الله تعالى ما للسابقين من أنواع الثواب والنعيم، وبين ما لأصحاب اليمين من الخيرات والثواب الجزيل، أخبر بما للكفار المكذبين يوم الدين المنكرين للبعث والنشور والجزاء بالثواب والعقاب، فقال «وَأَمَّا إِنْ كَانَ» هذا الإنسان المكلف (من المكذبين) بتوحيد الله الجاحدين لنبوة نبيه الدافعين للبعث والنشور (الضالين) عن طريق الهدى العادلين عنه (فَنَزَّلُ مِنْ حَمِيمٍ) أى نزلهم الذى أعد لهم من الطعام والشراب من ماء من حميم (وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) أى إحراق بنار جهنم، يقال صلاه الله تصليه إذا ألزمه الإحراق بها، وتقديره فله نزل من حميم.

وقوله (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) أى هذا الذى أخبرتك به هو الحق الذى لا شك فيه بل هو اليقين الذى لا شبهة فيه وحق اليقين إنما جاز اضافته الى نفسه، لأنها إضافة لفظية جعلت بدلا من الصفة، لان المعنى إن هذا لهو حق اليقين، كما قيل هذا نفس الحائط، بمعنى النفس الحائط، و جاز ذلك للإيجاز مع مناسبة الاضافة للصفة. و اما قولهم (رجل سوء) فكقولك رجل سوء وفساد. وقيل معنى حق اليقين حق الأمر اليقين.

وقوله (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) أمر من الله تعالى لنبيه ان ينزه الله تعالى التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥١٦
عما لا يليق به و يذكره باسمه العظيم. و

قيل: انه لما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وآله (ضعوها فى ركوعكم) و قولوا (سبحان ربى العظيم) والعظيم فى صفة الله معناه ان كل شىء سواه مقصر عن صفته بأنه قادر عالم غنى إذ هو قادر لا يعجزه شىء ولا يساويه شىء فى مقدوراته، و عالم لا يخفى عليه شىء على كل وجوه التفصيل، و غنى بنفسه عن كل شىء سواه لا يجوز عليه الحاجة بوجه من الوجوه ولا على حال من الأحوال.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥١٧

٥٧-سورة الحديد..... ص: ٥١٧

إشارة

مدينة بلا خلاف، و هى تسع و عشرون آية فى الكوفى و البصرى و ثمان و عشرون فى المدنيين.

[سورة الحديد (٥٧): (آيات ١ الى ٥)..... ص: ٥١٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)
هُوَ الْمَوْلَى وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥)
خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً ان جميع ما فى السموات و الأرض يسبح له. و قد بينا فى غير موضع معنى التسبيح و انه التنزيه له عن الصفات التى لا تليق به. فمن كان التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥١٨

من العقلاء عارفاً به فانه يسبحه لفظاً و معنى، و ما ليس بعاقل من سائر الحيوان و الجمادات فتسبيحها ما فيها من الآية الدالة على

وحدانيته و على الصفات التي باين بها جميع خلقه، و ما فيها من الحجج على أنه لا يشبه خلقه و أن خلقه لا يشبهه، ذلك بالتسبيح. و إنما كرر ذكر التسبيح في غير موضع من القرآن لانعقاده لمعان مختلفة لا ينوب بعضها مناب بعض، فمن ذلك قوله «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» (١) فهذا تسبيح بحمد الله و أما «سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» فهو تسبيح بالله «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فكل موضع ذكر فيه فلعلقه بمعنى لا ينوب عنه غيره منابه، و إن كان مخرج الكلام على الإطلاق و «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» معناه المنيع بأنه قادر لا يعجزه شيء العليم بوجوه الصواب في التدبير، و لا تطلق صفة «العزیز الحكيم» إلا فيه تعالى، لأنه على هذا المعنى. و قوله «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» اخبار بأن له التصرف في جميع ما في السموات و الأرض و ليس لاحد منعه منه و لا أن احداً ملكه ذلك و ذاك هو الملك الأعظم، لان كل ما عداه فما يملكه، فان الله هو الذي ملكه إياه، و له منعه منه. و قوله «يُحْيِي وَ يُمِيتُ» معناه يحيي الموات، لأنه يجعل النطفة و هي جماد حيواناً و يحييها بعد موتها يوم القيامة، و يميت الأحياء إذا بلغوا آجالهم التي قدرها لهم «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» أى كل ما يصح ان يكون مقدوراً له، فهو قادر عليه. و قوله «هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ» قيل في معناه قولان: أحدهما- قال البلخي إنه كقول القائل: فلان أول هذا الأمر و آخره و ظاهره و باطنه أى عليه يدور الأمر و به يتم. الثاني- قال قوم: هو أول الموجودات لأنه قديم سابق لجميع الموجودات و ما

(١) سورة ١٧ الإسراء آية ٤٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥١٩

عداه محدث. و القديم يسبق المحدث بما لا يتناهى من تقدير الأوقات. و الآخر بعد فناء كل شيء، لأنه تعالى بفسى الأجسام كلها و ما فيها من الاعراض، و يبقى وحده ففى الآية دلالة على فناء الأجسام. و قوله «الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ» قيل في معناه قولان: أحدهما- انه العالم بما ظهر و ما بطن. الثاني- انه القاهر لما ظهر و ما بطن من قوله تعالى «فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبِرُوا ظَاهِرِينَ» (١) و منه قوله «وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» (٢) و قيل: المعنى إنه الظاهر بادلته الباطن من احساس خلقه «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» ما يصح ان يكون معلوماً، لأنه عالم لنفسه. ثم اخبر تعالى عن نفسه فقال «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ» أى اخترعهما و انشأهما «فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» لما في ذلك من اعتبار الملائكة بظهور شيء بعد شيء من جهته و لما في الاخبار به من المصلحة المكلفين و لو لا ذلك لكان خلقها فى لحظة واحدة، لأنه قادر على ذلك من حيث هو قادر لنفسه.

و قوله «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ» أى استولى عليه بالتدبير قال البعث.

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهراق (٣)

و هو بشر بن مروان، لما ولاه اخوه عبد الملك بن مروان. و قيل: معناه ثم عمد و قصد الى خلق العرش، و قد بينا ذلك فيما تقدم. ثم قال «يَعْلَمُ مَا يَلْجِئُ فِي الْأَرْضِ» أى ما يدخل فى الأرض و يستتر فيها، فالله عالم به لا يخفى عليه منه شيء «وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا» أى و يعلم ما يخرج من الأرض من سائر النبات و الحيوان و الجماد

(١) سورة ٦١ الصف آية ١٤

(٢) سورة ١٧ الإسراء آية ٨٨

(٣) مر في ١/ ١٢٥، و ٢/ ٣٩٦ و ٤/ ٤٥٢ و ٥/ ٣٨٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٢٠

و لا- يخفى عليه شيء «وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ» أى و يعلم ما ينزل من السماء من مطر و غير ذلك من انواع ما ينزل منها لا يخفى عليه شيء منها «وَمَا يَعْزُجُ فِيهَا» أى و يعلم ما يعرج فى السماء من الملائكة و ما يرفع اليها من أعمال الخلق «وَهُوَ مَعَكُمْ» يعنى بالعلم لا يخفى عليه حالكم و ما تعملونه «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» من خير و شر أى عالم به.

ثم قال «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أى له التصرف فيهما على وجه ليس لاحد منعه منه «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» يوم القيامة. و المعنى أن جميع من ملكه شيئاً فى دار الدنيا يزول ملكه و لا يبقى ملك أحد، و يتفرد تعالى بالملك، فذلك معنى قوله (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) كما كان كذلك قبل أن يخلق الخلق.

قوله تعالى: [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٥٢٠

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَ مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ إِنْ اللَّهُ بِكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قَاتَلُوا وَ كَلًّا وَ عَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٢١

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابو عمرو وحده (و قد أخذ ميثاقكم) بضم الألف، على ما لم يسم فاعله. الباقون- بالفتح- بمعنى و أخذ الله ميثاقكم، و قرأ ابن عامر و وحده (و كل وعد الله الحسنى) بالرفع، و هى فى مصاحفهم بلا الف جعله مبتدأ و خبراً و عدى الفعل الى ضميره، و تقديره: و كل وعده الله الحسنى، كما قال الراجز:

قد أصبحت أم الخيار تدعى على ذنباً كله لم أصنع

أى لم اصنعه، فحذف الهاء. الباقون بالنصب على أنه مفعول (وعد الله) و تقديره وعد الله كلاً الحسنى، و يكون (الحسنى) فى موضع نصب بأنه مفعول ثان و هو الأقوى.

معنى قوله (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) أى إن ما ينقص من الليل يزيده فى النهار، و ما ينقص من النهار يزيده فى الليل حسب ما قدره على علم من مصالح عباده. و قيل: إن معناه إن كل واحد منهما يتعقب صاحبه (وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) و معناه هو عالم بأسرار خلقه و ما يخفونه فى قلوبهم من الضمائر و الاعتقادات لا يخفى عليه شيء منها.

ثم امر تعالى المكلفين فقال (آمِنُوا بِاللَّهِ) معاشر العقلاء و صدقوا نبيه و أقروا بوحدانيته و اخلاص العبادته له، و صدقوا رسوله، و اعترفوا بنبوته (و أنفقوا) فى طاعة الله و الوجوه التى أمركم الله بالإنفاق فيها (مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩،

ص: ٥٢٢

(فيه)

قال الحسن: معناه ما استخلفكم فيه بوراثكم إياه عنم كان قبلكم.

ثم بين ما يكافئهم به إذا فعلوا ذلك، فقال (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ) بما أمرتهم بالإيمان به (وَ أَنْفَقُوا) مما دعوتهم الى الإنفاق فيه (لَهُمْ) مغفرة من الله لذنوبهم و (أَجْرٌ كَبِيرٌ) أى و ثواب عظيم.

ثم قال الله تعالى على وجه التوبيخ لهم (و ما لكم) معاشر المكلفين (لا- تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) و تعترفون بوحدانيته و اخلاص العبادة له (وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ) إلى ذلك (لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ) أى لتعترفوا به و تقروا بوحدانيته (وَ قَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ) معناه إنه لما ذكر تعالى دعاء الرسول الى الايمان بين انه قد أخذ ميثاقكم ايضاً به، و معنى أخذ ميثاقكم انه نصب لكم الأدلة الدالة الى الايمان بالله و رسوله و رغبتكم فيه و حثكم عليه و زهدكم فى خلافه، و معنى (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أى إن كنتم مؤمنين بحق فالإيمان قد ظهرت أعلامه و وضحت براهينه:

ثم قال (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ) يعنى ان الله تعالى هو الذى ينزل على محمد صلى الله عليه و آله (آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) أى حججاً و ادلة واضحة و براهين نيرة (لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) و معناه فعل بكم ذلك ليخرجكم من الضلال الى الهدى- فى قول مجاهد و غيره- و فى ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة: إن الله تعالى خلق كثيراً من خلقه ليكفروا به و يضلوا عن دينه. و إنما أخرجهم من الضلال الى الهدى بما نصب لهم من الأدلة التى إذا نظروا فيها افضى بهم الى الهدى و الحق، فكأنه أخرجهم من الضلال، و إن كان الخروج من الضلال الى الهدى من فعلهم، و سمي الدلالة نوراً، لأنه يبصر بها الحق من الباطل، و كذلك العلم، لأنه يدرك به الأمور كما تدرك بالنور، فالقرآن بيان الأحكام على تفصيلها و مراتبها.

و قوله (إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ) اخبار منه تعالى أنه بخلقه رؤف رحيم. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٢٣ و الرأفة و الرحمة من النظائر.

و قوله «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» استبطأهم فى الإنفاق فى سبيل الله الذى رغبتهم بالإنفاق فيها. و قوله «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» قد بينا أن جميع ما يملكونه فى الدنيا يرجع الى الله، و يزول ملكهم عنه، فان أنفقوه كان ثواب ذلك باقياً لهم.

و قوله «لا- يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَل...» بين الله تعالى أن الإنفاق قبل الفتح فى سبيل الله إذا انضم اليه الجهاد فى سبيله أكثر ثواباً عند الله، و المراد بالفتح فتح مكة و فى الكلام حذف، لأن تقديره لا يستوى هؤلاء مع الذين أنفقوا بعد الفتح، و الكلام يدل عليه. و إنما امتنع مساواة من أنفق بعده لمن أنفق قبله، لعظم العناية الذى لا يقوم غيره مقامه فيه، فى الصلاح فى الدين و عظم الانتفاع به، كما لا يقوم دعاء غير النبى صلى الله عليه و آله الى الحق مقام دعائه و لا يبلغه أبداً، و ليس فى الآية دلالة على فضل انسان بعينه ممن يدعى له الفضل، لأنه يحتاج أن يثبت ان له الإنفاق قبل الفتح، و ذلك غير ثابت. و يثبت أن له القتال بعده. و لما يثبت ذلك ايضاً فكيف يستدل به على فضله.

فأما الفتح فقال الشعبى: أراد فتح الحديبية. و قال زيد بن اسلم، و قتادة:

أراد به فتح مكة. ثم سوى تعالى بين الكل فى الوعد بالخير و الجنة و الثواب فيها- و إن تفاضلوا فى مقاديره- فقال «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِ» يعنى الجنة و الثواب فيها «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» لا يخفى عليه شئ من ذلك من انفاقكم و قتالكم و غير ذلك فيجازيكم بحسب ذلك،

قوله تعالى: [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٥٢٣

مِنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَأْيَمَانِهِمْ بِشَرَارِكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَ لَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أُوْاكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَ نَبَسَ الْمُصِيرُ (١٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٢٤

خمس آيات كوفي و أربع فيما عداها، عد الكوفيون «مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ» و لم يعده الباقون قرأ ابن كثير «فيضعفه» بالتشديد و ضم الفاء، و به قرأ ابن عامر إلا انه فتح الفاء. و قد مضى تفسيره في البقرة، و قرأ حمزة وحده «للذين آمنوا انظرونا» بقطع الهمزة و كسر الظاء. الباقون بوصلها و ضم الظاء. و قرأ ابو جعفر و ابن عامر و يعقوب و سهل «فاليوم لا تؤخذ» بالتاء لتأنيث الفدية. الباقون - بالياء - لان التأنيث ليس بحقيقي. و قد فصل بين الفعل و الفاعل ب (منكم).

قال الحسن: معنى قوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) هو التطوع في جميع الدين. و قال غيره: معناه من ذا الذي ينفق في سبيل الله إنفاقاً كالقرض التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٢٥

و القرض أخذ الشيء من المال بإذن صاحبه بشرط ضمان رده، و أصله القطع، فهو قطعه عن مالكة باذنه لانفاقه على رد مثله. و العرب تقول: لى عندك قرض صدق و قرض سوء إذا فعل به خيراً او شراً قال الشاعر:

و نجزي سلامان بن مفرح قرضها بما قدمت أيديهم و أزلت «١»

و قوله (فِيضَاعِفَهُ لَهُ) فالمضاعفة الزيادة على المقدار مثله او أمثاله، و قد وعد الله بالحسنة عشر أمثالها، و الإنفاق في سبيل الله حسنة فهو داخل في هذا الوعد و من شدد العين، فلان الله وعد بالحسنة عشر أمثالها. و من ضم الفاء جعله عطفاً على من ذا الذي يقرض فيضاعفه او على تقدير فهو يضاعفه. و من نصب فلأنه جواب الاستفهام.

و قوله (وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) معناه إن له مع مضاعفة ما أنفقه اجراً زائداً كريماً، فالكريم الذي من شأنه ان يعطى الخير العظيم، فلما كان الأجر يعطى النفع العظيم، كان الأجر كريماً، لأنه يوجد شرف النفع بما لا يلحقه ما ليس بأجر.

و قوله (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) ف (يوم) يتعلق بقوله (لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ... يَوْمَ تَرَى) قال قتادة: معناه إنه يسعى نورهم أى الضياء الذى يرونه (بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) و قال الضحاك: نورهم هداهم.

قال (و بأيمانهم) كتبهم. و قيل (و بأيمانهم) معناه و عن أيمانهم. و قيل: و فى أيمانهم. و قوله «بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أى تجرى تحت أشجارها الأنهار، أى يقال لهم: الذى تبشرون به اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار (خَالِدِينَ فِيهَا) أى مؤبدين لا يفنون.

ثم قال (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) فعظم الفوز و الفلاح يتضمن إجلال النعمة

(١) قائله الشنفرى، تفسير الطبرى ٢٧/ ١١٥ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٢٦

و الإكرام مع الحمد بالإحسان على طريق الدوام، فكل ما فعل من أجل الثواب فالنعمه به أجل و الإحسان به أعظم. و قوله (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ) يجوز أن يتعلق (يوم) بقوله (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ... يوم) أى فى يوم، و يجوز ان يكون على تقدير و اذكر يوم يقول المنافقون و المنافقات (للذين آمنوا) ظاهراً و باطناً (انظرونا) فمن قطع الهمزة أراد أخرونا و لا تعجلوا علينا و استأخروا نستضىء بنوركم. و من وصلها أراد ينظرون. و قيل: انظرنى ايضاً بمعنى انتظرنى، قال عمرو ابن أم كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا و انظرنا نخبرك اليقين «١»

و يقال: انظرنى بمعنى أخرنى. و قوله (نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ) فالنور الضياء، و هو ضد الظلمة، و بالنور يستضاء فى البصر و فى الأمور، و فى البصر نور و كذلك فى النار. و معنى (نَقْتَبِسُ) نأخذ قبساً من نوركم، و هو جذوة منه فقالوا لهم (ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) أى ارجعوا الى خلفكم فاطلبوا النور فانه لا نور لكم عندنا، فإذا تأخروا ضرب الله بينهم بسور. و من وصلها أراد انتظرونا.

ثم اخبر تعالى فقال (فَضْرَبَ بَيْنَهُمُ) يعنى بين المؤمنين و بين المنافقين (بسور) و الباء زائدة و هو المضروب بين الجنة و النار (لَهُ بَابٌ

باطنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ) لأن فيه الجنة (وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) يعنى من قبل المنافقين العذاب، لكون جهنم هناك. ثم حكى الله تعالى أنهم (ينادونهم) يعنى المنافقون فيقولون لهم (أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) فى دار الدنيا و مخالطين لكم و معاشرين، فيجيبهم المؤمنون فيقولون (بلى) كنتم معنا (وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ) أى تعرضتم للفتنة و تربصتم بالمؤمنين

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٤٥ و الطبرى ٢٧/ ١١٦

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٢٧

الدوائر (وَازْتَبْتُمْ وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ) أى شككنكم فيما أخبركم به رسولنا و غرکم ما كنتم تمنون حتى طمعتم فى غير مطمع (حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ) فى نصره نبيه و المؤمنين معه و غلبته إياكم (وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ) يعنى الشيطان و سمي بذلك لكثرة ما يغر الناس. و من غر غيره مرة واحدة فهو غار. و قرئ بالضم، و هو كل ما غر من متاع الدنيا- ذكره الزجاج- و الغرور بضم الغين المصدر. ثم يقول لهم الملائكة او المؤمنون (فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ) أى ما تفدون به أنفسكم لا يقبل منكم (و لا) يؤخذ (من الذين كفروا) الفداء (و مأواكم) أى مقركم و موضعكم الذى تأوون اليه «النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ» أى هى اولى بكم «وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ» أى بئس المأوى و الموضع المرجع اليه قال لبيد:

قعدت كلا الفرجين تحسب انه مولى المخافة خلفها و أمامها «١»

أى تحسب أن كليهما اولى بالمخافة.

قوله تعالى: [سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٥٢٧

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْمَوتُوسَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَ الْمُصَدِّقَاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصُّدِّيقُونَ وَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مَضْجَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)

(١) مر فى ١٤٢/ ٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٢٨

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ (وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) بتخفيف الزاى نافع و حفص عن عاصم، لأنه يقع على القليل و الكثير، و يكون النزول مضافاً الى الحق. الباقون بالتشديد بمعنى أن الله هو الذى نزل الحق شيئاً بعد شىء. وقرأ ابن كثير و ابو بكر عن عاصم و ابن زيد (المصدقين و المصدقات) بتخفيف الصاد يذهبون إلى التصديق الذى هو خلاف التكذيب، و معناه إن المؤمنين و المؤمنات. الباقون- بتشديد الصاد- يذهبون أن الأصل المتصدقين، فأدغمت التاء فى الصاد لتقارب مخرجهما و شدد.

و معنى قوله (الم يأن) أ لم يحن (لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) أى تخضع لسمع ذكر الله و يخافون عقابه، و ينبغى ان يكون هذا متوجهاً الى طائفة مخصوصة لم يكن فيهم الخشوع التام حثوا على الرقة و الرحمة. و أما من كان ممن وصفه الله بالخشوع و الرحمة و الرقة فطبقه فوق هؤلاء المؤمنين، و يقال أنى يأنى أنا إذا حان، و منه قوله (غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاءً) «١» أى منتهاه. و الخشوع لين

القلب

(١) سورة ٣٣ الأحزاب آية ٥٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٢٩

للحق بالانقياد له، و مثله الخضوع و ضده قسوة القلب. و الحق ما دعا اليه العقل و هو الذى من عمل به نجا و من عمل بخلافه هلك، و الحق مطلوب كل عاقل فى نظره و إن اخطأ طريقه، و القسوة غلظ القلب بالجفاء عن قبول الحق، قسا قلبه يقسو قسوة، فهو قاس. (وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) من خفف أضاف النزول إلى الحق و من شدد أراد ما نزل الله من الحق (وَلَا يَكُونُوا) أى و ألا تكونوا (كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) من اليهود و النصارى (من قبل) أى من قبلهم فيكون موضعه نصباً. و يحتمل ان يكون مجزوماً على النهى (فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ) يعنى المدة و الوقت، فان أهل الكتاب لما طال عليهم مدة الجزاء على الطاعات (فقسى قلوبهم) حتى عدلوا عن الواجب و عملوا بالباطل. و قيل: معناه طال عليهم الأمد ما بين زمانهم و زمن موسى. و قيل: طال عليهم الأمد ما بين نبيهم و زمن موسى. و قيل: طال أمد الآخرة (فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثُرَ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) خارجون عن طاعة الله تعالى الى معصيته فلا تكونوا مثلهم فيحكم الله فيكم بمثل ما حكم فيهم.

ثم قال (اغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) بالجذب و القحط فكذلك يحيى الكافر بالهدى إلى الايمان بعد موته بالضلال بأن يلطف له ما يؤمن عنده.

ثم قال (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ) يعنى الحجج الواضحات و الدلائل البينات (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أى لكى تعقلوا و ترجعوا إلى طاعته و تعملوا بما يأمركم به.

و قوله (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَدِّقَاتِ) من شدد أراد المتصدقين إلا انه ادغم التاء فى الصاد، و من خفف أراد الذين صدقوا بالحق (وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) أى أنفقوا مالهم فى طاعة الله و سبيل مرضاته. ثم بين ما أعد لهم من الجزاء فقال التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣٠

(يضاعف لهم) أى يجازون بأمثال ذلك. و من شدد العين أراد التكثير، لأن الله تعالى يعطى بالواحد عشراً إلى سبعين إلى سبع مائة. ثم قال (وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) أى لهم جزاء و ثواب مع إكرام الله إياهم و إجلاله لهم. ثم قال (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ) يعنى الذين صدقوا بتوحيد الله و إخلاص العبادة له و أقروا بنبوة رسله (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) الذين صدقوا بالحق. ثم قال مستأنفاً (وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ) قال ابن عباس و مسروق و ابو الضحى و الضحاك: هو منفصل مما قبله مستأنف و المراد بالشهداء الأنبياء عليهم السلام و يجوز ان يكون معطوفاً على ما تقدم و تقديره أولئك هم الصديقون و أولئك هم الشهداء، و يكون لهم أجرهم و نورهم للجماعة من الصديقين و الشهداء، فكانه قال:

كل مؤمن شهيد على ما رواه البراء بن عازب عن النبى صلى الله عليه و آله

و عن عبد الله بن مسعود و مجاهد، فيكون التقدير أولئك هم الصديقون عند ربهم و الشهداء عند ربهم.

ثم قال (لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ) أى لهم ثواب طاعاتهم و نور إيمانهم الذى يهتدون به إلى طريق الجنة. ثم قال (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) بالله و جحدوا توحيده و كذبوا رسله (وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) يعنى حججه و بيناته «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» يعنى إنهم يلزمهم الله الجحيم فيبقون فيها دائمين. ثم زهد المؤمنين فى الدنيا و السكون إلى لذاتها، فقال (اعلموا) معاشر العقلاء و المكلفين «أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» يعنى فى هذه الدنيا «لعب و لهو» لأنه لا بقاء لذلك و لا دوام و إنه يزول عن وشيك كما يزول اللعب و اللهو «و زينة» تترنون بها فى الدنيا «وَ تَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ» يفتخر بعضكم على بعض «وَ تَكَاثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ» أى كل واحد يقول مالى أكثر و أولادى أكثر. ثم شبه ذلك بأن قال مثله فى ذلك «كَمَثَلِ غَيْثٍ» يعنى مطراً «أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ» أى اعجب الزراع ما نبت بذلك الغيث فالكفار الزراع. و قال

الزجاج: و يحتمل ان يكون المراد الكفار التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣١
 بالله لأنهم أشد إعجاباً بالدنيا من غيرهم «ثُمَّ يَهَيِّجُ» أى يبيس فيسمع له لما تدخله الريح صوت الهائج «فَتَرَاهُ مُضْفَرًا» و هو إذا قارب
 اليبس (ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا) أى هشيما بأن يهلكه الله مثل أفعال الكافر بذلك، فإنها و إن كانت على ظاهر الحسن فان عاقبتها الى هلاك
 و دمار مثل الزرع الذى ذكره. ثم قال و له مع ذلك «وَفِي الْآخِرَةِ» (عَذَابٌ شَدِيدٌ) من عذاب النار للعصاة و الكفار «وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ
 رِضْوَانٌ» للمؤمنين المطيعين. ثم قال «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» معناه العمل للحياة الدنيا متاع الغرور و إنها كهذه الأشياء التى
 مثل بها فى الزوال و الفناء، و الغرور- بضم الغين- ما يغر من متاع الدنيا و زينتها.

قوله تعالى: [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٢١ الى ٢٥]..... ص: ٥٣١

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ
 اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ
 (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ
 مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ
 فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣٢

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو «بما آتاكم» مقصور يعنى بما جاءكم. الباقون بالمد يعنى بما أعطاكم و قرأ اهل المدينة و اهل الشام «فان الله الغنى
 الحميد» بلا- فصل لأنهم وجدوا فى مصاحفهم كذلك، و الباقون بإثبات (هو) و كذلك هو فى مصاحفهم فمن اسقط (هو) جعل
 (الغنى) خبر (ان) و (الحميد) نعت و من زاد (هو) احتمل شيئين:
 أحدهما- ان يجعل (هو) عماداً أو صلة زائدة.

و الثانى- أن يجعله ابتداء، و (الغنى) خبره، و الجملة فى موضع خبر (إن) مثل قوله «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» «١» يقول الله تعالى آمراً
 للعقلاء المكلفين و حاثاً لهم على الطاعات «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» و المسابقة طلب العامل التقدم فى عمله قبل عمل غيره
 بالاجتهاد فيه فعلى كل مكلف الاجتهاد فى تقديم طاعة الله على كل عمل كما يجتهد المسابق لغيره و المسابقة الى المغفرة بأن
 يتركوا المعاصى و يفعلوا الطاعات و قوله «وَجَنَّةٍ» معناه سابقوا الى جنة أى الى استحقاق ثواب جنة «عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ»
 فى السعة. و قال الحسن: ان الله تعالى يفنى الجنة و يعيدها على ما وصفه فى طولها و عرضها، فبذلك صح وصفها بأن عرضها
 كعرض السماء و الأرض. و قال غيره إن الله تعالى قال «عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ» الدنيا «وَالْأَرْضِ» و الجنة المخلوقة فى السماء السابعة
 فلا تنافى بين ذلك، و إذا كان العرض بهذه السعة فالطول اكثر منه او مثله.
 و قوله «أَعِدَّتْ» اشتقاقه من العدد و الاعداد، وضع الشئ لما يكون فى

(١) سورة ١٠٨ الكوثر آية ٣

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣٣

المستقبل على ما يقتضيه من عدد الأمر الذى له، و المعنى أن هذه الجنة وضعت و ادخرت للذين آمنوا بالله و رسوله، فيوحدوا الله و
 يصدقوا رسله. ثم قال «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» أى هذا الذى ذكره بأنه معد للمؤمن فضل من الله يؤتيه من يشاء أى يعطيه من
 يشاء «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» فالفضل و الإفضال و التفضل واحد و هو النفع الذى كان للقادر ان يفعله بغيره و له ان لا يفعله.

ثم قال تعالى «ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ» أى ليس يصيب احداً مصيبة «فِي الْأَرْضِ» فى ماله «وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا» وهو مثبت مذكور «فِي كِتَابٍ» يعنى اللوح المحفوظ «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها»، فالضمير راجع الى النفس كأنه قال: من قبل ان نبرأ النفس و يحتمل أن يكون راجعاً الى المصائب من الأمراض و الفقر و الجذب و الغم بالثكل.

ثم قال «إِنَّ ذَلِكَ» يعنى اثبات ذلك على ما ذكره «عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» أى سهل غير عسير. بين تعالى لم فعل ذلك فقال (لِكَيْلَا تَأْسَوْا) أى لا تحزنوا (عَلَى مَا فَاتَكُمْ) من لذات الدنيا و زينتها (وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) منها على وجه البطر و الأشر، فمن قصر أراد بما جاءكم، و من مدّ أراد بما أعطاكم. ثم قال (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ) أى متجبر (فَخُورٍ) على غيره على وجه التكبر عليه، فان من هذه صفته لا يحبه الله. و فرح البطر مذموم. و فرح الاغتباط بنعم الله محمود. كما قال تعالى (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) و الناسى تخفيف الحزن بالمشاركة فى حاله.

ثم بين صفته المختال الفخور، فقال (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ) بما أوجب الله عليهم من الحقوق فى أموالهم (وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ) ايضاً. و قيل: نزلت فى اليهود الذين بخلوا بذكر صفة النبى على ما وجدوه فى كتبهم و أمروا غيرهم بذلك. و البخل و البخل لغتان، و قرئ بهما. و هو منع الواجب.

ثم قال (وَمَنْ يَتَوَلَّ) يعنى و من يعرض عما ذكره الله و خالف (فَإِنَّ اللَّهَ التَّيَّانُ فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣٤ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

و معناه إنه تعالى الغنى عن جميع خلقه محمود فى جميع أفعاله، فمنع هؤلاء حقوق الله لا يضره، و إنما ضرر ذلك عليهم. ثم اقسم تعالى فقال (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ) يعنى الدلائل و الحجج الواضحة (وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ) أى مكتوباً فيه ما يحتاج الخلق اليه كالنوراء و الإنجيل و القرآن (وَالْمِيزَانَ) أى و أنزلنا الميزان و هو ذو الكفتين. و قيل: المراد به العدل (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) يعنى بالعدل فى الأمور (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) إخبار من الله تعالى انه الذى انزل الحديد. و روى ان الله تعالى أنزل مع آدم العلاء- يعنى السندان و المطرقة و الكلوتين - من السماء ، و هذا صحيح و لا بد منه، لان الواحد منا لا يمكنه أن يفعل آلات من حديد و غيرها إلا بآلات قبلها، و ينتهى إلى آلات يتولى الله صنعها تعالى الله علواً كبيراً.

و قوله (فِيهِ يَأْسُ شَدِيدٌ) أى يمتنع به و يحارب به «وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ» أى و فيه منافع للناس كأدواتهم و آلاتهم و جميع ما يتخذ من الحديد من آلات ينتفع بها كالسكين و غيرها (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ) أى فعلت ذلك لما لهم فيه من النفع به، و ليعلم الله من ينصره بنصره موجودة، و من يجاهد مع نبيه جهاداً موجوداً (بالغيب) أى ينصر الله و رسله ظاهراً و باطناً (إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) أى قادر على ما يصح أن يكون مقدوراً له لا يقدر احد على قهره و لا على منعه. و قيل: فى جواب قوله (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ) قولان: أحدهما- إنه محذوف كما حذف فى قوله (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) «١» و تقديره الذين يبخلون فهم يستحقون العذاب و العقوبة.

و قيل: أيضاً جوابه جواب قوله (و من يتول) فعطف بجزءين على جزاء

(١) سورة ١٣ الرعد آية ٣٣

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣٥

واحد، و جعل جزاءيهما واحد، كما تقول: إن تقم و تحسن آتاك إلا انه حذف الجواب

قوله تعالى: [سورة الحديد (٥٧): الآيات ٢٦ الى ٢٩]..... ص: ٥٣٥

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَ قَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

خمس آيات بصرى و أربع فيما عداها، عد البصريون «و آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ» و لم يعدده الباقون.

يقول الله تعالى مقسما إنه أرسل نوحاً نبياً الى قومه، و إبراهيم ايضاً أرسله إلى قومه و ذكر انه تعالى جعل في ذريتهما- يعنى في ذرية نوح و إبراهيم ايضاً بعد ما أرسلهما الى قومهما «النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ» لان الأنبياء كلهم من نسلهما و عليهم أنزل الكتاب. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣٦

ثم أخبر عن حال ذريتهما فقال «فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ» إلى طريق الحق و اتباعه «و كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» أى خارجون عن طاعة الله إلى ذل معصيته. ثم أخبر تعالى إنه قفى على آثار من ذكرهم برسل آخر الى قوم آخرين. و التفقيه جعل الشىء فى أثر الشىء على الاستمرار فيه: و لهذا قيل لمقاطع الشعر قوافى إذا كانت تتبع البيت على أثره مستمرة فى غيره على منهاجه، فكأنه قال: و أنفدنا بعدهم بالرسول رسولا بعد رسولهم «و قَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ» بعدهم «و آتَيْنَاهُ» أى أعطينا عيسى ابن مريم «الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً» و قيل فى معناه قولان:

أحدهما- إنه جعل فى قلوبهم الرأفة و الرحمة بالأمر به و الترغيب فيه. ثم أخبر انه رزق الرأفة و الرحمة. قال ابو زيد: يقال رؤفت بالرجل و رأفت به رأفة- بفتح الهمزة، و سكونها-.

الثانى- إنه خلق فى قلوبهم الرأفة و الرحمة. و إنما مدحهم على ذلك، لأنهم تعرضوا لهما.

و قوله «و رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» يعنى ابتدعوا الرهبانية ابتدعوها و هى الخصلة من العبادة يظهر فيها معنى الرهبة إما فى لبسه أو انفراده عن الجماعة أو غير ذلك من الأمور التى يظهر فيها نسك صاحبها. و معنى الآية ابتدعوا رهبانية لم تكتب عليهم.

ثم قال «مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ» الرهبانية «إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ» فالثانية غير الأولى إلا انه لما اتفق الاسمان فيهما كنى عنهما بما تقدم، و قام إعادة لفظهما مقامهما كما قال حسان:

أمن يهجو رسول الله منكم و يمدحه و ينصره سواء «١»

فالتقدير و من يمدحه. و الابتداع ابتداء أمر لم يجد فيه على مثال، و البدعة

(١) مر فى ١/ ٤١٠ و ٨/ ١٩٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣٧

إحداث أمر على خلاف السنة. و قال قتادة: الرهبانية التى ابتدعوها رفض النساء و اتخاذ الصوامع. و قال قتادة و ابن زيد: تقديره و رهبانية ما كتبناها عليهم إلا- أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله «فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا» و قال قوم: الرهبانية التى ابتدعوها لحاقهم بالبرارى و الجبال-

فى خبر مرفوع عن النبى صلى الله عليه و آله فما رعاها الذين بعدهم حق رعايتها

، و ذلك لتكذيبهم بمحمد صلى الله عليه و آله، و قيل: الرهبانية الانقطاع عن الناس للانفراد بالعبادة.

و قوله «مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ» معناه ما فرضناها عليهم أى تلك الرهبانية البتة. و قال الزجاج: معناه ما كتبناها عليهم البتة ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، فيكون بدلا من (ها) التى يشتمل عليه المعنى- ذكره الزجاج- و قيل: كان عليهم تميمها كما على المبتدئ بصوم

التطوع أن يتمه. وقال الحسن: فرضها الله عليهم بعد ما ابتدعوها، وقوله «فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا» معناه فما حفظوها حق حفظها. ثم قال (فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا) معناه فأعطينا من آمن بالله ورسوله من جملة المذكورين (أَجْرَهُمْ) أى ثوابهم على إيمانهم. ثم قال (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) أى خارجون عن طاعة الله إلى معصيته والكفر به.

وقوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ» معناه يا أيها الذين اعترفوا بتوحيد الله وصدقوا بموسى وعيسى واعترفوا بنبوتهما اتقوا الله و آمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وآله - ذكره ابن عباس - «يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» قال ابن عباس:

معناه يعطكم أجرين أجراً لايمانكم بمحمد صلى الله عليه وآله وأجراً لايمانكم بمن تقدم من الرسل.

و أصل الكفل الحظ - فى قول الفراء - ومنه الكفل الذى يكتفل به الراكب، وهو التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣٨

كساء أو نحوه يحويها على الإبل إذا أراد أن يرتد فى فيه فيحفظه من السقوط، ففيه حظ من التحرز من الوقوع «وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ» قال مجاهد: و يجعل لكم هدى تهتدون به. وقال ابن عباس: النور القرآن، وفيه الادلة على كل حق و بيان لكل خير، و به يستحق الضياء الذى يمشى به يوم القيامة «وَيَغْفِرُ لَكُمْ» أى يستر عليكم ذنوبكم «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أى ستار عليكم ذنوبكم رحيم بكم منعم عليكم وقوله «لِنَلَّا يَعلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» معناه ليعلم اهل الكتاب الذين يتشبهون بالمؤمنين منهم «أَن لا يقدرُونَ» أى انهم لا يقدرُونَ «عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» فى قول ابن عباس. و (ان) هى المخففة من الثقيلة. وقيل: معناه ليعلم اهل الكتاب الذين حسدوا المؤمنين بما وعدوا أنهم لا يقدرُونَ على شىء من فضل الله، فيصرفوا النبوة عن محمد صلى الله عليه وآله إلى من يحبونه و (لا) فى (لثلا) صلة و توكيد، وقيل: إنما تكون (لا) صلة فى كل كلام دخل فى أواخره جحد، و إن لم يكن مصرحاً به نحو «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَتَّبِعَ» (١) «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» (٢) وقوله «وَحَرَامٌ عَلَى قَزَیْهِ أَهْلُكُنَا أَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» (٣).

وقوله: «وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ» معناه ليعلموا أن الفضل بيد الله «يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» أى يعطيه من يحب «مِنْ عِبَادِهِ» ممن يعلم انه يصلح له. ثم قال «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» معناه ذو تفضل على خلقه و احسان على عباده عظيم لا يحصى كثرة و لا يعد.

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١

(٢) سورة ٦ الانعام آية ١٠٩

(٣) سورة ٢١ الأنبياء آية ٩٥

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٣٩

٥٨- سورة المجادلة..... ص: ٥٣٩

إشارة

مدينة بلا خلاف، و هى إثنا و عشرون آية فى الكوفى و البصرى و المدنى الأول و إحدى و عشرون فى المدنى الأخير.

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٥٣٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَمْ يَدْخُلْنَ الْبُيُوتَ وَلَمْ يَكُن لَّهُنَّ الْفُتُورُ (٢) وَالَّذِينَ

يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقِيَّتِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوَعُّطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصَّةً يَوْمَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَشْتَطِعْ فَأَطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَلْمِزَ الْكُفَّيرِينَ عَذَابُ أَلِيمٍ (٤)

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٤٠

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ المفضل عن عاصم «ما هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ» على الرفع على لغة بني تميم.

الباقيون بنصب «أمهاتهم» على لغة أهل الحجاز، و هي لغة القرآن، كقوله «ما هذا بَشَرًا» (١) وقرأ عاصم «يُظَاهِرُونَ» بضم الياء بألف. وقرأ ابن كثير و نافع و ابو عمرو «يظهرون» بغير الف مشددة الظاء و الهاء. وقرأ ابن عامر و حمزة و الكسائي «يظاهرون» بتشديد الظاء و الف، وفتح الياء. و قال ابو علي النحوي: ظاهر من امرأته و ظهر مثل ضاعف و ضعف. و تدخل التاء على كل واحد منهما، فيصير تظاهر و تظهر، و يدخل حرف المضارعة، فيصير تتظاهر، و يتظهر. ثم يدغم التاء في الظاء لمقاربتهما، فيصير يظاهرون و يظهرون - بفتح الياء - التي هي للمضارعة، لأنها للمطاوعة، كما تفتحها في (يتدحرج) الذي هو مطاوع (دحرجته، فتدحرج) و اختار عاصم أن المظاهرة من المضارعة، لان المفاعلة لا يكون إلا من نفسين.

و الظهار يكون بين الرجل و امرأته. و من قرأ (يظاهرون) فأصله يتظاهرون فأدغم التاء في الظاء.

و الظهار قول الرجل لامرأته: انت علي كظهر أمي، و كان أهل الجاهلية إذا قال الرجل منهم هذا لامرأته بانت منه و طلقت. و في الشرع لا - تبين المرأة إلا - انه لا - يجوز له وطؤها إلا بعد ان يكفر. و عندنا ان شروط الظهار هي شروط الطلاق سواء من كون المرأة طاهرًا طهرًا لم يقربها فيه بجماع، و يحضره شاهدين و يقصد التحريم فان اختل شيء من ذلك لم يقع به ظهار. و يقال فيه ظاهر فلان من امرأته ظهاراً و مظاهرة و إظهاراً، فلان ظاهر و تظاهر تظاهراً إلا انه ادغم و اظهر إظهاراً.

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٣١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٤١

و أصله تظهر تظهرًا إلا انه أدغمت التاء في الظاء.

وقيل: إن هذه الآية نزلت في خولة بنت ثعلبة و زوجها أوس ابن الصامت - في قول قتادة - و كان مجادلته إياه مراجعتها في أمر زوجها. و قد كان ظاهر منها، و هي تقول: كبرت سني و دق عظمي، و ان اوساً تزوجني و انا شابة، فلما علت سني يريد أن يطلقني. و رسول الله صلى الله عليه و آله يقول بنت منه

- على ما رواه ابو العالية - و في رواية غيره انه قال لها: ليس عندي في هذا شيء، فنزلت الآية.

و قال ابن عباس: نزلت الآية في أوس بن الصامت. و كانت تحته بنت عم له، فقال لها: أنت علي كظهر أمي، فهو أول من ظاهر في الإسلام. و قيل كان يقال للمرأة خولة بنت خويلد. و كان الرجل في الجاهلية إذا قال لامرأته: انت علي كظهر أمي حرمت عليه، فأنزل الله تعالى في قصة الظهار آيات. و لا خلاف أن الحكم عام في جميع من يظاهر، و إن نزلت الآية على سبب خاص.

فقال الله تعالى لنبية «قَدْ سَجَعَ اللَّهُ قَوْلَ النَّبِيِّ تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا» فالجدال و المجادلة هي المخاصمة. و قد يقال: للمراجعة و المقابلة للمعنى بما يخالفه مجادلة. و اصل الجدال القتل. و من قابل المعنى بخلافه طلباً للفائدة فليس بمجادل. فمجادلة المرأة لرسول الله كان مراجعتها إياه في أمر زوجها، و ذكرها أن كبرت سني و دق عظمي، و

النبي صلى الله عليه و آله يقول بنت منه

- على ما رواه ابو العالية- لأنه لم يكن نزل عليه في ذلك وحى ولا حكم.

وقوله «وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ» أى تظهر ما بها من المكروه، تقول: اللهم إنك تعلم حالى فارحمنى، فالاشتكاء إظهار ما بالإنسان من المكروه. و الشكاية إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه.

وقوله «وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا» أى مراجعة بعضكما لبعض. و التحاوُر التراجع التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٤٢
و هو المحاوره، تقول: تحاورا تحاوراً و حاور محاوره أى راجعه فى الكلام، قال عترة:

لو كان يدري ما المحاوره اشتكى و لكان لو علم الكلام مكلمى

و «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» أى على صفه يصح معها ان يسمع المسموعات إذا وجدت، و يبصر المبصرات إذا وجدت.

ثم قال «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ» أى الذين يقولون لنسائهم:

أنت على كظهر أمى، و معناه إن ظهر ك على حرام كظهر أمى، فقال الله تعالى «مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ» أى ليست أزواجهم أمهاتهم على الحقيقة «إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ» أى و ليست أمهاتهم فى الحقيقة «إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ» من الأم و جداته. ثم اخبر «إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ» أى ان القائل لهذا يقول قولاً «مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ»، قبيحاً «وَزُورًا» أى كذباً، لأنه إذا جعل ظهرها كظهر أمه و ليست كذلك كان كاذباً فى قوله.

ثم قال تعالى «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ» أى رحيم بهم منعم عليهم متجاوز عن ذنبهم. و فى ذلك دلالة على ان الله رحمها و غيرها من النساء لرغبتها فى زوجها بالتوسعة من جهة الكفارة التى تحل بها.

ثم بين تعالى ما يلزمه من الحكم، فقال «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ» يعنى الذين يقولون هذا القول الذى حكيناه «ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» و اختلفوا فى معنى العود، فقال قتادة العود هو العزم على وطئها. و قال قوم: العود الإمساك عزم او لم يعزم و قال الشافعى: هو أن يمسكها بالعقد، و لا يتبع الظهار بطلاق.

و حكى الطبرى عن قوم انهم قالوا: فيه تقديم و تأخير و تقديره: و الذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبه من قبل ان يتماسا فمن لم يجد فصيام شهرين فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ثم يعودون لما قالوا. و قال قوم: معناه ثم يعودون لنقض التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٤٣

ما قالوا و ارتفاع حكمه. و قال قوم: لا تجب عليه الكفارة حتى يعاود القول ثانية.

و هو خلاف اكثر اهل العلم.

و الذى هو مذهبنا أن العود المراد به إرادة الوطء او نقض القول الذى قاله، فانه لا يجوز له الوطء إلا بعد الكفارة و لا يبطل حكم القول الأول إلا بعد ان يكفر.

و قال الفراء: يحتمل ان يكون المراد ثم يعودون إلى ما قالوا، و فيما قالوا، و فى نقض ما قالوا، أى يرجعون عما قالوا، و يجوز فى العربية أن تقول: إن عاد لما فعل، تريد ان فعله مرة أخرى، و يجوز إن عاد لما فعل أى نقض ما فعل، كما تقول:

حلف ان يضربك بمعنى حلف ألا يضربك، و حلف ليضربك.

و قوله «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا» بيان لكيفية الكفارة، فان أول ما يلزمه من الكفارة عتق رقبه فالتحرير هو ان يجعل الرقبه المملوكه حرة بالعتق بأن يقول المالك انه حر. و الرقبه ينبغى ان تكون مؤمنه سواء كانت ذكراً او أنثى صغيرة او كبيرة إذا كانت صحيحة الأعضاء. فان الإجماع واقع على انه يقع الاجزاء بها، و قال الحسن و كثير من الفقهاء: إن كانت كافرة أجزأت. و فيه خلاف و تفاصيل. ذكرناه فى كتب الفقه. و تحرير الرقبه واجب قبل المجامعة لظاهر قوله «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا» أى من قبل ان يجامعها فیتماسا. و هو قول ابن عباس، فكان الحسن لا يرى بأساً ان يغشى المظاهر دون الفرج. و فى رواية اخرى عنه أنه يكره للمظاهر أن يقبل. و الذى يقتضيه الظاهر ألا يقربها بجماع على حال و لا بمماسه شهوة و قوله «ذَلِكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ» ان تظاهروا. ثم قال «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» أى عالم بما تفعلونه من خير و شر، فيجازيكم بحسبه.

ثم قال «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ» يعنى الرقبه و عجز عنها «فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ التَّبْيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، ج ٩، ص: ٥٤٤
قَبْلَ أَنْ يَتِمَّاسًا»

و التابع عند أكثر العلماء ان يوالى بين أيام الشهرين الهلالين او يصوم ستين يوماً. و عندنا انه إذا صام شهراً و من الآخر و لو يوماً، فقد تابع، فان فرق فيما بعد جاز. و عند قوم: ان يصوم شهراً و نصف شهر لا يفطر فيما بينهما فان أفطر لا لعذر استأنف. و ان أفطر لعذر من مرض اختلفوا، فمنهم من قال يستأنف من عذر و غير عذر. و به قال إبراهيم النخعي و رواه جابر عن أبي جعفر عليه السلام

و قال قوم: يبنى، و به قال سعيد بن المسيب و الحسن و عطاء و الشعبي. و اجمعوا على ان المرأة إذا أفطرت للحيض في الشهرين المتتابعين في كفارة قتل الخطأ او فطر يوم انها تبنى فقاموا عليه الظهار. و روى أصحابنا انه إذا صام شهراً و من الثاني بعضه و لو يوماً ثم أفطر لغير عذر، فقد اخطأ إلا انه يبنى على ما قدمناه. و إن أفطر قبل ذلك استأنف. و متى بدأ بالصوم و صام بعضه ثم وجد العتق لا يلزمه العتق و إن رجع كان أفضل. و قال قوم: يلزمه الرجوع الى العتق.

و متى جامع في ليالى الصوم و جب عليه الاستئناف و بطل حكم التابع، لأنه خلاف الظاهر. و متى جامع قبل الكفارة لزمته كفارة ثانية عند أصحابنا، و كلما وطأ لزمته كفارة بعدد الوطء و قوله «فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ» يعنى من لم يقدر على الصوم «فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا» يعنى - عندنا - لكل مسكين نصف صاع، فان لم يقدر أعطاه مداً. و

روى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ انه اعطى المظاهر نصف وسق ثلاثين صاعاً. و قال أطعم ستين مسكيناً و راجعها و ذلك انه كان فقيراً عاجزاً عن جميع الكفارات. و قال الحسن: أعانه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ بخمسة عشر صاعاً. و العدد مراعى، فان لم يجد العدد كرر على الموجودين تمام الستين.

و إن جامعها قبل ان يتم الإطعام، فظاهر المذهب يقتضى انه يلزمه كفارة التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٤٥
اخرى، لأنه وطأ قبل الكفارة. و قال قوم: لا يلزمه. و قال آخرون: يستأنف الكفارة و قوله «ذَلِكَ لِيُثَبِّتُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» معناه إنا شرعنا لكم ما ذكرناه في حكم الظهار لما علمناه من مصلحتكم لتؤمنوا بالله و رسوله، فتصدقوهما و تقروا بتوحيد الله، و نبوة نبيه. ثم قال «وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» يعنى ما ذكرناه من حكم الظهار.

ثم قال «وَ لِلْكَافِرِينَ» أى للجاحدين لصحة ما قلناه «عَذَابٌ أَلِيمٌ» و متى نوى بلفظ الظهار الطلاق لم يقع به طلاق. و فيه خلاف بين الفقهاء، و الإطعام لا يجوز إلا للمسلمين دون اهل الذمة. و فيه خلاف. و مسائل الظهار و فروعها ذكرناها في كتب الفقه.

ثم قال «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» و المحادة المخالفة في الحدود أى من خالف الله و رسوله فيما ذكره من الحدود «كُتِبُوا» أى أخذوا - فى قول قتادة - و قال غيره: أذلوا. و قال الفراء: معناه اغيظوا و أحزنوا يوم الخندق «كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يعنى من قاتل الأنبياء من قبلهم.

ثم قال تعالى «وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» أى حجج واضحة من القرآن و ما فيه من الادلة. ثم قال «وَ لِلْكَافِرِينَ» أى للجاحدين لما أنزلناه من القرآن و الآيات «عَذَابٌ مُهِينٌ» أى يهينهم و يخزيهم.

قوله تعالى: [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٥٤٥

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَنَاجَوْنَ بِالْأَيْمِ وَ الْعِدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ

جَهَنَّمَ يَصْطَلُونَهَا فَيَنْسَسُ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٤٦

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة وحده «و يتنجون» بغير الف. الباقون «يتناجون» بألف.

و قرأ ابو جعفر (ما يكون) بالياء. الباقون بالتاء، لان تأنيث نجوى ليس بحقيقى لما قال الله تعالى ان الكافرين لحدود الله لهم عذاب مهين، بين متى يكون ذلك، فقال (يَوْمَ يَنْعُتُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا) أى يحشرهم الى ارض المحشر و يعيدهم احياء (فَيَنْبِئُهُمْ) أى يخبرهم و يعلمهم (بِمَا عَمِلُوا) فى دار الدنيا من المعاصى و ارتكاب القبائح، ثم قال (أَحْصَاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ) أى أحصاه الله عليهم و أثبتة فى كتاب أعمالهم التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٤٧

و نسوه هم (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) و معناه انه يعلم الأشياء كلها من جميع وجوها لا يخفى عليه شىء من ذلك و إن كان كثيراً من الأشياء لا يصح مشاهدتها و لا إدراكها، و منه قوله (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) «١» أى علم ذلك.

ثم بين فقال (أَلَمْ تَرَ) و معناه ألم تعلم، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و المراد به جميع المكلفين (أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ) من الموجودات لا يخفى عليه شىء منها، لأنه عالم لنفسه يجب ان يكون عالماً بما يصح أن يكون معلوماً. و قيل التقدير ألم تر ان الله يعلم ما فى السموات و ما فى الأرض مما ترى من تدبيرهما من مسير الشمس و القمر و مجىء الحر و البرد و الزرع و الثمار و سائر صنوف الأشجار على ما تقتضى الحكمة عالماً دبر ذلك و جعل كل شىء منه فى وقته و لما يصلح له، و ذلك يقتضى انه عالم بكل نجوى، لأنه عالم لنفسه لا بحدوث علم. و إذا ثبت انه عالم لنفسه وجب ان يكون عالماً بكل معلوم. و قوله (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) و المعنى انه عالم بأحوالهم و جميع متصرفاتهم فرادى و عند الاجتماع، لا يخفى عليه شىء منها، فكأنما هو معهم مشاهد لهم. و على هذا يقال: إن الله تعالى مع الإنسان حيث ما كان، لأنه عالم لا يخفى عليه شىء من أمره حتى انه ظاهر له أتم الظهور لمن شاهده ممن هو معه فى المكان، و حسن هذا لما فيه من البيان، فأما ان يكون معهم على طريق المجاورة فمحال، لأن ذلك من صفات الأجسام، و الله تعالى ليس بجسم. و يقولون: فلان رابع أربعة إذا كان احد أربعة و رابع ثلاثة إذا جعل ثلاثة أربعة بكونه معهم. و يجوز على هذا ان يقال: رابع ثلاثة و لا يجوز رابع أربعة، لأنه ليس فيه معنى

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٨

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٤٨

الفعل. و يجوز فى (ثلاثة) الجر باضافة النجوى اليها، و يجوز بأنها صفة النجوى.

و يجوز النصب بأنها خبر (يكون).

و قوله (ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) معناه يعلمهم بما عملوه من المعاصى فى الدنيا و الاعمال، و يخبرهم بها، لأن الله بكل شىء عليم، لا يخفى عليه خافية.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه و آله و المراد به جميع الأمة (أَلَمْ تَرَ) بمعنى ألم تعلم (إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى) قال مجاهد: كان النبي صلى الله عليه و آله نهى اليهود عن النجوى بينهم لأنهم كانوا لا- يتناجون إلا- بما يسوء المؤمنين. و قال الفراء: نزلت فى المنافقين و اليهود، و نهوا أن يتناجوا إذا اجتمعوا مع المسلمين فى موضع واحد. و النجوى هى الاسرار، و النجوة الارتفاع من الأرض، و هو

الأصل، و منه النجا الارتفاع فى السير، و النجاة الارتفاع من البلاء.

و قوله (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ) معناه يعودون فيتناجون و يخالفون نهى النبى صلى الله عليه و آله (وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ) و التناجى و المناجاة تكون بين اثنين فصاعداً، و يقال: انتجوا بمعنى تناجوا، كما يقال اختصموا و تخاصموا و كذلك انتجوا و تناجوا بمعنى.

و حجة حمزة

قول النبى صلى الله عليه و آله فى على عليه السلام (ما انا انتجيتة، و لكن الله انتجاه)

و حجة الباقيين قوله (إذا تناجيتم) و كلاهما حسان.

قال قتادة: كان المنافقون يتناجون بينهم فيغيظ ذلك المؤمنين. و قال ابن زيد: كانوا يوهمون انه قد حدثت بليّة على المسلمين من حرب او نحوه، فأخبر الله عنهم انهم كانوا يتناجون بالإثم يعنى بالمعاصى. و العدوان التعدى الى غير الواجب و بمعصيت الرسول أى ما يعصون به الرسول النبى صلى الله عليه و آله.

و قوله (وَ إِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ) قال قتادة و مجاهد- و هو التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٤٩

المروى عن عائشة- انه كانت تحيتهم السام عليكم يا با القاسم. و قال ابن عباس:

كان المنافقون يقولون ذلك. و

قيل: كان النبى صلى الله عليه و آله يرده على من قال ذلك، فيقول:

و عليك

، و قال ابن زيد: السام الموت. و قال الحسن: كانت اليهود تقول: السام عليكم أى انكم ستسأمون دينكم هذا أى تملونه فتدعونوه. و من هذا سُمّت الأمر اسأمة سأمًا و سأمًا. و من قال: السام الموت فهو سام الحياة بذهابها.

و قوله (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ) قال كانوا يقولون:

إن كان نبياً صادقاً هلا يعذبنا الله بما نقول من النجوى و غيره. فقال الله تعالى لهم (حَسْبُيُهُمْ جَهَنَّمُ) أى كافيهم جهنم (يصلونها) يوم القيامة و يحترقون فيها (فَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى بئس المرجع و المآل لما فيها من أنواع العقاب.

ثم امر المؤمنين فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ) أنتم فيما بينكم أى تشاورتم (فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ) يعنى بالمعاصى و لا- ب (العدوان) و لا ب (معصية الرسول) و مخالفته (وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَ التَّقْوَى) أى بافعال الخير و الخوف من عذاب الله. ثم قال (وَ اتَّقُوا اللَّهَ) باجتناب معاصيه (الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) يعنى يوم القيامة.

ثم قال (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ) يعنى نجوى المنافقين و الكفار بما يسوء المؤمنين و يغمهم (من الشيطان) أى بدعاء الشيطان و اغوائه يفعل ذلك (لِيُخْزِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) معناه إلا- بعلم الله و تمكنه إياهم لان تكليفهم إيمانهم بذلك، و قيل معناه إلا- بفعل الله الغم و الحزن فى قلوبهم لان الشيطان لا يقدر على فعل ذلك. ثم قال تعالى (وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أى يجب على المؤمنين ان يتوكلوا فى جميع أمورهم عليه تعالى دون غيره.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٥٠

قوله تعالى: [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١١ الى ١٥] ص: ٥٥٠

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَظْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَوْ شَفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ

عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَغْلُمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ عاصم وحده «تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ» على الجمع لاختلافها، الباقون في «المجلس» على التوحيد، لأنهم ذهبوا مذهب الجنس، لأنه مصدر يدل على القليل والكثير. لأنهم أرادوا مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فعلى هذا الوجه الافراد. ومن جمع أراد كل جالس مجلساً أى موضع جلوس، وقرأ «انْشُرُوا» بضم الشين نافع وابن عامر وعاصم إلا حماداً ويحيى عن أبي بكر. الباقون بكسر الشين وهما لغتان مثل التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٥١

(يعرشون و يعرشون، و يعكفون و يعكفون).

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين و آمراً لهم بأنه إذا قيل لهم تفسحوا في المجلس بمعنى اتسعوا فيها، يقال: تفسح تفسحاً و له في هذا الأمر فسحة أى متسع. و التفسح الاتساع في المكان، و فسح له في المجلس يفسح فسحاً. و مكان فسيح و فسح. و التفسيح و التوسع واحد. قال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ففيل لهم تفسحوا و قال ابن عباس: أراد به مجلس القتال «فَافْسَحُوا» أى وسعوا «يَفْسَحُ اللَّهُ لَكُمْ» أى يوسع عليكم منازلكم في الجنة «وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَانْشُرُوا» أى إذا قيل لكم ارتفعوا في المجلس فارفعوا، و النشور الارتفاع عن الشيء بالذهاب عنه. و منه نشوز المرأة عن زوجها، يقال: نشز ينشز نشوزاً و نشزاً. قال قتادة و مجاهد و الضحاك:

معناه إذا قيل قوموا الى صلاة او قتال عدو أو أمر بمعروف أى تفرقوا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فقوموا.

وقوله «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» معناه متى ما فعلتم ما أمرتم به رفع الله الذين آمنوا منكم، و رفع الذين أوتوا العلم درجات، لأنهم أحق بالرفعة. و في ذلك دلالة على ان فعل العالم اكثر ثواباً من فعل من ليس بعالم «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ» من التفسح و النشوز و غير ذلك (خير) أى عالم.

ثم خاطبهم ايضاً فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ) أى شاورتموه (فَقَدْ مُوَايَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً) قال الزجاج: كان سبب نزول الآية ان الأغنياء كانوا يستخلون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فيشاورونه بما يريدون، و الفقراء لا يتمكنون من النبي تمكنهم، ففرض الله عليهم الصدقة قبل النجوى ليمتنعوا من ذلك، و تعبدهم بأن لا يناجى احد رسول الله إلا بعد ان يتصدق بشيء ما قل او كثر، فلم يفعل احد ذلك على ما روى،

فاستقرض أمير المؤمنين على عليه السلام ديناراً و تصدق به، ثم ناجى التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٥٢

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فنسخ الله تعالى ذلك الحكم بالآية التي بعدها.

وقوله (ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ) أى ذلك التصديق بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خير لكم و اطهر و معناه إن فعل ذلك ادعى الى مجانبة المعاصي من تركه. ثم قال قل لهم (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا) يعنى ما تتصدقون به (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يستر عليكم ترك ذلك و يرحمكم و ينعم عليكم.

ثم قال ناسخاً لهذا الحكم (أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُمْ صِدَقَاتٍ) و ظاهر هذا الكلام توبيخ على ترك الصدقة، و انهم تركوا ذلك اشفاقاً و خوفاً على نقصان المال، فقال (فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا) ذلك (وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) فى تقصيركم فى فعل الصدقة (فَأَقِمْوا الصَّلَاةَ التى أوجبها الله عليكم) و أديموا فعلها و أدوا شروطها (وَآتُوا الزَّكَاةَ) التى افترضها عليكم (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فيما أمركم به و نهاكم عنه (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى عالم بما تعملونه من طاعة لله او معصية و حسن و قبيح، فيجازيكم بحسبه.

ثم قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (أَلَمْ تَرَ) يا محمد (إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) و المراد به قوم من المنافقين، كانوا يوالون اليهود و يغشون اليهم أسرارهم و يجتمعون معهم على ذكر مساءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ و المؤمنين - و هو قول قتادة و ابن

زيد- ثم قال (ما هُمْ مِنْكُمْ) أى ليسوا مؤمنين (وَلَا مِنْهُمْ) أى ولا هم يهود، فيكونوا منهم بل هم قوم منافقون. ثم قال (وَيَخْلِفُونَ) يعنى هؤلاء المنافقون (عَلَى الْكَذِبِ) يعنى يقولون إنا معكم ونحن نتوب، وليسوا كذلك (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) انه كذلك. ثم بين تعالى ما لهم من العقاب فقال (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى لأنهم كانوا يعملون المعاصي و القبائح.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٥٣

قوله تعالى: [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٥٥٣

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصِيدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يَحِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذِلِينَ (٢٠)

خمس آيات عراقى و شامى، و المدنى الاول. و اربع آيات و بعض آية مكى و المدنى الآخر، عد العراقى و الشامى و المدنى الاول «فِي الْآذِلِينَ» و لم يعده الباقون.

لما ذكر الله تعالى المنافقين بأنهم تولوا قوماً من اليهود الذين غضب الله عليهم و ذكر ما أعده لهم من العقاب، و ذكر انهم يحلفون على الكذب مع علمهم بأنهم كاذبون قال انهم (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ) التى يحلفون بها (جُنَّةً) أى ستره و ترساً يدفعون بها عن نفوسهم التهمة و الظنة إذا ظهرت منهم الريبة. و الاتخاذ جعل الشئ عدة، كما يقال: اتخذ سلاحاً، و اتخذ كراعاً و رجلاً و اتخذ داراً لنفسه إذا اعدهما لنفسه، فهؤلاء جعلوا الأيمان عدة ليدفعوا بها عن نفوسهم الظنة. و الجنة السترة و أصله التستر و منه الجنة لاستتارهم عن

العيون، و الجنة لاستتارها بالشجر، و المجن الترس لستره صاحبه عن ان يناله السلاح. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٥٤
و قوله (فَصِيدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أى صدوا نفوسهم و غيرهم عن سبيل الله التى هى الحق و الهدى. و قيل: فصدوا عن سبيل الله من قبلهم بكفرهم. ثم بين تعالى ما لهم على ذلك فقال (فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) يهينهم و يذلهم و الإهانة الاحتقار يقال: اهانه يهينه إهانة، و مثله أذله يذله إذلالاً- و أخزاه يخزيه إخزاء، و نقيضه الإكرام، ثم قال (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ) التى جمعوها (وَلَا- أَوْلَادُهُمْ) الذين خلفوهم (مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) يدفع عقابه عنهم، أغنى يغنى عنى إذا دفع عنه دفعاً يستغنى عنه. ثم قال (أُولَئِكَ) مع هذا كله (أَصْحَابُ النَّارِ) أى الملازمون لها و (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) مؤبدون لا يخرجون عنها (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا) و (يَوْمَ) يتعلق ب (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا... يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا) يعنى يوم القيامة (فَيَحْلِفُونَ لَهُ) أى يقسمون لله (كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ) فى الدنيا بأنهم كانوا مؤمنين فى الدنيا فى اعتقادهم و ظنهم، لأنهم كانوا يعتقدون أن ما هم عليه هو الحق (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ) معناه يظنون أنهم على شئ فى هذه الأيمان. فقال الله تعالى (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) فيما يذكرونه من الأيمان و المعنى إنهم لم يكونوا مؤمنين على الحقيقة، و إنما كان اعتقادهم اعتقاد جهل. و قيل: معناه انهم (هُمْ الْكَاذِبُونَ) فى الدنيا. و قيل: معناه ألا إنهم هم الخائبون، يقال كذب ظنه إذا خاب أمله. و قال قوم (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ) يعنى فى دار الدنيا، و لا يحسبون ذلك فى الآخرة لأنهم يعلمون الحق اضطراراً، و هم ملجئون الى الافعال الحسنة و ترك القبيح.

قال الرماني: و هذا غلط، لأنه مخالف لظاهر القرآن بغير دليل، قال و الصواب ما قال الحسن فى أن الآخرة مواطن يمكنون فى بعضها من فعل القبيح، و لا يمكنون فى بعض، و يكون كذبهم ككذب الصبى المدهش الذى يلحقهم. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص:

و قال قوم: ان قوله (أَلَا- إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) اخبار عن حالهم فى الدنيا بأنهم كاذبون فى الدنيا فى قولهم: انا مؤمنون، و هم منافقون،

لان الكذب لا يجوز ان يقع منهم في الآخرة على وجه.

ثم قال تعالى «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أى يخالفونه فى حدوده.

وقال مجاهد: معناه يشاقون الله ورسوله بأن يحصلوا فى حد آخر عادلين عن حدود الله.

وقوله «أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ» اخبار منه تعالى ان الذين يحادونه و يحادون رسوله أولئك فى الاحقرين المهانين عند الله. وقال الزجاج: معناه فى المغلوبين.

وقوله «اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ» معناه استولى عليهم، فالاستحواذ الاستيلاء على الشيء بالاقتطاع. وأصله من حاذه حوذاً مثل جازه يجوز جوزاً «فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ» حتى لا- يذكرون الله، ولا- يخافونه ثم قال «أُولَئِكَ» يعنى الذين «اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ» جنود الشيطان و حزبه. ثم قال «أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» لأنهم يخسرون الجنة و يحصل لهم بدلها النار و ذلك هو الخسران المبين

قوله تعالى: [سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٢١ الى ٢٢]..... ص: ٥٥٥

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٥٦

آيتان و بعض آية فى المكى و المدنى الأخير، و آيتان فيما عداه، عد المكى و المدنى الأخير إلى «قَوِيٌّ عَزِيزٌ» تمام التى قبلها.

قرأ الأعشى (عشيراتهم) على الجمع، الباقون (عشيرتهم) على الافراد.

قوله (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) معناه إنه كتب فى اللوح المحفوظ و ما كتبه فلا بد من ان يكون. و قال الحسن: ما أمر الله نبياً قط بحرب الأغلب إما فى الحال او فيما بعد. و يحتمل ان يكون المراد (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) بالحجج و البراهين، و ان جاز ان يغلب فى الحرب فى بعض الأوقات. و الغلبة قهر المنازع حتى يصير فى حكم الذليل للقاهر، و قد يقهر ما ليس بمنازع، كقولهم قهر العمل حتى فرغ منه. و الله تعالى غالب بمعنى انه قاهر لمن نازع أوليائه. و قوله (إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) اخبار منه تعالى انه قادر لا يمكن احداً من قهره و لا غلبته لان مقدوراته لا نهاية لها و من كان كذلك لا يمكن قهره. و العزيز المنيع بكثرة مقدوراته.

و قوله (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) معناه ان المؤمن لا يكون مؤمناً كاملاً الايمان و الثواب يواد من خالف حدود الله و يشاقه و يشاق رسوله و معنى يواده يواليه، و ان كان ذلك الذى يواده أباه او ابنه او أخاه او عشيرته، فمن خالف ذلك و والى من ذكرناه كان فاسقاً، لا يكون كافراً، و كل كافر فهو محاد لله و لرسوله. و الموائد الموالاة بالنصرة و المحبة، فهذا لا يجوز إلا للمؤمن بالله دون الكافر، و الفاسق المرتكب للكبائر، لأنه يجب البراءة منهما، و هى منافية للموالاة.

و الآية نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة حين كتب إلى اهل مكة يشعرهم بأن النبى صلى الله عليه و آله عزم على ان يأتى مكة بغته يفتحها. و كان النبى صلى الله عليه و آله أخفى ذلك، فلما عوتب على ذلك، قال أهلى بمكة أحببت ان يحوطوهم بيد تكون لى عندهم، فانزل الله تعالى فيه الآية.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٥٧

ثم قال تعالى «أُولَئِكَ» يعنى الذين يؤمنون بالله و اليوم الآخر «كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ» و معناه انه جعله بحكمه، فكأنه مكتوب فيه. و قيل: معناه إنه جعل فى قلوبهم سمة تدل من علمها أنهم من اهل الايمان. و قال الحسن: معناه انه ثبت الايمان فى قلوبهم بما فعل بهم من اللطاف «وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» أى قواهم بنور البرهان. الحجج حتى اهتدوا للحق و عملوا به، و قيل: أيدهم بجبرائيل من أمر الله فى

كثير من المواطن ينصرهم و يدفع عنهم «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ» أى بساتين «تَعَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أى من تحت أشجارها الأنهار. و قيل: ان أنهارها أخاديد فى الأرض، فلذلك قال «مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». و الأنهار جمع نهر «خَالِدِينَ فِيهَا» أى مؤبدين لا يفنون و لا يخرجون منها، و هو نصب على الحال «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» بإخلاص الطاعة منهم «وَرَضُوا عَنْهُ» بثواب الجنة. ثم قال «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ» يعنى جنده و أوليائه، ثم قال «ألا» و هى كلمة تنبيه «إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ» يعنى جنوده و أوليائه «هُمْ الْمُفْلِحُونَ» و المفلح هو المنجح بإدراك ما طلب. و قال الزجاج:

حزب الله هم الذين اصطفاهم الله. و قرأ المفضل عن عاصم «كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ» على ما لم يسم فاعله. الباقر بفتح الكاف بمعنى إن الله كتب ذلك عليهم.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٥٨

٥٩-سورة الحشر..... ص: ٥٥٨

إشارة

مدينة بلا خلاف. و هى أربع و عشرون آية بلا خلاف.

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٥٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)
مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)

خمس آيات. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٥٩

قرأ أبو عمرو وحده «يخربون بيوتهم» بالتشديد قال الفراء: و هى قراءة أبى عبد الرحمن السلمى و الحسن. الباقر بالتخفيف. قال قوم: معناهما واحد مثل أكرمه و كرمته. و قال بعضهم: معنى التخفيف انهم ينتقلون عنها فيعطلون، و بالتشديد يهدمونها.

قد مضى تفسير «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فلا معنى لإعادته. و قوله «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) مِنْ دِيَارِهِمْ» معناه ان الذى وصفه بأنه عزيز حكيم هو الله الذى أخرج الكفار من اليهود من ديارهم «لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» قال قتادة و مجاهد: هم بنو النضير،

لما نزل النبو صلى الله عليه و آله بالمدينة عاقده بنو النضير على ان لا يكونوا عليه و لا له. ثم نقضوا العهد و أرادوا أن يطرحوه حجراً حين مضى النبو صلى الله عليه و آله اليهم يستعين بهم فى تحمل بعض الدينين اللتين لزمتهما صاحب النبو صلى الله عليه و آله حين انقلب من بئر معونة فقتل نفسين، كان النبو صلى الله عليه و آله أجريهما، و مالوا للمشركين على النبو صلى الله عليه و آله فأجلاهم الله عن ديارهم على ان لهم الذرية و ما حملت إبلهم و الباقر لرسول الله فأجلاهم النبو صلى الله عليه و آله على هذا عن ديارهم و منازلهم، فمنهم من خرج إلى خير، و منهم من خرج إلى الشام.

و قوله تعالى «لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» قال قوم: أول الحشر هو حشر اليهود من بنى النضير إلى ارض الشام، و ثانى الحشر حشر الناس يوم القيامة

إلى أرض الشام أيضاً. وقال البلخي: يريد أول الجلاء، لأن بني النضير أول من أجلى عن أرض العرب. والحشر جمع الناس من كل ناحية، ومنه الحاشر الذي يجمع الناس إلى ديوان الخراج، والجمع حشار «ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا» أى لم تظنوا خروجهم منها «وَوَظَّنُوا» هم «أَنَّهُمْ مَانِعُهُمْ خُصُوفُهُمْ مِنَ اللَّهِ» أى حسبوا أن الحصون التي هم التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٦٠ فيها تمنعهم من عذاب الله وإنزاله بهم على يد نبيه، فجعل تعالى امتناعهم من رسوله امتناعاً منه.

وقوله تعالى «فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» أى أتاهم أمر الله من حيث لم يحتسبوا مجيئه منه «وَقَذَفَ» أى ألقى «فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» وهو الخوف «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ» معناه إنهم كانوا يهدمون بيوتهم بأيديهم من داخل ليهربوا ويخرب المؤمنون من خارج- على ما ذكره الحسن- ثم قال تعالى «فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ» معناه اتعظوا وفكروا فلا تفعلوا كما فعل هؤلاء فيحل بكم ما حل بهم. والحصون جمع حصن، وهو البناء العالى المنيع، يقال: تحصن فلان إذا امتنع بدخوله الحصن.

ومن استدلل بهذه الآية على صحة القياس فى الشريعة فقد أبعد. لأن الاعتبار ليس من القياس فى شىء، وإنما معناه الاتعاظ على ما بيناه، ولا- يلىق بهذا الموضع قياس فى الشرع، لأنه لو قال بعد قوله «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ» فقيسوا الارز على الحنطة، لما كان كلاماً صحيحاً ولا يلىق بما تقدم. وإنما يلىق بما تقدم الانعاظ والانتزاع عن مثل أفعال القوم من الكفر بالله. وقوله تعالى «وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ» معناه لولا أن الله كتب فى اللوح المحفوظ بما سبق فى علمه أنهم يجلون عن ديارهم يعنى اليهود (لَعَذَّبْتُهُمْ فِي الدُّنْيَا) بعذاب الاستئصال. والجلاء الانتقال عن الديار والأوطان البلاء. وقيل: هو الفرار عن الأوطان يقال: جلا القوم عن منازلهم جلاء، وأجليتهم إجلاء.

ثم قال (وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ) مع الجلاء عن الأوطان فى الدنيا (عَذَابُ النَّارِ) يعذبون بها. ثم بين لم فعل بهم ذلك فقال (ذلك) أى فعلنا بهم ذلك (بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) وخالفوهما وعصوهما. ثم توعد من يسلك مسلكهم فى المشاققة لله التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٦١

ورسوله، فقال «وَمَنْ يَشَاقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَنُزِّلْ بِهِ الْعَذَابَ» يعاقبهم على مشاققتهم بأشد العقاب. وقوله «مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ» فاللينة كل نخلة لينة سوى العجوة- فى قول ابن عباس وقادة- وهى لغه أهل المدينة. وقال بعضهم: إلا البرنى والعجوة، قال مجاهد وعمر بن ميمون وابن زيد: كل نخلة لينة ولم يستثنوا. وقال سفيان: اللينة كرام النخل. وأصل اللينة اللونه فقلبت الواو ياء للكسرة. ويجمع لينا، قال ذو الرمة: طراق الخوافى مشرق فوق ريعه ندى ليله فى ريشه يترقون (١)

فكانه قال لون من النخل أى ضرب منه. وقيل: يجوز أن تكون من اللين للين ثمرتها، وقوله «أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ» أى قطعتموها أو تركتموها بحالها كل ذلك سائغ لكم، وهو بعلم الله وإذنه فى ذلك وأمره به. وقوله «وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ» أى فعل ذلك ليدل به الكفار الفاسقين من اليهود ويهينهم به لا أنهم يفعلونه على وجه الفساد فى الأرض، لأن فيما فعلوه إذلال أهل الشرك وعز أهل الإسلام.

قوله تعالى: [سورة الحشر (٥٩): الآيات ٦ الى ١٠]..... ص: ٥٦١

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِإِتْدَى الْقُرْبَى وَالتَّيَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولُهُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ

مِنْ قَلِيلِهِمْ يُجْبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)

(١) مر في ٨ / ٤٤

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٦٢
خمس آيات.

قرأ أبو جعفر «كيلا تكون» بالناء «دولة» بالرفع أضاف الفعل الى (دولة).

الباقون بالياء «دولة» نصب أرادوا الفىء و المال.

قوله «وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ» يعنى من اليهود الذين أجلاهم من بنى النضير، وإن كان الحكم سارياً فى جميع الكفار إذا كان حكمهم، فالفىء ردّ ما كان للمشرّكين على المسلمين بتمليك الله إياهم ذلك، على ما شرط فيه، يقال: فاء بفىء فيئاً إذا رجع و أفأته عليه إذا رددته عليه. و قال عمر بن الخطاب و معمر: مال الفىء التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٦٣

هو مال الجزية و الخراج. و الفىء كل ما رجع من أموال الكافرين إلى المؤمنين، سواء كان غنيمته أو غير غنيمته، فالغنيمه ما أخذ بالسيف، فأربعة أخماسه للمقاتلة و خمسة للذين ذكرهم الله فى قوله «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ...» الآية «١».

و قال كثير من العلماء: ان الفىء المذكور فى هذه الآية هو الغنيمه. و قال قوم: مال الفىء خلاف مال الصدقات، لأن مال الفىء أوسع، فانه يجوز ان يصرف فى مصالح المسلمين، و مال الصدقات إنما هو فى الأصناف الثمانية. و قال قوم: مال الفىء يأخذ منه الفقراء من قرابة رسول الله صلى الله عليه و آله بإجماع الصحابة فى زمن عمر ابن الخطاب، و لم يخالفه فيه احد إلا الشافعى، فانه قال: يأخذ منه الفقراء و الأغنياء، و إنما ذكروا فى الآية لأنهم منعوا الصدقة، فبين الله أن لهم فى مال الفىء حقاً.

و قال عمر بن الخطاب: مال بنى النضير كان فيئاً لرسول الله صلى الله عليه و آله خاصة «وَلِذِي الْقُرْبَىٰ قَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آله من بنى هاشم و بنى عبد المطلب. و قيل: جعل أبو بكر و عمر سهمين: سهم رسوله و سهم قرابته من الأغنياء فى سبيل الله، و صدقة عن رسول الله صلى الله عليه و آله ذكره قتادة. و الباقي فى اهل الحاجة من أطفال المسلمين الذين لا أبأ لهم، و ابن السبيل المنقطع به من المسافرين فى غير معصية الله. و قال يزيد أبو رومان: الغنيمه ما أخذ من دار الحرب بالقتال عنوة. و قيل: كانت الغنائم فى صدر الإسلام لهؤلاء الأصناف. ثم نسخ بما ذكره فى سورة الانفال: بالخمس.

و الباقي للمحاربين - ذكره قتادة-.

و الذى نذهب اليه أن مال الفىء غير مال الغنيمه، فالغنيمه كل ما أخذ من دار الحرب بالسيف عنوة مما يمكن نقله إلى دار الإسلام، و ما لا يمكن نقله إلى دار الإسلام، فهو لجميع المسلمين ينظر فيه الامام و يصرف انتفاعه إلى بيت المال لمصالح

(١) سورة ٨ الانفال آية ٤١

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٦٤

المسلمين. و الفىء كل ما أخذ من الكفار بغير قتال أو انجلاء أهلها و كان ذلك للنبي صلى الله عليه و آله خاصة يضعه فى المذكورين فى هذه الآية، و هو لمن قام مقامه من الأئمة الراشدين. و قد بين الله تعالى ذلك. و مال بنى النضير كان للنبي خاصة، و قد بينه الله بقوله «وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ» يعنى ما رجعه الله و رده «عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ» يعنى من بنى النضير. ثم بين فقال «فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ» أى لم توجفوا على ذلك بخيل و لا ركاب. و الإيجاف الإيقاع، و هو تسيير الخيل و الركاب و هو من وجف يجف

وحيفاً، و هو تحرك باضطراب، فلا يجاف الإزعاج للسير، و الركاب الإبل «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» من عباده حتى يقهروهم و يأخذوا ما لهم (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

ثم قال مبيناً من استحق ذلك، فقال (ما أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى يعني بنى النضير (فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِإِتِّدَى الْقُرَى يعني اهل بيت رسول الله «وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ» من أهل بيت رسول الله لان تقديره و لذى قرباه و يتامى أهل بيته، و ابن سبيلهم، لان الألف و اللام تعاقب الضمير، و ظاهره يقتضى أنه لهؤلاء سواء كانوا أغنياء او فقراء. ثم بين لم فعل ذلك فقال «كَيْ لَا يَكُونَ دُولُهُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» فالدولة- بضم الدال- نقله النعمة من قوم إلى قوم و بفتح الدال المرة من الاستيلاء و الغلبة. ثم قال «وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ» أى ما أعطاكم رسوله من الفىء فخذوه و ارضوا به. و ما أمركم به فافعلوه «وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» عنه فانه لا يأمر و لا ينهى إلا عن أمر الله.

ثم قال «وَأَتَّقُوا اللَّهَ» فى ترك معاصيه و فعل طاعاته «إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» لمن عصاه و ترك أوامره.

ثم قال «لِلْفُقَرَاءِ» يعنى الذين لا مال لهم «الْمُهَاجِرِينَ» الذين هاجروا من التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٦٥ مكة إلى المدينة او هاجروا من دار الحرب إلى دار الإسلام «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ» الذى كان لهم بمكة فأخرجوا منها «يَتَّبِعُونَ فَضْلاً» أى طالبين بذلك فضلاً «مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا» فالجملة فى موضع الحال «وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» يعنى ناصرين لدين الله و رسوله «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» عند الله فى الحقيقة العظيمو المنزلة لديه. و قيل: تقدير الآية «كَيْ لَا يَكُونَ دُولُهُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» بل للفقراء المهاجرين.

ثم وصف الأنصار فقال «وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أى جعلوا ديارهم موضع مقامهم و آمنوا بالله من قبلهم نزلت فى الأنصار، فإنهم نزلوا المدينة قبل نزول المهاجرين. و قيل ان كل من نزل بالمدينة قبل هجرة النبى صلى الله عليه و آله فهو من الأنصار. و قوله «وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يعنى إن الأنصار آمنوا قبل هجرة المهاجرين و إن كان فى المهاجرين من آمن قبل إيمان الأنصار «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ» من اهل مكة «وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا» قال الحسن يعنى حسداً، قال الزجاج: معناه لا تجد الأنصار فى نفوسهم حاجة مما يعطون المهاجرين. و قال البلخى:

لا يجدون حاجة فى نفوسهم مما يؤتون المهاجرين من الفضل فى الدين، و قال الطبرى:

معناه لا يجدون فى نفوسهم حاجة فيما أعطى المهاجرين من مال بنى النضير، فان النبى خص به المهاجرين إلا رجلين من الأنصار: أباد دجانه سماك بن خرشة، و سهل بن حنيف أعطاهما لفقركهما. و إنما فعل النبى صلى الله عليه و آله ذلك لان مال بنى النضير كان له خاصة. و المهاجرين بهم حاجة خصهم بذلك. و الأنصار كانوا فى غنى فرضوا بذلك، و مدحهم الله على ذلك- ذكره ابن زيد- و قوله «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» أى يختارون على أنفسهم من يولونه من مالهم التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٦٦ من المهاجرين «وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» يعنى حاجة. و الخصاصة الحاجة التى يختل بها الحال. و الخصاص الفرج التى يتخللها البصر، و الواحد خصاص. قال الراجز:

و الناظرات من خصاص لمحا و أصله الاختصاص بالانفراد بالأمر و الخصاص الانفراد عما يحتاج اليه و الخصوص الانفراد ببعض ما وضع له الاسم، و الخص انفراد كل قصبه من أختها فى الاشراف، و الخاصة انفراد المعنى بما يقوله دون غيره.

و قوله «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أى من منع شح نفسه.

و الشح و البخل واحد. و فى أسماء الدين هو منع الواجب «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» يعنى المنجحين الفائزين بثواب الله و نعيم جنته.

ثم قال «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» يعنى بعد المهاجرين و الأنصار، و هم جميع التابعين لهم إلى يوم القيامة- فى قول الحسن- و هو كل من أسلم بعد العصر الأول. و قال الأصم: يعنى من جاءك من المهاجرين أى بعد انقطاع الهجرة و بعد إيمان الأنصار «يَقُولُونَ رَبَّنَا» الجملة فى موضع الحال، و تقديره قائلين «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا» أى حقدًا و غشًا

«لِلَّذِينَ آمَنُوا» و يقولون «رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» أى متعطف على عبادك منعم عليهم.

و قسمة الغنيمة عندنا للفارس سهمان و للراجل سهم. و قال قوم: للفارس ثلاثة أسهم و للراجل سهم إلا ما كان من الأرض و الأشجار، فانه للإمام أن يقسمها إن شاء، و له ان يجعلها أرض الخراج و يردها إلى من كانت فى أيديهم قبل، على هذا الوصف بحسب ما يرى، كما فعل عمر بأرض السواد. و

قيل: إن النبي صلى الله عليه و آله فتح مكة عنوة و لم يقسم أرضها بين المقاتلة

و

قال قوم: فتحها سلماً. و قسم كثيراً التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٦٧

من غنائم حنين فى المؤلفه قلوبهم دون المقاتلة حتى وقع من نفر من الأنصار فى ذلك ما وقع، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله اما ترضون ان يرجع الناس بالشاة و البعير و ترجعون برسول الله، فرضوا و سلموا لله و رسوله فى قصة مشهورة.

قوله تعالى: [سورة الحشر (٥٩): الآيات ١١ الى ١٥]..... ص: ٥٦٧

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنَ شَيْئًا لَا يُغْنِيهِمْ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢) لَا يُفْقَهُونَ (١٣) لَا يُفْقَهُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَفُوعًا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥)

خمس آيات قرأ ابن كثير و ابو عمرو «من وراء جدار» على التوحيد. الباقون «جدر» على الجمع.

لما وصف الله تعالى المهاجرين الذين هاجروا من مكة و ما لهم من الفضل، و ذكر الأنصار و ما لهم من جزيل الثواب، و ذكر التابعين بإحسان و ما يستحقونه من النعيم فى الجنان، ذكر المنافقين و ما يستحقونه و ما هم عليه من الأوصاف. فقال التبيان فى تفسير القرآن،

ج ٩، ص: ٥٦٨

«أَلَمْ تَرَ» يا محمد «إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا» فأظهروا الايمان و أبطنوا الكفر «يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ» فى الكفر و هم «الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» يعنى يهود بنى النضير (لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ) من بلادكم (لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ) مساعدين لكم (وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا) يعنى فى قتالكم و مخاصمتكم (وَإِنْ قُوتِلْتُمْ) معاصر بنى النضير (لَنَنْصُرَنَّكُمْ) و لندفعن عنكم. فقال الله تعالى (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فيما يقولونه فى مساعدتهم و الخروج معهم و الدفاع عنهم. و ظاهره يدل على انهم لم يخبروا عن ظنهم، لأنهم لو أخبروا عن ظنهم و عن نيتهم لما كانوا كاذبين. و يحتمل: ان يكونوا كاذبين فى العزم ايضاً بأن يقولوا انهم عازمون و لا يكونوا كذلك. ثم قال تعالى (لَئِنْ أُخْرِجُوا) يعنى بنى النضير (لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ) يعنى المنافقون الذين قالوا لهم إنا نخرج معكم (وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ) و لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنَ شَيْئًا لَا يُغْنِيهِمْ (أَيِ يَنْهَضُونَ) أى ينهضون و يسلمونهم (ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ) الجميع، قال الزجاج:

فيه وجهان:

أحدهما- إنهم لو تعاطوا نصرهم.

الثانى- و لئن نصرهم من بقى منهم لولوا الأذبار، فعلى هذا لا ينافى قوله (لَا يُنْصَرُونَ) قوله (وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ).

ثم خاطب المؤمنين، فقال (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ) أى أنتم أشد خوفاً فى قلوب هؤلاء المنافقين يخافونكم ما لا يخافون الله (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) أى لأنهم قوم لا يفقهون الحق و لا يعرفونه و لا يعرفون معانى صفات الله، فالفقه العلم بمفهوم الكلام فى ظاهره و متضمنه عند إدراكه، و يتفاضل أحوال الناس فيه. و قيل: إن المنافقين الذين نزلت فيهم هذه الآية عبد الله بن أبى

سلول و جماعة معه بعثوا إلى بنى النضير بهذه الرسالة - ذكره ابن عباس و مجاهد - التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٦٩
ثم عاد تعالى إلى ذكر الخبر عن أحوال بنى النضير، فقال (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ) معاصر المؤمنين (إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ) يعنى ممتنع جعل عليها
حصون (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حُيُودٍ) أى من وراء الحيطان، فالجدار الحائط. فمن قرأ على التوحيد فلأنه اسم جنس يقع على القليل و الكثير، و
من قرأ على الجمع، فلاختلاف الجدران.

ثم قال (بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) معناه عداوة بعض هؤلاء اليهود لبعض شديدة و قلوبهم شتى بمعاداة
بعضهم لبعض أى ظاهرهم على كلمه واحده و هم متفرقون فى الباطن (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) يعنى ما فيه الرشد مما فيه الغي. و
قال مجاهد (وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) يعنى المنافقين و أهل الكتاب، و إنما كان قلوب من يعمل بخلاف العقل شتى لاختلاف دواعيهم و
أهوائهم، و داعى الحق واحد، و هو داعى العقل الذى يدعو إلى طاعة الله و الإحسان فى الفعل.

و قوله (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا) معناه مثل هؤلاء كمثل الذين من قبلهم يعنى بنى قينقاع - فى قول ابن عباس - و قال مجاهد: هم
مشركوا قريش ببدر (ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ) من الشرك و الكفر بالله فان عاقبه أمرهم كان القتل او الجلاء و فى الآية دلالة على النبوة من
جهة علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى و قوله (وَلَيْتُنْصَرُّوهُمْ لِيَُوَلُّنَ الْأَذْبَارَ) جاء على تقدير المستقبل كما يجىء فى الماضى ب
(لو) لتبين خورهم و ضعف قلوبهم، و اللام فى قوله (لَيْتُنْصَرُّوهُمْ) و (لَيْتُنْ قُوتِلُوا) و (لَيْتُنْ نَصَرُوهُمْ) كلها لام القسم. و اللام فى قوله
(لِيَُوَلُّنَ الْأَذْبَارَ) جواب القسم.

قوله تعالى: [سورة الحشر (٥٩): الآيات ١٦ الى ٢٠]..... ص: ٥٦٩

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ
خَالِدَيْنِ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
(١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٧٠

خمس آيات.

معنى قوله (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ) أى مثل هؤلاء المنافقين فيما قالوا لليهود، مثل قيل الشيطان (إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ) و أغواه به و دعاه اليه
(فَلَمَّا كَفَرَ) يعنى الإنسان (قَالَ) الشيطان (إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) بمعنى أخاف عقابه. و إنما يقول الشيطان
للإنسان اكفر بأن يدعوه اليه و يغويه به و يقول له: التوحيد ليس له حقيقة و الشرك هو الحق و يأمره بجحد النبوة، و يقول لا أصل
لها، و إنما هى مخرقة. و البراءة قطع العلقه إلى ما تقتضيه العداوة فهذه البراءة من الدين، و قد تكون البراءة قطع العلقه بما يدفع
المطالبة كبراءة الدين، و براءة الطلاق، و براءة الذمى إذا أخذت منه الجزية. و الأصل قطع العلقه التى يقع بها مطالبه فى نقيض
الحكمة، فالتقدير فى الآية إن مثل المنافقين فى وعدهم لبنى النضير مثل الشيطان فى وعده للإنسان بالغرور، فلما احتاج اليه الإنسان
أسلمه للهلاك. و قيل: إن ذلك فى إنسان بعينه كان من الرهبان فأغواه الشيطان بأن ينجيه من بليته وقع فيها عند السلطان، فقال له:
اسجد لى سجدة واحدة، فلما احتاج اليه أسلمه حتى قتل - روى ذلك عن ابن عباس و ابن مسعود - و قال مجاهد: التبيان فى تفسير
القرآن، ج ٩، ص: ٥٧١

هو عام فى جميع الكفار، فقال الله تعالى (فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا) يعنى عاقبة الفريقين الداعى و المدعو من الشيطان و من أغواه و المنافقين و
اليهود (أَنَّهُمَا فِي النَّارِ) معذبان فيها، و العاقبة نهاية العمل فى البادية، فعاقبة الطاعة لله تعالى الجنة، و عاقبة معصيته النار (خَالِدَيْنِ فِيهَا)
أى مؤبدين فيها معذبين ثم قال (وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) لأنفسهم بارتكاب المعاصى.

ثم خاطب المؤمنين فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) باجتناب معاصيه و فعل طاعاته (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) أى تنظر و تفكر ما الذى تقدمه من الافعال ليوم القيامة من طاعة او معصية (وَاتَّقُوا اللَّهَ) باجتناب معاصيه و فعل طاعاته (إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شىء منها فيجازيكم بحسبها على الطاعات بالثواب و على المعاصى بالعقاب. و قيل معناه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) فيما تقدم نفس لغد (وَاتَّقُوا اللَّهَ) فيما يعلمه منكم، و ليس ذلك بتكرار ثم قال (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ) أى كالذين تركوا أداء حق الله فإنهم نسوه فأنساهم أنفسهم بأن حرمهم حظوظهم من الخير و الثواب، و قال سفيان: نسوا حق الله فأنساهم حظ أنفسهم. و قيل: نسوا الله بترك ذكره و الشكر و التعظيم فأنساهم أنفسهم بالعذاب الذى نسي به بعضهم بعضاً، كما قال تعالى (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) «١» أى يسلم بعضكم على بعض ثم اخبر عنهم فقال (أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الذين خرجوا من طاعته إلى معصيته.

و قوله (لَا يَشْرِي تَوَى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ) أى لا يتساويان، لان هؤلاء مستحقون للنار و أولئك مستحقون لثواب الجنة، ثم قال (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) بثواب الله. و لا يدل على أن من معه إيمان و فسق لا يدخل الجنة،

(١) سورة ٢٤ النور آية ٦١ [.....]

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٧٢

لأنه تعالى قسم أصحاب الجنة و أصحاب النار الذين يستحقون ثواباً بلا عقاب او عقاباً بلا ثواب، لأنهما لا يتقاربان، و لم يذكر من يستحق الامرين. و عندنا أن الفاسق المسلم يستحق الامرين فليس هو داخلياً فيه.

قوله تعالى: [سورة الحشر (٥٩): الآيات ٢١ الى ٢٤]..... ص: ٥٧٢

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)

أربع آيات.

يقول الله تعالى معظماً لشأن القرآن الذى أنزله عليه مكبراً لحاله فى جلاله موقعه بأنه لو أنزل القرآن على جبل لرئى الجبل خاشعاً، و المراد به المثل، و تقديره لو كان الجبل مما ينزل عليه القرآن و لو شعر به - مع غلظه و جفاء طبعه و كبر جسمه - لخشع لمنزله تعظيماً لشأنه و لتصدع من خشيته، فالإنسان أحق بهذا لو عقل الأحكام التى فيه. و التصدع التفرق بعد التلاؤم، و مثله التفطر يقال: صدعه يصدعه صدعا فهو صاعد و ذاك مصدوع و منه الصداع فى الرأس و هو معروف، و تصدع تصدعا التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص:

٥٧٣

و انصدع انصداعاً فبين انه على وجه المثل بقوله (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) و معناه ليتفكروا، لان (لعل) بمعنى الشك، و الشك لا يجوز على الله.

و قوله (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) معناه هو المستحق للعبادة الذى لا تحق العبادة إلا له (عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ) معناه عالم بما يشاهده العباد، و عالم بما يغيب عنهم علمه. و قيل: معناه (عَالِمُ الْغَيْبِ) مالا يقع عليه حس من المعدوم او الموجود الذى لا يدرك مما هو غائب عن الحواس كأفعال القلوب و غيرها (وَ الشَّهَادَةِ) أى و عالم بما يصح عليه الإدراك بالحواس. و قال الحسن: الغيب ما أخفاه العباد، و الشهادة ما أعلنوه، ففى الوصف بها بين كونه عالمًا بجميع المعلومات لأنها لا تعدو هذين القسمين.

وقوله (هُوَ الرَّحْمَنُ) يعنى المنعم على جميع خلقه (الرَّحِيمُ) بالمؤمنين، و لا- يوصف بالرحمن سوى الله تعالى. و أما الرحيم، فانه يوصف به غيره تعالى. ثم أعاد قوله (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ) يعنى السيد المالك لجميع الأشياء الذى له التصرف فيها على وجه ليس لأحد منعه منه (الْقُدُّوسُ) و معناه المطهر فتطهر صفاته عن ان يدخل فيها صفة نقص (السَّلَامُ) و هو الذى يسلم عباده من ظلمه (الْمُؤْمِنُ) الذى آمن العباد من ظلمه لهم إذ قال (لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) «١» (الْمُهَيِّمُ) قال ابن عباس معناه الأمين. و قال قوم: معناه المؤمن إلا انه أشد مبالغة فى الصفة، لأنه جاء على الأصل فى المؤمن، فقلبت الهمزة هاء، و فخم اللفظ به لتفخيم المعنى. و قال قتادة: معناه الشهيد كأنه شهيد على إيمان من آمن به أو الشهيد على الأمن فى شهادته (الْعَزِيزُ) يعنى القادر الذى لا يصح عليه القهر

(١) سورة ٤ النساء آية ٣٩

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٧٤

(الْجَبَّارُ) العظيم الشأن فى الملك و السلطان، و لا يستحق ان يوصف به على هذا الإطلاق إلا الله تعالى، فان وصف بها العبد، فإنما هو على وضع لفظه فى غير موضعها، فهو ذم على هذا المعنى (الْمُتَكَبِّرُ) يعنى فى كل شىء. و قيل: معناه المستحق لصفات التعظيم. و قوله (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) تنزيه لله تعالى عن الشرك به كما يشرك به المشركون من الأصنام و غيرها. ثم قال (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ) يعنى للأجسام و الاعراض المخصوصة (الْبَارِئُ) المحدث المنشئ لجميع ذلك (الْمُصَوِّرُ) الذى صور الأجسام على اختلافها من الحيوان و الجماد (لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) نحو الله، الرحمن، الرحيم، القادر، العالم، الحى و ما أشبه ذلك، ثم قال (يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) و قد مضى تفسيره.

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٧٥

٦٠- سورة الممتحنة..... ص: ٥٧٥

إشارة

مدنية بلا خلاف و هى ثلاث عشرة آية بلا خلاف.

[سورة الممتحنة (٦٠): آية ١]..... ص: ٥٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخِذُوا عِدَوِيَّ وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)
آية بلا خلاف.

هذه الآية نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة حين عزم النبی صلی الله علیه و آله على ان يدخل مكة بغتة، فسأل الله أن يعمى اخبارهم على قريش و منع احداً ان يخرج من المدينة إلى مكة فكتب حاطب بن أبى بلتعة الى أهل مكة يعلمهم بذلك، فأوحى الله تعالى إلى النبی صلی الله علیه و آله بذلك، فدعا علياً عليه السلام و الزبير، و قال لهما: اخرجا حتى تلحقا جارية سوداء متوجهة إلى مكة معها كتاب، فخذاه منها، فخرجا حتى لحقاها فسألاها عن الكتاب، فأنكرت ففتشاها، فلم يجدا معها شيئاً، فقال الزبير: ارجع بنا فليس التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٧٦

معها شيء، فقال على عليه السلام يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: خذ الكتاب منها، و تقول:

ليس معنى شيء!!! ثم اقبل عليها، و سل سيفه. و قال: و الله لئن لم تخرجي الكتاب لأضربن عنقك فقالت له أعرض بوجهك عني، فلما أعرض عنها أخرجت الكتاب من بين ضفيريتهن لها، و سلمته اليه، فلما عادا سلماه إلى النبي فأمر النبي صلى الله عليه وآله بأن ينادى بالصلاة جامعة فاجتمع الناس، فصعد النبي صلى الله عليه وآله المنبر و خطب. ثم قال:

(أما إني كنت سألت الله ان يعمي اخبارنا عن قريش حتى ندخل مكة بغته، و إن رجلا منكم كتب اليهم ينذرهم خبرنا، و هذا كتابه فليقم صاحبه) فلم يقم أحد فأعاد ثانياً، فلم يقم أحد، فأعاد ثلاثاً، ثم قال: فليقم و إلا فضحه الوحي، فقام حاطب، و هو يردد، و قال يا رسول الله: و الله ما نافقت منذ أسلمت، فقال ما حملك على ذلك، فقال إن لي بمكة أهلاً و ليس لي بها عشيرة، فأردت ان اتخذ بذلك عندهم يداً ان كانت الدائرة لهم، فقام عمر بن الخطاب و قال: يا رسول الله مرني بأن أضرب عنقه، فانه نافق، فقال رسول الله: إنه من أهل بدر، و لعل الله تعالى أطلع إطلاعةً فغفر لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية يخاطب فيها المؤمنين و ينهاهم أن يتخذوا عدو الله من الكفار و عدو المؤمنين أولياء يوالونهم و يلقون اليهم بالمودة.

و الباء زائدة و تقديره و يلقون اليهم المودة، و هي المحبة، كما قال الشاعر:

و لما زجت بالشرب هز لها العصا شحيح له عند الازاء نهم (١)

أي زجت الشرب، و يجوز أن يكون المراد يلقون اليهم ما يريدون بالمودة (وَقَدْ كَفَرُوا) يعنى الكفار الذين يلقون اليهم المودة (بِمَا جَاءَكُمْ) به النبي صلى الله عليه وآله (مِنَ الْحَقِّ) يعنى من التوحيد و الإخلاص لله فى العبادة و القرآن و شريعة الإسلام (يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ) يعنى إخراجهم لهم من مكة (أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ)

(١) مر فى ٣٠٧/٧

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٧٧

و معناه كراهة ان تؤمنوا بالله و قال قوم: اخرجوكم لايمانكم بالله ربكم الذى خلقكم (إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى) أى و طلباً لمرضاتى فلا- تلقوا اليهم بالمودة ان كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيل الله و طالبين مرضاته. قال الزجاج: و هو شرط جوابه متقدم و تقديره ان كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى و ابتغاء مرضاتى فلا- تتخذوا عدوى و عدوكم أولياء. و (جهاداً، و ابتغاء) منصوبان على المفعول له.

و قوله (تَسْتَرْوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ) فتكاتبونهم باخبار النبي صلى الله عليه وآله (وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَ مَا أَعْلَنْتُمْ) أى بسرهم و علانيتكم و ظاهرهم و باطنكم، لا يخفى على من ذلك شيء، فكيف تسرون بمودتكم إياهم منى.

و قوله (وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ) يعنى من ألقى اليهم المودة و ألقى اليهم اخبار النبي صلى الله عليه وآله منكم جماعة المؤمنين بعد هذا البيان (فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) أى قد عدل عن الحق و جار عن طريق الرشيد. و فى الآية دليل على ان مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الايمان، لان حاطب بن أبى بلتعنة رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قد فعل ذلك، و لا يقول أحد انه أخرجه ذلك من الايمان.

قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٢ الى ٣].... ص: ٥٧٧

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَ يَسِيْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَ وُدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُم أَرْحَامُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)

آيتان بلا خلاف. التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٧٨

قرأ ابن كثير و أبو عمرو و نافع (يفصل) بضم الياء و فتح الصاد و سكون الفاء خفيفة. و قرأ ابن عامر - بضم الياء و فتح الفاء و تشديد الصاد و فتحها - على ما لم يسم فاعله. و قرأ حمزة و الكسائي بضم الياء و فتح الفاء و كسر الصاد مشددة. و قرأ عاصم و يعقوب و سهل بفتح الياء و سكون الفاء و كسر الصاد خفيفة: أربع قراءات، يقال: فصلت بين الشيء أفصله فصلا إذا ميزته، و فصلته تفصيلا، بمعنى واحد. فمن قرأ بفتح الياء أراد إن الله يفصل بينهم و يميز بعضهم عن بعض، و من ضم الياء جعله لما لم يسم فاعله و معلوم أن الله هو المفصل بينهم.

و قوله (إِنْ يَتَّقَوْكُمْ) معناه إن يصادفوكم هؤلاء الكفار الذين تسرون اليهم بالمودعة، يقال: ثقفته أثقفه ثقفاً فأنا ثاقف، و منه سمي ثقيف، و منه المثاقفة، و هي طلب مصادفة العزة في المسابقة، و ما يجرى مجراها من المصادفة بالشطب و نحوه و (يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً) أى يعادونكم و لا- ينفعكم ما تلقون اليهم «وَيَتَّبِعُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ» بما يقدرُونَ عليه من الأذى و القتل و يبسطوا (أَلْسِنَتَهُمْ) ايضاً (بِالسُّوءِ) فيذكرونكم بكل ما تكرهونه و جميع ما يقدرُونَ عليه من السوء و يحثون على قتالكم (وَوَدُّوا) مع هذا كله (لَوْ تَكْفُرُونَ) بالله كما كفروا و تجحدون كما جحدوا.

ثم قال (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ) الذين جعلتموهم علة في إلقاء المودة اليهم و الإفشاء اليهم بسر النبي صلى الله عليه و آله يوم القيامة (و الله يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) ذلك اليوم و يميز بعضكم عن بعض إذا كانوا كفاراً و كنتم مؤمنين (و الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) لا يتعذر عليه تمييز بعضكم عن بعض فيأمر بالمؤمنين الى الجنة و بالكفار الى النار

قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٤ الى ٥]..... ص: ٥٧٨

فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعُدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٧٩

آيتان بلا خلاف.

قرأ عاصم (أسوة) بضم الهمزة في جميع القرآن. الباقون - بكسرهما - و هما لغتان.

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين و حاثاً لهم على ترك موالاة الكفار و مبيناً لهم ان ذلك غير جائز بأن قال (فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ) في ترك موالاة الكفار و ترك الركون الى جنائيتهم (أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) أى اقتداء حسن (فى إبراهيم) خليل الرحمن عليه السلام (وَالَّذِينَ مَعَهُ) قال ابن زيد: يعنى الأنبياء. و قال غيره: يعنى الذين آمنوا معه (إِذْ قَالُوا) أى حين قالوا (لِقَوْمِهِمْ) من الكفار الذين كانوا يعبدون الأصنام (إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ) على وزن فعلاء، و مثله ظريف و ظرفاء و كريم و كرماء و فقير و فقراء الهمزة الأولى لام الفعل و الثانية المنقلبة من الف التانيث و الالف التى قبله الهمزة زيادة مع علامة التانيث، و هو جمع برىء و برآء منكم (وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى و بريئون من الأصنام التى تعبدونها، و يجوز أن تكون (ما) مصدرية و يكون المعنى و بريئون من عبادتكم للأصنام (كَفَرْنَا بِكُمْ) أى يقولون لهم: جحدنا ما تعبدون من دون الله و كفرنا به (وَبَدَا بَيْنَنَا) أى ظهر بيننا (وَبَيْنَكُمْ الْعُدَاوَةُ) التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٨٠

وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا)

لا يكون بيننا و بينكم موالاة فى الدين (حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ) أى حتى تصدقوا بوحدانيته و إخلاص العباد له.

و قوله (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) استثناء لقول إبراهيم لأبيه:

لاستغفرن أى فلا تقتدوا به فيه. فان إبراهيم عليه السلام إنما استغفر لأبيه على (مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ) لأن أباه كان وعده بالايمن، فوعده إبراهيم بالاستغفار، فلما اظهر له الايمان استغفر له إبراهيم فى الظاهر (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ) و عرف ذلك من جهته (تَبَرَّأَ مِنْهُ) «١»

قال الحسن: إنما تبين ذلك عند موت أبيه، ولو لم يستثن ذلك لظن إنه يجوز الاستغفار للكفار مطلقاً من غير موعده بالايان منهم. وقيل:

- إن الاستثناء راجع الى قوله (وَبَيَّنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ أَبَدًا) لأنه لما كان استغفار إبراهيم لأبيه مخالفاً لما تضمنته هذه الجملة وجب استثناءه وإلا توهم بظاهر الكلام انه عامل أباه من العداوة والبراءة بما عامل به غيره. وقال البلخي: هذا استثناء منقطع. ومعناه لكن قول إبراهيم لأبيه لا استغفرن لك كان لأجل موعده أبيه بالايان. ثم قال إبراهيم لأبيه (وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) إذا أراد عقابك، فلا يمكن دفع ذلك عنك.

وقوله (رَبَّنَا) أى يقولون ربنا (عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا) فالتوكل على الله تفويض الأمور اليه ثقة بحسن تدبيره فى كل ما يدبره به (وَإِلَيْكَ أُنَبِّئُ) أى رجعنا وتبنا اليك أى رجعنا إلى طاعتك (وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) معناه واليك مرجع كل شىء يوم القيامة، وقال أيضاً وكانوا يقولون (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) ومعناه لا- ترهم فينا ما يشمتون بجهلهم بنا. وقال مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا ببلاء من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا

(١) سورة ٩ التوبة آية ١١٥

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٨١

(وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ) فى جميع افعالك. وفى ذلك تعليم انه ينبغي ان يدعو الإنسان بهذا الدعاء. وقال الحسن: كان استغفار إبراهيم لأبيه صغيرة، وقال عمرو ابن عبيد، واصل دعاء إبراهيم لأبيه بشرط الايمان بأنه إن آمن يستغفر له

قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٦ الى ٧]..... ص: ٥٨١

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) آيتان بلا خلاف.

إنما أعيد ذكر الاسوة فى الآيتين، لان الثانى منعقد بغير ما انعقد به الاول فان الثانى فيه بيان أنه كان أسوة فى إبراهيم والذين معه، و هو لرجاء ثواب الله و حسن المنقلب فى اليوم الآخر، و الاول فيه بيان ان الاسوة فى المعادة للكفار بالله حسنة و إذا انعقد الثانى بغير ما انعقد به الأول صارت الفائدة فى الثانى خلاف الفائدة فى الاول.

و وجه الجواب فى قوله (وَ مَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) أى من يذهب عما يحتاج اليه دون الداعى له، لانه الداعى له غنى حميد، فجاء على الإيجاز.

و الحميد هو المستحق للحمد على إحسانه، و المحمود الذى قد حمد، فان الله تعالى حميد محمود.

وقوله (عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً) بالإسلام و قال ابن زيد: و كان ذلك حين أسلم كثير منهم. وقيل معنى (عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً) ج ٩، ص: ٥٨٢

يَجْعَلُ

أى ليجعل بينكم مودة، و قيل معناه كونوا على رجاء من ذلك و طمع فيه و هو الوجه، لأنه الأصل فى هذه اللفظة. ثم قال (وَاللَّهُ قَدِيرٌ) أى قادر على كل ما يصح ان يكون مقدوراً له (وَاللَّهُ غَفُورٌ) لذنوب عباده سائر لمعاصيهم «رَحِيمٌ» بهم أى منعم عليهم.

قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٨ الى ٩]..... ص: ٥٨٢

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)
إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ (٩)

آيتان بلا خلاف.

قال الحسن: إن المسلمين استأذنوا النبي صلى الله عليه وآله في أن يبروا قرباتهم من المشركين، وكان ذلك قبل أن يؤمروا بالقتال لجميع المشركين، فنزلت هذه الآية وقال قتادة: هي منسوخة بقوله (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) (١) وبه قال ابن عباس: يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ) «عن» مخالطة «الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ» من الكفار «وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ» وتحسنوا إليهم «وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ» معناه تعدلوا إليهم «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» يعنى الذين يعدلون فى الخلق، وقيل معناه إن الله يحب الذين يقسطون قسطاً من أموالهم على وجه البر.

وقوله «أَنْ تَبَرُّوهُمْ» فى موضع خفض، وتقديره: لا ينهاكم الله عن أن

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٨٣

تبروهم، وهو بدل من (الذين) بدل الاشتمال. وقال مجاهد: عنى بالذين لم يقاتلوكم من آمن من أهل مكة ولم يهاجروا، وقال ابن الزبير: هو عام فى كل من كان بهذه الصفة، والذى عليه الإجماع والمفسرون بأن بر الرجل من شاء من أهل دار الحرب قرابة كان أو غير قرابة ليس بمحرم، وإنما الخلاف فى اعطائهم الزكاة والفطرة والكفارات، فعندنا لا يجوز. وفيه خلاف. و
قال الفراء الآية نزلت فى جماعة كانوا عاقدوا النبى صلى الله عليه وآله وآله ألا يقاتلوه ولا يخرجوه، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وآله ببرهم والوفاء لهم إلى مدة أجلهم.

ثم بين تعالى على من يتوجه النهى ببره وإحسانه فقال «إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ» مبره «الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ»، من اهل مكة وغيرهم «وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ» يعنى منازلكم وأملاككم «وَوَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ» أى تعاونوا على ذلك وتعاضدوا، والمظاهرة هى المعاونة ليظهر بها على العدو بالغبلة. وقوله «أَنْ تَوَلَّوْهُمْ» أى ينهاكم عن ان تنصروهم وتوادوهم وتجنوهم ثم قال «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ» أى ومن ينصرهم وبواليهم «فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» لأنفسهم، لأنهم يستحقون بذلك العقاب والكون فى النار.

قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): آية ١٠]..... ص: ٥٨٣

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَ سَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ كُنْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)

التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٨٤

آية بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو و اهل البصرة «و لا تمسكوا» بالتشديد. الباقون «تمسكوا» خفيفة و هما لغتان.

يقولون أمسكت به و تمسكت به. قيل كان سبب نزول هذه الآية إن النبى صلى الله عليه وآله كان صالح قريشاً يوم الحديبية على ان يرد عليهم من جاء بغير إذن وليه، فلما هاجر النساء وقيل: هاجرت كلثم بنت أبى معيط فجاء أخوها فسألا رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله أن يردها، فنهى الله تعالى ان يردن الى المشركين، و نسخ ذلك الحكم، ذكره عروة بن الزبير.

فقال تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ «مُهَاجِرَاتٍ» مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ» وقيل في كيفية الامتحان أربعة أقوال:

قال ابن عباس: كانت امتحان رسول الله إياهن أن يحلفن بالله ما خرجت من بغض زوج وبالله ما خرجت رغبة عن أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا وبالله ما خرجت إلّا حباً لله ورسوله - وفي رواية أخرى - عن ابن عباس قال: كان امتحاناً لهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. وروى عن عائشة أنه كان امتحانهن بما في الآية التي بعدها «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ...» الآية، وقال ابن عباس وقتاده:

كان امتحانهن ما خرجن إلا للدين، و رغبة في الإسلام و حباً لله ورسوله كقول ابن عباس الأول.

ثم قال «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ» لأنه يعلم باطنهن و ظاهرهن و أنتم لا تعلمون باطنهن التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٨٥
ثم قال «فَبِإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ» يعنى فى الظاهر «فَلَا تَزْجَعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ» أى لا- تردوهن اليهم «لا- هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ»

قال ابن زيد: و فرق بينهما النبى صلى الله عليه وآله، إن لم يطلق المشرك.

و

قيل: إن النبى صلى الله عليه وآله كان شرط لهم رد الرجال دون النساء

، فعلى هذا لا نسخ فى الآية. و من قال كان شرط رد النساء و الرجال قال: نسخ الله حكم رد النساء.

وقوله «وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا» قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و ابن زيد: اعطوا رجالهم ما أنفقوا من الصداق. و قال الزهرى: لولا الهدنة لم يرد إلى المشركين صداقاً كما كان يفعل قبل. و قيل نسخ رد المهور على الأزواج من المشركين ثم قال «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» معاشر المؤمنين «أَنْ تَتَّكِحُوهُنَّ» يعنى المهاجرات لأنهن بالإسلام قد بنّ من أزواجهن «إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ» يعنى مهورهن التى يستحل بها فزوجهن.

وقوله «وَلَا تُنْسِ كُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ»، فالكوافر جمع كافرة، و العصمة سبب تمنع به من المكروه و جمعه عصم. و فى ذلك دلالة على انه لا- يجوز العقد على الكافرة سواء كانت ذمية او حربية او عابدة وثن، و على كل حال، لأنه عام فى جميع ذلك و ليس لاحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهم، لان المعبر بعموم اللفظ لا بالسبب، و قوله «وَسْتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ» يعنى إذا صارت المرأة المسلمة إلى دار الحرب عن دار الإسلام فاسألوهن عن ان يردوا عليكم مهرهن، كما يستلونكم مهر نساكنهم إذا هاجرن إليكم، و هو قوله «وَلَيْسَ لَكُمْ مَا أَنْفَقُوا» ثم قال «ذَلِكَ» يعنى ما تقدم ذكره و شرحه «حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بجميع الأشياء «حَكِيمٌ» فيما يفعله و يأمركم به.

و قال الحسن: كان فى صدر الإسلام تكون المسلمة تحت الكافر و الكافرة تحت المسلم التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٨٦
فنسخت هذه الآية ذلك. و المفسرون على ان حكم هذه الآية منسوخ، و عندنا أن الآية غير منسوخة، و فيها دلالة على المنع من تزوج المسلم اليهودية و النصرانية، لأنهما كافرتان و الآية على عمومها فى المنع من التمسك بعصم الكوافر، و لا نخصها إلا بدليل.

قوله تعالى: [سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ١١ الى ١٣]..... ص: ٥٨٦

وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)

ثلاث آيات.

معنى قوله «وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ» أى إن أعجزكم ومضى شيء من أزواجكم إلى كفار أهل مكة ومعنى شيء أحد، فكانه قال وإن فاتكم أحد منكم «فَعَاقِبْتُمْ» بمصير أزواج الكفار إليكم إما من جهة سبى أو مجيئهم مؤمنات «فَأَتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ» إلى الكفار «مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا» من المهور كما عليهم أن يردوا عليكم مثل ما أنفقتم لمن ذهب من أزواجكم. قال التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٨٧

الزجاج: وقد قرئ «فَعَقِبْتُمْ» بلا- الف مشدداً ومخففاً، وجاء فى التفسير فغنتم ومعناه فى اللغة فكانت العقبي لكم أى كانت لكم الغلبة حتى غنتم، قال «و عَقِبْتُمْ» مشددة أجودها فى اللغة، ومخففة جيدة أيضاً أى صارت لكم عقبي، والتشديد أبلغ ومعنى «فَعَاقِبْتُمْ» أصبتموهم فى القتال بعقوبة حتى غنتم أى ان مضت امرأة منكم إلى من لا عهد بينكم وبينه «فَأَتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا» يعنى فى مهورهن، وكذلك إن مضت الى من بينكم وبينه عهد فنكت فى إعطاء المهر، فالذى ذهب زوجته يعطى المهر من الغنيمه ولا ينقص شيئاً من حقه بل يعطى حقه كاملاً بعد إخراج مهور النساء. وقال الزهرى: فاتوا الذين ذهب أزواجهم من المؤمنين مثل ما أنفقوا من مال الفىء. وقال ابن عباس من مال الغنيمه- وفى رواية عن الزهرى- عليهم أن يعطوهم من صدق من لحق بهم وقال قوم: يعطونهم من جميع هذه الأموال. وقال قتادة: معنى الآية «وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ» الذين ليس بينهم وبين اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عهد «فَعَاقِبْتُمْ» يعنى الغنيمه يقول: فإذا غنتم فأعطوا زوجها صدقها الذى كان قد ساقه اليها من الغنيمه ثم نسخ هذا الحكم فى براءة، فنبد إلى كل ذى عهد عهده. ثم قال «وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ» أى اجتنبوا معاصى الله الذى أنتم مصدقون بثوابه وعقابه ومعترفون بنبوة نبيه.

وقوله «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ» خطاب للنبي صلى الله عليه وآله يقول الله له «إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ» ووجه بيعه النساء مع أنهم لسن من أهل النصرة فى المحاربة هو أخذ العهد عليهن بما يصلح شأنهن فى الدين لأنفس والأزواج، فكان ذلك فى صدر الإسلام لثلا يفتق بهن فتق لما صيغ من الأحكام، فبايعهن النبي صلى الله عليه وآله حسماً لذلك وقيل: إنه كان يبايعهن من وراء الثوب. وروى أنه استدعى ماء فوضع يده فيه التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٨٨

ثم أمر النساء ان يضعن أيديهن فيه، فكان ذلك جاريماً مجرى المصافحة بأخذ العهد «عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً» من الأصنام والأوثان «وَلَا يَشْرِكْنَ» لا من أزواجهن ولا من غيرهم «وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ» على وجه من الوجوه لا بالوآد، ولا بالاسقاط «وَلَا يَأْتِينَ بُهْتَانٍ» يعنى بكذب «يَفْتَرِيَنَّهُ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ» أى لا يأتين بكذب يكذبنه فى مولود يوجد بين أيديهن وأرجلهن. وقال ابن عباس: لا- يلحقن بأزواجهن غير أولادهن. وقال الفراء: كانت المرأة تلتقط فتقول لزوجها: هذا ولدى منك، فذلك البهتان المفترى. وقال قوم: البهتان الذى نهوا عنه فى الآية قذف المحصنات والكذب على الناس وإضافة الأولاد إلى الأزواج على البطلان فى الحاضر والمستقبل من الزمان، ولا يعصينك فى معروف، فالمعروف نقيض المنكر، وهو ما دل العقل والسمع على وجوبه او ندبه، وسمى معروفاً لأن العقل يعترف به من جهة عظم حسنه وجوبه. وقال زيد بن أسلم: فيما شرط ألا يعصينه فيه أن لا يلطمن ولا يشققن جيباً ولا يدعون بالويل والثبور، كفعل أهل الجاهلية. وقال ابن عباس: فيما شرط ألا يعصينه فيه النوح.

وقوله «فَبَايَعَهُنَّ» والمعنى إذا شرطت عليهن هذه الشروط ودخلن تحتها فبايعهن على ذلك «وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ اللَّهُ» أى اطلب من الله ان يغفر لهن ذنوبهن ويستر عليهن «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أى صفوح عنهن منعم عليهن. وقال الحسن:

إذا جاءت المرأة اليوم من غير أهل العهد لم ترد إلى زوجها، ولم تمتحن وهذه الآية منسوخة.

ثم قال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» يخاطب المؤمنين بالله ورسوله «لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» أى لا- توالوا اليهود، ولا- من يجرى مجراهم من الكفار الذين غضب الله عليهم بأن يريد عقابهم «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ» ثم وصف الكفار، فقال التبيان فى تفسير القرآن، ج ٩، ص:

«قَدْ يَسْئُرُونَ مِنَ الْآخِرَةِ» جملة في موضع الحال أى باياسهم من الآخرة، فان اليهود يياسون من ثواب الجنة على ما يقوله المسلمون من الأكل والشرب وغير ذلك من أنواع اللذات كما يئس من لم يؤمن بالبعث والنشور أصلاً «كَمَا يَسْئُرُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ» قال الحسن الذين يئسوا من الآخرة أى اليهود مع الإقامة على ما يغضب الله، كما يئس كفار العرب أن يرجع أهل القبور أبداً، وقيل هم أعداء المؤمنين من قريش قد يئسوا من خير الآخرة، كما يئس سائر الكفار من العرب من النشأة الثانية. وقيل «كَمَا يَسْئُرُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ»، من حظ الآخرة. وقيل: قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار من النشأة الثانية ذكره ابن عباس، وقال مجاهد: قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس منه أصحاب القبور، لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله.

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٩٠

٦١-سورة الصف..... ص: ٥٩٠

إشارة

مدنية بلا خلاف، و هي أربع عشرة آية بلا خلاف.

[سورة الصف (٦١): الآيات ١ الى ٥]..... ص: ٥٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)

خمس آيات قد مضى تفسير «سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» في أول الحشر، وقد مضى تفسيره في أول الحديد، و إنما أعيد- هاهنا- لأنه استفتاح السورة بتعظيم الله من جهة ما سبج له بالآية التي فيه، كما يستفتح بسم الله الرحمن الرحيم، و إذا جل المعنى في تعظيم الله حسن الاستفتاح به، لأن المقصد به حسب دلالة والفائدة في تعظيم ما ينبغي أن يستفتى به على جهة التعظيم لله، و التيمن بذكره. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٩١

وقوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ» قال الحسن: نزلت في المنافقين، يقول الله لهم «لِمَ تَقُولُونَ» بألستكم ما لا تفعلونه، فسماهم بالايمن على الظاهر. وقيل: نزلت في قوم كانوا يقولون إذا لقينا العدو لم نفر، و لم نرجع عنهم ثم لم يفوا بما قالوا، و قال قتادة: نزلت في قوم: قالوا: جاهدنا و أبلينا و لم يفعلوا.

وقال ابن عباس و مجاهد: نزلت في قوم قالوا: لو علمنا أحب الاعمال إلى الله لسارعنا إليها، فلما نزل فرض الجهاد ثاقلوا عنه، فبين الله ذلك. و قال قوم: هو جار مجرى قوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» (١) فان القول الذي يجب الوفاء به هو القول الذي يعتقد بفعل البر على طريق الوعد من غير طلب.

وقوله «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» إنما اطلق ذلك مع انه ليس كل قول يجب الوفاء به. لأنه معلوم انه لا عيب بترك الوفاء فيما ليس بواجب الوفاء به، و إن الذم إنما يستحق بترك ما هو واجب أو ما أوجبه الإنسان على نفسه بالنذر والعهد. و المقت البغض، و هو ضد الحب، و هو على ضربين: أحدهما- يصرف عنه العقل. و الآخر- يصرف عنه الطبع إلا انه جرى على صيغة واحدة للبيان أن صارف العقل في التأكيد كصارف الطبع، كما أنه في الحب على داعي العقل او داعي الطبع، و حذف الألف من «لم

تقولون» لشدة الاتصال، ووضع حرف الاعتلال، لأنه حرف تغيير في موضع تغيير.

وقوله «مقتاً» نصب على التمييز، وتقديره: كبر هذا القول أى عظم مقتاً عند الله، وهو أن تقولوا ما لا تفعلون. ويحتمل أن يكون تقديره كبر ان تقولوا ما لا تفعلون مقتاً عند الله.

قوله «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا» معناه إنه تعالى يحب

(١) سورة ٥ المائدة آية ١

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٩٢

من يقاتل في سبيله و يجاهد أعداء دينه و يزيد ثوابهم و منافعهم. و قوله «صَفًا» أى يقاتلونهم مصطفين، و هو مصدر فى موضع الحال. و قوله «كَانَتْهُمْ بُيُوتًا مَرْصُوصًا» قيل فى معناه قولان: أحدهما- كأنه بنى بالرصاص لتلاؤمه و لشدة اتصاله.

الثانى- كأنه حائط ممدود على رص البناء أى أحكامه و اتصاله و استقامته و المرصوص المتلائم الذى لا خلل فيه و مثل مرصوص شديد اللصوق فى الاتصال و الثبوت ثم قال للنبي صلى الله عليه و آله و أذكر «إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ» لأنه مع العلم بنبوته لا يجوز إيذاءه، و كانوا يؤذونه، فيقولون: هذا ساحر كذاب، و يرمونه بالبرص و غير ذلك. و قوله «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» فالزيع الذهاب عن الشيء باسراع فيه و الأظهر فيه الذهاب عن الحق، و المعنى إنهم لما ذهبوا عن طريق الحق، و مالوا إلى طريق الباطل «أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» بمعنى انه حكم عليها بالزيغ و الميل عن الحق، و لذلك قال «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» و معناه لا- يحكم لهم بالهداية. و قيل: معناه فلما زاغوا عن الايمان أزاع الله قلوبهم عن الثواب، و لا يجوز ان يكون المراد أزاع الله قلوبهم عن الايمان لأن الله لا يزيغ أحداً و لا يضلّه عن الايمان، و أيضاً فانه لا فائدة فى الكلام على ما قالوه، لأنهم إذا زاغوا عن الايمان فقد حصلوا كفاراً، فلا معنى لقوله أزاع الله

قوله تعالى: [سورة الصف (٦١): الآيات ٦ الى ٩]..... ص: ٥٩٢

وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٩٣

أربع آيات.

قرأ ابن كثير و حمزة و الكسائي و حفص عن عاصم و خلف «مُتِمُّ نُورِهِ» مضافاً. و قرأ الباقون «متم نوره» منصوباً. و القراءتان متقاربتان إلا أن اسم الفاعل إذا كان لما مضى لا يعمل، و لا يجوز إلا الاضافة، و إذا كان للحال و الاستقبال جاز فيه التنوين و الاضافة. يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله اذكر يا محمد «إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» لقومه الذين بعث اليهم «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا» نصب على الحال (لما بين يدي من التوراة) إنما سماه لما بين يديه و هو قد تقدمه و هو خلفه بمضيها لأنها متقدمة. و هو متوجه إليها بالأخذ بها، فلها جهتان: جهة المضى و جهة التقدم (و مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ) عطف على قوله (مُصَدِّقًا) و هو أيضاً نصب على الحال (يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) يعنى نبينا محمد صلى الله عليه و آله.

و قوله (اسْمُهُ أَحْمَدُ) فأحمد عبارة عن الشخص. و الاسم قول، و القول لا يكون الشخص. و خبر المبتدأ ينبغى ان يكون هو المبتدأ إذا

كان مفرداً. و الوجه فيه ان يقدر فيه (قول) فكأنه قال اسمه قول أحمد، كما تقول: الليلة الهلال، و انت التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٩٤

تريد الليلة طلوع الهلال فتحذف المضاف و تقيم المضاف اليه مقامه.

و قوله (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) قيل فيه قولان:

أحدهما- إن محمداً لما جاء كفار قومه بالبينات أى المعجزات، قالوا هذا سحر واضح بين.

و قال قوم: معناه فلما جاء عيسى قومه بالبينات و المعجزات قالوا له هذا القول. و من نسب الحق إلى السحر فقد جرى فى ذلك مجرى الجحد لنعم الله فى أنه قد كفر، فان كان دون ذلك كان جاهلاً و فاسقاً، لو لم يكفر. و السحر حيلة توهم امراً ليس له حقيقة كايهام انقلاب الحبل حية.

و قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ) صورته صورة الاستفهام و المراد به التبكيت. و معناه لا أحد أظلم لنفسه ممن افترى على الله الكذب و خرص عليه، و هو يدعى إلى الإسلام يعنى الاستسلام لأمره و الانقياد لطاعته، و هو متوجه إلى كفار قريش و سائر فى جميع الكفار.

ثم قال (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) و معناه لا يحكم بهدايه القوم الظالمين الذين هم الكفار. و قيل: معناه لا يهدى الكفار إلى الثواب، لأنهم كفار ظالمون لأنفسهم بفعل الكفر و المعاصى التى يستحق بها العقاب، و كل كافر ظالم لأنه أضر نفسه بفعل معصية استحق بها العقاب من الله تعالى، فكفره ضرر قبيح.

ثم وصف الكافرين الذين عناهم بالآية فقال (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ) و معناه إنهم يريدون إذهاب نور الإسلام و الايمان بفاسد الكلام الذى يجرى مجرى تراكم الظلام. و قيل: معناه هم كمن أراد إطفاء نور الشمس بفيه.

و قوله (وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) معناه إن الله يتم نور الإسلام و يبلغ غايته و إن كره ذلك الكفار الجاحدون لنعم الله. التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٩٥

ثم قال (هُوَ الَّذِي) يعنى الله الذى اخبر عنه بأنه يتم نوره (أَرْسَلَ رَسُولَهُ) يعنى محمد صلى الله عليه و آله (بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ) من التوحيد و إخلاص العبادة لله و دين الإسلام و ما تعبد فيه الخلق (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) بالحجج القاهرة و الدلائل الباهرة (وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ذلك. و فى الآية دلالة على صحة النبوة، لأنه تعالى قد أظهر دينه على الأديان كلها بالاستعلاء و القهر، كما وعد فى حال القلة و الضعف.

قوله تعالى: [سورة الصف (٦١): الآيات ١٠ الى ١٤]..... ص: ٥٩٥

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَ أُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

خمس آيات.

قرأ ابن عامر (تنجيكم من عذاب اليم) مشددة الجيم. الباقر بالتخفيف و قرأ ابن كثير و نافع و ابو عمرو و ابو جعفر (أنصاراً لله) منوناً. الباقر بالاضافة التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٩٦

لقولهم فى الجواب (نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) و قرأ نافع وحده (انصارى إلى الله) بفتح الياء. الباقر بإسكانها و هما جميعاً جيدان.

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله و اعترفوا بتوحيده و إخلاص عبادته و صدقوا رسوله (هَلْ أَدُلَّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ) صورته صورة العرض و المراد به الامر. و التجارة طلب الربح في شراء المتاع. و قيل لطلب الثواب بعمل الطاعة تجارة تشبيهاً بذلك، لما بينهما من المقاربة (تُنَجِّيْكُمْ) أى تخلصكم (مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) أى مؤلم، و هو عذاب النار. ثم فسر تلك التجارة فقال (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُولِهِ) أى تعترفون بتوحيد الله و تخلصون العبادة له و تصدقون رسوله فيما يؤديه إليكم عن الله. و إنما قال (تُؤْمِنُونَ) مع أنه قال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) لان ذلك جار مجرى قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا) «١» و قد بيناه فيما مضى «٢» (وَ تَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يعنى قتال أعدائه الكفار (بِأَمْوَالِكُمْ) فتنفقونها فى ذلك (وَ أَنْفُسِكُمْ) فتحاربون بنفوسكم. ثم قال (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ) أى ما ذكرته لكم و وصفته أنفع لكم و خير عاقبة إن علمتم ذلك و اعترفتم بصحته. و إنما قال (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ) مع أن تركه قبيح و معصية لله، لان المعنى ذلكم خير لكم من رفعه عنكم، لان ما أدى إلى الثواب خير من رفعه إلى نعيم ليس بثواب من الله تعالى. و التكليف خير من رفعه إلى الابتداء بالنعم لكل من عمل بموجبه، و قيل: إيمانكم بالله خير لكم من تضييعه بالمشتهى من أفعالكم (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) مضار الأشياء و منافعها و إنما جاز (تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) مع أنه محمول على التجارة و خبر عنها، و لا يصلح أن يقال التجارة تؤمنون. و إنما يقال التجارة أن تؤمنوا بالله، لأنه على طريق ما يدل على خبر التجارة لا على نفس الخبر إذ الفعل يدل على مصدره و انعقاده بالتجارة فى المعنى

(١) سورة ٤ النساء آية ١٣٩

(٢) انظر ٣/ ٣٠٧، ٣٥٩

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٩٧

لا- فى اللفظ. و فى ذلك توطئة لما بنى على المعنى من الإيجاز. و العرب تقول: هل لك فى خير تقدم إلى فلان، فتعوده و أن تقدم اليه.

و قوله (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) أى متى فعلتم ذلك ستر عليكم ذنوبكم، و جزمه لأنه جواب (تُؤْمِنُونَ) لأنه فى معنى آمنوا يغفر لكم. و قال الفراء: هو جواب (هل) و إنما جاز جزم (يغفر لكم) لأنه جواب الاستفهام. و المعنى هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم يعلمكم بها، فإنكم إن عملتم بها يغفر لكم ذنوبكم و كان ابو عمرو يدغم الراء فى اللام فى قوله (يغفر لكم) و لا يجوز ذلك عند الخليل و سيبويه، لان فى الراء تكرار، و لذلك غلبت المستعلى فى طارد. (وَ يُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) عطف على قوله (يغفر لكم) فلذلك جزمه (خالدين فيها) أى مؤبدين (وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً) أى و لهم فى الجنة مساكن طيبة مستلذة (فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ) أى فى بساتين إقامة مؤبدة. ثم قال (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) يعنى الذى وصفه من النعيم هو الفلاح العظيم الذى لا يوازيه نعمة. و قيل: الفوز النجاة من الهلاك الى النعيم.

و قوله (وَ أُخْرَىٰ تُجْزَوْنَهَا) معناه و لكم خصلة أخرى مع ثواب الآخرة (نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ) فى الدنيا عليهم (وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ) لبلادهم. ثم قال (وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) بذلك أى بما ذكرته من النعيم و النصر فى الدنيا و الفتح القريب.

ثم خاطب المؤمنين فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ) و معناه كونوا أنصار دين الله الذى هو الإسلام بأن تدفعوا أعداءه عنه و عن دينه الذى جاء به (كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ) أى مثلكم مثل قول عيسى للحواريين، و هم خاصته، وسمى خاصة الأنبياء حواريين، لأنهم أخلصوا من كل عيب- فى قول الزجاج- و قيل: سموا حواريين لبياض ثيابهم. و قال ابن عباس: كانوا صيادين

التبيان في تفسير القرآن، ج ٩، ص: ٥٩٨

للسمك. و قال الضحاك: كانوا غسالين.

و قوله (مَنْ أَنْصَارِ اللَّهِ) يعنى من أنصارى مع الله، و (الى) تكون بمعنى (مع) و مثله (وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ) «١» يعنى

مع أموالكم. وقيل سمي النصراني نصارى لقولهم (نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) وقيل: لأنهم كانوا من الناصرة و هي قرية في بلاد الروم، فأجابه الحواريون بأن قالوا (نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) وإنما قيل لهم (كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ) مع أن المراد به دين الله، تعظيماً للدين و تشريفاً له. كما يقال الكعبة بيت الله، و حمزة اسد الله، و ما أشبه ذلك (فَأَمَنْتُ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) يعنى صدقت بعيسى عليه السلام طائفة من بنى إسرائيل (وَكَفَرْتُ) به (طَائِفَةٌ) اخرى (فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ) أى قوينا المؤمنين على عدوهم (فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) أى غالبين لهم و قال ابراهيم: معناه أيد الذين آمنوا بعيسى بمحمد، فأصبحوا ظاهرين عليهم. و قال مجاهد: بل أيدوا فى زمانهم على من كفر بعيسى عليه السلام و قال بعضهم الم يكن من المسيح قتال. و التأويل أنهم أصبحوا ظاهرين على مخالفيهم بالحجة. و قال قوم: كانت الحرب بعد المسيح لما اختلف أصحابه اقتتلوا فظفر أهل الحق، و هذا ضعيف، لأنه لم يكن من دينهم بعده القتال. و قال ابن عباس قاتلوا ليلاً فأصبحوا ظاهرين.

(١) سورة النساء آية ٢

تم المجلد التاسع من التبيان و يليه المجلد العاشر و أوله أول سورة الجمعة طبع فى محرم الحرام سنة ١٣٨٣ هـ - حزيران سنة ١٩٦٣ م

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).
قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرِ الْبَحَار - فى تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رحمه الله" - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذى قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبى (صلوات الله عليهم) و لاسيما بحضرة الإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ و لهذا أسس مع نظره و درايته، فى سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفئ مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسايل الدينيّة، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدل أو الرديئة - فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعة ثقافته على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التى يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - فى آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - فى أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

- (ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول
- (ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الديتية، السياحية و...
- (د) إبداع الموقع الانترنتى " القائمية " www.Ghaemiyeh.com و عدة مواقع أخر
- (ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية
- (و) الإطلاع و الدّعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)
- (ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS
- (ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد جَمكران و...
- (ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسة " الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين فى الجلسة
- (ى) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السّنة
- المكتب الرئيسى: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد / " ما بين شارع " پنج رمضان " و مُفترق " وفائى / " بناءً القائمية "
- تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)
- رقم التسجيل: ٢٣٧٣
- الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦
- الموقع: www.ghaemiyeh.com
- البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com
- المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com
- الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)
- الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)
- مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)
- التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩
- امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)
- ملاحظة هامة:
- الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبية، تبرعية، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافى الحجم المتزايد و المتسع للامور الديتية و العلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكلّ توفيقاً متزائداً لإعانتهم - فى حدّ التمكن لكلّ احد منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولى التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان



للحصول على المكتبات الخاصة الأخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للإيحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩